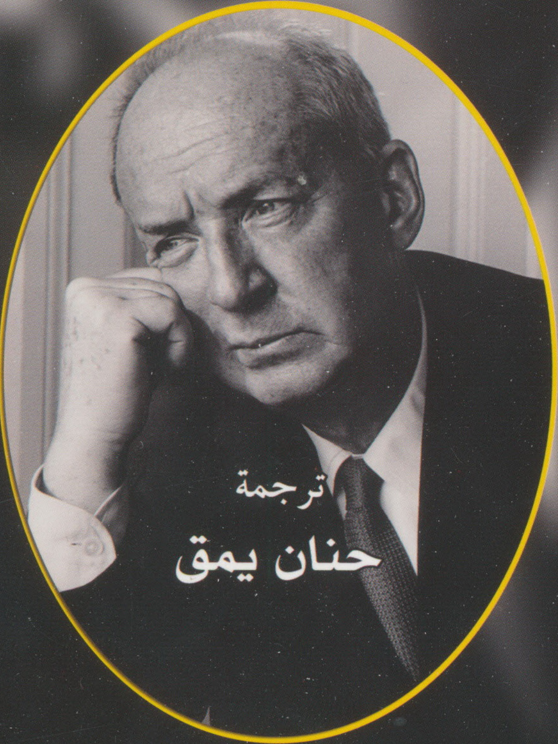
فلاديمير نابوكوف

تكلمي أيتها الذكريات

سيرة ذاتية مراجَعة



ترجمة
حنان يمق

منشورات الجمل

فلاديمير نابوكوف

تكلمي أيتها الذكريات

سيرة ذاتية مراجَعة

ترجمة

حنان يمق

منشورات الجمل

فلاديمير نابوكوف: تكلمي أيتها الذكريات

ولد «**فلاديمير نابوكوف**» في «سانت بطرسبرغ»، في ٢٣ أبريل ١٨٩٩. فرّت عائلته إلى شبه جزيرة القرم عند نشوب الثورة البلشفيّة، ثم لجأت للمنفى في البدان الأوروبيّة. درس «نابوكوف» في كلية «Trinity»، جامعة «كامبريدج»، وحصل على ديبلوم جامعيّ في الأدب الفرنسيّ والروسيّ عام ١٩٢٢، ثم عاش في برلين وباريس خلال العقدين اللاحقين، اللذين كانا مرحلة للكتابة المكثّفة، وخاصة باللغة الروسيّة، تحت اسم مستعار «سيرين». انتقل عام ١٩٤٠ إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، حيث تابع مهنته الأدبيّة الرائعة (كشاعر، روائيّ، كاتب مذكّرات، ناقد ومترجم) وذلك أثناء تدريسه للأدب الروسيّ والتأليف الإبداعيّ، في جامعات «ستانفورد»، «ويلزلي»، «كورنيل» و«هارفرد». النجاح البارز الذي أحرزته روايته «لوليتا» (١٩٥٥) مكّنته من التخلّي عن مهنة التدريس وتكريس نفسه للكتابة. انتقل عام ١٩٦١ إلى «مونترو ـ سويسرا»، حيث توفيّ هناك عام ١٩٧٧. اعتُرف به على أنه عميد الأساليب النثرية الرفيعة في القرن العشرين، وباللغتيْن، الروسيّة والإنكليزيّة، وقد قام بنفسه بترجمة عدد من أعماله المكتوبة بالإنكليزيّة ـ لوليتا ضمناً ـ إلى الإنكليزيّة، كما ساهم في ترجمة أعماله الروسيّة، إلى الإنكليزيّة.

فلاديمير نابوكوف: تكلمي أيتها الذكريات، سيرة ذاتية مراجَعة، ترجمة: حنان يمق

الطبعة الأولى ٢٠١٨

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٨

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Vladimir Nabokov: Speak, Memory

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى فيرا[1]

(١) فيرا: اسم عزبة القرية التي قضى الكاتب فيها طفولته، وهو أيضاً اسم زوجته التي يتوجّه إليها بالإهداء. تطالعنا بعض الجمل الخطابية خال قراءتنا لهذه السيرة الذاتيّة، تكون الزوجة هي المقصودة بها (أنا وأنتِ).

المقدمة

يجمع هذا العمل بمنهجية مترابطة، مذكّرات شخصيّة جرت أحداثها ما بين «سانت بطرسبرغ» و«سانت نازير»، وتغطّي زمنيّاً سبعاً وثلاثين عاماً، ممتدّاً بين أغسطس ١٩٠٣ ومايو ١٩٤٠، مع بعض خروقات قليلة للزّمن اللاّحق. المقال الذي ابتدأ السلسلة يتطابق مع ما عليه الآن الفصل الخامس. كتبته في «فرنسا»، تحت عنوان «الآنسة O»، وكان ذلك قبل ثلاثين عاماً في «باريس»، حين نشرها «جان بولان»[(١)] في الإصدار الثاني من صحيفة «Mesures»، ١٩٣٦. نُشرت صورة مؤخراً (من مجموعة «جيزيل فروند»[(٢)] ـ «جيمس جويس[(٣)] في باريس») تحيي هذا الحدث، غير أن التعريف عني (بين فريق عمل «Mesures» أثناء استرخائهم حول طاولة حجرية في الحديقة) كان خطأً، فقد كُتب تحت صورتي «أوديبرتي»[(٤)].

حين هاجرت إلى أمريكا في مايو ١٩٤٠، كانت الراحلة «هيلدا

---

(١) جان بولان: ١٨٨٤ ـ ١٩٦٨. كاتب وناقد أدبي وناشر فرنسي.

(٢) جيزيل فروند: ١٩٠٨ ـ ٢٠٠٠. صحافية ومصورة ألمانية فرنسية تعتبر من أهم الموثقين الفوتوغرافيين في القرن العشرين. وثائقها معروضة في المتحف الوطني للفن الحديث في باريس.

(٣) جيمس جويس: ١٨٨٢ ـ ١٩٤١. روائي، قاص وشاعر إيرلندي.

(٤) أوديبرتي: ١٨٩٩ ـ ١٩٦٥. مسرحي، صحافي وشاعر فرنسي.

وورد»[1] قد ترجمت مقال «الآنسة O» للإنكليزية، وبعد أن راجعتُه قام «إدوارد ويكس»[2] بنشره في مجلة «Atlantic» الشهرية، ضمن إصدار يناير١٩٤٣ (والتي كانت أيضاً أول مجلة تنشر قصصي المكتوبة في أمريكا). أما مشاركتي مع مجلة «Newyorker» (من خلال «إدموند ويلسون»[3]) فقد بدأت بقصيدة قصيرة في أبريل ١٩٤٢، تبعتها قصائد قصيرة؛ ولكن تأليفي النثريّ لم يظهر في المجلة إلا فيما نُشر في الثالث من يناير ١٩٤٨ بعنوان: «صورة عمي» (الفصل الثالث من كامل العمل)، وقد كتبته في يونيو ١٩٤٧ في منتجع «كولومبين لودج، ايستس بارك، كولورادو» حيث زوجتي، طفلي، وأنا لم نستطع البقاء لمدة أطول إذ لم تعجب «هارولد روس»[4] مطاردتي لشبح الماضي من حياتي. وقد نشرتْ المجلة ذاتها الفصل الرابع («تعليمي الإنكليزي» ٢٧ مارس ١٩٤٨)، الفصل السادس («الفراشات» ١٢ يونيو ١٩٤٨)، الفصل السابع («كوليت»، ٣١ يوليو ١٩٤٨)، والفصل التاسع («تعليمي الروسي»، ١٨ سبتمبر ١٩٤٨)، وكلها قد كُتبت في «كامبريدج - ماساتشوستس»، تحت ضغط ذهنيَ وجسديَ هائلين، وكذلك بالنسبة للفصل العاشر («رفع الستار»، ١ يناير ١٩٤٩)، الفصل الثاني («صورة أمي»، ٩ أبريل ١٩٤٩)، الفصل الثاني عشر («تامارا»، ١٠ ديسمبر ١٩٤٩)، الفصل الثامن («شرائح المصباح»، ١١ فبراير ١٩٥٠؛ وورد فيه سؤال ه.ر[5] الدائم: «أين هم آل «نابوكوف»، عائلة كسارة البندق

(١) هيلدا وورد: ١٨٧٨ ـ ١٩٥٠. كاتبة وفنانة تشكيلية أمريكية.
(٢) إدوارد ويكس: ١٨٨٩ ـ ١٩٩٨. كاتب أمريكي ورئيس تحرير مجلة أتلانتيك الشهرية لمدة ٢٨ عاماً.
(٣) إدموند ويلسون: ١٨٩٥ ـ ١٩٧٢. كاتب وناقد امريكي.
(٤) هارولد روس: ١٨٩٢ ـ ١٩٥١. أحد مؤسسي مجلة نيويوركر وكان آنذاك رئيس تحريرها.
(٥) ه. ر: اختصار هارولد روس.

تلك؟»)، الفصل الأول («الماضي المثاليّ»، ١٥ أبريل ١٩٥٠)، والفصل الخامس عشر («حدائق ومنتزهات»، ١٧ يونيو ١٩٥٠)، وكلّهم قد كُتبوا في مدينة «إيثاكا ـ نيويورك».

أما الفصول الثلاث المتبقيّة، فقد ظهر الحادي عشر والرابع عشر منها في مجلة «Parisien review» («القصيدة الأولى» سبتمبر ١٩٤٩، و«منفى»، يناير ـ فبراير ١٩٥١)، بينما نُشر الفصل الثالث عشر في مجلة «Harber» («مساكن ترينتي لاين»[1]، يناير ١٩٥١).

أعيدَ نشرُ نسخة إنكليزيّة من «الآنسة O» ضمن تسع قصص (دار «New Directions» ١٩٤٧)، و«دزينة نابوكوف» («Doubleday» ١٩٥٨، «Heinemann» ١٩٥٩، «Popular Library» ١٩٥٩، «Penguin Books» ١٩٦٠)؛ وقد ضمّنتُ المجموعة الأخيرة، قصةَ «الحب الأول»، والتي فُتن بها الأنطولوجيون.

على الرغم من أنني قد ألّفت هذه الفصول بتسلسل عشوائيّ كما يظهر في تواريخ النشر الأولى المذكورة أعلاه، إلا أنها كانت تملأ بدقة الفراغات المرقّمة في ذهني والتي تبعثُ ترتيب الفصول الحاليّ. اعتُمد هذا الترتيب للمرّة الأولى عام ١٩٣٦، عندما وضعت حجر الزاوية والذي كان يحمل في غوره الخبيء خرائط متنوعة، جداول زمنيّة، مجموعة من علب الثقاب، كسرة زجاج من كأس ياقوتيّ، وحتى ـ كما أدرك الآن ـ إطلالة شرفتي عند وقت الشاي على بحيرة «جنيف»، بتموجاتها وفسحاتها المضيئة، والتي تسودها اليوم بقعاً مظلمة، وبمنظر طيور الغرّة والبطّ ذوي القنبرة. ولذلك لم يكن لديّ مشكلة في جمع

(١) ترينتي لاين: اسن شارع في وسط كامبريدج ـ إنكلترا.

مجلّد قامت بنشره دار «Harper & Bros» في «نيويورك» عام ١٩٥١، تحت عنوان «دليل قاطع»، دليل قاطع على وجودي. ولسوء الحظ، فقد أوحتْ العبارة بقصة لغز، لذا قررت أن أطلق على الإصدار البريطاني «منيموساين حين تتكلم»[(١)]، ولكنهم قالوا لي: «لن تطلب السيدات المسنّات كتاباً لا يستطعن تهجئة عنوانه». كذلك تحمست لـ«أنثميون» وهي زهور زينة من فصيلة العسلة، تتشابك بدقة عند القاعدة ثم تمتد منفصلة، ولكن لم يعجب هذا العنوان أحداً؛ فتوصّلنا أخيراً لـ«الذاكرة حين تتكلم» (دار «Gollancz» ١٩٥١، و«The Universal Library نيويورك»، ١٩٦٠). وتُرجم الكتاب للروسية من قِبل الكاتب «دروجي بيريغا»، («The Chekhov Publishing House نيويورك» ١٩٥٤)، وترجمته للفرنسية «إيفون دافيت»[(٢)] («شواطئ أخرى»، دار «Gallimard» ١٩٦٤)، وترجمه للإيطالية «برونو أوديرا»[(٣)] («بارلا ريكوردو» دار «Mondadori» ١٩٦٢)، وترجمه للإسبانية «جام بينيرو غونزاليس» («هابلا ميموريا» ١٩٦٣)، وترجمه للألمانية «ديتر إ. زيمر»[(٤)] (دار «Rowohlt» ١٩٦٤). كل ذلك قد استنزف الكمّ اللازم من المراجع، التي أثارت النقّاد، فقد سبق أن أزعجتهم الحاشية في نهاية «دزينة نابوكوف»، ولكنهم، كما آمل، سيكونون مأخوذين ببداية العمل الحالي، ويقبلون بها.

أثناء كتابة النسخة الأولى في أمريكا، كان يعوقني نقصٌ شبه كامل

---

(١) منيموساين: آلهة الذاكرة عند الإغريق.
(٢) إيفون دافيت: ١٩٠٦ ـ ٢٠٠٧. كاتبة ومترجمة فرنسية.
(٣) برونو أوديرا: ١٩١٧ ـ ١٩٨٨. كاتب ومترجم إيطالي.
(٤) ديتر. إ. زيمر: كاتب، صحافي ومترجم ألماني ١٩٣٤.

في البيانات العائدة لتاريخ العائلة، لذا، كان العائق الثاني استحالة التدقيق في ذاكرتي أوان رحيلنا عن روسيا فقد تكون مخطئة. أما الآن فقد أسهبتُ في سيرة أبي الذاتية، وراجعتها. وقد تمّت مراجعات وإضافات عدّة، خاصة في الفصول الأولى. كما تمّ فتح بعض الأقواس التي كانت مغلقة والسماح لها بتحرير ما سكن من محتواها. إضافة إلى بعض المواضيع الوهميّة التي كنت قد اخترتها بشكل عشوائي في سياق ذكر حدث هام، وبقيتْ تزعجني في كل مرة كنت أعيد قراءة المقطع بغاية تصحيح البراهين في إصدارات عدّة، إلى أن بذلتُ في النهاية جهداً عظيماً، لأستعيد كل المشاهد الاعتباطيّة (التي لا بدّ أن «منيموساين» كانت تطالبني بها أكثر من أي شخص آخر) وأعيدَ تنميقها داخل علبة سجائر صدفيّة، تلمع عند ساق شجرة حور رطب في «شومين دو بوندو»[1]، حيث وجدت ذات يوم من تموز عام ١٩٠٧ عثّة تُعتبر حتى يومنا هذا نادرة التواجد في الغرب، إذ ـ وحيث ـ قبل ربع قرن، اصطاد والدي فراشة طاووس نادرة جداً في غاباتنا الشمالية.

في صيف ١٩٥٣، بالقرب من مزرعة في «بورتال ـ أريزونا»، داخل منزل مستأجر في «آشلاند ـ آريغون»، وفي مختلف النزُل في الغرب والغرب الأوسط، تدبّرت أمري، بين مطاردة الفراشات وكتابة روايتيّ «لوليتا» و«بينين»، وبين ترجمة «الذاكرة حين تتكلم» إلى الروسية بمساعدة زوجتي. وبسبب ما كابدته نفسياً جرّاء إعادة الموضوع المكتوب في رواية «الهدية»، قمت بحذف فصلٍ كاملٍ (الحادي عشر). من ناحية أخرى نقّحت مقاطع عدّة وحاولت أن أرمّم فجوات الذاكرة وأصلح الخلل الموجود في الزوايا الضبابية والمعتمة. اكتشفت أننا أحياناً، حين

(١) شومين دو بيردو: الموقع مرسوم على الخارطة.

نتعمّد تكثيف تركيزنا، فإننا نجبر ذاكرتنا المشوشة أن تصبح واضحة وجميلة وتعرّفنا عن نفسها بشكل يفاجئنا، فنعطي تسميات لكلّ ما كان مجهولاً. بالنسبة لهذه النسخة الحالية، والأخيرة، لـ«الذاكرة حين تتكلم»، لم أُدخل تغييرات أساسية وإضافات وفيرة إلى النص الإنكليزيّ الأصليّ وحسب، بل استفدت من التصويبات التي قمت بها أثناء ترجمته للروسيّة. هذه الإعادة الإنكليزيّة للترجمة الروسيّة عن نسخة إنكليزية تروي ذكريات هي بالأصل روسيّة، تبيّنَ أنها مهمة شيطانيَة، ولكنّي وجدت بعض عزائي في مجرد التفكير أن هذه التحولات العديدة، هي مألوفة لدى الفراشات، ولكن لم يجرؤ على خوضها إنسان من قبل.

أثناء شطحات ذاكرتي، الذاكرة التي ما كان ينبغي أبداً لصاحبها وضحيتها في آن واحد أن يحاول كتابة سيرة ذاتية، كان أسوأ ما قمتُ به هو رغبتي باستعادة أحداث عمري وربطها بعمر هذا القرن، مما أدى إلى أخطاء فادحة وملحوظة فيما يخصّ الترتيب الزمنيّ ضمن النسخة الأولى من هذا الكتاب. فمثلاً أنا مولود في أبريل ١٨٩٩، ومن الطبيعي، خلال الثلث الأول، لنقل، من عام ١٩٠٣، أنا أكون بالكاد قد أتممت الثالثة؛ ولكن في أغسطس من ذاك العام، فإن عمر ذاك «الذكيّ ذو الثالثة» (كما جاء الوصف في فصل» الماضي المثالي»)، قد كشف لي أنه كان يتوجب عليّ أن أربطه بعمر الزمن وليس بعمري، والذي كان حينها واضحاً وجليّاً أنه أربع سنوات. وكذلك، في بدايات صيف ١٩٠٦ ـ الصيف الذي بدأتُ فيه بجمع الفراشات ـ فإن عمري كان سبعة أعوام وليس ستة، كما ورد في بداية الفقرة الثانية الكارثيّة من الفصل السادس. يبدو أن «منيموساين»، وعلينا أن نعترف، قد أثبتت أنها فتاة مستهترة جداً.

وُضعت كل التواريخ بالتقويم الجديد[1]: بقينا في القرن التاسع عشر متخلّفين اثني عشر يوماً عن باقي العالم المتحضّر، وثلاثة عشر يوماً في بداية القرن العشرين. فحسب التقويم القديم أكون مولوداً في العاشر من أبريل، فجراً، في السنة الأخيرة من القرن المنصرم، ولكان هذا (لو قدّر لي حينها أن أولد خارج الحدود) ٢٢ أبريل، في ألمانيا، على سبيل المثال؛ ولكن بما أن كل أعياد ميلادي قد تمّ الاحتفال بها، بأقل مظاهر الأبّهة، في القرن العشرين، فإنني، كما الجميع، وبعد ثورة التغيير والانتقال من التقويم اليولياني إلى التقويم الغريغوري، أضفت ثلاثة عشر يوماً بدل اثني عشر إلى العاشر من أبريل. وهذا خطأ كبير. ما الذي يتوجب فعله؟ ٢٣ أبريل هو المسجّل تحت تاريخ الميلاد في جواز سفري الأخير، وهو أيضاً تاريخ ميلاد «شكسبير»، نسيبي «فلاديمير سيكورسكي»، «شيرلي تامبل»[2] و«هازل براون» (الذي، علاوة على ذلك، كان يشاركني جواز سفري). هذه إذاً هي المشكلة. والحسابات غير المتوافقة تلك تمنعني من حلّها.

حين أبحرتُ للمرة الثانية نحو أوروبا بعد غياب دام عشرين عاماً، جدّدت كل العلاقات التي كنت قد أهملتها حتى قبل مغادرتي. أثناء لمّ شمل العائلة ذاك، حاكمت «الذاكرة حين تتكلم». تحقّقت من كل التفاصيل الزمنيّة والظرفيّة، واكتشفت أني قد أخطأت في الكثير من الوقائع، أو أني لم أمعن التدقيق في عمق ذاكرة غامضة ولكنها مفهومة.

(١) التقويم الجديد: ويُقصد به الغريغوري أو الميلادي إذ كانت روسيا تتبع التاريخ اليولياني حتى فبراير ١٩١٨ بينما سبقتها إلى ذلك بعض الدول الأوروبية بمئات السنين. والفارق بين التقويمين كما هو معروف ١٣ يوماً.

(٢) شيرلي تيمبل: ١٩٢٨ ـ ٢٠١٤. ممثلة أمريكية.

وقد نبذ من أستشيرهم بعض المسائل، كما تُنبذ الأساطير أو الإشاعات، إلا في حال تم التحقق من صحة ارتباطها بأحداث وأزمنة غير تلك التي كانت مرفقة مع سرد الذاكرة الضعيف. أعطاني ابن عمي «سيرجي سيرجيفيتش نابوكوف» معلومات عن تاريخ عائلتنا لا تُقدّر بثمن. غضبت كلّ من شقيقتي واحتجتا على وصفي لرحلتنا إلى «بياريتز»[١] (بداية الفصل السابع)، وحين زوّدتاني بتفاصيل محدّدة أقنعتاني بعدم تصويبي حين تركتهما ورائي (مع العمات والممرّضات!). كل ما لم أستطع أن أراه بوضوح من جديد لأنه يحتاج لوثائق محدّدة، فضّلت حاليّاً أن أحذفه لصالح الحقيقة التي تأتي فوق كل اعتبار. من ناحية أخرى، فإن العديد من الحقائق المرتبطة بالأجداد وشخصيات أخرى قد رأت النور وأُدرجت ضمن هذه النسخة النهائية من «الذاكرة حين تتكلم». أتمنى أن أكتب يوماً ما «الذاكرة حين تتكلم» بتغطيةً للسنوات ما بين ١٩٤٠ ـ ٦٠ التي قضيتها في أمريكا: بعض الأبخرة المتطايرة والمعادن المذابة، لاتزال تصهر ذاكرتي وتعيد تشكيلها.

سيجد القارئ في العمل الحالي إشارات متفرقة إلى رواياتي، لكني شعرت أن عناء كتابتها قد استوفى كفايته، وأنها يجب أن تبقى في المعدة الأولى[٢]. مقدّماتي الأخيرة للترجمات الإنكليزية لـ «دفاع لوزين» ١٩٣٠ («Putnam»[٣] ١٩٦٤)، «اليأس» ١٩٣٦ («Putnam» ١٩٦٦)، «دعوة للإعدام» ١٩٣٨ («Putnam» ١٩٥٩)، «الهدية» ١٩٥٢، نشرت في حلقات ١٩٣٧ ـ ٣٨ («Putnam» ١٩٦٣)، «العين» ١٩٣٨ («Phaedra»[٤]

---

(١) بياريتز: مدينة فرنسية ساحلية.

(٢) المعدة الأولى: القسم الأول من أربعة أقسام معدة الحيوانات المجترة حيث يبقى الطعام منتظراً إعادة اجتراره.

(٣) بوتنام: دار نشر أمريكية.

١٩٦٥)، فيها ما يكفي من التفاصيل المفعمة بالحياة، للمرحلة الإبداعية من ماضي حياتي في أوروبا. أما بالنسبة لمن يرغب بالحصول على قائمة كاملة لمنشوراتي، فهناك المراجع التفصيليّة التي أعدّها «ديتر.إي. زيمر» (فالديمير نابوكوف ـ فهرس الأعمال الكاملة، («Rowohlt»)، الإصدار الأول ديسمبر ١٩٦٣، الإصدار الثاني المُراجَع مايو ١٩٦٤).

أُعيد نشر لعبة الحركتين التي تم وصفها في الفصل الأخير ضمن كتاب «مسائل شطرنجية»، بواسطة «ليبتون»، «ماثيو» و«رايس» (دار «Faber»، «لندن» ١٩٦٣، ص.٢٥٢). غير أن أكثر إبداعاتي تسليةً كان مسألة «حركة التراجع الأبيض»، التي أهديتها لـ «إي. آ. زنوسكو بوروفسكي»[١] الذي نشرها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر (ربما ١٩٣٤)، في صحيفة المهجر اليومية «*Poslednie Novosti* ـ باريس»، لا أذكر تفاصيل المسألة تماماً لأشير إليها هنا، ولكن يوماً ما قد يقوم بعض محبّي «الشطرنج الخرافية»[٢] (الذين تخصّهم تلك المسألة) بالبحث في بعض المكتبات المختصّة بتصوير الصحف القديمة، مثلما يُفترض بنا أن نصوّر ذواكرنا. لم تكن قراءة المراجعين للنسخة الأولى من هذا الكتاب دقيقة بالقدر الذي ستكون عليه هذه المرة: أحدهم فقط انتبه لـ «حماقات» فرويد في الفقرة الأولى من القسم الثاني، الفصل الثامن، بينما لم يكتشف أحدٌ اسم أحد أهم رسامي الكاريكاتير والاثناء عليه في الجملة الأخيرة من القسم الثاني، الفصل الحادي عشر. من المحرج جداً أن يضطر الكاتب بذاته أن يشير لأمور كهذه.

لتفادي إلحاق الأذى بالأحياء أو إزعاج الموتى، تمّ تغيير بعض

(١) فايدرا: دار نشر أمريكية.

(٢) آ. زنوسكو بوروفسكي: ١٨٨٤ ـ ١٩٤٥ لاعب شطرنج روسي.

(٣) الشطرنج الخرافية: مصطلح لنمط لعبة شطرنج خارجة عن القواعد المعروفة.

الأسماء، وقد وُضعت بين مزدوجين في الفهرس. والغرض من ذلك أن أكون مرتاحاً عند ذكر أشخاص وأحداث مرتبطة بهم. تلك الأسماء قد تزعج العوام، ولكن بالنسبة للمتبصرين، فإن من خلال نافذة الفهرس ذاك

قد تعربش وردة

أو تصل ريح خفيفة

من عواصف «بونتوس»[1].

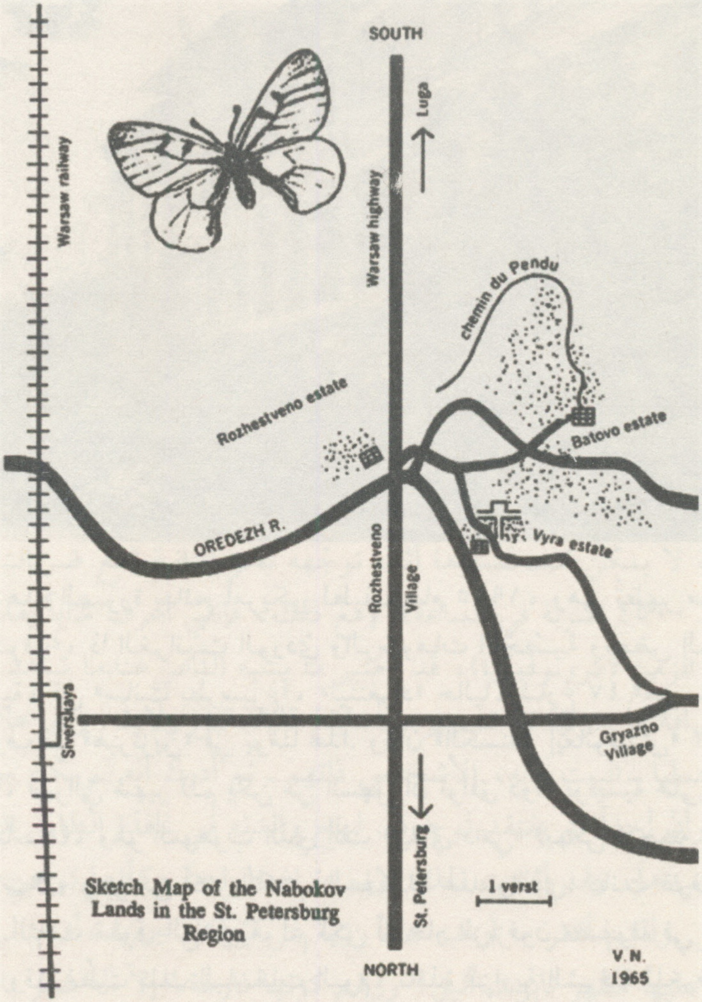
«فلاديمير نابوكوف»

٥ يناير ١٩٦٦

«مونترو»

---

(١) بونتوس: بونتوس بالإغريقية يعني البحر، وهو في الميثولوجيا الإغريقية إله بحري وابن غايا (الأرض).



هذه خريطة للأراضي الخاصة بآل نابوكوف في سانت بطرسبرغ.



التقط هذه الصورة سائح أمريكي لطيف عام ١٩٥٥، وهي تُظهر منزل آل «نابوكوف»، ذا الغرانيت الورديّ والرسومات الجصّية وبعض الزخرفة الإيطالية، في «سانت بطرسبرغ»، «ليننغراد» حالياً، شارع ٤٧ «مورسكايا»، المعروف ب «هيرتزين» في يومنا هذا. وكان «ألكسندر إيفانوفيتش» ١٨١٢ ـ ١٨٧٠، ليبراليّ شهير (لم يكن من السهل أن توافق دولة بوليسيّة على تسمية شارع باسمه)، وهو الموهوب الذي ألّف «بيلاي دامي» (يمكن ترجمته بـ«ماضٍ وتأملات»)، وهو من أكثر الكتب المفضّلة عند والدي. كانت غرفتي في الطابق الثالث، فوق المشربيّة. لم تكن أشجار الزيزفون مصفوفة في الشارع آنذاك. وقد غطّت تلك الباسقات اليوم، نافذة الزاوية الشرقيّة للغرفة التي وُلدت فيها، في الطابق الثاني. أقامت بعثة دانماركية في المنزل بعد تأميمه، ثم تحوّل إلى مدرسة للعمارة. السيارة الصغيرة المركونة إلى جانب الرصيف، تخص المصوّر، على الغالب.

الفصل الأول

١

تأمّلُ هاويةٍ من فوق مهد صخور، يدفعُ حسّنا السليم للتّيقن من أن وجودنا ليس إلاّ شرخاً صغيراً يتسلّل منه الضوء، بين أبديّتين مظلمتين. رغم تشابه الاثنتيْن، فإن الإنسان، عادةً ما ينظر إلى ظلمة ما قبل خلقه بسكينة لا يمكن استحضارها أثناء توجّهه نحو الثانية (مع ضربات قلب تصل لـ ٤٥٠٠ ضربةٍ في الساعة). ومع ذلك، فإنني أعرف شاباً يعاني من رهاب الزمن (كرونوفوبيا)، قد اختبر ما يشبه الذُعر عندما شاهد للمرة الأولى أفلاماً منزليّة تمّ تصويرها أسابيعَ قليلة قبل ولادته. رأى عالماً لم يتغير عملياً ـ البيت ذاته، الأشخاص ذاتهم ـ ثم أدرك أنّه لم يكن موجوداً هناك وأنّ أحداً لم يفتقد لوجوده. لمح والدته في نافذة الطابق العلويّ تلوح بيدها، وقد أثارت تلك الإيماءة اضطرابه، وكأنها توحي بوداع غامض. ولكن أكثر ما أرعبه كان رؤية عربة طفل جديدة أمام الرواق، يغلب عليها مظهر تابوت أنيق؛ ورغم كونها فارغة، إلاّ أنّه شعر بالمسار العكسيّ للأحداث، كما لو أنّ عظامه قد تفتّتت.

قد لا تكون خيالات كتلك غريبة في أعمارنا الفتيّة، أو بمعنى آخر، إننا أولاً وآخراً، غالباً ما ننظر للأمور بعينِ مراهقة، إلاّ إذا تمّ توجهيها دينيّاً، وبصرامة. تحتاج الطبيعة إنساناً بكامل نضجه ليتقبّل فكرة الفراغيْن

المظلميْن، ما قبل وما بعد، تماماً كما يتقبّل رؤيته لما هو خارج عن المألوف بينهما. لنستمتع بالحياة، علينا أن لا نستمتع بها كثيراً.

أنا متمرد على هذا العبث. أشعر بضرورة إظهار تمردي وعصيان الطبيعة. بذلتُ مراراً وتكراراً جهوداً ذهنية هائلة لأميّز وميضاً خافتاً يخصّني في عتمة لا تخصّني لكنها تحيط بطرفيْ حياتي. هذه العتمة التي خلقتْها مجرّد جدران زمنية حالت بيني، بيديّ المدمّيتيْن، وبين عالم الأبدية الحرّ، هي الاعتقاد الذي يسعدني أن أشاركه مع أكثر البشر بدائية. رحلتُ بفكري إلى الوراء ـ ما إن ذهبت إليه حتى بدأ يضيق تدريجياً بشكل ميؤوس منه ـ نحو مناطق نائية حيث بحثتُ عن بعض المخارج السريّة، واكتشفت أن سجن الزمن هو كرويّ ومن دون مخارج. باستثناء الانتحار، جرّبت كلّ شيء. تخلّيت عن هويتي لأصير شبحاً عادياً قادراً على الانسلال في عوالم كانت متواجدة قبل وجودي في رحم امرأة. بقي ذهني يفكر مطوّلاً بادّعاءات العقداء المتقاعدين على لسان روائيي العصر الفيكتوريّ، الذين يتذكرون كيف كانوا، في حيواتهم السابقة، رسلاً من عبيد الرومان، أو حكماء تحت صفصاف «لاسا». نقّبت في كل أحلامي القديمة بحثاً عن مفاتيح وقرائن، ودعوني أخبركم الآن أني نبذت عالم «فرويد» المبتذل والبالي، والعائد للقرون الوسطى، كما نبذتُ هوسه بالبحث عن الرموز الجنسية (كمن يبحث عن قصيدة مقفاة لـ«بيكون»(١) بين أعمال «شكسبير»)، كما رفضت فكرة تجسّس الأجنّة، من مواقعهم المعزولة، على الحياة العاطفية لذويهم.

لم أدرك في البداية أن الزمن، الذي نعتقده بتفكّرنا الأول غير محدود، ما هو إلا سجن. خلال سبري لطفولتي (وهي تأتي في المقام

---

(١) بيكون: والمقصود به فرانسيس بيكون الذي كان لفترة مثار شك في أن يكون هو الكاتب الحقيقي الذي تُنسب إليه أعمال شكسبير.

الثاني بين أولويات سبر كائن ما لسرمديته) أرى صحوة وعيي كسلسلة ومضات متباعدة، تتضاءل الفواصل الزمنية بينها تدريجياً لتصير كتلَ إدراك مشرقة، تنزلق أحياناً من الذاكرة. تعلّمت الكلام والأرقام في الفترة الزمنيّة ذاتها تقريباً وفي عمر مبكّر جداً، ولكن معرفتي الداخليّة بأنني أكون أنا، وأن أهلي هم أهلي، تبدو وكأني قد أدركتها لاحقاً، عندما ارتبطتْ مباشرة باكتشافي لعمر أهلي ومقارنته بعمري. كلما فكّرت بتلك المكاشفات، أذكر أشعة الشمس القوية حينها، فتحتلّ ذاكرتي مباشرة ذرّات ضوئها المتناثرة فوق أنماط متداخلة من المساحات الخضراء، قد تكون تلك المناسبة عيد ميلاد أمي، في أواخر الصيف، في الريف، وعندها طرحتُ أسئلتي وقيّمتُ الأجوبة التي تلقّيتها. يبدو كل ذلك مرتبطاً بنظرية التلخيص؛ لا بدّ أن بدء الوعي الانعكاسي في دماغ أقدم أجدادنا، قد بزغ تزامناً مع إدراكه لمفهوم الزمن.

وهكذا، فإني عندما اكتشفت الصيغة الجديدة والمرتبة لعمري، والذي كان أربعة أعوام، ووضعتها في مواجهة صيغة أعمار والديّ، «ثلاث وثلاثين» و«سبع وعشرين»، فإن شيئاً ما قد حدث داخلي. تلقيّت صدمة تنشيط هائلة. كما لو أني خضعت لتعميد ثانٍ، إذ أبصرت للمرة الثانية معموديتي ومعاناة التغطيس اليوناني الكاثوليكيّ[1] التي خضتُها بالبكاء والصراخ قبل خمسين شهراً، نصف جسدي غارق في الماء والنصف الآخر فيكتوري[2] (استطاعت أمي من وراء الباب نصف المغلق، وكانت الطقوس القديمة تمنع الأهل من الاقتراب، أن تضبط رئيس الكهنة الذي لم يكن متقناً لمهامه، الأب «قسطنطين فيتفينيتسكي») وشعرت فجأةً أني أغرق في وسطٍ مشعّ ومتحرك، إنه عنصر الزمن النقي

(١) التغطيس اليوناني الكاثوليكي: ويقصد به المعمودية تبعاً للكنيسة الشرقية.
(٢) فيكتوري: المقصود القديس فيكتور الأول.

ليس إلاّ. شاركني فيه (كما يتشارك السباحون المتحمسون مياه البحر المتلألئة) كائنات لم تكن ذاتها بل تلك التي يجمعها تدفّق زمن مشترك، إنها بيئة مختلفة تماماً عن عالمنا المكانيّ، ليس الإنسان وحده من يشعر بها، بل حتى الفراشات والقرود. عندها فقط أدركتُ أن المرأة ذات السبعة وعشرين عاماً، ذات الرداء الأبيض والوردي الناعم، والتي تمسك يدي اليسرى، ما هي إلاّ والدتي، وأن الرجل ذا الثلاثة وثلاثين عاماً، بلباسه الأبيض والذهبي الفاخر، والذي يمسك يدي اليمنى، هو أبي. كلما تقدمّا خطوة، أختال بينهما، ثم أهرول ثم أختال ثانيةً، ما بين ذرّة متناثرة من ضوء الشمس وأخرى، على طول منتصف طريق، أعرفه اليوم جيداً، فهو ممشى مزّين بشجيرات البلوط في حديقة عزبتنا الريفية، «فيرا»، في مقاطعة «سانت بطرسبرغ» السابقة، روسيا. بالفعل، أشعر وكأني على قمة جرف أنظر إلى الزمن البعيد، النائي والذي يكاد يكون غير مأهول، وأراني طفلاً صغيراً، يحتفل في ذاك اليوم من أغسطس ١٩٠٦، بولادة وعيه. إن سبق للشخصين الممسكيْن بيديّ اليمنى واليسرى أن كانا موجوديْن في عالم طفولتي المبهم، فقد كانا متخفّييْن تحت قناع تنكّر ناعم؛ ولكن الآن فإن ملابس أبي الفخمة، بزّة الفرسان البراقة، مع الانتفاخ المصقول والناعم للدرع الذي يلمع فوق صدره وفوق ظهره، ظهرت كالشمس في ذاكرتي. وبقيت حتى عدة سنوات لاحقة مهتماً جداً بمسألة أعمار والديّ وأتابع تطوراتها، كمسافر قلق، يسأل المارّة عن الوقت ليتأكد من صحّة ساعة يده.

تجدر الإشارة إلى أن والدي قد أدّى فترة تدريبه العسكرية قبل ولادتي بفترة طويلة، لذا أفترض أنه ارتدى بزّة فوجه المزخرفة ذاك اليوم من باب الدعابة. وعليه، فأنا مدين لدعابة بتوليد أوّل إشعاعٍ لوعيي الكامل ـ والذي أيضاً يتضمن التلخيص ـ إذ أن أوّل الكائنات التي أدركتْ مفهوم الزمن فوق هذه الأرض هي أيضاً أوّل الكائنات التي ابتسمت.

٢

الكهف البدائيّ (ليس ما قد يظنه المأخوذون بـ«فرويد») هو ما كان المحرك الأساسي للألعاب التي مارستها في الرابعة من عمري. صورة أريكة كبيرة ذات غطاء كريتوني[١]، نُقشت عليه بالأبيض والأسود أوراقُ البرسيم، في إحدى غرف الرسم في «فيرا»، تُشرق في ذاكرتي محدثةً ما يشبه اضطرابات ما قبل التاريخ الجيولوجية الهائلة. بدأ التاريخ (متوافقاً مع بدئه في اليونان) ليس بعيداً عن نهاية تلك الأريكة، حيث أصيص شجيرة «الكوبية»[٢]، بأزهارها الزرقاء الباهتة وأخرى خضراء، يخفي جزئياً، في إحدى زوايا الغرفة، قاعدة تمثال «ديانا»[٣] الرخامي. أمّا الحائط الذي تستند إليه الأريكة، فيُبرز مرحلة أخرى من التاريخ ضمن إطارٍ أبنوسيّ ذي نقوش رماديّة، يحوي لوحة لإحدى معارك «نابليون» حيث يتداخل الخصوم المتخيَلون بطريقة عشوائيّة، وحيث يُرى وعلى نفس مستوى النظر، ضارب طبل جريح، حصان نافق، ميداليّات، جنديّ يسدّد الرمح نحو آخر، والامبراطور الذي لا يُقهر مع جنرالاته، واقفين وسط تلك المعركة المجمّدة.

بمساعدة شخص كبير، مستخدماً يديه أوّلاً، ثم ساقه القويّة، جُرّت الأريكة بضعة إنشات عن الحائط، مما شكّل ممراً ضيقاً ساهم - بالإضافة لدعامات الأريكة - بحصولي على مأوى مريح، أغلقتُ نهاياته المفتوحة بوسائد عدّة. ولكم بلغت منتهى المتعة أثناء زحفي في هذا النفق المعتم، وكنت أطيل البقاء هناك حتى أسمع الغناء في أذنيّ - تلك الذبذبات الموحشة المألوفة بالنسبة للصبيان في مخابئهم المغبرة - ثم بعد

(١) الكريتوني: أي مر قماش الكريتون.
(٢) الكوبية: نوع من النبات.
(٣) ديانا: آلهة الصيد والقمر والولادة في الميثولوجيا الرومانية.

ذلك، تغمرني موجة ذعر لذيذ، فيتسارع وقع حبوي لأصِل إلى نهاية النفق البعيدة، أرمي الوسادة بعيداً، لتستقبلني الشمس فوق الأرضية الخشبية، فأرى أشّعتها المتشابكة تحت كرسي خيزران من «فيينا»، مع عصفوريْن يحطّان فوقه بحبور، كل منهما بدوره. زوّدتني لعبة كهف أخرى بأحاسيس حالمة ومرهفة أكثر من سابقتها، إذ استيقظت مبكّراً ذات صباح وصنعت خيمة من أغطية السرير وسمحت لمخيلتي أن ترسم ألف صورة خافتة مع أخيلة الثلج الكتّاني المنهمر والضوء الخافت الذي بدا وكأنه يخترق مخبئي الظليل من مسافة بعيدة جداً، حيث تخيّلت وجود حيوانات شاحبة وغريبة، تجول في أرض مليئة بالبحيّرات. تذكّري لمهدي، بشباكه الجانبية المصنوعة من خيوط القطن الرقيقة، يعيد لي، أيضاً، تلك المتعة حين كنت أمسك هاتيك البيضة الصلبة، الجميلة، المبهجة، والمصنوعة من كريستال عقيقيّ اللون، والمنسيّة هناك منذ أحد أعياد الفصح؛ كنت أمضغ زاوية الملاءة حتى تصبح مبلّلة تماماً، ثم ألفّ البيضة بها وبإحكام، ثم أتأمّلها وأعيد لعق ذاك النتوء الدافئ، الورديّ والمغلّف، بحيث يشفّ الوهج واللون بكامل سحرهما. ولكن حتى ذلك الحين، لم أكن قد وصلت لأكثر الأمور حميميةً لإشباع الجمال في نفسي.

ما أصغر هذا الكون (يكاد جيب كنغر أن يسعه)، كم هو ضئيل وتافه قياساً بالوعي البشري، وقياساً بإمكانية إنسان واحد على التذكّر، وقدرته على التعبير بالكلمات. قد أكون مبالغاً في ولعي بانطباعاتي الأولى، ولكن لديّ أسبابي لأشعر بامتناني لها. لقد أوصلتني إلى جنّة عدن حقيقية حسّية وبصريّة. ذات ليلة، خلال رحلة خارجية، في خريف ١٩٠٣، أذكر أني كنت جاثياً على وسادتي (المسطّحة تقريباً) أمام نافذة مقصورة منامة (وأرجّح أنها على متن القطار المنقرض «Mediterranean Train de Luxe»، القطار ذو المقصورات الست، والتي لُوّن أسفلها بالبنّي

المصفر، أما ألواحها فلُوّنت بالأصفر الباهت) وقد شعرت بانقباض لا يُفسّر أثناء رؤيتي لحفنة من الأضواء الرائعة التي كانت تومي لي من تلال بعيدة، ثم انزلقتُ داخل جيب أسود مخمليّ: إنها حبّات الماس التي تخليّت عنها لاحقاً لصالح شخصيّات رواياتي، لأخفّف عبء تلك الثروة عن كاهلي. توصّلت على الأرجح لطريقة لرفع الستارة المحكمة التي تحجب الرؤية عن المقصورة، كان كعباي بارديْن، لكنّي بقيت جاثياً محدّقاً في البعيد. لا شيء يعادل حلاوة وغرابة تأمل تلك الرعشات الأولى، إنها تنتمي للعالم المتناغم الخاص بطفولة مثاليّة، وهكذا، فإنها تحتفظ بخاصّيتها المرنة داخل ذواكرنا، حيث تُدرج دون أدنى جهد؛ ثم تنطلق مع تذكّر أحدنا لمراهقته، وهنا تتجلّى «ميمنوساين» بمزاجيتها ونكدها. أودّ أيضاً أن أضيف أمراً، فيما يتعلق بقوة اكتناز الانطباعات، فإن أطفال روسيا الذين ينتمون لجيلي نفسه قد مرّوا خلال حقبة من العبقريّة، كما لو أن الأقدار كانت تبذل أقصى ما يمكنها لأجلهم فأعطتهم ما يزيد عن حصصهم، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطوفان[1] الذي اجتاح عالمهم الذي يعرفونه وغيّره كلّياً. اختفت العبقريّة عندما تمّ تخزين كل شيء، كما هو الحال مع أطفال آخرين، أطفال المعجزة الجميلين المتخصصين، الفتيان ذوي الشعر المجعّد الملوّحين بالعصيّ أو الضاربين فوق مفاتيح البيانوهات، الذين تحوّلوا إلى موسيقيين من الدرجة الثانية بعيون حزينة وأمراض غامضة وأشكال مشوّهة تدفعك للظنّ بأنهم مخصيين. ولكن رغم ذلك، يبقى اللغز الفرديّ الغامض هو ما يعذّب كاتب المذكرات. لم أتعرّف ضمن بيئتي ولا ضمن صفاتي الوراثيّة على الأداة التي شكّلتني، كل ما أعرفه هو أن عجلة مجهولة

---

(١) الطوفان: ويقصد به الثورة اللشفية ١٩١٧.

مرّت فوق حياتي تاركةً عدّة علامات معقّدة، لا تصبح آثارها الموّحدة ظاهرة إلا عندما يشرق مصباح الفنّ من وراء أوراق دفتر مذكرات.

٣

لأعدّل وأصحّح بعض الفترات الزمنية الخاصة بذكريات طفولتي، عليّ أن ألجأ للمذنّبات وظواهر الكسوف والخسوف، كما يفعل المؤرخون حين يعجزون عن جمع أجزاء ملحمة مبعثرة. ولكن يوجد فترات أخرى لا تنقصني فيها البيانات أبداً. أرى نفسي، على سبيل المثال، أتسلّق صخور شاطئ سوداء رطبة بينما الآنسة «نوركوت»، مربيّتنا الهزيلة والكئيبة، التي تظنّ أني أتبعها، تتنزّه على طول الشاطئ المتعرّج مع «سيرجي»، أخي الأصغر. كنت أضع سوار لعبة في معصمي. أثناء زحفي فوق تلك الصخور، بقيت أردّد بالإنكليزيّة بلذّة عارمة، كلمة «طفولة»، وكأنني أتمتم بتعويذة تبهجني في أعماقي، تلك الكلمة التي كانت تبدو جديدة وغامضة، ثم بدأتْ تزداد غرابتها كلما اختلطت بدماغي الصغير، المتخم والمحموم، مع قصص «روبن هود»، «ذات الرداء الأحمر»، و«قبعّات الجنيات الحدب البنّية». كان هنالك تجويفات صغيرة في الصخور ملأى بمياه البحر الفاترة، وكنت أتمتم فوقها تعويذتي لأُخضع تلك البحيرات الياقوتيّة الضئيلة جداً تحت سحري.

كان ذلك في «أبخازيا» بالطبع، فوق الشاطئ الأدرياتيكيّ. السوار حول معصمي يبدو كحلقة مصنوعة من منديل ورقيّ فاخر، نسيجه سيليلوزيّ شبه شفاف، ويحوي زخارف ملونة بالأخضر الباهت والوردَيّ، هو ثمرة شجرة عيد الميلاد، وقد أهدتني إيّاه بضعَ أشهر خلت في «سانت بطرسبرغ»، «أونيا»، ابنة عمي الجميلة التي تماثلني في العمر. حافظ على قيمته العاطفية عندي إلى أن ظهرت داخله خطوطاً

قاتمة، وقد قررت، كما في حلم، أنها قصاصات شعري التي، بطريقة أو بأخرى، قد تمازجت مع دموعي ومواد النسيج اللامعة، خلال زيارة مريعة لحلّاق كريه في «فيوم» القريبة. في اليوم ذاته، وفي مقهى عند الشاطئ، لاحظ والدي، في اللحظة التي قدّم النادل لنا ما طلبنا، وجود ضابطين يابانيّين جالسين إلى طاولة مجاورة، فغادرنا مباشرة، ولكن ليس قبل انتزاعي السريع لسكاكر الليمون المقبّبة، التي دسستها سرّاً في فمي فآلمته. كان ذلك عام ١٩٠٤. كنت في الخامسة من عمري. كانت روسيا في حرب مع اليابان. كان للآنسة «نوركوت» اشتراك في مجلّة أسبوعيّة إنكليزيّة، وقد نشرتْ، وبكل تشفٍّ، رسومات نفّذها يابانيون لقاطرات روسيّة ـ كنماذج مصغّرة وفريدة بأسلوب اليابانيين التصويريّ المعروف ـ تغرق بمجرد محاولة الجيش أن يعبر جليد بحيرة «بيقال» الغدّار.

ولكن دعوني أدقّق في الأمر، ربطني بهذه الحرب حدث أبكر من ذاك. عند عصر أحد أيام بداية السنة ذاتها، في منزلنا في «سانت بطرسبرغ»، تمّ اقتيادي من غرفة الحضانة إلى مكتبة أبي لإلقاء التحيّة على صديق العائلة، الجنرال «كوروباتكين». رجل سمين وقصير تغطّي جسده بزّة تُصدر ما يشبه الصرير، ولكي يسليني، بعثر قبضة من عيدان الكبريت فوق الأريكة حيث كان يجلس، وشكّل خطّاً أفقيّاً بعشرة عيدان واصلاً نهاية كل منها بنهاية آخر، وقال: «هكذا يكون البحر أثناء الجوّ الهادئ»، ثم أمال كلّ زوجيْن محوّلاً الخط المستقيم إلى متعرّج ـ «البحر في الجو العاصف». خلط العيدان وكان على وشك القيام ـ كما أملت ـ بخدعة أفضل عندما قاطعنا أحدهم. دخل مساعده في المعسكر وأخبره بأمر ما. ما إن نهض «كوروباتكين» الروسيّ عن مقعده، بوزنه الثقيل ونخيره المضطرب، حتى انفكّت العيدان وتهاوت أرضاً. كان قد تلقّى أمراً بتولّي قيادة الجيش الروسيّ في الشرق الأقصى.

كان لهذه الحادثة تتمة استثنائيّة بعد خمسة عشر عاماً، وذلك في

مرحلة معيّنة من رحلة فرار والدي من «سانت بطرسبرغ» ـ الخاضعة تحت السيطرة البلشفية ـ نحو جنوب روسيا، إذ دنا منه أحدهم أثناء عبوره للجسر، وكان رجلاً عجوزاً بدا وكأنه فلّاح بلحية رمادية يلفّه معطف من صوف الخرفان. طلب من والدي مصباحاً. في اللحظة التي تلت تعرّف كلّ منهما إلى الآخر. آمل أن يكون العجوز «كوروباتكين»، قد تمكّن من الهروب من السجن السوفياتيّ بتنكّره الريفي ذاك، ولكن ليست هذه النقطة التي تعنيني. ما يعجبني هو تطوّر فكرة عيدان الثقاب: تلك اللعبة السحريّة التي عرضها أمامي قد خابت وضلّت، كما اختفت جيوشه، وهوى كل شيء، تماماً كما هوت مقصورات القطار اللعبة خاصتي، خلال شتاء ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥، في «فيسبادن»، حين قرّرت أن أجعله يمشي فوق البرك المجمدة ضمن أراضي فندق «أورانيان». تتابعُ الصور في حياة المرء المرتبطة بفكرة رئيسيّة، حسب ما أظن، هو ما يجب أن يكون الهدف الحقيقيّ لسيرة ذاتيّة.

٤

ترافقتْ نهاية الحملة الروسيّة الكارثيّة في الشرق الأقصى مع اضطّرابات داخليّة جنونيّة. غيرَ آبهة بها، عادت أمي مع أولادها الثلاثة إلى «سانت بطرسبرغ» بعد ما يقارب العام من التجوال بين المنتجعات الأجنبيّة. كان ذلك بداية عام ١٩٠٥. تطلّبت مسائل الدولة بقاء والدي في العاصمة؛ كان الحزب الديمقراطيّ الدستوريّ، والذي كان والدي أحد مؤسّسيه، قد فاز بأغلبيّة المقاعد في أوّل برلمان من العام التالي. خلال إحدى إقاماته القصيرة معنا في الريف ذاك الصيف، تبيّن له ذات مرة، أننا كنّا أنا وأخي نتقن القراءة والكتابة باللّغة الإنكليزيّة وليس الروسيّة، ما عدا كلمتيّ «كاكاو وماما»، وقد أغضبه ذلك غضباً عارماً، فقرّر أن على مدرّس القرية أن يأتي عصر كل يوم ويأخذنا في نزهات.

بالصوت الحادّ والبهيج للصفّارة التي كانت جزءاً من بزّة البحريّة الخاصة بي، تعود بي ذاكرتي إلى ماضٍ بعيد جداً لأراني من جديد متشابك الأيدي مع معلّمي المحبوب. كان «فاسيلي مارتينوفيتش زيرنوسكوف» ذا لحية بنّية مجعّدة، رأس أصلع، وعينيْن صينيّتيْن زرقاويْن، فوق جفن إحديها حبة خال ساحرة. في يوم وصوله الأوّل، جلب صندوقاً مليئاً بالمكعّبات المثيرة للفضول والتي كُتب على كل جهة منها حرفاً وبألوان مختلفة؛ تلك المكعّبات التي كان يحافظ عليها كما لو أنّها قطعاً نفيسة جدّاً، وهي كانت كذلك في حقيقة الأمر (إضافةً إلى كونها تصلح لتشكيل أنفاق لقطاراتي). كان يبجّل ما قام به والدي مؤخراً من إعادة بناء مدرسة القرية وتحديثها. كان يعبّر عن فكره الحرّ بارتداء ما قدِم طرازُه، إذ يترك ربطة عنقه السوداء الفضفاضة مربوطة دون عناية وترتيب حول عنقه. عندما كان يلبسني ثيابي، وكنت صبياً صغيراً، كان يخاطبني بصيغة الجمع، ليس كما يفعل الخدم بطريقة جافّة، وليس كما كانت أمي تفعل في لحظات حنانها العارم، عندما ترتفع حرارتي أو عندما يضيع مني أحد ركّاب قطاري ضئيلي الحجم (كما لو أنّ صيغة المفرد كانت أضعف من أن تحمل ثقل الحب والحنان في صوتها)، بل بكل تهذيب وبساطة كما يفعل رجل لآخر لا يعرفه بما يكفي ليناديه بـ«أنت». كثائر متحمّس، كان يضرب يديه في الهواء بشدة أثناء نزهاتنا القرويّة كلّما تحدّث عن الإنسانيّة والحريّة وآثار الحرب السيئة والضرورة المحزنة (ولكن ضرورية كما اعتقدت) لنسف الطغاة، وأحياناً كان يُخرج أشهر كتاب عن السلام في ذلك الوقت «دولوي أوروزي»! (ترجمتُه «برتا فون شتانر»[1] «السلاح السفلي»)، وكان يتلو عليّ، وأنا طفل في

(١) برتا فون شتانر: ١٨٤٣ ـ ١٩١٤. كاتبة وروائية نمساوية وثاني امرأة تحصل على جائزة نوبل (١٩٠٥) بعد ماري كوري.

السادسة، اقتباسات مملّة؛ حاولت أن أدحضها: في طراوة عمري ذاك الميّال للعنف، رفعتُ صوتي تضامناً مع سفك الدماء دفاعاً عن عالمي المليء بألعاب المسدسات وفرسان «الملك آرثر». في ظلّ نظام «لينين»، حين تعرّض كل الراديكاليين غير الشيوعيين للاضطهاد بلا هوادة، تم إرسال «زيرنوسكوف» إلى معسكر للأعمال الشاقة، لكنّه تمكّن من الفرار خارج البلاد وتوفّي في «نارفا» عام ١٩٣٩.

أنا مدين له، بطريقة ما، بهذه القدرة على الاستمرار بالتقدم في طريق آخر، على امتداد الممشى الخاص بي والمتوازي مع مسار ذاك العقد المضطرب. في يوليو ١٩٠٦، عندما حلّ القيصر البرلمان على نحو غير دستوريّ، قام عدد من أعضائه، والدي من ضمنهم، بعقد جلسة تمرديّة يحثّون فيها الشعب على الانتفاض بوجه الحكومة. لهذا السبب تمّ زجّهم في السجن بعد أكثر من عام أو عام ونصف. كان السجن لوالدي فترة راحة، أقرب إلى كونها عزلة إلى حدّ ما، وقد قضاها في السجن الانفراديّ مع كتبه، حوض استحمامه القابل للطيّ، وكتيّب «جي.بي.مولر» للريّاضة البدنيّة المنزليّة. احتفظتْ أمي حتى آخر يوم في حياتها بالرسائل المبهجة التي تمكّن من تهريبها إليها، مكتوبة بالرصاص فوق مناديل الحمّام الورقيّة (تلك التي نشرتُها عام ١٩٦٥ ضمن الإصدار الرابع للنسخة الروسيّة التي راجعها «فوزدوشني بوتي» وحرّرها «رومان غرينبيرغ» في «نيويورك»). كنّا في الريف عندما استعاد حرّيته، وقد نظّم مدير المدرسة الاحتفالات وصفّ الرايات (بعضها أحمر فاقع) للترحيب بوالدي أثناء عودته من السكة الحديديّة، تحت أقواس ملفوفة بالتنوب ومتوّجة بالقنطريون، زهرة أبي المفضّلة. نزلنا نحنَ الأطفال إلى القرية، وكلما تذكرتُ ذلك النهار الاستثنائيّ فإن أوضح ما أرى هو النهر المتلألئ تحت أشعة الشمس، الجسر، وصفيحة لامعة لعلبة معدنية تركها صيّاد عند السياج الخشبيّ؛ تلّة الزيزفون

بورودها الحمراء الكنسيّة وضريح الرخام حيث يرقد الأموات من عائلة أمي؛ الطريق الترابيّ المفضي إلى القرية؛ خط العشب فاتح الخضرة والقصير، الذي تظهر التربة الرمليّة من خلاله بوضوح، ويمتدّ بين الطريق وشجيرات الليلك المزروعة خلف صفّ الأكواخ الخشبيّة الجرداء المتداعية، وقد عربشتْ الطحالب فوقها؛ بناء المدرسة الحجريّ الجديد إلى جانب الخشبيّ؛ وعلى طول الدرب الذي اقتُدنا إليه، كان الكلب الأسود ذو الأسنان البيضاء الناصعة وقد انطلق من بين الأكواخ بسرعة مرعبة ولكن بصمت مطبق، يوفّر متعة انفجار نباحه المكتوم حتى اللحظة التي ستجعله على مقربة من عربة النقل.

٥

الأصالة والحداثة، الطابع الليبراليّ والآخر البطريركيّ، الفقر المدقع والثروات الكارثيّة، كلّها قد تمازجتْ في العقد الأوّل والغريب من قرننا. مرّات عدّة في الصيف وخلال وجبة الغداء، في غرفة الطعام المشرقة، كثيرة النوافذ، والمكسوّة بخشب الجوز، في الطابق الأول من عزبتنا «فيرا»، حصل أن دخل «أليكسي»، كبير الخدم، انحنى متجهّماً صوب والدي وأخبره بصوت منخفض (ويزيد انخفاضاً إذا كان في صحبتنا أحد) أن جماعة من الفلاّحين يودّون رؤية «*barin*» (النبيل) في الخارج. أزاح والدي المنديل عن حضنه وانتفض عن كرسيه مستأذناً من والدتي. تُظهر إحدى نوافذ الطرف الغربي لغرفة الطعام جزءاً من الممر المجاور للمدخل الرئيسيّ ويُمكن رؤية الجزء العلوي من شجيرات زهر العسل قبالة الرواق. من هذا الاتّجاه، وصلت غمغمة ترحيب مهذبة قدمها الفلاّحون غير المرئيّون لوالدي غير المرئيّ. أما المناقشات اللاحقة، والتي أجريت بنبرات صوت عادية، فلم تكن مسموعة، إذ أن النوافذ

السفليّة للمكان الذي تجمّعوا فيه، قد تمّ إغلاقها لتجنّب دخول الحرارة. من المحتمل أنهم كانوا يلتمسون وساطته لحلّ عداء محليّ، أو دعم حكوميّ، أو إذن لحصاد قطعة من أرضنا أو اقتطاعهم لما يطمعون به من أشجار لدينا. إن تمّت الموافقة الفوريّة، كما يحصل دائماً، تعود الغمغمة من جديد، وببالغ الامتنان، سيُخضع «النبيل الطيب» للاختبار الوطني، حين تحمله أيدي الفلاحين وترميه في الهواء ثم تلتقطه سواعدهم القويّة.

أُمرنا أنا وأخي بإكمال غدائنا في غرفة الطعام. حملتْ والدتي قطعة من الطعام، وألقتْ نظرة خاطفة لأسفل الطاولة لترى إن كان كلبها «الداشهاند» العصبيّ والجلف هناك. «يوماً ما سيقتلونه»، قالتها الآنسة «غولاي»، مربيّة والدتي المسنّة الرصينة المتشائمة، والتي كانت لا تزال تقطن معنا (إقامة مريعة بالنسبة لباقي مربيّاتنا). من مكاني على الطاولة أمام النافذة الغربية كنت أرى المنظر الرائع لرفع أبي في الهواء. للحظة هناك، ظهرت صورته ببزّته الصيفيّة البيضاء بتموّجات فوق نسيجها كضرب الريح في الرمال، تهادى بعظمة في وسط الهواء، انكشفت بعفوية أجزاء من جسمه، أما ملامحه الأنيقة والهادئة فكانت تواجه السماء. ثلاث رميات بنفس الطريقة، مع صيحات الرجال غير المرئيين (هيلا هوب)، وكل مرّة تكون أعلى من سابقتها، وفي ارتفاعه الأخير والأشمخ، انبسط جسده كما لو كان ليبقى للأبد تحت الزرقة الفضيّة لظهيرة صيفيّة، كواحد من مخلوقات جنة عدن، الذين هبطوا من السماء بكل راحة، بأثواب كثيرة الثنيّات، فوق سقف كنيسة مقبّب، اصطف تحته بشر يحملون شموعاً رفيعة، تضيء لتمزج الشعلات الضئيلة بضباب البخور، حيث رتّل الكاهن قدّاس الرقاد الأبدي، بينما أخفتْ الزنابق وجه الراقد هناك، كائناً من كانَ، وسط الأضواء العائمة في التابوت المفتوح.

الفصل الثاني

١

ممّا أذكره عن نفسي في الماضي (باهتمام، تسلية وقليل من الإعجاب أو الاشمئزاز) أذكر أني تعرضّت لهلوسات خفيفة. بعضها سمعيّ، والآخر بصريّ، ولكنّي لم أستفد كثيراً من أيّ منها. أصوات النبوءات التي أسرتْ سقراط أو حرّضتْ جان دارك قد خفتتْ عندي إلى أن صارت كالأصوات التي تسمعها ما بين رفع سماعة الهاتف المشترك[١] المشغول وإغلاقها. قبل النوم تماماً، غالباً ما أنتبه لحوار من طرف واحد يجري في قسم مجاور لذهني، مستقلّ تماماً عن الميول الحقيقيّة لأفكاري. إنه صوت محايد، منفصل، مجهول، وأسمعه ينطق بكلمات لا تهمّني، بغضّ النظر عمّا إذا كانت عبارات بالروسيّة أو الإنكليزيّة، حتى أنها ليست موجّهة لي، وفوق ذلك هي تافهة لدرجة أني أخجل من ذكر بعض عيّناتها، خشية أن أشوّه المعنى الذي أودّ رسمه كسطح أملس، بالتلال التي يخلّفها الخلد وراءه. تبدو هذه الظاهرة السخيفة نظيرةً لبعض الرؤى عند بداية الاغفاءات، والتي أعرفها جيّداً

(١) الهاتف المشترك: دائرة هاتفية محلية ذات حلقة مشتركة من قبل عدة مشتركين في خدمة الهاتف. أطلقت هذه التجربة لأول مرة في أوروبا عام ١٨٧٨ في الولايات المتحدة الأمريكية.

أيضاً. أنا لا أقصد الصورة الذهنية الواضحة (على سبيل المثال صورة وجه أحد الوالدين المتوفي منذ مدة طويلة) المستحضرة إراديّا برفّة جفن؛ بل أقصد أشجع ما قد تقوم به روح بشرية. ولا أرمي إلى ما يسمّى بخيالات «الذبابة الطائرة»(١)، التي تترسب فوق نبابيت الشبكيّة وتستقر في جسم العين الزجاجيّ، والتي تظهر كخيوط شفّافة تنحرف عبر المجال البصريّ. ربما أقرب شيء إلى هلوسات النعاس التي أفكّر بها هو البقع المضيئة، تلك الوخزات التي تخترق ظلمة أجفاننا عند إطفاء المصباح، بعد أن نكون قد أمعنّا النظر في صورة ما. على كلٍ، ليس بالضرورة أن تكون صدمة من هذا النوع نقطةَ انطلاقٍ للتطوّر البطيء والمنتظم للرؤيا التي تراودني قبل إغلاق جفنيّ. إنها تأتي وتذهب، من دون مشاركة المُشاهِد النعسان، لكنها مختلفة أساسيّاً عن صور أحلامه حيث يبقى مسيطراً على حواسه. غالباً ما تكون متنافرة. تزعجني صور الوجوه الخبيثة، ذات الملامح الخشنة، لقزم ورديّ بأنف أو أذن متورمة. ومع ذلك، فإن تلك الأوهام تطفو أحياناً بطبيعة ضبابيّة مريحة، وعندها أراها، معكوسة، وكأنها كانت فوق جفني الداخليّ، على شكل أشخاص رماديين يمشون بين خلايا نحل، أو ببغاوات سوداء صغيرة تختفي تدريجيّاً بين ثلوج جبليّة، أو مكان ناءٍ بنفسجيّ يذوب وراء صوارٍ متحركة.

على رأس كل ما ذُكر أعرض حالة نقيّة للسمع الملّون. قد لا تكون كلمة «سمع» دقيقة تماماً، بما أن الفعل الشفوي الحقيقيّ هو ما يُنتج حسّي اللونيّ أثناء تهجئتي لحرف معيّن وأنا أتخيّل رسمه. حرف a في الأبجديّة الإنكليزيّة (وهي الأبجدية التي أفكرّ بها خلال كتابة نصّي هذا، ما لم يثبت خلاف ذلك) له لون الخشب الجاف، بينما في الأبجدية الفرنسيّة له لون الأبنوس المطليّ. وتشمل هذه المجموعة السوداء أيضاً

(١) الذبابة الطائرة: مصطلح طبي لمرض عوائم العين.

حرف g مطاط كبريتي، وr خرقة مسخّمة قد مُزّقت. الشوفان n، المعكرونة الرخوة l، والظهر الفضي لمرآة يد o، يشكّلون المجموعة البيضاء. يشوشني لفظ on الفرنسي الذي أراه على شكل كأس صغير مترع بالكحول. بالانتقال إلى المجموعة الزرقاء، فهناك x الفولاذي، السحابة الرعديّة z، والتوت البرّي k. وباعتبار هناك تفاعل دقيق ما بين الصوت والشكل، فإني أرى q أكثر سمرة من k، في حين s ليس الزرقة الفاتحة لـ c، بل خليط غريب ما بين اللازورد واللؤلؤ. لا تمتزج الألوان المتجاورة، ولا يوجد لون خاصّ للأحرف المدغمة، إلا إذا كانت ترمز إلى شيء في لغة أخرى (كالحرف الروسيّ الرماديّ الزغبيّ الذي يكتب بثلاث طرق، ويرمز للفظ sh، فإني أراه كتدفق نهر النيل، وبالتالي فإنه يؤثر على تمثيل اللفظ ذاته بالإنكليزيّة).

أستعجل في كتابة قائمتي خوفاً من مقاطعتها. في المجموعة الخضراء هناك ورقة الحور f، التفاحة الفجّة p، والفستق t. الأخضر الباهت الممزوج بطريقة ما مع البنفسجيّ، هو أفضل ما يمكنني منحه لـ w. وتشمل مجموعة الأصفر العديد المختلف من e وi، الـ d قشديّ، الـ y ذهبيّ برّاق، أما u، فلا أستطيع تفسير قيمته الأبجديّة عندي إلا من خلال «النحاس المصفرّ مع بريق زيتونّي». في المجموعة البنيّة، هناك تدرّجات غنيّة وليّنة للحرف g، j الأكثر شحوباً، أما رباط الحذاء الباهت فهو h. وأخيراً بين الحمر، b له لون «سيينا المحرقة»[١] كما يسمونه الرسّامون، m هو ثنيّة في فانيلا قرنفلّية اللون، واليوم استطعت أن أطابق تماماً ما بين v و«الكوارتز الورديّ» المذكور في «قاموس الألوان»[٢]

---

(١) سيينا المحرقة: لون البني المائل إلى الحمرة.

(٢) قاموس الألوان: صدر عام ١٩٣٠ في الولايات المتحدة الأمريكية عن الكاتبين A. Maerz and M. Rea Paul.

لـ«بوب وميرز». كلمة قوس قزح، بألوانه الأساسيّة ولكن الباهتة، هو في لغتي الخاصة مفردة صعبة التهجئة: kzspygv. أوّل رائد في دراسة مفهوم السمع الملوّن، كان على حسب ما أذكر، فيزيائيّ أبرص من «إيرلنغن»، عام ١٨١٢.

اعترافات شخص مصاب بالـ«سينيتيزيا» (الحسّ المواكب) قد تبدو مملّة ومدّعاة بالنسبة لأولئك الذين لا تتسرب منهم الذاكرة ولا تذروها الرياح فهي محميّة بجدران أكثر صلابة من الجدران التي أملكها. ولكن بالنسبة لوالدتي، فإن كل هذا يبدو طبيعيّاً تماماً. توضّح لي الأمر في أحد أيام عامي السابع، حين كنت أستخدم عدداً من مكعّبات الأبجدية لأبنيَ بها برجاً. أشرتُ بشكل عفويّ إلى والدتي أثناء تمرير المكعّبات أن الألوان لم تكن صحيحة. اكتشفنا عندها أن لبعض أحرفها، نفس ألواني، إضافة إلى أنّها كانت تتأثر بصريّاً بالنوطات الموسيقيّة، التي لم تثر عندي أدنى حسّ بصريّ. أنا أعتبر الموسيقى، ويؤسفني القول، تعاقباً اعتباطياً لأصوات مزعجة ليس إلاّ. يمكنني تحمّل تشنّجات كمان حنون في ظلّ بعض الظروف العاطفيّة، ولكن عزف البيانو في الحفلات وكل الآلات النفخيّة، قد يضجرني قليلاً ولكنه يجلدني كثيراً. رغم حضوري للعديد من حفلات الأوبرا كل شتاء (حضرتُ «رسلان ولودميلا» و«ملكة البستوني» عشرات المرّات خلال سنوات عدّة ولم أكمل العرض مرة واحدة)، كان ضعف استجابتي الموسيقيّ محكوماً بالتعذيب البصريّ، لم أستطع قراءة شيء فوق كتف «بيمن»[1]، وعبثاً حاولت تخيّل الفراشات الليليّة في حديقة «جولييت».

فِعلتْ والدتي كل ما بوسعها لحثّ كل الحساسية التي أملكها، بشكل عام، نحو التحفيز البصريّ. كم رسمتْ لي من لوحات مائيّة! يا له من

(١) بيمن: شخصية من مسرحية بوريس غودونوف ـ بوشكين.

كشفٍ قد تبدّى لي حين رسمتْ لي شجرة الليلك التي تنمو بمزيج لونيّ من الأزرق والأحمر. أحياناً، وفي منزلنا القائم في «سانت بطرسبرغ»، كانت أمي تُخرج من مخبأ سريّ في جدار غرفة ملابسها (وغرفة ولادتي) كمّاً من المجوهرات بغرض تسليتي عند وقت نومي. كنت حينها صغيراً جدّاً. لم يكن بريق كل تلك التيجان والقلائد والخواتم ليبعث فيّ الفضول والسحر كما فعلتْ إضاءة المدينة أيّام الأعياد الامبراطوريّة، عندما كانت الشعارات العملاقة، الأكاليل، والتصاميم الخاصة بالنبلاء، المصنوعة من مصابيح كهربائيّة بألوان الياقوت والزمرد، تلمع في الليالي الجليديّة الساكنة، وكأن المدينة واقعة تحت سحر، قد هبط مع الثلج المكدّس فوق أفاريز النوافذ على طول الشوارع السكنيّة.

٢

أبقتني أمراضُ طفولتي العديدة على مقربة دائمة من أمي. أظهرتُ براعة غير طبيعيّة في الرياضيّات ليست لطفل بصغر سنيّ، ولكني فقدتّها تماماً في مراهقتي التي افتقرتْ للموهبة بشكل واضح. لعبتْ تلك الهبة دوراً كبيراً في مواجهتي للخنّاق الصدري والحمى القرمزيّة، عندما شعرت بأجسام كرويّة ضخمة وأعداد هائلة تنتفخ بلا هوادة في دماغي المتألّم. كان هنالك أستاذ أحمق قد شرح لي مفهوم الـ«لوغاريتم» في سنّ مبكّرة جداً، وكنت قد قرأتُ (في منشورة بريطانيّة «the Boy's Own Paper»، على ما أعتقد) عن مواطن هندوسيّ يستطيع خلال ثانيتيْن بالضبط معرفة جذر رقم، لنقل، ٣٥٢٩٤٧١١٤٥٧٦٠٢٧٥١٣٢٣٠١٨٩٧٣٤٢٠٥٥٨٦٦١٧١٣٩٢ (لست متأكّداً من صحة الرقم، بكل الأحوال كان الجذر ٢١٢). تلك هي الوحوش التي كانت تنمو أثناء هذياني، ولم أستطع منعها من

محاصرتي، إلاّ بانتزاعِ قلوبها ثمّ قتلها. لكنها فاقتني قوةً، فما كان مني إلا الجلوس محاولاً، وبكل مشقّة، تمتمة بعض العبارات لأشرح ما يجري لأمي. ورغم الهذيان، استطاعتْ أن تدركَ تلك الأحاسيس التي تعرفها هي بنفسها، وكان فهمُها هذا هو من أعاد عالمي المتوسّع إلى قانون «نيوتن».

سيحلو لأديب مستقبليّ، متخصّص بنقد السيَر الذاتية، أن يقارن ما بين تجربة أحد أبطالي في رواية «الهديّة» وبين الحدث الأصليّ التالي. ذات يوم، وبعد مرض دام طويلاً، وكنت ممدّداً في السرير شاعراً بالإعياء الشديد، أحسستُ بدفء نشوة من الخفّة والراحة غير اعتيادية. عرفتُ أنّ أمي قد ذهبت لتشتري لي تلك الأشياء اليوميّة المبهجة جداً التي تساعد على النقاهة. لم أستطع تخمين ما ستكون هذه المرّة، ولكن من خلال حالتي غريبة الشفافيّة، تخيّلتها بكل وضوح تقودها العربة نحو آخر شارع «مورسكايا»، باتّجاه جادة «نيفسكي». تبيّنتُ المركبة الخفيفة التي يجرّها حصان بنّي. سمعتُ أنفاس صهيله، النقرَ الإيقاعيّ لكيس الصفن خاصّته، ركامَ الجليد فوق الأرض، ولا شيء غير انهمار الثلوج يواجه العربة. أمام عينيّ وأمام عينيّ أمي، ارتسم ظهرُ الحوذيّ، بردائه الأزرق الثقيل والمبطّن، وساعته في الحافظة الجلديّة (مشيرة إلى الثانية والثلث) مربوطة بالجزء الخلفيّ من حزامه، الذي كثرتْ تحته الثنيّات لتصير صورة مؤخّرته الضخمة أشبه بيقطينة مخطّطة. رأيت فروَ الفقمة الخاص بأمي، وعند ازدياد البرد مع السرعة، رفعتْ يديها بالقفّازات الفرويّة لتغطّي خدّيها، هذه الحركة الرشيقة خلال نزهة شتويّة، لا تقوم بها إلا سيدة من «سانت بطرسبرغ». الغطاء السميك الذي غمرها من كعبيِها وحتى خصرها، والمصنوع من جلد الدب، كان مربوطاً بالمقابض الجانبيّة الموجودة أسفل مقعدها بواسطة الأناشيط المعلّقة بزاويتيه. أما خلفها، فأمسك بالمقابض خادمٌ بقبعة ذات شريط أماميّ، واقفٌ على عارضة ضيّقة فوق الأطراف الخلفيّة للمزلاجيْن.

لم تغب العربة عن ناظري، رأيتها تتوقف عند متجر «ترويمان» (مستلزمات كتابة، دمى برونزيّة وورق اللعب). توّاً، خرجت أمي من المتجر يتبعها الخادم، حاملاً ما اشترتْ، وقد بدا لي وكأنه قلم رصاص. استغربتُ عدم حملها لغرض صغير كهذا بنفسها، ولكن مسألة الأبعاد تلك، قد حرّضت عندي نشاطاً خفيفاً، ووجيزاً لحسن الحظ، لاستئناف «آثار التمدّد الذهني» الذي أملتُ زواله مع الحمى. عند دخولها مقصورتها مرة ثانية، رأيت بخار زفير الجميع، بمن فيهم الحصان. لاحظت أيضاً الاستياء المألوف الذي تبديه أمي عادةً، حين تبسط الخمار الشبكي الملتصق بوجهها، وما إن أكتب هذا الوصف، يعاودني إحساس الرقّة المشبّكة التي اعتادت شفاهي أن تشعر بها كلّما قبّلت وجنتيْها من فوق الخمار ذاك، لا بل أشعر به يطير نحوي عائداً من الماضي مع الثلج الأزرق، والنوافذ الزرقاء (حيث لم تُرفع الستائر بعد).

دقائق قليلة، ثمّ دخلت أمي إلى غرفتي، حاملةً بين يديها طرداً كبيراً. للنظرة الأولى رأيته متقلّص الحجم إلى حدّ كبير، ربما لأنني كنت لا أزال، لا شعورياً، متأثراً ببقايا آثار التمدّد الهذيانيّ المخيف، الذي سرعان ما تداركتُ بالمنطق أخطاء تصوّراته. تبيّن أنّ الهدية هي قلم رصاص «فابر» عملاق ومضلّع، متناسب السماكة على امتداد طوله ذي الأقدام الأربعة. كان معلّقاً كقطعة للعرض في واجهة المتجر، وافترضتْ أمي أني رغبت به، كما كنت أرغب بكل الأشياء التي لم تكن للشراء، مما اضطر البائع أن يجري اتصالاً مع أحد وكلائه «الطبيب ليبنر» (ليتحقق إن كانت الصفقة مجدية لغرض صحّي). للحظة شكّ عارم، تساءلتُ إن كان رأس القلم مصنوعاً من الغرافيت الحقيقيّ. لقد كان حقاً. وبعد بضع سنوات، تأكدت، من خلال حفر ثقب جانبيّ، أن الرصاص موجود في الداخل وعلى طوله ـ النموذج المثاليّ لفنٍ مصنوع لأجل الفنّ، مع امتناني لـ«فابر» والطبيب «ليبنر»، باعتبار أن القلم كان أكبر من أن يُستخدم، وفي الحقيقة، لم يكن مصنوعاً للاستعمال.

«أوه أجل» كانت لتقول لي إذا وصفتُ لها الأحاسيس الغريبة التي كانت تعتريني. «أجل أعرف كل ذلك»، وببساطة غريبة كانت تناقش أموراً كالرؤية المزدوجة، والعقد الصغيرة النافرة من خشب طاولات القوائم الثلاث، والهواجس، وإحساس الـ«ديجا فو» (ما سبقت مشاهدته). في أصول عائلتها، ثمّة أثر للطائفيّة. كانت تذهب إلى الكنيسة عند الصوم الكبير وعيد الفصح فقط. بانت ميولها الانشقاقيّة من خلال نفورها الواضح من المناولة تبعاً للطقوس اليونانيّة الكاثوليكيّة، ومن كهنتها. كانت في عمق نفسها مأخوذةً بالجانب الأخلاقيّ والشاعريّ لتعاليم المسيح، ولكنها لم تستشعر الحاجة لاتّباع عقيدة. لم تقتنع بالغياب المرعب للأمان وللخصوصيّة في الآخرة. نبع تديّنها القويّ والنقيّ من إيمانها المزدوج بوجود عالم آخر واستحالة فهمه بمصطلحات دنيويّة. جلّ ما يمكن فعله هو النظر للأمام ولمح أمر حقيقيّ من خلال الضباب والأوهام، تماماً كما يفعل أشخاص ذوو موهبة التفكير العقلي النهاري المتواصل على نحو خارج عن الطبيعة، حين يتمكّنون خلال نومهم العميق، ومن مكان ما قابع وراء كابوس مزعج ومعقّد، أن يدركوا الحقيقة المنتظمة لساعة الاستيقاظ.

٣

الحب من الصميم وترك باقي الأمور لعناية القدر، كانت تلك قاعدتها البسيطة. «Vot zapomni! (تذكر هنا!)» كانت تقولها بنبرة تآمر لتلفت انتباهي للأشياء التي تحبّها في «فيرا» ـ قنبرة تصعد نحو سماء متخثّرة كاللبن في يومٍ ربيعيّ غائم، الرعد الليليّ الذي يومض فيلتقط صوراً للأشجار من مسافة بعيدة، ألوان أوراق القيقب المتساقطة فوق رمل بنيّ، آثار خطى مسماريّة لعصفور صغير فوق ثلج جديد. كما لو

شعرتْ أن الجزء الملموس من عالمها سوف ينهار خلال سنوات قليلة، فاندفعتْ تزرع وعياً استثنائياً من خلال علامات زمنيّة موزّعة فوق كل شبر من أراضينا في القرية. كانت تثمّن ماضيها الخاص بنفس التوقّد الذي أستعيد به الآن صورتها وماضي حياتي. وهكذا، بمعنى أو بآخر، ورثتُ تلك المحاكاة التصويريّة المتقنة، لجمال ممتلكات غير حسّية، وعِزبة غير حقيقية ـ وقد ثبت أن ذلك كان تدريباً ناجحاً لتحمّل الخسائر اللاّحقة. كل علاماتها وبصماتها الخاصّة قد أصبحت عندي، مثلما هي عندها، عزيزة كما لو كانت مقدسة. في الماضي، كان هنالك غرفة محجوزة لهواية والدتها المفضّلة، إنها الآن مختبر الكيمياء؛ كانت شجرة الزيزفون علامة تميّز جانب الطريق الذي ينحدر نحو قرية «غريانزو» (بمدّ الحرف الصوتي الأخير) وتحديداً عند المنعطف الأكثر وعورة، حيث يفضّل المرء أن يركب دراجته «قدها من قرونها! (bïka za roga!)» كما أحبّ أبي المهووس بركوب الدراجة أن يقول، وهناك أيضاً تقدّم إلى أمي بعرض الزواج؛ وفي ما كان يسمى بالمتنزّه «القديم»، كان يوجد ملعب لكرة المضرب قد عفا عليه الزمن، وهو الآن مرتع للطحالب، أكوام تلال الخلد، والفطر، وقد كان في الثمانينيات والتسعينيات مركزاً لتجمع الحشود المبتهجة (وحتى والدها ذو الملامح الصارمة، كان يخلع معطفه وبكل قوّته يردّ الطابة بمضربه بعدما يخمّن اتجاهها الصحيح) ولكن حين بلغتُ العاشرة، نما العشب وطمس المعالم كما تمسح خرقة لبّاد مسألة هندسيّة عن السبّورة.

وبحلول ذلك الوقت، تمّ بناء محكمة حديثة فاخرة عند نهاية القسم «الجديد» من المتنزّه من قِبل عمّال مهرة قد تمّ جلبهم من بولندا خصيصّاً لهذه الغاية. الشبكة المعدنيّة بإحاطتها الواسعة هي ما فصل بين المحكمة وبين مروج الزهر التي أحاطت بأرضها الطينيّة. بعد ليلة رطبة، اكتسب السطح لمعاناً بنيّاً، وقد أعيدَ طلي الخطوط البيضاء بالطباشير السائلة

الموجودة في دلو أخضر، من قبل «ديمتري»، الأصغر حجماً والأكبر سناً بين البستانيين لدينا، وهو قزم وديع، ذو حذاء أسود وقميص أحمر، يتراجع ببطء إلى الخلف محدّباً ظهره، منتقلاً بفرشاته من خطّ إلى آخر. سياج شجرة البازلاء العطريّة (الأكاسيا الصفراء الخاصّة بشمال روسيا) بالشقّ الذي ينتصف جذعها متناظراً مع باب المحكمة المنخليّ، تمتد بالتوازي مع السياج الأول وصولاً لطريق يسمّى «tropinka Sfinksov» (طريق عثّة «أبو الهول») بسبب زيارة تلك الحشرات عند كلّ غسق، للزنابق الرقيقة، الممتدة على طول الحافّة المواجهة للأكاسيا، والمنتهية عند وسطها.

شكّل هذا الدرب شريطاً على شكل T كبير، وقد أصبح خطّه الأفقي ممشىً مزروعاً بالسنديان الطويل النحيل، الذي يوافق أمي عمراً، يشقّ (ما ذكرناه آنفاً) المتنزّه الجديد وعلى امتداد طوله. إن نظرتَ للطريق من أسفل قاعدة T وحتى الممشى، يمكنكَ أن تتبيّن الفواصل بين الشجيرات من على بعد ٥٠٠ ياردة، أو خمسين سنة حيث أنا الآن. كان معلّمنا آنذاك أو أبي، عند بقائه معنا في القرية، يتخّذ دائماً من أخي شريكاً له في كرة المضرب الزوجيّة العائليّة والتي يسودها الصخب. «إلعب» تصيح أمي تبعاً للطريقة القديمة متقدّمةً خطوة بقدمها الصغيرة، وحانيةً رأسها بقبعته البيضاء، لتبدأ اللعب بطابة شجاعة ولكن ضعيفة. غضبتُ منها فوراً، أما هي فقد غضبتْ من الفتييْن حافييْ الأقدام، المكلّفيْن بلمّ الطابات عن الأرض (حفيد «ديمتري» بأنفه الأفطس والأخ التوأم للجميلة «بولنكا» ابنة المدرّب). أصبح الصيف الشماليّ استوائيّاً عندما اقتربتْ مواسم الحصاد. ثبّت «سيرجي» ذو الشعر الأحمر المضرب بين ركبتيه ليمسحِ نظارته بمشقّة. تأكدتُ من وضع شبكة الفراشات مقابل السياج، في حال لزومه. كتاب «واليس مايرز»[1] عن قواعد كرة المضرب في

---

(١) واليس مايرز: ١٨٧٨ ـ ١٩٣٩ لاعب كرة مضرب إنكليزي.

ملعب مرجيّ، كان مفتوحاً فوق المقعد، وبعد كلّ تبديل، كان أبي (لاعب من الدرجة الأولى وصاحب الضربة الرائعة والمنطلقة كالمدفع بأسلوب «فرانك ريسلي»[1]) يستفسر متحذلقاً ما إذا كانت تلك الرمية «المباركة» قد أصابتني أو أصابت أخي. وفي بعض الأحيان كان الهطول المفاجئ والغزير للمطر يدفعنا للتجمّع تحت سقيفة عند زاوية المحكمة، بينما يُطلب من «ديمتري» إحضار المظلّات ومعاطف المطر من المنزل. يعود بعد ربع ساعة مغطىً بجبل من الملابس في مشهدية رائعة للجادة الطويلة التي كلّما تقدّم فيها يعود إليها الضوء كبقع جلد فهد، مع توهّج الشمس من جديد وحمولته التي فقدت لزومها.

كانت تحب المباريات التي تتطلّبُ المهارةَ والمجازفة. بيديها الخبيرتين، تتحوّل آلاف القطع من لعبة الأحاجي الصورية (puzzle) إلى مشهد صيد إنكليزيّ؛ ما كان يبدو أنه طرف حصان سيتحوّل إلى شجرة دردار، والقطعة التي حتى حينها لم يُعرف موضعها ستملأ فجوة في الخلفيّة المرقّشة، مانحةً ذاك التشويق الشهيّ لسعادة غامضة، وفوق ذلك ملموسة. خلال وقت معيّن، كانت مولعة بالبوكر، الذي وصل إلى مجتمع «سانت بطرسبرغ» من خلال الأوساط الديبلوماسيّة، كما وصلتْ معه المصطلحات الفرنسية ـ «brelan» لـ«ثلاث ورقات من فئة واحدة»، و«couleur» لـ«خمسة أوراق من فئة واحدة» وهكذا دواليك. كانت اللعبة النظاميّة للبوكر هي الرائجة، ولكن في بعض المناسبات، تبلغ الإثارة ذروتها مع لعبة جاكبوت (jackpots) أو الجوكر (joker). في المدينة، غالباً ما كانت تَلعب البوكر حتى الثالثة فجراً في بيوت الأصدقاء، إذ كان يُعتبر ترفيهاً اجتماعياً في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب العالميّة الأولى؛ ثم بعد ذلك، في المنفى، كانت (بنفس الذهول والقنوط اللذيْن

(١) فرانك ريسلي: ١٨٧٧ ـ ١٩٥٩ لاعب كرة مضرب إنكليزي.

تتذكر بهما «ديمتري») تتخيّل السائق «بيروغوف» الذي كان ينتظرها في الصقيع القارص لليلة تبدو بلا نهاية، رغم أنه، وفي حالته تلك، فإن الشاي مع الرّم في مطبخ دافئ، كان ليلطّف من صعوبة مهمّته بلا شك.

كانت اللعبة الروسيّة الأصيلة «hodit' po gribi» (البحث عن الفطر) إحدى أعظم هواياتها الصيفيّة. مقليّة بالزبدة مع إضافة القشدة الحامضة، كانت تلك اللقية اللذيذة تجد طريقها بانتظام إلى طاولة العشاء. لم تكن متعة التذوّق هي ما يعنيها، بل متعة البحث، وهذا البحث له قواعد. وهكذا، لم تكن تلتقط فطر الغاريقون[1]، بل الأنواع الصالحة للأكل من فصيلة البوليط[2] (الفطر المصفرّ، البنيّ، الأحمر، وغيره من الأنواع المشابهة) ويسمّيها البعض الفطر الاسطوانيّ، أما علماء الفطريّات فقد أطلقوا تعريفات علميّة جافّة، الفطر الأرضي، اللحيم، التعفّني، والفطر ذو الساق المركزية. غطاء الفطر الملتصق بإحكام عند الحبّات حديثة الظهور، يصبح قبّة متينة ومكتنزة مع نضوجها ـ ترتكز على قاعدة مصقولة (ليست برقيقة) نظيفة وقويّة. ببساطة الشكل الكلاسيكيّة، يختلف فطر البوليط بوضوح عن الفطر العاديّ ذي الخياشيم المضحكة والحلقة الواهنة المحيطة برأس ساقه. رغم ذلك، بمقارنته مع الفطر الوضيع والقبيح، عند الشعوب ذات الذائقة المحدودة التي تقيّد معرفتهم وشهيّتهم، كما عوام الأنغلو ـ أمريكيّة، فإنه لا يُنظر إلى البوليط الأرستقراطيّ إلا كفطر سام قد تمّ تعديله.

الجوّ الممطر كفيل بجعل تلك النباتات الجميلة تبرز بغزارة تحت التنوبِ، البتولا، والحور الرجراج الموجودين في متنزّهنا، وخاصة في أجزائه الأكثر قِدماً، شرق طريق النقل الذي قسمه إلى قسمين. الخبايا

---

(١) و(٢) غاريقون وبوليط: بعض أنواع الفطر.

الظليلة هي مأوىً لذلك البوليط الخاص ذي الرائحة العفنة، التي تعرف طريقها إلى فتحات أنف الروسي المتوسّعة ـ روائح فطر قاتم، رطب، ومزيح من الطحالب المبلّلة المبهجة، أرض غنيّة، وأوراق عفنة. ولكن عليك أن تمعن النظر، وعلى أقلّ من مهلك، ما بين الشجيرات الرطبة، وما إن تظهر عائلة مذهلة من براعم الفطر ذي القبّعة، أو أخرى بتنوّعها الرخاميّ، عليك أن تنحني لتنتزعها بكل رفق.

في فترات ما بعد الظهيرة الغائمة، وتحت الرذاذ، كانت أمي تذهب وحدها حاملةً سلّة (استخدمها أحدهم لقطف التوت البرّي ولطّخ داخلها بالأزرق)، وتنطلق في جولة طويلة للبحث عن الفطر. قبل وقت العشاء، تنبثق صورتها من عمق الضباب في آخر ممشى الحديقة، جسد صغير يغطّيه رداء صوف بنّي مائل إلى الخضرة، تتقاطر منه حبات لا تحصى من الرذاذ الرطب، مشكّلة غشاوة حولها. عند خروجها من تحت الشجر الذي يدلف، كانت ترميني بنظرة غريبة، توحي بتبرّم من لم يحالفه الحظ، ولكني كنت أعرف تلك التعابير، إنها القدرة على كبح التهلّل الذي يبديه وجه صيّاد نجح في مهمته. قبل أن تصل نحوي، وبحركة مفاجئة، تحني ذراعها وكتفها مع «بوف» تنهيدة تعب مبالغ فيها، تدلي سلّتها لتبرز ما فيها، لا أروع من تلك الحمولة!

قرب مقعد الحديقة الأبيض، وعلى طاولة حديديّة مستديرة، تضع حبّات البوليط في مجموعات دائريّة لتفرزها وتعدّها. تستبعد الحبّات القديمة، الاسفنجيّة والدّاكنة، وتستبقي الجديدة والنضرة. للحظة، قبل أن يأخذ الخادم الفطر إلى مكان لا تعرف أمي عنه شيئاً، ونحو قَدَر لا يعنيها، كانت تقف وتتأمّله بنظرة رضىً هادئة. كما يحدث غالباً في نهاية يوم ممطر، فإن الشمس قد تلقي نوراً متوهّجاً قبل المغيب، وعندها، وعلى الطاولة المستديرة الرطبة، يظلّ ما بقي من الفطر ملقىً، بألوانه الكثيرة، تحمل بعضُ حبّاته بقايا نباتات خارجيّة، ورقة عشب ملتصق

بالقبّة الصفراء اللزجة، أو طحلب يغطّي القاعدة البصليّة للسّاق الداكن. وقد يوجد أيضاً يسروع صغير جداً، يمشي فوق حافة الطاولة، كطفل صغير يستخدم إبهامه والسبّابة ليقيس شيئاً، وبين الحين والآخر، يمدّ جسمه عبثاً في الهواء، بحثاً عن الجنبة التي طُرد منها.

٤

لم يتوقّف الأمر على عدم زيارة والدتي للمطبخ أو لقاعة الخدم، بل بقاء هذين المكانيْن خارج نطاق اهتمامها كما لو كانا الغرف المقابلة لنزلاءٍ في فندق. لم يكن لوالدي، أيضاً، ميلٌ لإدارة المنزل. لكنّه كان يصدر التعليمات فيما يخصّ الوجبات. مع تنهيدة خفيفة، كان يفتح ألبوماً قد وضعه كبير الخدم فوق الطاولة بعد تقديم التحلية، وبخطّ يده الأنيق والمنساب يكتب قائمة الطعام لليوم التالي. كان لديه عادة مميّزة إذ يترك قلم الرصاص أو الحبر يهتز فوق الورقة، بينما يفكّر مليّاً في الكلمة التالية التي سيخطّها. بإيماءة غامضة، تقبل أمي باقتراحاته أو تبدي امتعاضها. شكليّاً، كانت أمور التدبير المنزليّ منوطة بمربّيتها السّابقة، وكانت في ذاك الوقت، عجوز كئيبة، مغضّنة بشكل لا يُصدّق (وُلدت في العبودية حوالي ١٨٣٠)، لها وجه سلحفاة حزينة وأقدام ضخمة تجرّها أثناء مشيها. كانت ترتدي ثوب راهبات بنّي، وتصدر منها رائحة خفيفة ولكن لا تُنسى، للقهوة والعفن. كانت تهنئتها المريعة لنا في أعياد ميلادنا أو أعياد القديسين الخاصة بكلّ منّا، عبارة عن قبلة قد ورثتْ طريقتها من أيام عبوديتها، تطبعها فوق أكتافنا. مع تقدمها في السنّ، تطوّرتِ لديها حالة بخلٍ مرضيّة، خاصة فيما يخصّ الحلويات والمربّيات، ورويداً رويداً، وبموافقة أهلي، صارت بعض تحضيرات الخدم تُقام سرّاً، وتدخل حيّز التنفيذ بهدوء تام. جاهلةً بما يجري (كانت معرفتها لتفطر فؤادها)، بقيت معلّقة ـ إذا جاز التعبير ـ بحلقة المفاتيح

الخاصة بها، بينما كانت أمي تختار أفضل ما يمكن من كلمات مريحة لتهدئ الشكوك التي تخطر ببال عجوز مثلها من حينٍ لآخر. اعتبرتْ نفسها المسؤولة الوحيدة عن تدبير أمور مملكتها الصغيرة، البائدة والنائية، والتي كانت تظنّها حقيقيّة (ولو كان الأمر كذلك لمتنا من الجوع)، وكانت كلّما وجدتْ نصف تفاحة أو قطع بسكويت مكسّرة، تحملها وتمشي بثبات في الممرات الطويلة بحثاً عن مخزنٍ لها، متبوعة بنظرات الخدم الساخرة.

في تلك الأثناء، وبوجود طاقم دائم من حوالي خمسين خادم غير مراقَبين، فإن بيتنا في المدينة ومنطقتنا في القرية، كانا مسرحيْن لحفلات صاخبة من السرقة. وفي ذلك الأمر، وفقاً لرأي العمّات الفضوليّات اللواتي لم يأخذ برأيهن أحد، والذي ثبتت صحّته في نهاية الأمر، فقد اتّضح أن رئيس الطبّاخين «نيكولاي آندريفيتش» و«إيغور» رئيس البستانيين، الرجلان الرصينان، بنظاراتهما وصدغيهما الأشيبين الموحيْن بالوقار، هما العقل المدبر لكل السرقات. عندما كان والدي، رجل الدولة والضليع في القانون، يواجه فواتير عالية وغير مفسّرة، أو اختفاء مفاجئ لفراولة وخوخ الحديقة، كان يغتاظ جداً لكونه غير قادرٍ على ضبط أمور منزله الاقتصاديّة؛ ولكنه كلما اقترب من حلّ لغز السرقة، منعه الشكّ والحيرة من اتخاذ أيّ إجراء. حين أراد مرّة طرد أحد الخم الأنذال مدفوعاً بحسّه السليم، عرف أن ابن المتهم ذا العينين السوداويْن مصابٌ بمرض خطير، فما كان منه إلاّ أن استدعى أفضل أطبّاء المدينة، واضعاً علاجه فوق كلّ اعتبار. بناء على كلّ ما تقدّم، فضّل والدي أن يبقي الإدارة المنزلية في حالة ضعيفة التوازن (لا تخلو من روح الفكاهة) بينما تستمدّ والدتي راحة كبيرة من أملها بعدم المساس بالعالم الخياليّ لمربيتها المسنّة.

عرفتْ أمي جيداً كم أن الخديعة مؤلمة. قد تصل عندها أبعاد أتفه

خيبة أمل إلى كارثة حقيقيّة. عشيّة أحد أعياد الميلاد، في «فيرا»، ليس قبل أن تضع مولودها الرابع بكثير، لازمت أمي سريرها بسبب عارضٍ طفيف وجعلتنا أنا وأخي (بأعمارنا المتلاحقة، خمسة وستة أعوام) نعدها أن لا ننظر داخل جوارب عيد الميلاد التي سنجدها معلّقة بقوائم أسرّتنا في الصباح التالي، بل أن نأتي بها إلى غرفتها ونتحقق مما فيها هناك، لتستمتع أثناء مشاهدة بهجتنا. عند استيقاظنا، عقدتُ وأخي مؤتمراً سرياً، ثم، وبأيدٍ حريصة، تلمّس كلّ منا طقطقة جوربه المبهج، الممتلئ بالهدايا الصغيرة؛ الهدايا التي بدأنا باستخراجها الواحدة تلو الأخرى، نفكّ الأنشوطة، ننزع الغلاف، ونتفحّص المحتويات تحت الضوء الضعيف القادم من شقّ مصراع النافذة، نلفّ كل شيء من جديد ليعود كما كان، ونحشد الهدايا ثانية حيث كانت. أذكر بعدها جلوسنا فوق سرير أمي، حاملَيْن تلك الجوارب الصوفيّة وباذلَيْن أقصى ما بوسعنا لنهبَ أمي رؤية العرض الذي رغبتْ به. لكننا كنا قد أفسدنا الأغلفة كلياً، ولم نظهر الخبرة الكافية لادّعائنا حماس المفاجأة (أرى أخي يرفع عينيه للأعلى، ويهتف مقلّداً مربيتنا الفرنسية: «Ah, que c'est beau!»، يا للروعة!»)، وبعد دقيقة من مراقبتنا، أجهشتْ مشاهدتُنا الوحيدة بالبكاء. مرّ عقدٌ من الزمن. بدأتْ الحرب العالمية الأولى. احتشد المواطنون وبينهم خالي «روكا» أمام السفارة الألمانيّة ورموها بالحجارة. تحوّلت «بطرسبرغ» إلى «بتروغراد» مخالفةً كل قواعد أولويّات التسمية. تبيّن أن «بيتهوفن» هولنديّ. بدأت الأفلام الاخباريّة بتصوير انفجارات، إطلاق مدافع، «Poincaré[1] بوانكاريه» في طماقه الجلديّ، برك قاتمة، بكر القيصرِ المسكين بزيّه الشركسيّ مع الخنجر والخراطيش، أخواته الطويلات بفستانيهن المبتذلة، وقطارات طويلة مكتظّة بالعساكر. أقامت

(١) وانكاريه: ١٨٥٤ ـ ١٩١٢ عالم فرنسي في مجال الرياضيات.

أمي مشفىً خاص لمعالجة جرحى الجنود. أذكرها، بزيّ التمريض الرائج وقتذاك بلونيه الأبيض والرمادي وقد كرهتْه، تستنكر بنفس الدموع الطفولية، الخنوع المبهم للفلاحين مبتوري الأرجل، وعدم جدوى الشفقة العابرة. وبقيتْ حتى وقت لاحق، إبّان إقامتها في المنفى تسترجع ماضيها، غالباً ما تجلد ذاتها (وهذا ما لا أراه اليوم عادلاً) لأنها لم تشاطر الإنسان بؤسه إلا من خلال حساسية مفرطة، عادةً ما يرمي الإنسان بالفائض منها للطبيعة البريئة ـ أشجار قديمة، وعجائز الأحصنة والكلاب.

ولعُها الكبير بكلبها «الداشهاند» البنّي قد حيّر عمّاتي الفضوليّات. في ألبومات العائلة حيث صورها بعمرها الفتيّ، لا تكاد توجد مجموعة إلاّ وتحوي حيواناً مماثلاً ـ يظهر عادة بجزء من جسمه المرن والملطّخ، وبعينيّ «الداشهاند» الغريبتين والمذعورتين أبداً عند التقاط الصورة. زوجان سمينان من الكلاب المسنّة، «بوكس ١» و«لولو»، كانا يمكثان مسترخييْن فوق الشرفة ينعمان بأشعّة الشمس عندما كنت صغيراً. ذات مرّة عام ١٩٠٤، اشترى أبي من عرضٍ للكلاب في «ميونخ» جرواً شرساً ولكنه رائع المظهر وقد أسميته «تريني» (وجدته شبيهاً بمقصورات النوم البنيَة والطويلة). من أجمل مقطوعات الموسيقى التي أحفظها من طفولتي، صوت لسان «تريني» الهيستيريّ، على درب مطاردته المستعصية لأرنب، في عمق متنزّه «فيرا»، ليعود عند الغسق (بعد أن بقيت أمي القلقة تصفر مطوّلاً وهي تنتظر عند شجرات البلوط) حاملاً بين فكّيه جثة خلدٍ قديمة وحسكات نبات شائكة عالقة في أذنيه. حوالي عام ١٩١٥، شُلّت ساقاه الخلفيّتان، وإلى أن تمّ تخديره بالكلوروفورم(١)، كان منظره أثناء زحفه فوق الأرضيّة اللامعة وكأنه

---

(١) تخدير الكلوروفورم: وسيلة للموت الرحيم الخاص بالحيوانات الأليفة.

كسيح، يفطر الفؤاد. ثم بعد ذلك أعطانا أحدهم جرواً آخراً، «بوكس٢» وهو حفيد «كينا» و«بروم»، كلبيّ الطبيب «أنطون تشيخوف». صحبَنا هذا «الداشهاند» الأخير إلى المنفى، وفي أواخر عام ١٩٣٠، في إحدى ضواحي «براغ» (حيث قضت أمي الأرملة آخر سنوات حياتها، معتمدة على راتب تقاعد تزوّدها به الحكومة التشيكيّة)، بقي يُشاهد في نزهات إكراهيّة مع سيدته، يتهادى خلفها بمزاج الكلب العجوز، النزق، والغاضب من الكمامة الشبكيّة ـ كلب مهاجر مجبر على ارتداء معطفٍ مرقّع لا يناسبه.

اعتدتُ وأخي خلال آخر عامين لنا في «كامبريدج»، قضاء العطلات في «برلين»، حيث قطن والدانا مع أختينا و«كيريل» البالغ عشرة أعوام، في شقّة واسعة، كئيبة وبرجوازيّة، كنت قد وهبتها للعديد من عائلات المهاجرين في رواياتي وقصصي القصيرة. في ليلة ٢٨ مارس، ١٩٢٢، حوالي الساعة العاشرة، في غرفة المعيشة حيث تستلقي أمي كعادتها فوق أريكة الزاوية الفخمة الحمراء، كنت أقرأ لها بعض أبيات من شعر «بلوك»[(١)] بالإيطاليّة، وكنت قد وصلت إلى نهاية قصيدة قد كتبها عن «فلورنسا»، يشبّهها بحدقة عين ناعمة، حسّاسة، يملأها الدخان، فقالت بينما كانت تحيك «أجل أجل، إنها كذلك، كم هو محق! أنا أذكرها». في تلك اللحظة بالذات رنّ الهاتف.

بعد انتقالها إلى «براغ» عام ١٩٢٣، عشتُ بين فرنسا وألمانيا ولم أزرها كثيراً؛ ولم أكن إلى جانبها حين ماتت عشيّة الحرب العالمية الثانية. كلّما تمكّنت من الذهاب إلى «براغ»، يعاودني في اللحظات الأولِى ذاك الانقباض الذي نشعر به عندما يعود الزمن، وعلى حين غرّة، ليتّشح بأقنعته المألوفة. تشاركتْ مسكنها المزري مع أعزّ مرافقاتها،

(١) ألكسندر بلوك: ١٨٨٠ ـ ١٩٢١ شاعر روسي.

«إفغينيا قسطنطينوفنا هوفلد» (١٨٨٤ ـ ١٩٥٧)، والتي، عام ١٩١٤، قد حلّت مكان الآنسة «غرينوود» (التي بدورها حلّت مكان الآنسة «لافينغتون») مربّية شقيقتيْ («أولغا» المولودة في ٥ يناير ١٩٠٣، و«ايلينا» المولودة في ٣١ مارس ١٩٠٦)، وفي ذلك السكن يوجد ألبومات، قد نسخت عليها خلال آخر سنوات عمرها، قصائدها المفضّلة، من «مايكوف»[١] وصولاً إلى «ماياكوفسكي»[٢]، وقد تُركتْ مبعثرة فوق ما تبقى من أثاثها المستعمل البالي. جبيرة يد أبي ولوحة مائيّة تصوّر دفنه في المقبرة اليونانيّة الكاثوليكيّة في «تيغيل»، والتي هي اليوم في «برلين الشرقيّة»، موجودة فوق رفّ مخصّص لكتب أدباء المهجر، والتي أصبحت، بأغلفتها الورقيّة الرخيصة، عرضة للاهتراء. صندوق صابون مغطىً بقماشة خضراء، وُضع كدعامة خلف الصور الصغيرة ذات الأطر المتداعية، التي أحبّت أن تبقيها قريبة من أريكتها. لم تكن تلك الصور هي ما تحتاجه حقاً، فذاكرتها لم تُضع أيّاً منها. وكمجموعة مسافرة من الممثلين، الذين يحملون معهم أينما ذهبوا، إضافة لأدوارهم التي يحفظونها، أراضٍ جرداء تضربها الريح، قلعة ضبابيّة، جزيرة مسحورة، كذلك فعلتْ هي مع كل ما حفظتْ روحها من ذكريات. بصفاء تام، يمكنني رؤيتها جالسة إلى الطاولة، ترتّب بعناية أوراق لعب السوليتير: تتكئ على كوعها الأيسر، وتضغط إبهامها وإصبعين على خدّها، وتحمل قريباً من فمها لفافة تبغ بالأصبعيْن الحرّين، بينما تمدّ يدها اليمنى نحو الورقة التالية. خاتمان زواج يلمعان في خنصرها ـ خاتمها وخاتم أبي الواسع، يربطهما معاً خيط أسود.

ما رأيت الأموات مرة في أحلامي إلا وكانوا صامتين، مزعوجين،

(١) أبولون مايكوف: ١٨٢١ ـ ١٨٩٧ شاعر روسي.
(٢) فلاديمير مياكوفسكي: ١٨٩٣ ـ ١٩٣٠ شاعر روسي.

تكلّلهم كآبة غريبة، بعكس طبيعتهم الحقيقية التي أعرفها، وأحبها جداً. أكون واعٍ لهم، دون أدنى ذهول، وأراهم في أمكنة لم يسبق أن تواجدوا فيها خلالَ حياتهم الدنيويّة، أو في بيت أحد أصدقائي الذين لم يزوروهم قط. يجلسون منفردين، رؤوسهم منخفضة ويحدّقون في الأرض بأجفان شبه مغلقة، كما لو أنّ الموت سرّ عائلي مخزٍي. ليس حينئذ، ليس في الأحلام - بل عند الصحو الكامل، وفي لحظات الفرح والإنجازات العارمة، عندها فقط نقف عند أعلى شرفات الوعي، لنمعن النظر فيما وراء الفناء، بساريته المنصوبة فوق قلعة الماضي. ورغم أنه لا يمكن رؤية الكثير من خلال الضباب، ولكن مجرد معرفتنا أننا ننظر في الاتجاه الصحيح، كفيلة بإبهاجنا.

الفصل الثالث

١

من يصف «شعار نبالة» دون أن يمتلك الخبرة الكافية بتلك النقوش، يشبه مسافراً من القرون الوسطى عاد من الشرق الأوسط متأثراً بكتب الخرافات المتناقلة عن حيوانات تلك المنطقة أكثر مما يتأثر بعلم الحيوان والاكتشافات المباشرة. وهكذا، فإنني في أول نسخة لهذا الفصل، وعند وصف شعار النبالة الخاص بآل «نابوكوف» (الموصوف منذ عدة سنوات بغيرما عناية بسبب اهتمامي بتوافه عائلية أخرى) فإني بطريقة ما، نقلت صورة دبّين أمام المدفأة وبينهما رقعة شطرنج. أعدت النظر من جديد إلى هذا الشعار، فشعرت بالخيبة لاكتشافي أن الدبّين ليسا إلا أسدين ـ أو ربما وحشان بنّيان، غزيرا الوبر ولكن من المؤكد أن لا علاقة لهما بالدببة ـ يلعقان فكيّهما، حذران، واقفان على قوائهما ليبرز كلّ منهما وبتعالٍ ترس فارس عتيد، يُظهر ستة عشر مربع شطرنج، ملوّنين بالتناوب ما بين اللازورديّ والأحمر، وصليب متساوي الأطراف، يدخل اللون الفضيّ في كلٍ من مستطيلاته. وفي الأسفل يُرى ما تبقّى من الفارس: خوذته الصلبة، درع لا يُخترق، وكذلك يدٌ شجاعة تخرج من وراء زخارف ونقوش، لازورديّة وحمراء، ملوّحة بسيف قصير نُقش فوقه «Za hrabrost» «باسم الشجاعة».

وفقاً لابن عمي أبي الأوّل «فلاديمير فيكتوروفيتش غولوبتسوف»، عاشق الآثار الروسيّة، والذي استشرتُه عام ١٩٣٠، فإن مؤسس عائلتنا هو «نابوك مورزا» (حوالي ١٣٨٠)، أمير التتار الروسيّ في «موسكوفي». أخبرني ابن عمّي الأوّل، «سيرجي سيرجيفيتش نابوكوف»، الخبير بعلم الأنساب، أن أجدادنا قد تملّكوا أراضي في إمارة «موسكو» خلال القرن الخامس عشر. أعاد إليّ وثيقة (نشرها «يوشكوف» في «الأحداث مابين القرن الثالث عشر والسابع عشر»، «موسكو» ١٨٩٩) متعلّقة بشجار ريفيّ عام ١٤٩٤، في ظلّ حكم «إيفان الثالث»، بين الإقطاعيّ «كولياكين» وجيرانه: «فيلات»، «إيفدوكيم» و«فلاس»، أبناء «لوكا نابوكوف». خلال القرون اللاحقة كان رجال آل «نابوكوف» مسؤولين حكوميين وحربيين. كان جدّي الكبير الجنرال «آلكسندر ايفانوفيتش نابوكوف» (١٧٤٩ ـ ١٨٠٧)، في عهد «بول الأوّل»، رئيس فوج حامية «نوفغورود» وهو مسجّلٌ في الوثائق الرسميّة باسم «فوج نابوكوف». وأصبح ابنه الأصغر، والد جدّي، الشاب «نيكولاي أليكساندروفيتش نابوكوف»، ضابط بحريّة عام ١٨١٧، وشارك مع الأدميرال المستقبلي البارون «فون رانجيل» ونظيره الكونت «ليتكيه»، وبقيادة الكابتن (والأدميرال لاحقاً) «فاسيلي ميهايلوفيتش غولوفنين»، في رحلة استكشافية لخريطة «نوفا زيمبلا» (من جميع الأماكن) وقد اكتسب نهر «نابوكوف» اسمه تيمّناً بأحد أسلافي. بقي اسم قائد الحملة محفوظاً في عدّة أماكن، أحدها بحيرة «غولوفنين»، شبه جزيرة «سيوارد»، غرب «آلاسكا»، حيث هناك، عثر الدكتور «هولاند»[1] على فراشة «*Parnassius phoebus golovinus*» (ذات تصنيف عال) ووصفها؛ أمّا والد جدّي، فلم يكن لديه ما يستعرضه إلاّ

(١) ويليام هولاند: ١٨٤٨ ـ ١٩٣٢ إحائي، وعالم حشرات، وعالم حيوان وأستاذ جامعي، من الولايات المتحدة الأمريكية.

ذاك النهر الصغير الأزرق، لا بل يكاد يكون نيلياً زاخراً، المتعرّج بين الصخور الرطبة؛ سرعان ما غادر البحرية، إذ «لم يؤاتيه ركوب البحر» (كما أخبرني ابن عمّي «سيرجي سيرجيفيتش»)، وانتقل إلى حرس «موسكو». تزوج من «آنّا آليكساندروفنا نازيموف» (شقيقة أحد الثوار الديسمبريين)[١]. لا أعرف شيئاً عن حياته العسكريّة، ولكن بكلّ الأحوال، لا وجه للمقارنة بينه وبين أخيه «إيفان أليكساندروفيتش نابوكوف» (١٧٨٧ ـ ١٨٥٢)، أحد أبطال الحروب المناهضة لـ«نابليون»، وقد أصبح في سنّ متأخرة، قائد قلعة «بيتر وبول» في «سانت بطرسبرغ» (عام ١٨٤٩)، وكان أحد سجنائه «دوستويفسكي»، الذي كتب رواية «الشبيه» وغيرها من الروايات، وكان الجنرال اللطيف يقرضه الكتب إبّان سجنه. ولكن ما هو أكثر غرابة، زواجه من «Ekaterina Pushchin ايكاتيرينا بوشكين»، شقيقة «Ivan Pushchin إيفان بوشكين»، زميل الدراسة والصديق المقرّب لـ«Pushkin بوشكين»[٢]. أرجو أن ينتبه طابعو هذا الكتاب لفارق الكتابة، مرتان كُتبت كلمة بوشكين بـchin في نهايتها، ومرة واحدة kin.

ابن أخ «إيفان» والذي يكون ابن «نيكولاي»، هو من يكون جدّي «ديمتري نابوكوف» (١٨٢٧ ـ ١٩٠٤)، وزير العدل لثمان سنوات، في ظلّ حكم اثنين من القياصرة. تزوج (٢٤ سبتمبر ١٨٥٩) من «ماريا» ذات السبعة عشر ربيعاً، ابنة البارون «فرديناند نيكولاس فيكتور فون كورف» (١٨٠٥ ـ ١٨٦٩)، وهو جنرال ألمانيّ في الجيش الرّوسيّ.

في العائلات القديمة المتلاحمة بثبات، تتكرّر بعض سمات الوجوه

---

(١) ثورة الديسمبريين: ١٤ ديسمبر ١٨٢٥، ثورة في الإمبراطورية الروسية ضد تولي القيصر نيكولا الأوّل العرش بعد تنحي أخيه الأكبر قسطنطين بافلوفتش عن قائمة ولاة العهد.

(٢) بوشكين: المقصود أكسندر بوشكين شاعر روسيا، وهو روائي ومسرحي أيضاً.

كعلامات دالّة على الأصل. فالأنف عند آل «نابوكوف» (أنف جدّي على سبيل المثال) روسيّ النمط، برأسه المدوّر، الليّن والمقلوب، والانحدار الجانبي الخفيف لقصبته؛ أمّا أنف آل «كورف» (كأنفي مثلاً) فهو ألمانيّ أنيق بارز العظمة، رقيق الانحراف، واسع الفتحات، مكتنز الرأس. المتغطرسون من آل «نابوكوف»، لديهم تلك الحواجب الكثيفة إلى حدّ ما، التي ترتفع ثم تتلاشى عند الصدغين؛ بينما الحواجب عند آل «كورف» فهي ذات تقوّسٍ أكثر دقّة ولكنها رقيقة. رغم تلاشي صور آل «نابوكوف» في الظلال على مرّ الزمن، إلا أنهم يعودون للانضمام إلى الصور القاتمة لآل «روكافيتشينيكوف»، الذين أرى بينهم والدتي وشقيقها «فاسيلي»، وهي عيّنة رقيقة جدّا لا تصلح لتزويد النص بها. من جهة أخرى، أرى وبوضوح، صور نساء سلالة «كورف»، فتيات جميلات بألوان الورود والزنابق، عظام وجوههن المتورّدة بارزة، عيونهن صافية الزرقة، مع حبّة خال جميلة فوق الخد، كل تلك الصفات كانت كعلامة فارقة، ورثَها وبدرجات متفاوتة كل من جدّتي، والدي، ثلاثة أو أربعة من أقربائه، بعض من أبناء عمومتي الخمس والعشرين، أختي الصغرى وابني «ديمتري»، ليكونوا أقلّ أو أكثر شبهاً بتلك النسخة.

وُلد والد جدّي الألمانيّ، البارون «فرديناند فون كورف»، الذي تزوّج «نينا آليكساندروفنا تشيخوف» (١٨١٩ ـ ١٨٩٥)، في «كونيغسبرغ» عام ١٨٠٥، وبعد حياة عسكرية تملؤها النجاحات المهنيّة، توفّي عام ١٨٦٩، في أرض تملكها زوجته فوق ضفاف الـ«فولغا»، بالقرب من «ساراتوف». كان حفيداً لـ «فيلهلم كارل»، بارون «فون كورف» (١٧٣٩ ـ ١٧٩٩)، و«إيليونور مارغريت»، بارونة «فون دير أوستن ساكين» (١٧٣١ ـ ١٧٨٦)، كذلك هو ابنٌ لـ«نيكولاس فون كورف»، (المتوفي عام ١٨١٢)، والذي كان رائداً في الجيش البروسيّ، و«أنطوانيت

تيودورا غرون» (المتوفية عام ١٨٥٩) حفيدة «كارل هينريش غرون»، المؤلّف الموسيقيّ.

والدة «أنطوانيت»، «إليزابيث فيشر» (مواليد ١٧٦٠)، كانت ابنة «ريجينا هارتونغ» (١٧٣٢ ـ ١٨٠٥)، ابنة «جوهان هينريش هارتونغ» (١٦٩٩ ـ ١٧٦٥)، رئيس تحرير دار نشر مشهورة في «كونيغسبرغ». كانت «إليزابيث» ذائعة الصيت بجمالها. بعد طلاقها عام ١٧٩٥ من زوجها الأوّل، «جازتيزرات غرون»، ابن المؤلّف الموسيقي، تزوجت من الشاعر «كريستيان أوغست فون ستاغمان»، الذي لم يكن قد بلغ سنّ الرشد بعد، وكانت بالنسبة له «الأم الصديقة»، التعبير الذي أقتبسُهُ عن مصدري للمعلومات الألمانيّة، وكان قد أخبرني أيضاً عن كاتب أكثر شهرة، «هينريش فون كليست» (١٧٧٧ ـ ١٨١١)، الذي وبعمر الثالثة والثلاثين، قد وقع في غرام ابنتها الكبرى ذات الاثني عشر ربيعاً، «هيدويج ماري» («فون أولفرز» لاحقاً). يُقال إنه ذهب لوداع العائلة قبل الرحيل إلى «وانسيي»، حيث كان قد اتّفق مع سيّدة مريضة على أن تساعده بالانتحار، لكنها لم تنفذ الخطة، إذ أنّ ذاك اليوم كان مخصصاً للغسيل في منزل «ستاغمان». عدد وتنوّع العلاقات المحفوظة في الوثائق عن أجدادي، هما فعلاً أمر لافت للنظر.

وُلد «كارل هينريش غرون»، والد جدّ «فرديناند فون كورف» والذي هو والد جدّي، عام ١٧٠١ في «فارنبروك»، ولاية «ساكسونيا». والده «أوغست غرون» (مواليد ١٦٧٠) كان المسؤول عن الضرائب، («Königlicher Polnischer und Kurfürstliche Sächsischer Akziseneinnehmer») يحمل نفس اسم ملك بولندا، «أوغست الثاني») ويتحدّر من سلالة قساوسة طويلة. جدّ جدّه «وولفغانغ غرون»، كان، في عام ١٥٧٥، عازف أرغن في «بلاوين»، قرب «فارنبروك»، حيث يوجد تمثال لسليله، المؤلف الموسيقي، وسط حديقة عامّة. توفي «كارل هينريش غرون» عن عمر

يناهز ٥٨ عام ١٨٥٩، في «برلين»، حيث وقبل سبعة عشر عاماً، افتُتحت دار الأوبرا بسمفونيته «القيصر وكليوبترا». كان واحداً من أبرز ملحني عصره، لا بل من أعظمهم، وفقاً لأرشيف النعوات المحليّة، الذي يوثّق تعازي الرعيّة الملكيّة. في إحدى لوحات «مينزيل»[1] التي يصوّر فيها «فريدريك» أحد أهم عازفي سمفونيات «غرون» على آلة الفلوت، يظهر «غرون» (بعد موته) حيث يقف بعيداً، مكتوف الأيدي؛ بقيتْ عدة نسخات من تلك اللوحة تلاحقني في كل النزل الألمانية التي أقمتُ فيها خلال سنوات المنفى. أُخبرتُ بوجود لوحة معاصرة في قصر «سان سوسي» في «بوتسدام»، يظهر فيها «غرون» مع زوجته، «دوروثيا ريهكوب»، يجلسان معاً أمام لوحة المفاتيح ذاتها. غالباً ما تقدّم الموسوعات الموسيقيّة صورته في أوبرا «برلين» حيث يبدو شبيهاً جداً بالمؤلف الموسيقي «نيكولاي دمتريفيش نابوكوف»، ابن عمّي الأوّل. وصلتني نسخة، بسعر ٢٥٠ دولاراً، لكلّ تلك الحفلات التي أحياها تحت الأسقف الملوّنة في الماضي الذهبيّ، وكنت حينها في «برلين» الهيتلريّة عام ١٩٣٦، عندما ورثتْ عائلة «غرون» مجموعة كبيرة من علب التبغ القيّمة وكثيراً من مقتنيات الزينة الثمينة، التي وصلت قيمتها، بعد تبديل الكثير من الرؤساء لبنك بروسيا المركزيّ، إلى ٤٣,٠٠٠ ريشمارك (ما يعادل ١٠,٠٠٠ دولار أمريكي)، وقد وُزعت بين أحفاد الموسيقار البخيل: «فون كورف»، «فون فيسمان» و«نابوكوف كلانز» (أما الوريث الرابع، المنحدر من سلالة الكونت «آسيناري دي سان»، فكان قد توفي).

بقيِ في الملفّات القضائية في باريس بعض أثر يقود لاثنتين من بارونات «فون كورف». إحداهما «آنّا كريستينا ستيغلمان»، ابنة مصرفيّ

(١) أدولف فون مينزيل: ١٨١٥ ـ ١٩٠٥ رسام ألماني.

سويديّ، كانت أرملة البارون «فرومهولد كريستيان فون كورف»، وهو كولونيل في الجيش الروسيّ، ويكون في الوقت ذاته عمُّ عمّ جدتي. كانت «آنّا كريستينا» أيضاً، نسيبة أو ربما حبيبة، أو ربما الاثنتيْن معاً، لجنديّ آخر، الكونت «آكسيل فون فيرسن» الشهير؛ وكانت هي، في «باريس» ١٧٩١، من ساعد في هروب العائلة الملكيّة إلى «فارين» عندما أعارتهم جواز سفرها وعربتها الجديدة المخصّصة للسفر (عربة فخمة ذات عجلات حمراء مرتفعة، منجّدة بالمخمل الأبيض المستورد من «أوتريخت»، مع ستائر خضراء داكنة وكلّ وسائل الراحة المتاحة في ذاك العصر، بما في ذلك إناء زهور مخصص للسفر)، فانتحلتْ الملكة شخصيتها، أما الملك فادّعى أنه معلّم الولدين. أمّا القصّة الأخرى المذكورة في سجلّات الشرطة لا تنطوي على أحداث دراميّة كهذه.

مع اقتراب أسبوع الكرنفالات في «باريس»، منذ أكثر من مائة عام، دعا الكونت «دي موراي» سيدة نبيلة موفدة من روسيا في ذاك الشتاء، إلى حفلة راقصة تُقام في منزله (كما ذُكر في نشرة «la Gazette du Palais»، في القسم المصوّر ص. ٢٥١، عام ١٨٥٩). كانت تلك هي «نينا»، بارونة «فون كورف»، التي سبق أن ذكرتها؛ أما أصغر بناتها، «ماريا» (١٨٤٢ ـ ١٩٢٦)، فقد تزوّجت خلال شهر سبتمبر من العام ذاته، (١٨٥٩)، «ديمتري نيكولايفيتش نابوكوف» (١٨٢٧ ـ ١٩٠٤)، صديق لعائلتها وكان متواجداً في «باريس» في الوقت ذاته. من أجل حضور الحفلة الراقصة، أوصتْ هذه السيدة أحد المتاجر، بخياطة ثوبيْن جديدين مزهّرين لـ«أولغا» و«ماريا»، بكلفة مئتيْ وعشرين فرنكاً لكل منهما. تلك الكلفة، وكما وصفها الصحافي بكل عفوية، تعادل قيمة إنفاق الأب «كريبين»[(١)] على طعامه وسكنه لمدة ستمائة وثلاث وأربعين

(١) الأب كريبين: مواطن فرنسي من ليون اشتهر بهذا الاسم وهو مثال للرجل الثري البخيل.

يوماً، الأمر الذي يبدو غير مقبول أبداً. عندما جهز الثوبان، وجدت السيدة «فون كورف» أن فتحتيْ الصدر واسعتان جداً فرفضتهما. أرسلت الخياطة إليها مأمور الشرطة، مصحوباً بالضجيج والفضيحة، فما كان من جدّة جدّتي (الجميلة والحنونة ولكن يؤسفني القول، تبيّن بعد موقفها تجاه الثوبين، أنها كانت تفتقر للأخلاق) إلاّ أن لاحقت الخياطة وقاضتها بعطل وضرر.

ادّعت أن الآنستان العاملتان في متجر الخياطة، اللتان أحضرتا الفستانيْن، كانتا «عاهرتيْن»، وأنهما، ردّاً على ما قالته الأم عن الفساتين بأنّها غير محتشمة ولا يليق بآنسات نبيلات ومحترمات كبناتها ارتداؤها، تجرّأتا على ازدرائها والتباهي بنظريات الديمقراطيّة التي تؤمنان بها؛ وقالت إنها قد تضررت إذ كان الأوان قد فات لتفصيل أثواب جديدة، وبذلك لم تذهب ابنتاها إلى الحفل الراقص؛ اتّهمت المأمور ومساعديه أنهم كانوا مسترخين فوق الكراسي الطريّة والمريحة بينما تركوا السيدات ليجلسن فوق القاسية؛ كما احتجّت، بغضبٍ ومرارة، على التهديد الذي وجّهه المأمور بسجن «ديمتري نابوكوف»، رجل الدولة، الرصين والمحترم، فقط لأن ذلك الأخير، قد حاول رميه من النافذة. لم تكن تلك القضية ذات أهميّة كبيرة، ولكن الخيّاطة قد خسرتها. استرجعتْ الأثواب، وردّت الكلفة، كما دفعتْ ألف فرنك إضافيّ لصاحبة الدعوى. من ناحية أخرى، الفاتورة التي رُفعت إلى «كريستينا» عام ١٧٩١ من قِبل صانع العربة، والتي بلغت قيمتها خمسة آلاف وتسعمائة وأربعٍ وأربعين ليرة، لم تُسدّد أبداً.

«دَيمتري نابوكوف» Dmitri Nabokov (كتابة الاسم بحرف ff في آخره هي طريقة أوروبية بائدة) وزير عدل الولاية من ١٨٧٨ وحتى ١٨٨٥، قد فعل كل ما يمكنه لحماية، أو بالأحرى تعزيز، الإصلاحات الليبراليّة في

الستينات (كالحكم عن طريق هيئة محلّفين، على سبيل المثال) مواجهاً بذلك شراسة الحملة الرجعيّة. ذُكر عن حياته الشخصيّة (في موسوعة «بروكهاوس»، النسخة الروسيّة الثانية): «لقد تصرّف كقبطان سفينة في مواجهة عاصفة، فرمى الكثير من حمولتها في سبيل إنقاذ ما يُمكن». هذا التشبيه المجازي، حسب ملاحظتي، يشبه ودون قصد، ما فعله جدّي مسبقاً، حين حاول رمي رجل القانون من النافذة.

عند تقاعده، خيّره «ألكسندر الثالث» بين الحصول على لقب كونت، ومبلغ من المال، يُفترض أنه كبير ـ لست أدري ما إن كان هذا اللقب قيّم في روسيا، ولكن خلافاً لآمال القيصر اللئيم، فإنّ جدّي (وقد عُرضت على عمّه «إيفان» من قبْله نفس الخيارات من قِبل «نيكولاس الأوّل») قد فضّل المكافأة الأكثر صلابة. («لقب كونت آخر»، يقولها «سيرجي سيرجيفيتش» ساخراً). وبعد ذلك عاش بقية عمره في المغترب. بقي مشوّش الفكر في السنوات الأولى من هذا القرن، ولكنه ظلّ يقنع نفسه أنه لطالما يعيش في منطقة المتوسط، فإن كلّ شيء سيكون على ما يُرام. ولكنّ هذا لم يكن رأي الأطباء، الذين اقترحوا أن حياته ستطول لوعاش ضمن مناخ أحد المنتجعات الجبليّة شمال روسيا. أعرف قصّة رائعة، ولكني لم أكن قادراً على تجميع عناصرها على نحو كافٍ، وهي تروي قصّة هروبه من مرافقيه في مكانٍ ما في إيطاليا. لقد خاض مغامرة، إذ تجوّل هناك وشجب، بنفس عنف «الملك لير»، لطفَ أبنائه مع الغرباء وتحدّثهم إليهم، علماً أنّهم ـ الغرباء ـ يسخرون منهم، وبقي يشتم إلى أن ألقى بعض رجال الدرك القبض عليه في مكان وعر. خلال شتاء ١٩٠٣، كانت أمي هي الوحيدة التي احتملَ جدي العجوز وجودَها قربه في لحظات جنونه، وبقيت إلى جانبه دائماً في «نيس». أخي وأنا، بأعمارنا المتلاحقة، ثلاث وأربع سنوات، كنّا هناك أيضاً مع مربّيتنا

الإنكليزيّة؛ لا زلت أذكر صوت اهتزاز النوافذ الزجاجية كلّما هبّت نسمة زاهية، والألم الذي سبّبته قطرة ساخنة من شمع الأختام حين انسابتْ فوق إصبعي. باستخدام لهب شمعة (وقد أصبحتْ باهتة ما إن سطعتْ الشمس فوق البلاط الحجريّ حيث كنت راكعاً) كنتُ مشغولاً بتحويل العيدان الشمعيّة الرقيقة المنسابة من الشمعة، إلى كتلة مستديرة لزجة، ذات رائحة مذهلة، وألوان متعدّدة، أحمر، أزرق وبرونزيّ. في اللحظة التالية وقعتُ خائراً على الأرض، سارعتْ أمي لإنقاذي، وفي مكان قريب، كان جدّي جالساً في مقعده المتحرّك، يضرب البلاط الرنّان بعصاه. واجهتْ معه أوقاتاً عصيبة. كان يوجّه لها كلمات غير لائقة. لطالما تملّص من مرافقه الذي كان يجرّ مقعده نحو حديقة «نزهة الإنكليز» «Promenade des Anglais» لصاحبها الكونت «موريس مليكوف» (المتوفي منذ زمن بعيد) والذي كان زميله في مجلس الوزراء إبّان الثمانينات. «من هي تلك المرأة؟ اطردوها!» كان يصيح في وجه والدتي بينما يشير بأصبعه المرتجف إلى ملكة «هولندا» أو «بلجيكا»، اللتيْن لم تعودا للاطمئنان عن صحّته. لا أذكر بشكل واضح يوم صعدتُ إلى حضنه وهو جالس في كرسيه، لأريه بحصة ملساء، كلّ ما أذكره أنّه تفحّصها بتروٍّ، ثم وضعها ببطء في فمه. كم أتمنى لو أني، في السنوات التي تلت، كنت أمتلك الفضول اللازم لأستفيد من ذاكرة أمي للأزمنة تلك.

صار يقع، وضمن فترات متزايدة التقارب باستمرار، في حالات من اللاوعي؛ وفي إحداها، تمّ نقله إلى سكن سياحيّ في قصر «كواي» - «سانت بطرسبرغ». حين استعاد وعيه تدريجيّاً، كانت أمي قد موّهت غرفتَه لتشبه تلك الخاصّة بمنزله في «نيس». طلبتْ من رسول في «نيس» جلب بعض قطع الأثاث المشابهة والأدوات الخاصة، إضافة لكل الزهور التي اعتادت حواسُه، والتي أصبحت هزيلة، أن تكون محاطة بها،

بوفرتها وتنوّعها. كذلك تمّ طلي جزء من حائط منزل، يمكن أن يلمحه من النافذة، بالأبيض اللامع، حتى يتمكن كلّما عاد له وعيه النسبيّ، أن يشعر بالأمان فوق شاطئ الـ«ريفييرا» الوهميّ الذي تفنّنت أمي في صناعته. وهناك، في ٢٨ مارس ١٩٠٤، بنفس يوم رحيل والدي، بفارق ثمانية عشر سنة لاحقة، مات بسلام.

ترك أربع أبناء وخمسة بنات، أكبرهم كان «ديمتري»، الذي حصل على حق وراثة أملاك «نابوكوف» التي كانت حينها في بولندا القيصريّة؛ كانت زوجته الأولى «ليديا إيدواردوفنا فلازفين»، والثانية «ماري ريدليش». يليه «سيرجي»، حاكم «ميتو»[1]، الذي تزوّج من «داريا نيكولايفنا توشكوف»، حفيدة حفيدة المارشال «كوتوزوف»، أمير «سمولينسك»، ومن بعدهما يأتي أبي. أما الأصغر فكان «قسطنطين»، الحاصل على رتبة فارس. أما الأخوات فكنّ: «ناتاليا»، زوجة «إيفان دي بترسون»، القنصل الروسيّ في «لاهاي»؛ «فيرا»، زوجة «إيفان بياشيف»، رياضيّ ومالك أراضي؛ «نينا»، التي طلّقت البارون «روش فون توبنبرغ»، وزير الحربيّة في «وارسو»، لتتزوج من الأميرال «نيكولاي كولوميتسيف»، بطل الحرب اليابانيّة؛ «إليزافيتا»، متزوجة من «هنري»، أمير «ساين - فيتخينشتاين بيلبورغ»، وبعد موته، تزوّجت من «رومان ليكمان»، المعلّم السابق لأبنائها؛ وأخيراً «ناديزدا»، زوجة «ديمتري فونليارلياريكي»، الذي طلّقته لاحقاً.

خاض العم «قسطنطين» في الخدمة الديبلوماسيّة، وفي مرحلته المهنيّة الأخيرة في لندن، صراعاً مريراً وغير مكلّلٍ بالنجاح مع «سابين»، الذي نافسه على تولّي رئاسة البعثة الروسيّة. لم تزخر حياته بالأحداث

(١) ميتو: يلغافا حالياً، في لاتافيا.

المهمّة، ولكنّه تمكن مرتين من الهروب من قدر لا يقلّ شؤماً، عن عزله من منصبه عام ١٩٢٧، الذي أوصله إلى مشافي «لندن» حيث وافته المنيّة. مرّة في «موسكو»، في ١٧ فبراير ١٩٠٥، عرض عليه صديقه الدوق الكبير «سيرجي»، قبل نصف دقيقة من الانفجار الذي وقع، أن يوصله بعربته، ولكنّ عمّي قال «لا شكراً، أفضّل أن أمشي»، ثم تدحرجتْ العربة نحو مصير أسود أوصلتها إليه قنبلة إرهابيّ؛ المرة الثانية، بعد سبعة أعوام، فاته موعد أيضاً، ولكن هذه المرة مع جبل جليديّ، إذ كان محظوظاً حين استرجع بطاقته لرحلة الـ«تايتانيك». كنّا نراه كثيراً في «لندن» بعدما هربنا من روسيا القابعة تحت حكم «لينين». لقاؤنا في محطة «فيكتوريا»، صورة حيّة أبداً في ذهني: يركض والدي نحو أخيه المتحفّظ فاتحاً ذراعيه للعناق؛ أما هو، فيتراجع مردّداً «Mï v Anglii, mï v Anglii، نحن في إنكلترا». كانت شقّته الساحرة مليئة بتذكارات من الهند، كصور لضبّاط بريطانيين هناك. هو كاتب «معاناة الدبلوماسيّ» (١٩٢١)، متوفّر في المكتبات العامّة، وهو أيضاً مترجم النسخة الإنكليزيّة لمسرحيّة «بوشكين»، «بوريس غودونوف». بلحيته الصغيرة (جنباً إلى جنب مع الكونت «ويت»، مندوبيْن يابانييْن، وصاحب النوايا الحسنة «ثيودور روزفلت») يظهر في جداريّة تصوّر معاهدة «بورتسموث»، عند الجهة اليساريّة للمدخل الرئيسيّ، من المتحف الأمريكيّ للتاريخ الطبيعيّ ـ المكان المثالي لتواجد اسم عائلتي مكتوباً بالحروف السلافيّة الذهبيّة ـ شعرتُ بالفخر حين ذهبت هناك لأول مرّة، يرافقني زميلي المتخصص في علم الأحياء، وكان يقول «طبعاً طبعاً» ردّاً على دهشتي وتقديري لذاتي.

٢

من الناحية النظريّة، فإن عقارات العائلات الثلاث فوق ضفاف «أوريديج»، على بعد خمسين ميلاً جنوب «بطرسبرغ»، تمثّل ثلاث حلقات متّصلة في سلسلة تمتدّ عشرة أميال شرق غرب الطريق السريع لمدينة «لوغان» مع وجود عزبة والدتي «فيرا» في الوسط، وعلى يمينها «روزيستفينو» عزبة أخيها، أما من ناحية اليسار فعزبة «باتوفو» الخاصة بجدّتي، تربطها الجسور فوق «أوريديج» (واللفظ الصحيح للاسم هو أوريديتش)، الذي، ومن خلال تعرّجاته، يتفرّع ليحيط بـ«فيرا» من كلّ الجهات.

هنالك عقاران آخران، أكثر بعداً، في منطقة قريبة من «باتوفو»: «درازناسلي»، عزبة نسيبي الأمير «فيتغينشتاين»، القائمة على بعد أميال قليلة خلف محطة قطار «سيفرسكي»، والتي تبعد ستة أميال عن عزبتنا؛ وهناك «ميتوشينو» عزبة نسيبي «بيهاتشيف»، على بعد خمسين ميلاً، جنوب طريق «لوغا»: لم أذهب أبداً إلى هناك، ولكننا كنّا غالباً ما نقطع بالعربة عشرة أميال، أكثر أو أقلّ، لزيارة عزبة «فيتغينشتاين»، وقد زرناهم مرّة (خلال أغسطس ١٩١١)، في عقار آخر لهم، عزبة «كامينكا» الساحرة، في مقاطعة «بودولسك»، جنوب غرب روسيا.

دخلت عزبة «باتوفو» التاريخ عام ١٨٠٥، عندما أصبحتْ ملكاً لـ«أناستازيا ماتفيفنا ريليف»، المولودة في «إسين»، والدة «كوندراتي فيدروفيتش ريليف» (١٧٩٥ ـ ١٨٢٦)، هو شاعر وصحفي، ومن أبرز قادة ثورة الديسمبريين. كان يقضي معظم إجازاته الصيفيّة في المنطقة، يكتب مراثياً في نهر «أوريديج»، ويتغنّى بقلعة الأمير «آليكسي»، لؤلؤة ضفافه.

نادراً ما تتّفق الأسطورة والمنطق، ولكن إن فعلا، تولد قصّة عظيمة، كمبارزة المسدسات، التي سبق أن أشرتُ إليها ضمن «ملاحظاتي على أوجين»، بين «ريليف» و«بوشكين»، التي لا يعرف عنها الكثيرون، وقد

كانت مقرّرة في حديقة «باتوفو»، بين السادس والتاسع من مايو (حسب التقويم القديم) عام ١٨٢٠. «بوشكين»، مع اثنين من رفاقه، البارون «أنطون ديلفيغ» و«بافل ياكوفليف»، اللذيْن رافقاه منذ الخطوة الأولى في رحلته الطويلة من «سانت بطرسبرغ» إلى «ياكاتورونوسلاف»[١]، كانوا قد انحرفوا عن طريق «لوغا» السريع نحو «روستيفنو»، عبَر الجسر (تحوّل وقع حوافر الأحصنة إلى قعقعة)، وسلكوا الطريق الخشبيّ القديم، كثير الأخاديد، غرباً نحو «باتوفو». وهناك، أمام بيت المزرعة، انتظرهم «ريليف» بفارغ الصبر، وبما أنّه كان قد أرسل زوجته لتوّه، في شهر حملها الأخير، إلى ملكيتها قرب «فورونيج»، فقد دفعه القلق لتجاوز أمر المبارزة (بمشيئة الله)، واللّحاق بها هناك.

أكاد أشعر بنسيم ذاك اليوم الربيعيّ الشماليّ يلامس بشرتي، وأشمّ رائحة وعورة الريف اللذيذة التي كانت في استقبال «بوشكين» ورفيقيْه، حين ترجّلوا من العربة وتغلغلوا في ممشى الزيزفون، مجتازين الملابن الخشبية لبوابة «باتوفو»، التي لا زالت سوداء حتى اليوم. أرى الشبّان الثلاث بكل وضوح (مجموع أعمارهم يساوي عمري الحاليّ) يتبعان مضيفهم مع رجلين غير معروفين، نحو الحديقة. في ذلك التاريخ، برعمتْ أزهار بنفسج صغيرة فوق بساط الأوراق الميّتة التي تساقطتْ قبل سنة، وأزرارٌ حديثة قد أخرجتْ رأسها البرتقاليّ مرتكزةً على الهندباء المرتعشة. بلحظتها، تدخلّ القدر فيما بينهما، ووقف حائلاً أمام وصول المتمرّد التاريخي إلى حبل المشنقة، وحرمان روسيا من «أوجين»، رائعة «بوشكين». ولكن بعد ذلك، لم يكمل القدر معروفه[٢].

---

(١) ياكاتورونوسلاف: دنيبرو حالياً، في أوكرانيا.

(٢) لم يكمل القدر معروفه: إشارة إلى مقتل بوشكين اللاحق خلال مبارزة، يُقال إنها مدّبرة بكيد القيصر، وكان عندها في الثامن والثلاثين من عمره. أما ريليف فقد قضى أيضاً شنقاً كعقوبة على تمرده، وكان لم يكمل عامه الثاني والثلاثين.

بعد مرور عقديْن على إعدام «ريليف»، الذي تمّ في قلعة «بيتر وبول» عام ١٩٢٨، استطاعتْ جدّتي لأبي، «نينا آليكساندروفنا تشيخوف»، بارونة «فون كورف» لاحقاً، أن تحصل رسميّاً على «باتوفو»، وقد اشتراها جدّي منها حوالي عام ١٨٥٥. أبناء جيليْن من آل «نابوكوف»، الذين تلّقوا علمهم عن طريق المعلّمين الخصوصيين والمربيّات، يعرفون أحد الدروب، عبر الغابة، خارج حدود «باتوفو» باسم «لو شومين دوبوندو **Le Chemin du Pendu**»، طريق «الرجل المشنوق»، اللقب الذي أطلقه المجتمع على «ريليف»، كإشارة ساخرة من الناس، أو ربما لسوء فهمهم أو تعبيرهم عن الدهشة (إذ لم يكن رائجاً في ذاك العصر إعدام النبلاء)، مفضّلينه على لقب «الديسمبريّ» أو «المتمرد». بكلّ وضوح، أستطيع تخيّل الشّاب «ريليف»، بين ربوع غابتنا المغزولة بالأخضر، يمشي ويقرأ كتاباً، كنزهة رومانطيقية على طريقة معاصريه، كما يمكنني تخيّل شجاعة الملازم الذي يقف ورفاقه وسط حشود الناس الهائجة، في ساحة مجلس الشيوخ القاتمة، متحدّياً الاستبداد والطغيان؛ التسمية الطويلة لهذه النزهة «الخاصة بالبالغين» والتي كانت تلهب حماس الأولاد الصالحين، لم تكن مربوطةً في أذهاننا حين كنّا فتيان، بالمصير التعيس لمالك «باتوفو»: ابن عمي «سيرجي نابوكوف» المولود في «باتوفو» في «غرفة العائد»، كان يتخيّل شبحاً لطيفاً؛ وكذلك أنا كنت مرة برفقة معلّمي أو مربيتي، حين تهيأ لنا، دونما وضوح، خيال رجل غريب يتدلّى مشنوقاً من شجر الحور، حيث تتكاثر فصيلة نادرة من العثّات. ربما تكون قصة الشبح التي يربطها الفلاّحون المحليّون بـ«ريليف» ذاك، حقيقية فعلاً؛ ولكن ضمن الأسر رفيعة المستوى، فإن الأهل كانوا يحرّمون الخوض في أحاديث الأشباح، لأن ارتباطها بالتسمية المبهمة لذاك الدرب، قد يشوب سحر النزهة الرائعة في قريتهم التي يحبّونها. ومع ذلك، فإن أكثر ما أستغربه، هو أنّه حتى والدي، الذي امتلك

الكثير من المعلومات عن الديسمبريين، وكان أكثر شخص من بين أقاربه تعاطفاً معهم، إلاّ أنّه، على حدّ ما يمكنني أن تذكّر، لم يأتِ مطلقاً على ذكر «كوندراتي ريليف»، خلال نزهاتنا وجولاتنا بالدرّاجة في المناطق المحيطة. لفت ابن عمّي انتباهي إلى علاقة الصداقة الحميمة التي ربطتْ الجنرال «ريليف»، ابن الشاعر، بالقيصر الثاني، وبجدّي، «د.ن نابوكوف»، الذي لم يكن ليسمح بالحديث عن المشنوق في منزله.

الطريق ذو الأخاديد (الذين مشينا فيه وراء «بوشكين»، والآن نعود إليه) كان يمتدّ عدّة أميال شرق «باتوفو»، وصولاً إلى «روزيستفينو». قبل الجسر الرئيسيّ، عليك أن تتحوّل شمالاً باتجاه قرية جرداء، إن أردت الوصول لـ«فيرا»، أو لحديقتيْها الممتدّتيْن على جانبيّ الطريق، أو يمكن أن تكمل شرقاً باتجاه التلّة المنحدرة، تتخطّى المقبرة القديمة التي تغصّ بأشواك توت العلّيق ونبات الكوهوش، وتعبر الجسر الذي يوصلك إلى بيت خالي ذي الأعمدة البيضاء، حيث تجده معزولاً على رأس تلّة.

عقار «روزيستيفنو»، الذي يقع وسط قرية تحمل نفس الاسم، وأراضٍ واسعة، والذي هو عبارة عن منزل يقع أعلى ضفاف نهر «أوريديج»، على طريق «لوغا» (أو «وارسو») السريع، في منطقة «تسارسكو سيلو» (المعروفة اليوم بـ«بوشكين»)، على بعد خمسين ميلاً تقريباً من «سانت بطرسبرغ» (لينينغراد اليوم)، كان يُعرف قبل القرن الثامن عشر بـ«ملكيّة كوروفيتس»، في منطقة «كوبورسك» القديمة. حوالي عام ١٧١٥، كان ملكاً للأمير «آليكسيس» المحروم من ميراث أبيه الطاغية، «بطرس الأوّل». جزء من الدرج المخفيّ، إضافة لأجزاء أخرى لا أتمكّن من تذكّرها، ما زالت محفوظة في التصميم الجديد للمبنى. لقد لمستُ الدرابزين، ورأيت (أو ربما دست على) الآخر، الذي نسيت تفاصيله. من هذا القصر، وعلى طول الطريق المؤدي إلى بولندا والنمسا، هرب الأمير الذي أُلقي القبض عليه في جنوب «نابولي»، حيث

أعاده إلى سجن أبيه، نائب القيصر، الكونت «بيوتر آندريفيتش تولستوي»، سفير «القسطنطينيّة» لمرّة واحدة (ومن هناك اشترى لسيده عبداً، سيكون جدَّ جدِّ «بوشكين»). امتلك «روزيستيفنو» لاحقاً، حسبما ما أعتقد، «ألكسندر الأوّل»، وأعيد بناء المزرعة جزئيّاً حين ابتاعها جدّي والد أمي حوالي عام ١٨٨٠، لابنه البكر «فلاديمير»، الذي توفّي عن ستّة عشر عاماً، بعد عدّة سنوات من شرائها. ورثها عنه أخوه «فاسيلي» عام ١٩٠١، وقضى فيها الصيف لعشرة أعوام من أصل خمسة عشر، كانت خلالها ملكاً له. أذكر على نحو خاص، طبيعة المكان المشهورة بهدوئها، بلاط الردهة الشطرنجيّ، عشر قطط من الخزف فوق أحد الرفوف، ناموس حجريّ وآلة أرغن، مناور ودهاليز عليا، غرف سريّة بألوان قاتمة، كما أذكر تواجد القرنفل والصلبان في كلّ مكان.

٣

امتلك «كارل هينريش» في شبابه صوت تينور عذب؛ كان ذات ليلة يغنّي في أحد معابد «براونشفايغ»، أوبرا قد كتبها «شورمان»، ولكنّ نشاز الألحان قد أزعجه جداً فما كان منه إلاّ أن استبدلها بأخرى قد ألّفها بنفسه. وهنا أشعر بحلاوة قرابة الدمّ؛ رغم ذلك، لا زلت أميل إلى اثنين آخرين من أسلافي، المستكشف الشاب الذي سبق أن ذكرته، وجدّ أمي لأمّها، «نيكولاي إلاريونوفيتش كوزلوف» (١٨١٤ ـ ١٨٨٩)، المتخصّص في علم الأمراض، أوّل رئيس للأكاديميّة الروسيّة للطب، وكاتب عدّة دراسات مثل «تطوّر مفهوم الأمراض»، أو «تضييق الفتحة الوداجيّة لدى المجانين». وبمعرض الحديث عن تلك النقطة، أودّ أن أذكر دراساتي العلميّة الخاصّة بي، وبالتحديد ثلاث منها، والمفضّلات لديّ: «ملاحظات عن فراشة «Plebejinae» المدارية (مجلة «Psyche» مجلّد ٥٢، العدد ١، ٢، ٣، ٤، عام ١٩٤٥)، «أصناف جديدة من

فراشات *Cyclargus* Nabokov» (مجلّة المتخصّص في علم الحشرات، ديسمبر ١٩٤٨)، و«النوع القطبي الجديد من فراشات «Genus *Lycaeides* Hübner» (متحف علم الحيوان المقارن، جامعة هارفرد، عام ١٩٤٩)، العام الذي وجدت نفسي بعده، غير قادر جسديّاً على التوفيق ما بين البحوث، المحاضرات، الرسائل الجميلة، وكتابة رواية «لوليتا» (التي كانت جنيناً عسير الولادة).

شعار نبالة آل «روكافيشنيكوف»، أكثر تواضعاً وأقلّ تقليديّة من ذاك الخاص بآل «نابوكوف». إنّه نسخة منمّقة على شكل سيدة (مصاغ بطريقة بدائيّة) تُظهر، دون أدنى شكّ، أنّه مسبوكٌ من المعادن الأوراليّة الخام، التي اكتشفها أجدادي المغامرون. أرغب في الإشارة إلى أنّ آل «روكافيشنيكوف»، الروّاد السيبيريّين، المنقّبين عن الذهب، ومهندسي المناجم، لا علاقة لهم، كما يفترض بعض المؤرخين دونما تحقّق، إلى تجّار روسيين يحملون نفس اسم العائلة ولا يقلّون ثراءً عنها. من أقصدهم يعودون بمنبتهم (منذ القرن الثامن عشر) إلى أراضي النبلاء في مقاطعة «قازان». أنشأوا مناجمهم في «آلوبافسك» قرب «نيجني تاجيل»، في مقاطعة «بيرم»، من الجهة السيبيريّة لجبال «أورال». سافر والدي إلى هناك مرتين، على متن أول قطار سيبيريّ، قطار جميل من عائلة قطارات «Nord-Express»، وكنت قد قررت السفر يوماً على متن خطوطها، من أجل رحلة استكشافيّة تخصّ علم الحشرات، إذ لم تكن المعادن تعنيني، ولكن قيام الثورة قد حال بيني وبين مشروعي.

كانت والدتي (٢٩ أغسطس ١٨٧٦ ـ ٢ مايو ١٩٣٩) ابنة «إيفان فاسيليفيتش روكافيشنيكوف» (١٨٤١ ـ ١٩٠١)، مالك أراضٍ، رجل مسالم، معطاء، ابن صناعيّ ميليونير و«أولغا نيكولايفنا» (١٨٤٥ ـ ١٩٠١) ابنة الطبيب «كوزلوف». مات والدا والدتي خلال سنة واحدة بمرض السرطان، إذ مات الأب في مارس ولحقتْ به زوجته في يونيو. مات خمسة أخوة لها أثناء طفولتهم من أصل سبعة، أمّا الباقيان فكان

أحدهما «فلاديمير» الذي توفيّ في السادسة عشر من عمره في «دافوس»، عام ١٨٨٠، أما الثاني، «فاسيلي»، فقد مات في «باريس» عام ١٩١٦. كان لـ«إيفان روكافيشنيكوف» مزاج سيء جدّاً وكانت أمي تخاف منه. جلّ ما عرفته عنه في طفولتي كان صوره (لحيته، وقلادة فخمة جداً تلف عنقه) وبعض صفاته كهوايته لصيد البط وتحنيط رؤوس الأيائل. زوج من الدببة الضخمة اللذيْن كان جدّي قد أطلق النار عليهما وهما واقفيْن ورافعيْن كفّيْهما الأماميين، ينتصبان محنّطيْن بنفس الوضعية وبكلّ مهابة أمام البوابة الحديديّة لدهليز بيتنا الريفيّ. كنتُ في كلّ صيف، أقيس فرق طولي من خلال محاولة الوصول لمخالبهما الرائعة - السفليّة أوّلاً ثمّ العلويّة. أما قساوة بطنيهما المخيّبة للآمال، تكتشفها ما إن تغرز أصابعك (الأصابع الذي تعوّدت أن تداعب كلب حيّ أو لعبة) في فرائيهما البنّيين الخشنيْن. كنّا من وقت لآخر نُخرج تلك المحنّطات إلى الحديقة، لإنعاشها وتعريضها للهواء الطلق، وحدث أن أتت «الآنسة» المسكينة مرة إلى الحديقة، فأطلقت صرخة إنذار مدوّية ما إن لمحتْ حيوانيْن متوحّشيْن ينتظرانها تحت ظل شجرة. لم يكن لوالدي أيّ اهتمام بالصّيد، بعكس أخيه عمي «سيرجي»، المولع بالنشاطات الريّاضيّة، والّذي، عام ١٩٠٨، أصبح كبير الصيّادين، الخاص بجلالة القيصر.

أسعد ذكرى لأمي خلال فترة صباها، سفرها مع خالتها «براسكوفيا» ذات صيف، إلى شبه جزيرة القرم، حيث كان جدّها لأبيها يمتلك عقاراً قرب «فيودوسيا». ذهبت وخالتها مرّة في نزهة معه وكان بصحبة رجل نبيل مسنّ، المشهور برسم لوحات بحريّة، الرسّام «إيفازوفسكي». تتذكّر قولَ الرسام (مكرراً كلمة «لاشك» كثيراً) إنه في أحد المعارض التي أقيمت في «سانت بطرسبرغ»، عام ١٨٣٦، قد رأى «بوشكين»، «رجل قبيح وصغير القامة، برفقة زوجة وسيمة وطويلة». جرت تلك الرواية قبل حوالي نصف قرن حين كان «إيفازوفسكي» لا يزال طالب فنون، وقبل مقتل «بوشكين» بعام تقريباً. كما أنّها تذكر العلامة التي أضافتها الطبيعة

من تلقاء نفسها إلى المشهد ـ بقعة بيضاء تركها عصفور فوق قبّعة الرسّام الرماديّة. الخالة «براسكوفيا»، التي تمشي إلى جانبها، هي أخت والدتها، وقد تزوّجت من الطبيب الإخصّائي بمعالجة السفلس «ف.م تارنوفسكي» (١٨٣٩ ـ ١٩٠٦) وكانت هي نفسها طبيبة أيضاً، ومؤلّفة في مجال الطبّ النفسيّ، الأنثروبولوجيا، والرّعاية الاجتماعيّة. ذات أمسية، وفي الفيلاّ الخاصة بـ«إيفازوفسكي» قرب «فيودوسيا»، التقتْ الخالة «براسكوفيا» عند العشاء بالطبيب «أنطون تشيخوف»، ذي الثمانية والعشرين عاماً، وأهانته، بطريقة أو بأخرى، خلال محادثة طبيّة جرت بينهما. كانت سيّدة مثقّفة جدّاً، شديدة الذكاء، وباهرة الأناقة، وكم يصعب تخيّل مقدرتها على استفزاز فظاظة «تشيخوف» الخشنة، التي صرّح هو بنفسه عنها خلال رسالة أرسل بها إلى شقيقته في الثالث من أغسطس ١٨٨٨. لطالما زارتنا الخالة «براسكوفيا»، أو الخالة «باشا»، كمّا كنّا نناديها، في «فيرا». كانت طريقة تحيّتها لنا ساحرة، عندما كانت تدخل غرفة حضانتنا بكامل حيويتها قائلةً: «صباح الخير يا أطفال! bonjour les enfants!». ماتت في عام ١٩١٠. كانت والدتي بجانبها، حين نطقت الخالة «باشا» بآخر كلماتها: «يا للمتعة! الآن بدأت أفهم، الماء هو كلّ شيء، vsyo-voda».

عملَ خالي «فاسيلي» في الخدمة الديبلوماسيّة، لكنه لم يأخذها على محمل الجدّ كما فعل عمي «قسطنطين». بالنسبة لـ«فاسيلي إيفانوفيتش» لم تكن مهنة، بل وظيفة مقبولة لا أكثر ولا أقل. كان لفظ اسمه الثاني صعباً على أصدقائه الفرنسيين والايطاليين، فاختصروه بـ«روكا» (مع مدّ الحرف الأخير)، وهذا ما ناسبه أكثر مما فعل الاسم المسيحيّ. بدا الخال «روكا» في طفولتي كرجل ينتمي إلى عالم من الألعاب، كتب الصور المسلّية، وأشجار الكرز المثقلة بحبّات سوداء لامعة: كان هنالك بستان زجاجيّ في زاوية عزبته، التي يفصلها عن عزبتنا نهرٌ متعرّج. خلال فصل الصيف، وعند كل وقت عشاء، تقريباً، نرى عربته تجتاز الجسر وتجري

مسرعةً بمحاذاة سور شجيرات التنوب، باتّجاه بيتنا. كنت في الثامنة أو ربما التاسعة، عندما حملني مرة فوق ركبتيْه بثبات، بعد الغداء (بينما كان شابان من الخدم ينظّفان طاولة غرفة الطعام الفارغة)، لاطفني، بدندنة جميلة وتربيت محبّب، لكنّ ذلك كان بالنسبة لي محرجاً أمام الخدم، وكم ارتحتُ حين سمعنا صوت أبي يناديه من الشرفة: «باسيلي، نحن ننتظرك». حين ذهبت مرة لملاقاته في المحطّة (لا بدّ أني كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري) وراقبته أثناء نزوله من مقطورته الطويلة والعالميّة، رماني بنظرة وقال لي: «كم أنت شاحبٌ ونحيل يا فتاي المسكين!» في عيدي الخامس عشر، أخذني جانباً وأخبرني بطريقته الجافّة، المحدّدة، والفرنسية القديمة، إذا صح التعبير، أنه يريد أن يجعلني وريثاً له. «والآن يمكنك الذهاب» أضاف «انتهت المقابلة، لم يعد لديّ ما أضيفه».

أذكره كرجل نحيل، أنيق، ذي بشرة قاتمة وعيون خضراء رماديّة مع نقط بلون الصدأ، شارب كثّ وغامق، وذقن تهتزّ نزولاً وصعوداً فوق حلقة من الذهب والأوبال، تلتفّ على هيئة أفعى حول عقدة ربطة عنقه. كان حجر الأوبال أيضاً يدخل في خواتمه، وأزرار أكمامه. سلسلة ذهبيّة تطوّق معصمه النحيل، ودائماً عروة زر قرنفلية، في كل بدلاته الصيفيّة، الرمادية الفاتحة، أو الرمادية الغامقة، وحتى الرمادية الفضية. لم أكن أراه إلاّ في الصيف. بعد إقامة قصيرة في «روزيستيفنو»، كان يعود إلى فرنسا أو إيطاليا، إلى قصره (المسمّى «بيربينيا») بالقرب من «بو»، أو إلى فيلّته (المسمّاة «تاماريندو») بالقرب من «روما»، أو إلى مصر «محبوبته»، حيث كان يرسل لي البطاقات التذكارية (أشجار النخيل وظلالها، مغيب الشمس، وفراعنة راكعون) وقد خربش بخطّه الرديء فوقها. ومرة، وفي يونيو أيضاً، حين كانت شجرة الـ«شيريموها» العطرة (الاسم القديم

لشجرة المحلب، أو بكل بساطة «الكرز العنقوديّ racemosa» كما أسميتها في كتاب «ملاحظتي حول أوجين») تزهر وتتفتّح، فإنه كان يرفع علماً خاصاً فوق بيته في «روزيستيفنو». كان يسافر مع نصف دزّينة من الحقائب الضخمة، ويقدم الرشاوي للمسؤولين عن قطار «-Nord Express»، من أجل توقّفٍ خاص عند محطّة قريتنا الصغيرة. وكي يفي بالهدية المذهلة التي وعدني بها، كان يقودني، بقدميه الصغيرتين والرقيقتيْن، وحذائه الأبيض ذي الكعب العالي، بطريقة غامضة نحو أقرب شجرة، يمدّ يده بكلّ رقّة ويقطف ورقة، ويقدمّها لي قائلاً: «إلى ابن أختي، أهدي أروع ما في هذا الكون، ورقة خضراء».

أو كان ليحضر هديّة رسميّة من أمريكا، مجلة «Foxy Grandpa» المصوّرة، وفيها مغامرات «باستر براون» ـ الصبي المهمَل ذي القميص الأحمر: من كان ليمعن النظر، يستطيع أن يتبيّن أن اللون هو عبارة عن كتلة من النقاط الحمراء الكثيفة. كانت كلّ حلقة من السلسلة تنتهي بصفعة قوية فوق مؤخّرة «باستر»، والتي تنفّذها أمّه القويّة، رغم ضآلة حجمها، والتي قد تستعمل لهذا الغرض خفّاً، فرشاة شعر، مظلّة هشّة ـ أي شيء حتى لو هراوة شرطيّ ـ تضرب فينطلق الغبار كثيفاً من تحت سروال «باستر». وبما أنني لم أتلقَّ مطلقاً عقوبة كهذه، فإن هذه الصور كانت تنقل لي انطباعاً عن غرابة التعذيب الذي لا يقلّ فظاعة، لنقل، عن دفن مجرم حيّاً حتى ذقنه في رمال الصحراء، فترى جحوظ عينيه، الوصف الذي جاء في مقدمة كتاب «ماين ريد»[1].

---

(١) توماس ماين ريد: ١٨١٨ ـ ١٨٨٣، كاتب مغامرات امريكي من أصل إيرلندي ـ اسكوتلندي.

٤

أفضى نمط حياة خالي «روكا» إلى الكثير من الكسل والفوضى الغريبة التي تتجلّى في غموض علاقته مع مهنته الديبلوماسيّة. مع ذلك، كان يفخر بكونه خبيراً بحلّ الرسائل المشفّرة، باللغات الخمس التي يتقنها. أخضعناه مرّة لاختبار، وبلمح البصر، استطاع أن يفكّ لغز التسلسل: «٥,١٣ ٢٤,١١ ١٣,١٦ ٩,١٣,٥ ٥,١٣ ٢٤,١١» ويحوّله إلى كلمات افتتاحية أحد مونولوجات «شكسبير».

بكنزة ورديّة، كان يذهب للصيد في إنكلترا أو إيطاليا؛ بمعطف الفراء، يقود سيّارته من «بطرسبرغ» إلى «بو»، وقد أوشك مرةً أن يفقد حياته في تحطم طائرة فوق شاطئ قريب من «بايون»، مرتدياً عباءة الأوبرا السوداء. (عندما سألته كيف تقبّل قائد الطائرة المحطّمة الأمر، فكّر الخال «روكا» لبرهة ثم أجابني بكل ثقة: «جلس فوق صخرة وأطلق تنهيدةً قويّة». كان يدندن بأغاني البحّارة وغيرها من الأغاني الشعبيّة («كلّ منهما ينظر إلى الآخر، ويحدّق في عينيه....»، «ماتت في فبراير، يا للمسكينة «كولينيت»....»، «أشرقت الشمس من جديد، أريد رؤية الغابات مرّة أخرى....»، والعديد من الأغنيات الأخرى). كان يؤلف بنفسه موسيقى جزلة ومتماوجة، وقصائد فرنسيّة، مصاغة بشكل واضح، بتفعيلات إيامبيّة إنكليزية وروسية، متجاهلاً تسكينات آخر القوافي. كذلك وقد أبدى مهارة عالية في لعبة البوكر.

لأنه كان يتأتئ ولديه صعوبة بالنطق، فقد غيّر اسم الحوذيّ الخاص به من «بيوتر» إلى «ليف»، فاتّهمه أبي (الذي كان فظّاً معه في أغلب الأحيان) بأنه يملك ذهنية المستعبد. بغض النّظر عن كل ذاك، كان حديثه عبارة عن مزيج يصعب فهمه من الإنكليزيّة، الايطاليّة والفرنسيّة، اللغات التي كان يتكلّمها بطلاقة، أكثر مما يفعل مع لغته الأم. عندما كان

يلجأ للرّوسيّة، يسيء استخدامها ويحرّف معاني بعض التعابير الاصطلاحيّة أو الشعبيّة، كالمرّات التي نكون أثناءها جالسين إلى الطاولة ويتنهّد فجأة (يكون هنالك بالغالب خطب ما، كارتفاع طفيف في حرارته، موت طاووس، أو ضياع كلب «بورزوي» خاصته) ويقول: (أنا حزين جدّاً ووحيد، كأني «bylinka v pole») أي شفرة عشب في الحقل).

كان يصرّ على أنّه مصاب في قلبه بمرض عضال، وعند كل نوبة، كان يرتاح بمجرّد استلقائه وتمدّده فوق الأرض. لم يأخذ أحدٌ شكواه على محمل الجدّ، وبعد أن مات بذبحة صدريّة، وحيداً في «باريس»، في نهاية عام ١٩١٦، في عامه الخامس والأربعين، كم أصبح يحزّ في النفس تذكّر كل تلك الحوادث التي كانت تجري في الصالون بعد العشاء - الخادم يأتي بالقهوة التركيّة غير مبالٍ بما يجري، يومض والدي (باستخفاف) إلى أمي، (وباستنكار) إلى أخ زوجته المطروح أرضاً كعقبة في طريق الخادم، ثم (باهتمام) إلى ذبذبات اهتزاز صحون القهوة فوق صينية التقديم، التي تحملها قفازات الخادم البيضاء.

إضافة لعذاباته عاش قلقاً غريباً من نوع آخر، إذ كان يبحث عن الراحة - لا أعرف إن كنتُ قد فهمت الأمر بشكل صحيح - في التقرّب إلى الله دينيّاً، بدايةً في مذاهب بعض الطوائف الروسيّة، وصولاً إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكيّة. كان من المفترض أن يكون عُصابه من النوع الذي يترافق مع العبقريّة، ولكنّه لم يفعل في حالته، وهذا ما كان سبباً في رحلة بحثه الدائمة. كان في شبابه مكروهاً جداً من قِبل والده، الطراز القديم من الرجل النبيل الريفيّ (صيد الدببة، مسرح خاص، عدد قليل من اللوحات القديمة القيّمة بين كثير من عديمات الأهمية)، وقد أشيع أن مزاجه النزق وغضبه السريع قد أثّرا سلباً على شخصيّة ابنه في عمره الفتيّ. أخبرتني أمّي لاحقاً عن جوّ التوتّر الذي كان يسود بيتهم في «فيرا»، والأحداث العنيفة الوحشيّة التي جرت في غرفة دراسة «إيفان

فاسيليفيتش»، غرفة زاوية مظلمة، تطلّ على بئر قديمة بمضخّتها الصدئة، تحت خمس شجرات حور من «لومبارديا». لم يستخدم هذه الغرفة أحدٌ غيري. حفظت كتبي والألواح الخشبيّة المخصّصة لبسط الفراشات، فوق رفوف سوداء، ثم بعد ذلك أقنعتُ والدتي بنقل بعض أثاثها إلى غرفة أخرى بجانب الحديقة، حيث غرفة دراستي الصغيرة المشمسة، وهناك، ذات صباح، وجدت في مدخلها ذاك المكتب الضخم بسطحه الجلديّ القاتم، ولا شيء فوقه سوى مذْية ورق عملاقة، وسيف حقيقيّ معقوف، مصنوع من العاج الأصفر، المنحوت من ناب ماموث.

عندما مات الخال «روكا» في نهاية عام ١٩١٦، ترك لي من الثروة ما تعادل قيمته في أيامنا هذه مليونيّ دولار إضافة إلى عقاره الريفيّ، وقصره ذي الأعمدة البيضاء، المنتصب فوق تلّة خضراء منحدرة، وألفيّ فدّان من الأراضي الخثّة. علمت أنّه في عام ١٩٤٠، تم تحويل المنزل المأمّم والمعزول إلى متحف، كمعْلمٍ سياحي، لكلّ مسافر فوق الطريق السريع «سانت بطرسبرغ ـ لوغا»، الذي يمرّ تحت المتحف خلال قرية «روزيستفينو» وعبر النهر المتعرّج. الجزر العائمة التي شكّلها زنبق الماء الطافي وزركشتْها الطحالب، تضفي على نهر «أوريديدج» في تلك البقعة، سحراً وكأنه عيدٌ للطبيعة. عند آخر أسفل نقطة من مساره المتعرّج، حيث تبرز السنونوات النهريّة من أخاديدها الطينيّة عند منحدر الضفّة، يتغيّر لون النهر ليصبح انعكاساً رائعاً لأشجار التنوب الكثيفة، العالية والرومانسيّة (التي تشكّل حدوداً مع «فيرا»)؛ وبعيداً عن المصب، طاحونةٌ لتدفّقٍ لا منتهٍ للماء الهادر، تجعل من يراها (من وراء الدرابزين) يشعر وكأنه في هروب لا ينتهي نحو الوراء، كما لو كان يقف فوق كوثل الزمن نفسه.

٥

المقطع التالي ليس للقارئ العام، بل على وجه الخصوص للغبيّ الذي، لمجرّد أنه خسر ثروته بسبب حادث ما، يظنّ أنّه يفهمني.

خلافي القديم (منذ عام ١٩١٧) مع الديكتاتوريّة السوفياتيّة، لا علاقة له بالمطلق مع مسألة الملكيّات، ازدرائي للمهاجر الذي «يكره الحمر» الذين «سرقوا» ماله وأرضه، لا نقاش فيه. الحنين الذي يثقل كاهلي كلّ هذه السنوات، هو إحساس متضخم بطفولتي الضائعة، وليس حزناً على حسابات مصرفيّة ضائعة.

وأخيراً، أمنح لنفسي الحق، بهذا التوق إلى البيئة التي إليها أنتمي:

«تحت هذه السماء

سماء أمريكا

أطلق تنهيدة شوق واحدة

لمكان واحد في روسيا»

يمكن للقارئ العام الآن أن يتابع القراءة.

٦

عندي اقترابي من الثمانية عشر، وما بعدها، كانت شؤون الحبّ وكتابة الشعر هي ما يشغل فراغي؛ لم أُعنَ بالمسائل الماديّة، كما أنّنا، بكلّ الأحوال، إذا ما وضعنا ثروتنا في مقارنة مع أي ميراث، سيبدو هزيلاً؛ ومع ذلك، بالنظر إلى الخلف من خلال هاوية الماضي الشفّافة، فإني أشعر بعدم الارتياح كلّما فكرت كيف كنتُ، خلال تلك الفترة القصيرة من امتلاكي للثروة الخاصة، مأخوذاً بمسرّات الشباب العاديّة ـ الشباب الذي كان يفقد بسرعة حماسه الأصليّ والغريب ـ فلم أفرح

بالمتع الخاصة التي قد توفّرها ثروة، وعلى حدٍّ سواء، لم أشعر بأيّ أسىً حين، بين ليلة وضحاها، أبطلتْ الثورة البلشفيّة كل شيء. تدفعني تلك الذكرى للإحساس بعدم إعطاء الخال «روكا» حقّه في الامتنان الذي يستحقّه مني، وكأني شاركت الجميع، حتى أولئك الذين أحبّوه، في نظرة المسايرة والاستخفاف التي رموه بها. كذلك أدفع نفسي مكرهاً، لتذكر التعليقات الساخرة التي كان معلّمي السويسريّ يطلقها على أفضل مقطوعات خالي «روكا»، معزوفة «رومانس»، التي ألّف كلماتها ووضع لحنها بنفسه (خلاف ذلك كان معلّمي شخصاً لطيفاً). ذات يوم، وعلى شرفة قصر «بو» الخاص به، حيث يلمع الكهرمان في الكروم الممتدّة أمامها، ويتلألأ بنفسج الجبال البعيدة، وكان قد نال منه الاعياء ـ اشتداد خفقان القلب، نوبات الربو، ونوبات المسّ البروستيّ[1] كطريقة للكفاح، إن جاز التعبير، وتحت تأثير ألوان الخريف (الموصوفة بإحدى القصائد التي كتبها: «كنيسة تغمرها الأوراق المتساقطة»)، والأصوات البعيدة القادمة من الوادي، والحمام الذي يرسم سطوراً في صفحة السماء الرقيقة، فإنه قد ألّف تلك المقطوعة «رومانس» التي كانت كطائر بجناح واحد (الشخص الوحيد الذي حفظها عن ظهر قلب بكلماتها ولحنها، كان أخي «سيرجي»، الذي كان الخال «روكا» بالكاد ينتبه لوجوده، والذي كان يتأتئ مثله، والذي، هو مثله أيضاً، متوفى اليوم).

«يصعد الهواء الشفّاف من السهل..» كان يغنّي بصوت التينور العالي، جالساً أمام البيانو الأبيض في منزلنا الريفيّ، وكانت تلك الأغاني الحزينة تصلني، أثناء عبوري مسرعاً للبساتين المجاورة كي أصل المنزل عند وقت الغداء (وعندما كنت أرى قبعة القشّ الأنيقة الخاصّة به، صدرية مخمليّة سوداء يلبسها الحوذيّ بملامحه الأشوريّة، وذراعيه الممدودَيْن

(١) المسّ البروستي: نسبة إلى مارسيل بروست، الكاتب الفرنسي.

في أكمام قرمزيّة، أنزلق بسرعة فوق التحوّط الذي يفصل حديقتنا عن الشارع العام):

«يرسم حمام القمرية سطوراً في صفحة السماء الرقيقة

وينبت الأقحوان في عيد جميع القدّيسين»

كانت تصلني وأنا أركض حاملاً شبكة الفراشات، في طريق العودة الظليل، الذي يظهر في نهايته الرمل الأحمر، جزء من زاوية بيتنا الذي أعيد طلاءه حديثاً، لون مخاريط التنوب الصغيرة، ونافذة غرفة الرسم المفتوحة، والتي تخرج منها الموسيقى المبحوحة.

٧

قدرتي على التذكّر الواضح لأحداث الماضي، هي أمر لطالما مارسته طيلة حياتي بمنتهى الاستمتاع، ولديّ ما يدفعني للاعتقاد أنّ دقّة الاستعادة المرضيّة تلك، ما هي إلاّ سمة وراثيّة. كان هنالك بقعة معيّنة في الغابة، ممرّ مشاة فوق جدول ماء داكن، يقف والدي عندها، ويتذكّر بإجلال هاتيك الفراشة النادرة التي، في السابع عشر من أغسطس ١٨٨٣، اصطادها له معلّمه الألمانيّ. بعد ثلاثين عاماً، يُمكن لهذا المشهد أن يعود للحياة. ذات مرّة، توقف وأخوته فجأةً خاطفين أنفاسهم، عند رؤيتهم للحشرة المنشودة جاثمة فوق غصنٍ وترفّ صعوداً ونزولاً، كما لو كانت تخفق من سرعة التنفس، بأجنحتها الأربعة كرزيّة اللونِ، التي تظهر فوق زاوية كل منها بقعة طاووسيّة. بصمت تام، ودون أن يجرؤ على أن يهاجم بنفسه، مرّر الشبكة إلى «هير رودج»، الذي تلمّس طريقه نحو الفراشة الساحرة، مثبّتاً نظره عليها. ورثتْ الحكومة بعد ربع قرن تلك العيّنة النادرة. التفصيل الأكثر سحراً: تمّ بسط جناحيْها

وتقويمهما، لأنهما سبق أن نزعاها بوقت مبكّرعن لوح التثبيت، مدفوعيْن بالشغف.

في إحدى الفيلات التي استأجرناها خلال صيف ١٩٠٤ مع عائلة العمّ «إيفان دي بيترسون» على الساحل الأدرياتيكيّ (كان اسمها أبولو أو نبتون ـ أستطيع حتى اليوم أن أحدّد بوضوح برجها ذا الشرفات بلونه الأصفر الباهت، في الصور القديمة لـ«أبخازيا») وكنت في الخامسة من عمري، أمرح فوق سريري بعد فترة الغداء، استلقيت على بطني، وبكل حب، عناية، وقنوط، وبطريقة مفصّلة بكلّ فنّ، من الصعب أن تتوافق مع عدد السنين الضئيل الذي يمكن له أن يحرّك بشكل غير مفهوم حنين طفل بسنّي لصورة بيته (والذي كنت قد توقفت عن رؤيته منذ ١٩٠٣)، بدأت أرسم بسبّابتي فوق الوسادة، طريق العربات الذي يُفضي إلى بيتنا في «فيرا»، صخرات صغيرات على يمينه، مقعد بظهر منقّش على اليسار، ممشى شجيرات البلّوط الممتدّ وراء أجمات زهر العسل، فُردة حدوة حصان حديثة، لَقِيَّة ثمينة تستحقّ الجمع (أكبر وأكثر لمعاناً من تلك الصدئة التي كنت أجمعها من الشواطئ) تلمع في التربة الحمراء فوق ذلك الطريق. الفارق بين الذكرى التي أستعيدها الآن، وبين الذكريات التي كنت أستعيدها وأرسمها آنذاك، ستّون عاماً، وتبقى الأولى هي الأكثر غرابة.

ذات مرّة، خلال العام ١٩٠٨ أو ربّما ١٩٠٩، انغمس الخال «روكا» في قراءة كتب الأطفال الفرنسيّة التي وقع عليها في بيتنا؛ وصار ينتحب شجيّاً، حين قرأ مقطعاً أحَبّه في طفولته، يبدأ بـ: «لم تكن صوفي فتاة جميلة...» وبعد عدّة سنوات، انتحبتُ مثله تماماً، عندما اكتشفت بالصدفة في إحدى الحضانات، كتب نفس السلسلة «Bibliothèque Rose» التي تروي قصص بنات وفتيان كانت حياتهم في فرنسا نسخة مثاليّة عن الحياة التي عاشتها عائلتي في قصور روسيا. وتلك القصص ذاتها (أحزان

«صوفي»، الفتيات الصغيرات المثاليّات، العطل) أراها الآن مجرد خليط سيء بين التكلّف والابتذال؛ ولكن من خلال كتابتها، فإن السيّدة «سيغور Ségur» («روستوبشين Rostopchine» بالأصل) العاطفيّة والمعتدّة بنفسها، كانت تحاول إضفاء الطابع الفرنسيّ على ذكريات طفولتها الروسيّة، والتي تكبر طفولتي بمائة عام. بالنسبة لي، عندما أعود لقراءة مشاكل «صوفي» ـ افتقارها لوجود حاجبين في وجهها وحبّها للقشدة الدسمة ـ فأنا لا أحصل على ما حصل عليه خالي من المتعة والعذاب وحسب، بل عليّ أن أحمل فوقهما أعباءً إضافية ـ ألم ذكراه التي أحفظها له في نفسي، وإحياء طفولته من خلال الكتب ذاتها. أرى مجدّداً غرفة الدراسة في «فيرا»، ورق الجدران بوروده الزرقاء، والنافذة المفتوحة، انعكاس الضوء على المرآة البيضاويّة فوق المقعد الجلديّ حيث كان يجلس خالي، مبتهجاً بقراءة كتاب مهترئ الغلاف. إحساس بالأمان، وبالرفاه، يسري في ذاكرتي كدفء صيف. متانة ذاك الواقع تجعل من حاضري مجرّد شبح. تفيض المرآة بالنور: تدخل نحلة طنّانة إلى الغرفة وترتطم بالسقف. كل شيء في ذاكرتي كما ينبغي له أن يكون، لن يتغيّر شيء أبداً، لا أحد سيموت.



«ديمتري نيكولايفيتش نابوكوف»، جدّ الكاتب (١٨٢٧ ـ ١٩٠٤)، وزير العدل (١٨٧٨ ـ ١٨٨٥)



جدّة الكاتب لأبيه، البارونة «ماريا فون كورف» (١٨٤٢ ـ ١٩٢٦) في أواخر خمسينيّات القرن الثامن عشر

الفصل الرابع

١

من جملة الفضائل التي يتحلّى بها نوع العائلة التي أنتمي إليها، والذي انقرض اليوم، ميلٌ تقليديّ لاقتناء منتجات مريحة ببصمة الحضارة الأنجلوساكسونيّة. صابون الإجاص، قاتم السواد عند جفافه، والتوبّازيّ إذا ما حُمل بأصابع رطبة وتمّ توجيهه صوب الضوء، كان أساسيّاً في حمامنا الصباحيّ. كم كان ممتعاً إنقاص ثقل الحوض الإنكليزي القابل للطيّ، بإمالته من جهة الشفة المطاطية الخارجيّة التي تسمح بتفريغ الحمولة الزائدة من الماء المزبد في دلو ثم دلقها في المرحاض. «لم نستطع تحسين المعجون لكنّنا حسنّا الأنبوب» هذا ما كُتب على أنبوب أحد معاجين الأسنان الإنكليزيّة. عند الفطور، قَطر الفاكهة المركّز المستورد من «لندن»، تنجدل تموّجاته مع ملعقة مدوّرة ليطفّ منها فوق قطعة خبز روسيّ محمّصة مدهونة بالزبدة. كل تلك الاشياء المبهجة، الدافئة والمريحة، كانت توفَد إلينا بانتظام من المتجر الإنكليزيّ في شارع «نيفيسكي»: حلوى الفاكهة، النشادر، ورق اللعب، ألعاب تركيب الصور (puzzle)، السترات المخطّطة، وكرات المضرب مع التالك الأبيض.

تعلّمت القراءة الإنكليزيّة قبل الروسيّة. كان أوّل أصدقائي الإنكليز،

أربع شخصيّات ملهِمة في كتاب القواعد ـ «بين»، «دان»، «سام» و«نيد». كان هنالك الكثير من التساؤلات حول من يكونون وأين يوجدون ـ «من يكون بن؟»، «هذا يكون دان»، «سام في السرير»، وهكذا دواليك. وبالرغم بقاء كل الأجوبة جافّة ومنقوصة (كان مؤلف الكتاب مرغماً ـ في الدروس الابتدائيّة، على الأقل ـ على استخدام كلمات لا تزيد عن ثلاثة أحرف) إلاّ أنّ مخيلتي تدبّرت أمر تزويد كل شخصيّة بالبيانات اللازمة عند الحاجة. وجه شاحب، كرش كبير، أحمق صامت، فخور بامتلاكه لأداة ما (كان لـ«بن» فأس)؛ وهكذا، فإني أعدتُ رسم حروف كتاب القواعد، لتصبح أشبه بالحروف المقلوبة على لوح اختبار النظر عند طبيب عيون.

كانت غرفة الدراسة مترعةً بأشعة الشمس. في جرّة زجاجيّة متعرّقة، توجد يرقات شوكيّة تتغذّى على أوراق القرّيص (وتتبرّز حبيبات أسطوانيّة مثيرة للانتباه، ذات لون أخضر زيتونيّ). الغطاء المشمّع فوق الطاولة المستديرة له رائحة الصمغ، أما رائحة الآنسة «كلايتون» فلا تشبه إلاّ رائحة الآنسة «كلايتون». بلونه الساحر اللامع الذي يشبه لون الدمّ، يتمدّد الكحول في ميزان الحرارة الخارجيّ ليصل إلى ٢٤ درجة «ريمور» (٨٦ فهرنهايت) في الظّل. من خلال النافذة، تظهر الفتيات القرويات بمناديلٍ تغطّي رؤوسهنّ، راكعات فوق عشب الحديقة الأخضر لينتزعن بأيديهنّ الضار منه، ويكوّمن بكلّ لطف الرمل المرّقش بالشمس. (الأيام المبهجة هي تلك التي كنّ فيها ينظّفن الشوارع والأقنية لصالح البلديّة، سعادةٌ ما بعدها سعادة). ومن بين أوراق الشجر، تنبثق النغمات الأربع لطيور الأقطِروس الذهبيّة: «di-del-di-o!، دي ـ ديل ـ دي ـ أو»!

يمرّ «نيد» بخطىً متثاقلة أمام النافذة، مؤدّياً ببراعة دور مساعد البستانيّ «إيفان» (الذي أصبح عضواً في الحكومة المحليّة عام ١٩١٨). على صفحات لاحقة من الكتاب تظهر كلمات أطول من السابقة؛ وفي

آخر صفحة من الكتاب البنيّ، المبقّع بالحبر، تظهر قصة حقيقيّة ذات مغزىً، بعبارات تخصّ البالغين (ذات يوم، قال «تيد» لـ «آن»، تعالي....) إنها أعلى مراتب المكافأة والانتصار بالنسبة لقارئ صغير. ارتعشتُ لمجرّد فكرة أنني ذات يوم قد أكون كفؤاً لإنجاز كهذا. بقي هذا السحر حيّاً، فكلّما وقعت على كتاب قواعد، أفتح الصفحة الأخيرة فوراً لأستمتع بالنظرة الخاطفة المحرّمة، إلى مستقبل الطالب المجهِد، وأرضه الموعودة حيث، وأخيراً، تعني الكلمات ما ينبغي أن تعنيه.

٢

«سوميركي الصيف» ـ التعبير الروسي الفاتن لكلمة: الشفق. الزمان: يوم غير محدّد في العقد الأوّل من هذا القرن غير الشعبيّ. المكان: خط العرض ٥٩ درجة شمال خط الاستواء، خط الطول ١٠٠ درجة شرق يدي التي أكتب بها. كان النهار ليتلاشى بعد ساعات قليلة، وسيبقى كل شيء ـ السماء، الأزهار الطويلة، الماء الساكن ـ معلّقاً في مشهد بهيميّ لا ينتهي، لليلٍ يطمس كل شيء ما خلا مواء بقرة كئيب يصل من مرج بعيد، أو، ما هو أشدّ تأثيراً، نحيب عصفور آتٍ من أسفل مجرى النهر، حيث يتّسع المدى ليحتضن مستنقعاً ضبابيّاً بطحالبه الزرقاء، له من البعد والغرابة، ما جعل من أطفال «روكافيتشينيكوف» يسمّونه أمريكا.

في غرفة رسم بيتنا الرّيفيّ، وقبل الذهاب للنوم، غالباً ما كانت أمي تقرأ لي بالإنكليزية. وما إن تصل إلى مقطع دراميّ، حيث يكون البطل على وشك مواجهة خطر غريب، وربما قاتل، يتهادى صوتها، ويتباطأ الفاصل بين الكلمة والأخرى لتزيد احتمالية التنبؤات، وقبل أن تقلب الصفحة تضع يدها فوقها، بخاتمها الذي أتذكّره من ياقوت «دم الحمام» والماس (ولو أني كنت عرّافاً خبيراً بالكرات البلّورية، لكنتُ شاهدتُ في

نتوئه الشفّاف، غرفة، أشخاص، أضواء، أشجار تحت المطر ـ فترة كاملة من حياة مهاجر لا شيء سوى هذا الخاتم قد يكافئها ثمناً).

كان هنالك قصص عن فرسان بجروح رهيبة ولكنها معقمة جيّداً، تحمّمهم آنسات في كهوف. من على قمة تذروها الريح، تقف عذراء شابّة من القرون الوسطى، بشعرها المنسدل، مع شاب يرتدي جوارب طويلة ملتصقة، يحدّقان بجزر الأرض المباركة. في قصة «سوء فهم»[١] قد تشعر بغصّة في الحلق تجاه مصير «همفري» أكثر من أي قصة أخرى كتبها «ديكنز» أو «دوديه»[٢] (المختصان بالقصص ذات العبرة)، بينما قصة مجازية مثل: «خلف الجبال الزرقاء»[٣]، التي تحكي عن زوجيْن من المسافرين الصغار ـ الطيّبان زهرة النفل وزهرة الربيع Clover and Cowslip، والشرّيران حوذان وأقحوان Buttercup and Daisy ـ فيها من التفاصيل المثيرة ما ينسيك «الرسالة المغزى».

كان هنالك أيضاً تلك الكتب الكبيرة، المسطّحة، وذات الصور البرّاقة. أحببت على وجه الخصوص، «غوليووغ[٤] Golliwogg» زنجيّ بلون الفحم، بمعطفه الأزرق، وسرواله الأحمر، وعينيه اللتيْن تشبهان أزرار ملابس داخليةً، وكان لديه من الحريم خمس دمىً خشبيّة هزيلة. بطريقة غير شرعيّة، خِيط لدميتيْن منهنّ فستانيْن من خرق علم أمريكيّ (الرقعة المخطّطة للأم «بيغ»)، أما نصيب «سارا جاين» فكان النجوم

(١) سوء فهم: إحدى قصص تشارلز ديكينز. قصة من سلسلة بطلها همفري. السلسلة بعنوان: ساعة السيد همفري.
(٢) ألفونس دوديه: ١٨٤٠ ـ ١٨٩٧، كاتب فرنسي.
(٣) خلف الجبال الزرقاء: قصة لفيكتوريا هولت ١٩٠٦ ـ ١٩٩٣. كاتبة بريطانية اشتهرت بالقصص الخيالية.
(٤) غولييوغ: شخصية خيالية ابتكرتها الأمريكية من أصول إنكليزية فلورانس كايت ١٨٧٣ ـ ١٩٢٢.

الجميلة)، وهكذا حصلتا على بعض ملامح الأنوثة، بما يخفي جسديْهما المحايديْن. أما التوأمين «ميغ ويغ»، بالإضافة للدمية الصغيرة «ميدجيت»، فقد بقين عاريات، وبالتالي، غير مثيرات البتّة.

كنّا نراهم في سكون الليل، يتسلّلون خارج الأبواب، ليتراشقوا بكرات الثلج، إلى أن تدقّ عقارب ساعة بعيدة («ولكن اصغوا!» تقول القافية تحت الصورة) ثم نعيدهم إلى صندوق الألعاب، في غرفة الحضانة. شيطان وقح وقبيح يطلقه رفّاس الصندوق في وجه «سارا»، محبوبتي، فترتعب، ولقد كرهت تلك الصورة بشدّة، لأنها تذكّرني بحفلات الأطفال حيث يكون هنالك فتاة ظريفة، لا على تعيين، قد وقعتُ تحت سحرها، ثم قد يحدث أن تتعرض لحادث ما، كأن تؤذي ركبتها أو تجرح إصبعها، فتتحوّل معالمها فوراً إلى وجه عفريت بنفسجيّ تملؤه التجاعيد، ثم تبدأ بالزعيق. في رحلة ثانية، ذهبوا فوق دراجاتهم فوقعوا بأيدي آكلي لحوم البشر؛ كان المسافرون المطمئنّون يطفؤون عطشهم من واحة محاطة بالكثير من النخيل، حين سمعوا صياح مهدديهم: tom ـ tom. كلّما تأمّلت الماضي أجدني معجباً للمرّة الثانية بتلك الصور المصيريّة: الـ«غوليووغ»، بقي جاثماً على ركبتيه ولكن دون متابعة شربه، انتصب شعر مؤخرة رأسه، وامتقع وجهه الأسود وصار أصفراً شاحباً على نحوٍ غريب. وكان لهم قصّة أيضاً مع السيّارات (صورة لـ«سارا جاين»، محبوبتي أبداً، تتباهى داخل إحداها بوشاح أخضر طويل) بنتائجها الحتميّة، عكّازات وضمادات رؤوس.

أجل! هنالك المنطاد! الكثير الكثير من أمتار الحرير الأصفر لصناعة واحد، أما «ميدجيت» المحظوظة، فقد تمّ تزويدها ببالون صغير جداً، خاصّ بها وحدها. عندما وصل الملاّحون بمنطادهم إلى ارتفاع شاهق، ضمّوا بعضهم بعضاً ليستدفئوا. أما العازفة المنفردة الضائعة، التي أثارت

منتهى جسدي رغم سوء ظرفها، فقد انحرفت ـ وحدها ـ نحو هاوية من الصقيع والنجوم.

٣

ثم بعد ذلك أرى أمّي تقودني نحو غرفة النوم عبر ردهة شاسعة، تتوسّطها درجات متّصلة تصعد نحو الأعلى، حيث لا شيء سوى زجاج المنْور يفصل بين آخر درجة وسماء المساء خفيفة الاخضرار. جررت قدميّ نحو الخلف، ثم انزلقت قليلاً فوق أرضية بلاط الردهة الأملس، بمساعدة يدٍ لطيفة وراء ظهري الصغير، تدفع برفق جسدي المقاوم لها. كلما وصلت إلى الدرج، كنت كعادتي، تحت الدرابزين، ألوي جسدي الصغير متنقلاً بين الفراغات التي تفصل الدعّامات الخشبيّة. مع كل صيف، كانت صعوبة تلك العمليّة تتزايد، أما اليوم، حتى شبحي لن يفلح بالمرور.

وضمن نفس الطقس أيضاً، كنت أكمل صعوداً بعينين مغمضتين. «درجة، درجة، درجة»، صوت أمي وهي تقودني ـ وبالتأكيد، فإن سطح الدرجة التالية سيستقبل خطى الطفل الأعمى الواثقة؛ كل ما عليّ فعله هو رفع القدم أعلى بقليل من المعتاد، كي أتجنّب ارتطام الابهام بالسطح التالي. هذا الصعود البطيء، والمسرنم، داخل عتمة خلقتها لنفسي، كم ولّد من مسرات جليّة. أكثرها تشويقاً هو عدم معرفتي متى سأصل الدرجة الأخيرة، وعندما أفعل، ترتفع قدمي بشكل آليّ لتصل إلى ما يسمّى بـ«الدعسة الناقصة» المخيّبة، وعندها، وللحظة، بذعر فاتن، ومع انقباض عضليَ شديد، تغرق قدمي في درجة خياليّة، محشوّة، إن صحّ التعبير، بوهم وجودها الليّن.

يا لغرابة تلك المراوغة قبل النوم! حقاً، كلّما تذكّرت اليوم صعود

الدرج بتلك الطريقة، أكتشف قيماً فائقة. في الحقيقة، وبكل الأحوال، كنت من خلال تمديد كل ثانية إلى حدّها الأقصى، ألعب لصالح الزمن. تستمر المراوغة إلى أن تسلّمني أمي، من أجل تبديل ملابسي، إلى الآنسة «كلايتون» أو «الآنسة».

في بيتنا الريفيّ خمس حمّامات، وفيها من المغاسل ما لا يتشابه إلاّ بالفخامة (كنت أدخل إلى الزاوية المظلمة في أحد الحمّامات كلما أردت البكاء، لأقف فوق دوّاسة صدئة، أمدّ يدي إلى الصنبور، بحثاً عن لمسة شفاء لوجهي المتورّم الذي لا أريد لأحدٍ أن يراه). كنّا نأخذ حمّامنا كل مساء بشكل منتظم، ونستخدم الأحواض الإنكليزيّة المطّاطيّة الدائريّة، للوضوء الصباحيّ. كان قطر الحوض الخاص بي أربعة أقدام، مع حافة بطول ركبتيّ. وراء ظهر أحدنا المغطّى برغوة الصابون، يقف خادم يرتدي مئزراً ليصبّ الماء فوقه. وكلّما تغيّر المسؤول عن رعايتنا، تغيّرت معه درجة حرارة الماء. في فترة بداية بلوغي، كانت باردة، إذ كان المربّي آنذاك، الذي كان بنفس الوقت طالب طبّ، يفرض علينا أن نخوض طوفاناً جليديّا. بالمقابل، بقيتْ حرارة الحمّام المسائي ثابتة على ٢٨ درجة «ريمور» (٩٥ فهرنهايت)، تُقاس بميزان حرارة كبير ذي جيب خشبيّ (تمرّ في ثقب مقبضه سلسلة رطبة) يسمح له بالطفو ومشاركة المتعة مع الأسماك والبجعات المصنوعة من السيليولويد.

أما المراحيض فمنفصلة عن الحمّامات، وكان الأقدم بينها معتمٌ ولكن باذخ، بمثعب ماء رائع وشرّابة من المخمل الأحمر، التي عند سحبها، تتصاعد قرقرة الماء بصوتها المكتوم، ثم تتلاشى وكأنها ابتُلعت. من تلك الزاوية في المنزل، يمكن للمرء مشاهدة «هيسبيروس» (نجمة المساء) وسماع العنادل؛ وهناك أيضاً، لاحقاً، ألّفت أوّل قصائدي الفتيّة المكرّسة لجميلات لم أعانقهن، وراقبت بكل أسىً، من خلال مرآة باهتة، الانتصاب الفوريّ لقصر غريب، في مكان ما في إسبانيا. لكن

المرحاض الذي خُصّص لطفولتي المبكّرة كان أكثر تواضعاً، قائماً في فسحة ضيّقة ما بين حاجز من الخيزران والباب المؤدي إلى حمّام الحضانة. كنت أحب إبقاء هذا الباب مفتوحاً بشكل جزئيّ؛ أنظر من خلاله نعساً إلى تلألؤ البخار المتصاعد من حوض الاستحمام الماهوجني، إلى أسراب البجع الطافية والزوارق، إلى نفسي فوق سفينة أحمل قيثارة، إلى عثّة زغبيّة تأزّ أمام مصباح الكيروسين، إلى زجاج النافذة المرقّش خلفها، إلى أجنحتها المقاتلة التي تحوي مستطيلات ملوّنة. أثناء جلوسي فوق المقعد الدافئ، كنت أحب الانحناء، لأضغط جبيني، عظمة الحاجب على وجه الدقّة، بحرف حافّة الباب الناعمة والمريحة، وأكوّر رأسي، ليمكن للباب أن يتحرّك ذهاباً وإياباً، دون أن أزيح جبهتي عن الحرف. يتسلّل إيقاع حلم إلى الكون الذي يحيطني. صوت نقاط الماء التي يهدرها الصنبور، يذكّرني بـ «درجة، درجة، درجة» التي سبق أن سمعتُها. وهذا الجمع المثمر بين رؤية الإيقاع وبين سماعه، جعلني قادراً على حلّ لغز المتاهات المرسومة على مشمّع الأرضية وإيجاد وجوه هناك، ثم يعود نظري إلى صوابه ما إن يقع على صدع أو ظلّ ما. أنا أناشد الآباء: لا تستعجلوا طفلاً في المرحاض، مطلقاً!

تنتهي المرحلة الأخيرة من إبحاري الخياليّ بمجرّد وصولي إلى جزيرة سريري. من شرفة غرفة الرسم، حيث تستمرّ الحياة من دوني، تأتي أمي لتمنحني قبلة النوم الدافئة. مصاريع مغلقة، شمعة مضاءة، يسوع المحب، الحنون والرحيم، جوّ طفولي رائع، ركبتا الطفل راكعة فوق الوسادة التي سيغرق فيها رأسه بعد برهة. الصلوات الإنكليزيّة وأيقونَة قدّيس كاثوليكيّ يونانيّ أسمر، شكّلا شراكة بريئة تشعرني بالمتعة كلّما تذكّرتها؛ أما فوق الأيقونة، في أعلى الجدار، حيث ظلّ شيء ما (ربما حاجز الخيزران ما بين السرير والباب) يتماوج مع ضوء الشموع

الدافئ، توجد لوحة مائيّة مؤطرة تُظهر درباً معتماً، يتعرّج في غابة أشجار زان أوروبيّة كثيفة ومخيفة، حيث لا ترى إلاّ اللبلاب ولا تسمع إلاّ خفقان قلبك. في إحدى القصص الإنكليزيّة الخرافية التي سبق لأمي أن قرأتها لي، صورة لفتىً نزل من سريره ودخل إلى لوحة، ركب حصانه الخشبيّ، وانطلق فوق الطريق الملّون بين الأشجار الصامتة. ففي حين كنت أركع فوق وسادتي نصف جالس على عجزي، غارقاً في ضباب من النعاس ورائحة مسحوق التالك، لأبدأ بتلاوة الصلاة، كنت أتخيّل القفزة العظيمة نحو اللوحة المعلّقة فوق سريري، حيث غابة الزان المسحورة ـ والتي دخلتها عندما حان وقتها.

٤

كلّما عاودت دخول الماضي، أتذكر ذلك التسلسل غير المفهوم للحاضنات والمعلّمات الإنكليزيّات، بعضهنّ قلقات ومزاجيّات، والبعض الآخر مبتسمات على نحوٍ غريب.

ترتبط عندي ذكرى الآنسة «راشيل» الكئيبة ببسكويت «Huntley and Palmer هانتلي وبالمر» (رقائق لوز شهيّة في أعلى علبة مطليّة بالقصدير ذات غطاء أزرق، أما في الأسفل فالرقائق السادة) الذي كانت تشاركني به، كسراً للقاعدة، بعد تنظيف أسناني. كان هنالك الآنسة «كلايتون»، التي كانت تلكزني في منتصف عمودي الفقري كلما كنت مسترخياً في كرسيي، ثم تبتسم وتُرجع كتفيها للوراء لتخبرني أمراً: أخبرتني مرةً أن ابن اخيها كان بنفس عمري (أربعة) حين كان يربّي يرقات شبيهة بتلك التي جمعتْها هي لي أثناء نزهة بعيدة ذات صباح، ثم وضعتها في جرة زجاجيّة ذات غطاء شبكيّ، ولكن البستانيّ قال إنها قد شنقت نفسها بالشبكة. أمّا الجميلة ذات الشعر الأسود والعينيْن الزرقاويْن، الآنسة

«نوكورت»، فقد أضاعت قفّازاً جلديّا أبيضاً في «نيس» أو ربما في «بوليو»، حيث عبثاً بحثتُ عنه لاحقاً فوق الشاطئ اللامع بين الحصى الملوّنة والكِسرات الزجاجيّة لقوارير خضراء قد لفظها البحر. ذات ليلة في «أبخازيا»، طُلب من الآنسة «نوكورت» أن تغادر حالاً. دخلتْ الحضانة مع انبلاج الفجر لتودعني، كانت ترتدي معطف مطرٍ كالح، وكانت تبكي كصفصافة بابليّة. ما كان شيء ليعزّيني يومها، سوى الشوكولا الساخنة الذي أعدّتها لي خصّيصاً، مربية «بيترسون» العجوز، مع الزبدة والخبز، فصارت العمة «ناتا»، كي تلفت نظري، ترسم بالشوكولا الذائبة، وببراعة، أقحوانة فوق سطح قطعة الخبز، ثم قطّة، ثم حورية بحر صغيرة سبق للآنسة «نوكورت» أن قصّت عليّ حكايتها وقد أبكتني آنذاك، فعدت للبكاء مرّة أخرى. الآنسة الصغيرة التي كانت تعاني من قصر النظر هي «هانت»، وقد انتهت إقامتها القصيرة بيننا يوم فررنا أنا وأخي، بأعمارنا المتلاحقة خمس وأربع سنوات، رغم حراستها العصبيّة لنا، وركبنا سفينة بخاريّة، كانت ستأخذنا نحو الـ«راين» قبل أن يُقبض علينا. كان هنالك الآنسة «روبينسون» بأنفها الورديّ، وآنسة «كلايتون» مرّة أخرى. وكان لنا مرة مربيّة مريعة تقرأ لي كتاب «ماري كوريلي»[1]: الذرّة العملاقة. كما كان هنالك الكثيرات. في مرحلة ما تلاشيْن من حياتي. كُرّس أغلب وقتنا لدراسة الفرنسيّة والروسيّة؛ وفيما تبقى من وقت، سُمح لنا بالتحدّث بالإنكليزيّة، فقد خصّص لدروس السيّديْن، «بورنيس» و«كومينغز»، اللذيْن لم يسكنا معنا البتّة، وكانا يحضران ضمن فترات متباعدة. ترتبط ذكراهما في ذهني مع فصول الشتاء في «سانت بطرسبرغ»، حيث امتلكنا منزلاً في شارع «مورسكايا».

كَان السيد «برونيس» رجلاً اسكتلنديّاً ضخماً بوجه متورّد، عينيْن

---

(١) ماري كوريلي: ١٨٥٥ ـ ١٩٢٤ كاتبة من إنكلترا.

خفيفتيّ الزرقة، وشعر خفيف تبنيّ اللون. كان يقضي أصباحه بتعليم الإنكليزيّة في مدرسة لغة، ثم تزدحم مواعيد دروسه الخصوصيّة في فترة بعد الظهر، لتشغل أكثر مما يتسع وقته له. الترحال من منطقة إلى أخرى في البلدة معتمداً على أحصنة كسالى يهرولون ببلادة ليجرّوا عربة نقل، كان ليوصله، إن كان محظوظاً، متأخراً خمسة عشر دقيقة عن موعد درس الساعة الثانية (أينما كان)، أما موعد الرابعة، فمن المؤكد أنه سيصله عند الخامسة. إحساس التوتّر الذي كان يرافق انتظاره، والأمل لمرة واحدة، أن يتراجع عن إصراره الخارق للطبيعة البشرية إذا ما اعترض جدار عاصفة ثلجية طريقه، هو الاحساس الذي لا يتمنّى أحد أن يختبره في حياته البالغة (وهذا ما اختبرته ثانية حين، بدوري، وجدتني مجبراً ضمن ظروف معيّنة على إعطاء دروس خصوصيّة في غرفتي المفروشة في «برلين»، لتلميذ يخلو وجهه من التعابير، وكان دائماً يظهر في موعده، رغم كلّ العراقيل الذهنيّة التي أضعها في طريقه).

كانت العتمة تتكاثف في الخارج وبدت جهود السيّد «برونيس» للوصول إلى منزلنا لتذهب سدىً. وصل الخادم خلال برهة، رفع الستائر الزرقاء، الكتيمة والثقيلة، ثم رفع ستائر النوافذ الجوخيّة المزهّرة. تصاعدت تكّات ساعة جدّي في غرفة الدراسة لتصير مزعجة وكئيبة. ضِيق سروالي عند ثنية فخذي واحتكاك مفصل ساقي الطريّ بالملمس الخشن للجوارب المضلّعة، امتزجا مع الضغط الشديد لحاجة متواضعة، راحة كنت أرجئها منذ فترة. مرّت ساعة تقريباً ولا أثر للسيّد «برونيس». ذهب أخي إلى غرفته ليتدرّب على البيانو، فعزف وأعاد عزف بعض الألحان التي أكرهها ـ التعليمات الموجّهة للأزهار الصناعيّة في مسرحيّة «فاوست» (قولي لها إنها جميلة...) أو نحيب «فلاديمير «لينسكي»[١]

(١) ففاديمير لينسكي: من شخصيات مسرحية أوجين (بوشكين).

(Koo - dah, koo - dah, koo - dah vï udalilis). أما أنا فقد تركت الطابق العلوّي، حيث نقيم نحن الأطفال، وانزلقت بكل بطء على طول الدرابزين نحو الطابق السفليّ، حيث غرف أهلي. غالباً ما يكونون في الخارج في وقت كهذا، واشتداد الظلام في هذا المكان يؤثر في أحاسيسي الغضّة على نحوٍ غريب وغائيّ، كما لو أن الأشياء المألوفة والمحتشدة في العتم، تفعل كل ما بوسعها لتشكيل صورة واضحة، قد بقي ظهورها يتكرر في ذهني حتى صار ثابتاً.

عند انتصاف الشتاء في المناطق القطبيّة، وفي فترات بعد الظهيرة، يغمر الظلام البنيّ الغرف، فتزداد قتامته ليصير أسوداً كالحاً. زاوية برونزيّة، سطح زجاجيّ أو ماهوجني، يعكسان، هنا أو هناك، داخل هذه العتمة، ما بقي من أضواءِ الخارج ذات التوهّج القمري، تنشره أغطية مصابيح الشارع، الممتدة على طوله. تتحرك الظلال الرقيقة على السقف. في سكون كهذا، إن وقعت بتلات أقحوانة فوق رخام طاولة، فإن قلبك سيقع معها.

لمخدع أمي مشربيّة مناسبة جداً لمشاهدة «مورسكايا» باتجاه «ساحة ماريا». كنت أضغط شفاهي على النسيج الرقيق الذي يحجب ألواحها، وأتذوّق شيئاً فشيئاً طعم برودة الزجاج عبر ذاك الستار الشاشيّ. ومن هناك، بعد عدّة سنوات، عند اندلاع الثورة، شاهدت مختلف المشادّات الكلاميّة، ورأيت، لمرّتي الأولى، رجلاً ميتاً: حملوه بعيداً فوق نقّالة، واستمر أحد رفاقه، ذو حذاء مهترئ، باللحاق بهم محاولاً خلع حذاء الميّت من قدمه المتدلّية، رغم كل لكمات وركلات الناقلين ـ مشهد من الهرولة التي لم تتوقّف. ولكن في زمن دروس المعلّم «برونيس»، لم يكن هنالك ما يُرى إلاّ الشارع المظلم وأنوار مصابيحه المتخافتة تدريجياً، التي انهمر الثلج فوقها ذهاباً وإياباً، بكلّ رشاقة، بل أعتقد بكل تروّ متعمَد، كما لو أراد لنا أن نرى مهارة وبساطة حياكته للزخرفة.

من زاوية أخرى، أمكنني رؤية هطل ثلجي أكثر سخاءً، من خلال الهالة الساطعة البنفسجيّة لمصباح غاز، حيث تكدّس الثلج فوق السياج البارز، وكنت واقفاً، أراقبه كيف يعلو أكثر فأكثر، كالبالون عندما ننفخه. في النهاية، يتوقّف أحد المزاليج الشبحيّة العابرة، وبقلنسوة فراء الثعلب فوق رأسه، يسرع المعلّم «برونيس» خطاه الخرقاء، ليصل إلى بابنا.

من غرفة الدراسة، التي سبقته إليها، أسمع صخب خطواته الرشيقة يقترب أكثر فأكثر، ومهما كانت برودة ذاك اليوم شديدة، فإن وجهه دائم التورّد يتعرّق بسخاء، كلما أسرع في مشيه. أذكر القوّة الرهيبة التي كان يضغط بها على قلم الحبر السائل أثناء كتابته، بأسلوب التدوير(١) المبالغ به، لوظائف اليوم التالي. عادةً، وعند نهاية كلّ درس، كنت أطلب منه إلقاء قصيدة هزليّة من خمسة أبيات، وكان الهدف من العرض أن تُستبدل كلمة «تصرخ» بصراخ حقيقيّ ألزمني أنا بأدائه، فكان يضع يدي الصغيرة في كفّه السمين ليضغط عند اللزوم أثناء الالقاء:

«كان هنالك شابّة من روسيا

وكانت (يضغط) كلما لمسها أحد

كانت (يضغط) و(يضغط)....»

وعند هذا البيت، كان ألمي قد أصبح مبرّحاً، فاكتفينا بهذا القدر من القصيدة.

٥

معلّم الرسم الهادئ، الملتحي، ذو الحدبة، وقديم الطراز، الذي علّمني بين ١٩٠٧ و١٩٠٨، كان السيّد «كومينغز»، وقد كان بدوره

(١) أسلوب التدوير: أسلوب معين في كتابة الحروف اللاتينيّة.

مدرّس الرسم الخاص بوالدتي أيضاً. أتى إلى روسيا في أوائل التسعينيات، كمصوّر ومراسل أجنبي لمجلة (le Graphie de Londres). راجت شائعات عن قلّة حظه في حياته الزوجيّة. وقاره المطليّ بحلاوة الحزن، عوّض عن افتقاره للموهبة. كان يرتدي معطفاً إيرلنديّاً (بحزام خلفي) مالم يكن الجوّ لطيفاً، إذ عندها سيفضّل سترة صوفيّة بلونها البنيّ المخضرّ، تسمى «لودن».

كنت مفتوناً بطريقة استخدامه للممحاة التي يبقيها دائماً في جيب صدريته، بطريقة إمساكه للورقة، وكيف يلكز طرفها برأس إصبعه كي يقلب الـ «غوتايرشا»[1] (كما كان يقول). بكلّ صمت، وكلّ كآبة، كان يشرح لي بالرسومات قانون المنظور الصعب: يمسك قلمه ذا الخطوط الطويلة والمستقيمة، والرأس الحاد جداً، وبكلّ أناقة، يبدأ برسم غرفة من العدم (جدران تجريديّة، سقف وأرضيّة متلاشيان) وكانت كلّ الخطوط تلتقي عند نقطة بعيدة افتراضيّة، بدقة مثيرة ولكن عقيمة. مثيرة لأنها تجعلني أفكّر بمسارات السكّك الحديديّة، كيف تتقارب خطوطها بتساوٍ وتناظر أمام عينيّ المحمرّتين، حين أتقمّص شخصيّة السائق المسخّم؛ عقيمة لأن تلك الغرفة تبقى فارغة من البشر والأثاث، وحتى التماثيل المحايدة التي نراها عادة في القاعة الأولى الباهتة لمتحف ما.

ما يرسمه لاحقاً في آخر اللوحة يعوّض عن هزال أوّلها. كان المعلّم «كوميغز» سيّد من يرسمون الغروب. أنابيب الألوان المائيّة الصغيرة، التي اشتراها على عدّة دفعات من بعض أقاربنا، بخمس أو عشر روبلات للقطعة الواحدة، أدّت إلى وجود لوحات غير كاملة، ومتنقّلة، كما تنقّلت الألوان، تطغى عليها المظاهر الغامضة، لا قيمة لها مقارنة مع حيوان من الخزف المصقول، أو صورة فوتوغرافية مؤطّرة حديثاً. لم

(١) غوتايرشا: مادة صمغية عازلة.

يعلّمني رسم المكعّبات والأقماع فحسب، بل، وبأصول الدمج الناعم، تظليل الأجزاء التي يجب أن لا ترى النور للأبد، وكان ذاك المعلّم الساحر، بعد أن أنتهي، يقوم أمام ناظري المفتون به برسم جنّات صغيرة ورطبة خاصة به، عدة رسمات لمنظر طبيعيّ واحد: مساء صيفيّ بسماء برتقاليّة، مرعىً منتهٍ عند حدود غابة سوداء بعيدة، نهر مضيء، يتعرّج بعيداً بعيداً، تحت سماء متكرّرة.

ثم لاحقاً بين عاميّ ١٩١٠ ـ ١٩١٢، تولّى الشهيرُ «ياريميتش»[١] تعليمي الرسّم الانطباعيّ (مصطلح ظهر في تلك الحقبة)؛ شخص يفتقر لروح الدعابة في فنّه الذي اعتمد أسلوباً جريئاً من تداخل بقع الألوان الباهتة، لطخات بنيّة داكنة مع أخرى زيتونيّة، والتي كان عليّ أن أرسم بواسطتها فوق ورق رماديّ كبير، أشكالاً بشريّة لنماذج بلاستيسينيّة (لدائنيّة) سبق أن شكّلناها، ووضعناها في مواقع «دراماتيكيّة مسرحية» أمام ستارة مخمليّة، مع كل ما يلزمها من ثنيّات ومن مؤثّرات ضوئيّة. هذا المزج المثير للكآبة بين ثلاثة أنواع من الفنون على الأقل، كلّها تقريبيّة، أدّى في نهاية المطاف إلى تمرّدي.

تم استبداله بـ «دوبوزينسكي»[٢] الشهير الذي أحبّ أن يعطيني دروس الرسم عند البيانو العريق الموجود في الطابق السفليّ من منزلنا، في إحدى غرف الاستقبال الجميلة، حيث كان يدخل بكلّ حذر خشية أن يجفل استغراقي في كتابة الشعر. لقد جعلني أرسم من ذاكرتي، مستحضراً أدقّ تفاصيل الأشياء، التي من المؤكّد أني رأيتها آلاف المرات دون أن ألقي لها بالاً: مصباح شارع، صندوق البريد، تصميم الزنبقة فوق الزجاج المرقّش لباب البيت. حاول تعليمي كيفيّة التنسيق الهندسيّ

(١) ياريمتش سيفان بيتروفيتش: ١٨٦٩ ـ ١٩٣٨ رسام روسي.
(٢) ميستيسلاف دوبوزينسكي: ١٨٧٥ ـ ١٩٥٧، رسام روسي.

بين الأغصان الرقيقة لشجرة الشارع العارية، إنها نظريّة بصريّة قائمة على التبادل، تتطلّب مهارة عالية في رسم الخطوط، التي لم أمتلكها في شبابي، ولكني بلغتها لاحقاً وبكلّ امتنان في حياتي الناضجة، ليس فقط خلال رسم الأعضاء التناسليّة لفراشة خلال سنواتي السبع في متحف علم الحيوان المقارن التابع لجامعة «هارفرد»، حين كنت أغرق نفسي في بئر المجهر المضيء، لأعيد رسم الهيكل المكتشَف بالحبر الهندي، بل أيضاً، لبعض حاجات الكاميرا الاستجلائية camera- lucida[١] أثناء تأليفي الأدبيّ. ومع ذلك، ومن وجهة نظر عاطفية، فأنا مدين للألوان الأولى التي أدخلتني أمي في عوالمها، كما فعل معلّمها السابق. يا للسرعة التي كان السيّد «كومينغر» يجلس بها فوق «التابوريه»، أرى ظهره وذراعيه، ولكن ماذا؟ هل كان يرتدي كنزة صوفيةّ؟ لا أذكر الآن إلا الإيماءة التي كانت تصدر عنه قبل فتح صندوق الألوان الأسود. لطالما عشقت طريقته الرشيقة بغمس الفرشاة في عدّة ألوان، المترافقة بالصوت الصادر عن وعاء الخلط، حيث درجات الأحمر والأصفر الغنيّة تمتزج بطريقة فاتحة للشهيّة؛ وهكذا، بعد أن يجني عسله يتوقف عن ضرب المزيج، وبلكزتيْن أو ثلاث بمكنسته المغمّسة في الشهد، يمدّ فوق ورقة «Vatmanski» سماءً برتقاليّة، التي، وقبل أن تجفّ، يفرش خلالها غيمة طويلة بلون البنفسج الداكن. «ها قد انتهينا يا عزيزي» يقول لي «هذا كل ما في الأمر».

في إحدى المناسبات، رسم لي قطاراً سريعاً. راقبت كيف كان يراكم الخطوط ببراعة بواسطة قلمه، لتصير في النهاية «الكاسح الأماميّ» للقطار، وكيف، وبكل تفصيل، يرسم مصابيح تلك المركبة التي بدت

(١) camera-lucida: كاميرا ضيائية استجلائية تثبت على طاولة الرسام بهدف الإضاءة على تمثال صغير أو ما شابه لتعكسه تناظرياً فوق ورقة أو لوح الرسم.

مستعملة من حقبة خطوط «Siberian trans»، وقد أدّت واجبها عند نقطة «برومونتوري يوتا»، في نهاية الستينات. ثم رسم خمس عربات عاديّة ومخيّبة للآمال. وعندما انتهى منها، اعتنى بتظليل الدخان الكثيف المتصاعد من المدخنة الضخمة، رفع رأسه، وبعد دقيقة من التأمل والرضى، سلّمني اللوحة. حاولت أن أبدو مسروراً، أيضاً. لقد نسي مقطورة الماء والوقود.

بعد ربع قرن، علمت بأمرين: أوّلهما أن «بورنيس»، المتوفّى آنذاك، كان معروفاً في «إيدنبورغ» على أنّه مترجم ممتاز للقصائد الروسيّة الرومنطيقية، التي كانت معبودتي في صباي؛ ثانيهما أن معلّم الرسم المتواضع، الذي كنت أزامن عمره مع كبار السنّ من أقاربي وعجائز الخدم، قد تزوّج من شابّة إستوانيّة، وفي نفس وقت زواجي تقريباً. عند علمي بتلك التطوّرات، أصبت بصدمة غريبة، كما لو أنّ الحياة قد انتهكت حقوقي الابداعيّة من خلال تسلّلها إلى ما وراء الحدود الشخصيّة، لذاكرة طفولتي الأنيقة والمرتّبة، والتي ظننت أني قد وقّعت عليها ومهرتها أيضاً.

«وماذا عن «ياريمتش»؟»، سألت السيد «م.ف دوبوزينسكي» بعد ظهيرة أحد الأيام الصيفيّة خلال أربعينيات هذا القرن، أثناء تنزّهنا في إحدى غابات شجر الزان في «فيرمونت». «هل مازال هنالك من يذكره؟».

«في الحقيقة أجل»، أجاب «ميستيسلاف فاليريانوفيتش»، «لقد كان ذا موهبة عظيمة، لست أدري أي نوع من الأساتذة هو، ولكني على يقين أنك أسوأ تلميذ قابلته في حياتي».

الفصل الخامس

١

غالباً ما لاحظت أني في كلّ مرةً عزوت إلى شخصيّات رواياتي تفاصيل ماضيّ الثمينة، فإنها كانت تذوي في العالم الزائف حيث وضعتُها مبتورة. ورغم أن دفأها الشخصيّ بقي متّقداً في ذهني، إلا أن جاذبية استعادتها قد ولّت، وأصبحتْ، الآن، أكثر تحديداً من خلال روايتي وليس من خلال نفسي السابقة، المكان الذي اتَضح أنه الأكثر أماناً لحفظها بعيداً عن تدخل الفنّان. انهارت المنازل في ذاكرتي بصمت كما كانت تفعل في الأفلام الصامتة القديمة، وصورة مربيّتي الفرنسيّة العجوز، التي كنت قد أقرضتها لولد في أحد كتبي، تتلاشى بسرعة، وتغرق في وصف طفولة لا تمتّ لطفولتي بصلة. ثار الرجل في داخلي ضد كاتب القصص، وإليكم محاولتي اليائسة لاسترجاع ما بقي في ذاكرتي من تلك الآنسة المسكينة.

امرأة ضخمة جداً، امرأة سمينة جداً، إنها الآنسة التي دخلت حياتنا خلال ديسمبر ١٩٠٥ حين كنت في السادسة أما أخي ففي الخامسة. هأنذا أراها، وأرى شعرها الغزير الداكن، المرفوع والمغطّى بوشاح رمادي؛ أرى التجاعيد الثلاث فوق الجبين العابس، حواجب كثّة، عيون فولاذية وراء نظّارة أنفيّة ذات إطار أسود، أثر الشارب ذاك، تلك البشرة

الملطّخة، التي، في لحظات الغضب، تُظهر احمراراً إضافياً عند الذقن الثالثة والمتضخّمة، التي تتربع فوق عرش جبل قميصها المزركش. والآن ها هي تجلس، أو بالأحرى تعالج مشكلة الجلوس: هلام يهتزّ في وجنتيها الممتلئتين، وفي مؤخرتها الأعجوبة، مع ثلاثة أزرار جانبيّة، ومحاولة حذرة للانخفاض؛ ثم، وفي اللحظة الأخيرة، تستسلم كتلتها لكرسيّ الروطان، الذي يتملّكه الرعب، فيطلق أصوات تشقّقات ترحيباً بها.

بقينا في الخارج لسنة تقريباً. بعد أن قضينا صيف ١٩٠٤ في «بوليو» و«أبخازيا»، وعدة أشهر في «فيسبادن»، وعدنا إلى روسيا في بداية عام ١٩٠٥. لم أنجح في تذكر الشهر. قد يكون في ذهابي إلى الكنيسة الروسيّة في «فيسبادن» ما يشير إلى التاريخ ـ لم يسبق لي أن دخلت كنيسة قبلها ـ ولا بدّ أن ذلك قد حصل أثناء الصوم الكبير(سألت أمي خلال القدّاس عمّا كان الكاهن والشمّاس يقولانه؛ أجابتني همساً بالإنكليزية أنهما يأمران بحبّ البشر بعضهم بعضاً، ولكن ما فهمته هو أن ذانك الشخصين الرائعين، بثيابهما اللامعة مخروطيّة الشكل، يخبر كلّ منهما الآخر أنه سيبقى صديقه للأبد). وصلنا من «فرانكفورت» إلى «برلين» خلال عاصفة ثلجيّة، وفي الصباح التالي استقلينا «Nord Express» الذي وصل هادراً من «باريس». وصلنا الحدود الروسيّة بعد اثنتي عشرة ساعة. على خلفية فصل الشتاء، اكتسب التغيير الاحتفاليّ للسيّارات والمحرّكات معنىً جديداً وغريباً. شعور مثير بـ«مسقط الرأس» أراه للمرة لأولى مندمجاً بشكل ملموس مع الثلج الذي ينهمر متهادياً، آثار الأقدام العميقة عبره، توهّج المدخنة الأحمر، حطب البتولا المكدّس عالياً، والمكسوّ بطبقات من الثلج المتنقّل، فوق مقطورة الماء والوقود الحمراء. لم أكن قد أتممتُ السادسة، ولكن قضاء هذا العام في الخارج، عام القرارات الصعبة والآمال الليبراليّة، قد عرّض ولداً روسيّاً صغيراً لسماع أحاديث البالغين. لم يستطع أن يمنع نفسه من التأثر،



جدة الكاتب لوالدته، «أولغانيكولايفنا روكافيشنيكوف»، «كوزلوف» عند الولادة (١٨٤٥ ـ ١٩٠١)، «سانت بطرسبرغ»، حوالي عام ١٨٨٥



والد الكاتب، «فلاديمير ديمتريفيتش نابوكوف» (١٨٧٠ ـ ١٩٢٢)، وكان حينها (١٨٨٥) طالب مدرسة، يتوسّط أخوته الثلاث (من اليسار إلى اليمين «ديمتري»، «قسطنطين» و«سيرجي»). كان والدي على وشك التخرج من الجيمنازيوم الثالث ودخول الجامعة بعمر مبكّر مثير للذهول. عمي «قسطنطين» في الحادية أو الثانية عشر، كان لايزال طالب منزل. العمّان «ديمتري» و«سيرجي» كانا يدرسان القانون في المدرسة الامبراطوريّة الحديثة.

وبطريقته الخاصّة، بحنين والدته ووطنية أبيه. بالمحصّلة، تبدو تلك العودة إلى روسيا، بالنسبة لي الآن، بعد ستين عاماً، وكأنها استعادة، ليس للعودة العظيمة إلى الوطن التي لن تحصل أبداً، ولكن لحلمي الدائم بها الذي لم يفارقني طيلة سنوات المنفى.

لم تكن عثّة «Lepidoptera» قد فقست خلال صيف ١٩٠٥ في «فيرا». كان معلّم المدرسة في القرية يأخذنا في نزهات إرشاديّة («ما تسمعونه هو صوت شحذ منجل»، «سيُعطى هذا الحقل فترة راحة في الموسم المقبل»، «أوه! إنه مجرّد عصفور صغير، ليس له اسمٌ خاصّ»، «إن كان هذا الفلاح ثملاً، فذاك لأنه فقير»). افترشَ الخريف الحديقة بألوانه المتعدّدة، والآنسة «روبينسون» قد كشفت لنا عن لعبتها الرائعة ـ كان ابن السفير، الشخصية المألوفة في عالمها الصغير، قد استمتع بها للغاية في الخريف السابق ـ والتي هي كناية عن لمّ الأوراق المتساقطة وترتيبها فوق ورقة قيقب كبيرة لنحصل على كامل ألوان الطيف (ما عدا الأزرق، يا للخيبة!) الأخضر المتداخل بالليمونيّ، الليمونيّ بالبرتقاليّ، وهكذا وصولاً للأحمر المتداخل بالبنفسجيّ، ثم البنفسجيّ الداكن، الأحمر مجدّداً، من ثمّ عودة إلى الليمونيّ بالأخضر (الذي كان العثور عليه صعباً، فلم يُستخدم إلا كمشارك رائع عند الخط الأخير). ضرب الصقيع زهور «النجم asters» ولم نكن قد انتقلنا بعد إلى المدينة.

كان الشتاء الممتدّ بين ١٩٠٥ و١٩٠٦، الفترة التي جاءت فيها «الآنسة» من سويسرا، هو الشتاء الوحيد في طفولتي الذي قضيته في القرية. كان عاماً من الاضطرابات، أعمال الشغب، ومجازرَ بمشاركة الشرطة، وأفترض أن والدي قد أراد استبعاد عائلته عن المدينة، وإبقاءها في بيت القرية الهادئ، حيث قد تساعد شعبيته بين الفلاحين في تخفيف مخاطر الفتنة القائمة، وكان حدسه في محلّه. كما كان شتاءً استثنائيّ القسوة، فقد أنتج من الثلوج ما لم تتوقع الآنسة أن تراه حتى في الشتاء

القطبي الكئيب لـ«موسكوفي» النائية. لم أكن حاضراً لاستقبالها، عندما نزلتْ في محطّة «سيفيرسكي» الصغيرة، والتي عليها أن تنطلق منها بعربة جليديّة لتعبر نصف دزينة من الأميال فوق الثلج لتصل إلى «فيرا»؛ ولكنني الآن في نفس المكان، أحاول تخيّل ما رأتْ وما شاهدتْ في المرحلة الأخيرة من رحلة خرافيّة لم يكن توقيتها مناسباً. كان معجمها الروسيّ عبارة عن كلمة قصيرة واحدة، ، كما أعلم، وتلك الكلمة اليتيمة، هي ما ستأخذه معها في رحلة العودة إلى سويسرا، بعد عدّة سنوات لاحقة. وقد أعطت لتلك الكلمة، بطريقتها الخاصّة، لفظاً صوتياً «غيدي ياه giddy-eh» (ولكن بالحقيقة هي gde والمدّ فيها كما في كلمة yet)، وهي تعني «أين؟». ويعتبر هذا إنجازاً. كانت تنطق بها كما لو كانت صرخةً جشّاء لعصفور تائه، فيها من قوة الاستفهام المتراكم ما يكفي لكل تساؤلاتها. «Giddy - eh? Giddy - eh؟» تبثّ شكواها من خلالها، ليس فقط أثناء بحثها عن غرض ما، بل أيضاً للتعبير الأقصى عن شعورها بالضيق: فهي في حقيقة الأمر كانت غريبة، ناجية من الغرق، مفلسة، معتلّة، وتبحث عن الأرض المباركة حيث يمكن لها أن تكون مفهومة على الأقلّ.

أستطيع تخيّلها، نيابةً عن نفسي، واقفةً في منتصف رصيف القطار، حيث نزلتْ لتوّها، وكلّ محاولات شبحي هناك لمعانقتها ذهبت سدىً إذ أنها لم تره («كنت هناك، جميعهم قد هجروني، مثل الكونتيسة كارنينا» هكذا تذمّرت لاحقاً، بكلّ بلاغة، رغم عدم صحّة التشبيه). صوت النحيب المخيف الذي يصدره باب مقصورة عربات التزلّج أثناء فتحه، هو ما يميّز ليالي الشتاء شديدة الصقيع؛ تخرج منه سحابة دفء، غزيرة كما لو كانت بخار مدخنة لاهثة؛ وعندها، يتولّى الأمر «زاهار»، الحوذيّ الذي وصل - رجل جسيم يرتدي معطفاً جلديّاً من الخارج وصوفيّا من داخله، تبرز قفازاته الضخمة من تحت حزامه القرمزيّ حيث

كان قد حشرهما. أسمع صوت سحق الثلج تحت حذائه اللباديّ، بينما ينشغل هو بالأمتعة، صليل أجراس الأحصنة، ومن ثمّ بأنفه، إذ يقرصه بإبهامه والسبابة في محاولة لتخفيف إحساسه بالصقيع، ويتابع دورانه حول عربة الجليد، متثاقل الخطى. بكل بطء وريبة، تصعد «مادمازيليا Madmazelya» ـ كما كان يناديها مساعدها ـ وتتشبث به خوفاً من أن تتحرك العربة قبل إحكام إغلاقها. وأخيراً، تستقرّ فوق المقعد، تنفخ في قبضتيْها ثم تحشرهما في الفراء الهزيل المخصّص لتدفئة الأيدي. ما إن يتمطّق السائق بشفتيه الرطبتين، حتى يشدّ الحصانان ـ «زويكا وزينكا» ـ عراقيبهما، يحرّكان حوافرهما، ويندفعان من جديد؛ ترنّحَ جذعُها خوفاً ما إن تمايلتْ العربة بكل ما تحمله من فولاذ، فراء، وبشر، لتدخل في وسطٍ لا احتكاك فيه، بل انزلاق فوق طبقات شبحية من الثلج، بالكاد تلامسها.

للحظة واحدة، وبفضل الإشعاع المفاجئ لمصباح وحيد في نهاية ساحة المحطّة، تضاخم ظلّ على نحوٍ مبالغ به، يضع كفيّه في الفراء أيضاً، بدأ يسابق العربة، وبعد أن تسلّق كتلة ثلجيّة، اختفى، تاركاً الآنسة مذعورة في تلك «السهوب» كما وصفتها لاحقاً، بهلع وببهجة، على حدّ سواء. هناك، في ذاك الظلام اللامنتهي، بدت لها الأنوار المهتزّة التي تومض من قرىً نائية، كعيون الذئاب الصفراء. إنها تشعر بالبرد، لا بل متجمّدة بفعل الصقيع، الصقيع الذي يصل حتى «مركز الدماغ» ـ كانت تلجأ للمبالغة بالاستعارات المجازية حين لا تسعفها المفردات الركيكة بوصف حالها. صارت بين الحين والآخر، تنظر إلى الوراء للتأكّد من أن العربة الثانية، التي تحمل متاعها وصندوق قبعاتها، لا تزال على نفس المسافة، كالسفن الوهميّة في المياه القطبيّة، كما وصفها المستكشفون. دعوني لا أنسى الحديث عن القمر! إذ من المؤكد أنّ ثمّة قمراً هناك، ذاك البدر، المكتمل، الواضح أكثر ممّا يجب، الذي

يليق بالصقيع الروسيّ الشديد. ها هو إذاً، يتحرّى مخرجه من بين قطيع الغيوم الصغيرة المرقّطة، بلونها القزحيّ الباهت؛ وكلّما أبحر عالياً، ملّس الآثار المتروكة فوق الطريق، حيث الظلال الهائلة، هي وحدها ما يُبرز كتل الثلج البرّاقة.

يا للسحرّ! يا للعزلة! ولكن ماذا أفعل أنا في مجسّم أرض الأحلام هذا؟ كيف وصلت هناك؟ بطريقة ما، انحرفت عربتا الثلج بعيداً، وخلّفتا وراءهما، فوق الطريق الأبيض ذي الزرقة، جاسوساً غير مسموح له بالعبور، بمعطفه وحذائه الثلجيّ الإنكليزيّ الجديد. لم يعد صوت الأجراس الذي يتلاشى هو ما يهتزّ في أذنيّ، بل دمّي الذي يألف الأغاني. لا يزال كل شيء حتى اللحظة، واقعاً تحت سحر القمر المستبدّ، وكأني أنظر في مرآة خلفيّة خياليّة. إنها ثلوج حقيقيّة، رغم أني كلما انحنيت وغرفت قبضة، تتسلل من بين أصابعي كغبار ثلج متلألئ.

٢

نور مصباح كيروسين كبير بقاعدة مرمريّة، يشقّ الظلام. ينتشر بلطفٍ ثمّ يهبط؛ اليد التي أتذكّرها الآن، تخصّ خادماً بقفّاز أبيض، يضع المصباح في وسط طاولة مستديرة. عُدّل اللهب بلطف، وها هي كمّة المصباح بكشكشها الحريريّ الورديّ، ورسوم الألعاب الرياضية المنقوشة بطراز الـ«روكوروكو»[١]، تتوّج الشعلة المعدّلة (قطن مانع للتسرّب في كوزٍ من الكاشمير). ما تمّ الكشف عنه: غرفة رسم، دافئة، متوهّجة، وحديثة (بطراز روسي امبراطوريّ)، في منزل غارق في الثلج - سيُسمّى قريباً «القصر le château» - بناه جدّ أمي، الذي، وخوفاً من

(١) روكو كو: طراز من الفن وجد في القرن الثامن عشر ويعد امتدادا للباروك.

الحرائق، أمر بدرجٍ حديديّ، وهكذا فإنه عندما حُرق المنزل وصار ركاماً، في وقتٍ ما بعد الثورة السوفيتيّة، فإن تلك الدرجات المصنوعة من الحديد المطوّع، بقيت صامدة ومضاءة بنور السماء الذي تخلّل قواعدها المخرّمة. لقد بقيت وحيدة، لكنها مازالت تفضي إلى مكانٍ ما.

لنبق قليلاً بعد في غرفة الرسم! لو سمحتم! الأثاث المزيّن بالأبيض البرّاق، والمنجّد بتطريزٍ من الورود. البيانو الأبيض. المرآة البيضاويّة. تتدلّى معلّقة من واجهتها المائلة جداً بحبال مشدودة، وتقوم بكلّ ما يمكن لاستبقاء صورة لمفروشات متهاوية، وقطعة من الأرضيّة الساطعة تهرب دائماً من احتضانها. ثريّات الكريستال المتدلّية، التي تصدر رنيناً مرهفاً (وقد تمّ نقلها إلى الطابق العلويّ حيث ستقيم الآنسة). أقلام ملوّنة، بكل تدرّجات الألوان المفضّلة فوق غطاء الصندوق ولكنها لا تتطابق مع ما يوجد داخله. نحن الآن نجلس إلى الطاولة المستديرة، أخي وأنا والآنسة «روبينسون»، التي ما انفكّت تنظر إلى ساعة يدها: لا بدّ أن تكون الطرقات مريعة مع كل تلك الثلوج؛ بكلّ الأحوال، هنالك مصاعب مهنيّة أخرى كامنة وراء انتظارها للآنسة الفرنسيّة الغامضة، التي ستحلّ مكانها.

لنعد الآن إلى أقلام التلوين! لنبدأ بالأخضر! بمجرد لفّ المعصم، يمكنك أن ترسم به شجرة كثيفة الأغصان، أو دوّامة تركها تمساح قد غاص في الماء. يكفي بالأزرق أن ترسم خطّاً بسيطاً عبر الصفحة، وستحصل على كل آفاق البحار. هنالك دائماً قلم، لا على التعيين، غير مشحوذ الرأس. أما البنيّ فكان مكسوراً على الدوام، وكذلك الأحمر، ولكن في بعض الأحيان، حتى بعد أن يُكسر، يمكن الاستفادة منه عن طريق دعمه بعود خشبيّ صغير، يُلصق بالرأس المتضرّر. زميلهم البنفسجيّ، المفضّل لديّ، قد مخّ حتى صار قصيراً جداً، وتعذّر الرسم به. وحده الأبيض، هذا الأمهق الهزيل ما بين الأقلام، هو من يحافظ

على طوله الأساسيّ، أو على الأقل بقي كذلك إلى أن تبيّن لي أنّه، بعيداً عن كونه يخدعنا حين لا يترك أثراً فوق الورقة، أداةً مثاليّة تسمح لي بتخيّل ما أشاء، بينما أقوم بالخربشة.

للأسف، وُزّعت هذه الأقلام، أيضاً، بين شخصيّات رواياتي لتُبقي الأطفال الوهميّين مشغولين؛ ما عادوا الآن ملكي تماماً. في مكانٍ ما، في بيتٍ فصل كتاب ما، في غرفة مستعارة لمقطع ما، وضعت أيضاً هاتيك المرايا المائلة، المصباح، والثريا التي يتدلّى منها الكريستال. تركت القليل من الأشياء، وبدّدت الكثير. هل تخليّت أيضاً عن «بوكس ١» (ابن وزوج «لولو»، كلبة مدبرة منزلنا) هذا الداشهاند العجوز البنيّ، الذي يغرق سريعاً في سباته فوق الأريكة؟ لا، أظنّ أنه لازال ملكي. خطمه الرماديّ المرقّط، مع ثؤلول فوق زاوية فمه المتغضّنة، مدسوس في انحناءة عرقوبه، يتنهّد بعمق من وقت لآخر فتتباعد أضلاعه. إنه مسنّ جداً ونومه عميق تكنفه الأحلام (مضغ النعال وشمّ بعض الروائح الأخيرة) التي لم يحققها قبل خفوت جلجلة الأجراس. ثم بعد ذلك، يمور الباب الهوائيّ في الدهليز ويصدر صريراً. لقد وصلتْ وأخيراً، كم أملت أن لا تفعل!

٣

كلب آخر، لطيف المزاج، سليل عائلة شرسة، «غريت دان» الذي لا يُسمح له بدخول المنزل، لعب دوراً مسليّاً في حدثٍ قد جرى في الأيام اللاحقِة، إن لم يكن في اليوم التالي مباشرة. حدث أن تُركت مسؤولية الاعتناء بالوافد الجديد على عاتقينا، أنا وأخي. أعيدُ الآن تشكيل الصورة، كانت والدتي قد ذهبت على الأرجح، مع خادمتها والكلب الصغير «تريني»، إلى «سانت بطرسبرغ» (على بعد ما يُقارب خمسين

ميلاً) حيث كان أبي متورّطاً جداً في الأحداث السياسيّة الخطيرة في ذاك الشتاء. كانت حاملاً وشديدة النزق؛ لم تبقَ الآنسة «روبينسون» لاستقبال الآنسة ووضعها في الأجواء، بل ذهبت بدورها ـ عادت إلى عائلة السفير التي سمعنا منها عنها بقدر ما سيسمعون منها عنّا. ولكي أثبت أن لا شيء يمكنه أن يهدّدنا، شرعت بوضع خطّة لإعادة العرض المثير الذي قدّمناه قبل سنة، عندما هربنا من المسكينة الآنسة «هانت»، في «فيسبادن». كانت البريّة في محيطنا الريفيّ هذه المرة صحراء ثلجيّة، وكان من الصعب أن نحدّد هدفنا من الرحلة المخطط لها. كنّا قد عدنا للتوّ مع الآنسة، من نزهتنا لفترة بعد الظهر، وكنت ممتلئاً غيظاً وكرهاً. بقليلٍ من التحريض، هادنت سيرجي ليشاركني بعض غضبي. ملازمة شخص لا يتكلّم بلسانك (كل ما كنّا نعرفه من الفرنسية، كان مجرّد عبارات قصيرة) والأصعب من ذلك، أنه جاء ليعترض على عاداتك المحبّبة، كل ذلك قد فاق قدرة احتمالي. النزهات الجميلة التي وعدتنا بها، قد تحوّلت إلى تجوال مملّ قرب منزلنا، حيث تمت إزالة الثلج، وبدا الجليد مختلطاً مع التراب. ألزمتنا بارتداء ما لم نرتده سابقاً، حتى أثناء رحلات الغابة ـ جزمات عالية وقلنسوات، تعيق كلّ تحرّكاتنا. عندما دفعتُ بـ«سيرجي» ليكتشف تلك المرتفعات الثلجيّة الناعمة والطريّة والتي كانت مشاتل أزهار خلال الصيف، ردعتنا. وكذلك فعلتْ حين أردنا أن نمشي تحت الهوابط الجليديّة المدلاّة على طول المزاريب، الشبيهة بأنابيب الأرغن، أثناء ذوبانها تحت أشعّة الشمس الخفيفة. كما نبذتْ إحدى أفضل تسلياتي كما لو كانت خطيئة (أبدعتها الآنسة «روبينسون») ـ الاستلقاء منبطحاً على مزلاج صغير من البيلوش، مع حبل مربوط بالمقدّمة، ويدٌ بقفّاز جلديّ تجرّني نحو درب ثلجيّ، تحت الأشجار الخضر، أما «سيرجي»، فيجلس دون انبطاح فوق مزلاج آخر، منجّد بالبيلوش الأحمر، موصول بالجزء الخلفي من مزلاجي الأزرق، وعلى مستوى

نظري أرى كعبيْ حذاء لبّادي، يتقدّمان بسرعة مع صرّ الأصابع نحو الداخل، دعسة، ثم أخرى، وها أنا أنزلق فوق بقعة جليديّة باردة. (اليد والقدمان تخصّان «ديمتري»، أقدم وأقصر بستانيّ لدينا، أما البقعة فكانت ممشى شجيرات السنديان، الذي اتضّح أنه الشريان الرئيسي لطفولتي).

عرضت على أخي خطة شريرة وأقنعته ليقبل بها. عندما عدنا من تلك النزهة، تركنا الأنسة تلهث عند درجات الدهليز وهرعنا إلى الداخل، وقد أوحينا إليها أننا سنختبئ في غرفة بعيدة. وفي الواقع، هرولنا إلى أن بلغنا الجهة الثانية من المنزل، ثمّ ومن خلال شرفة، قفزنا ثانيةً إلى الحديقة. كلب «غريت دان» المذكور أعلاه، كان هناك على وشك التبرّز قرب كومة من الثلج، وبينما كان يقرّر أي ساق عليه أن يرفع، رآنا، فأسرع بالانضمام إلينا جزلاً.

سلكنا ثلاثتنا درباً سهلاً إلى حدّ ما، ثم تهادينا فوق الثلوج الكثيفة، ووصلنا الطريق المؤدّي للقرية. في هذا الوقت كانت الشمس قد غربت. هبطت العتمة بحزن غريب. أعلن أخي أنه بدأ يشعر بالبرد والتعب، لكني استمريت بتحفيزه وفي النهاية جعلته يمتطي الكلب (العضو الوحيد في ذاك الحزب الذي بقي مستمتعاً). تقدّمنا ما يزيد عن ميليْن، وكان بريق القمر ساحراً، أما أخي، وبصمت مطبق، كان قد بدأ، من وقت لآخر، بالسقوط عن جبله، وعندها لمع مصباح «ديمتري»، الذي وجدنا وأعادنا إلى المنزل. «Giddy - eh, giddy-eh؟، أين؟» كانت الآنسة تصيح بجنون في الرواق. تخطّيتها بسرعة دون أن أنطق بكلمة. انفجر أخي باكياً مستسلماً. أما كلب «غرايت دان»، والذي كان اسمه «توركا»، فقد عاد إلى شِؤونه المعلّقة عند كومة الثلج القريبة من المنزل، المزوّدة بوسائل الخدمة المطلوبة.

٤

حين نكون أطفالاً فإننا نعرف الكثير عن الأيدي، باعتبارها توجد وتتحرّك على مستوى ارتفاع قاماتنا؛ لم تكن الآنسة مسرورة من يديها بسبب اللمعة الضفدعيّة لبشرتها المشدودة، والبقع المنتشرة وكأنها كدمات بنيّة. أحدٌ لم يداعب وجهي قبلها. منذ وصول الآنسة، لم تكفّ عن إثارة دهشتي بعفوية تعبيرها عن مودّتها، كلّما قرصت خدّي. حين أفكّر بيديها، تعود إلى ذاكرتي كلّ حركاتها تلك. طريقتها في بري القلم أو بالأحرى جعله مستدقّ الرأس، الرأس الذي يكون موجهاً نحو نهدٍ كبير ومشدود حدّ الإذهال، يغطّيه صوف أخضر. إدخال إصبعها الصغير في أذنها وتحريكه بسرعة لتهزّها. الطقوس التي كانت تقوم بها كلّما أعطتني دفتراً جديداً. تلهث قليلاً، تطلق من خلال شقّ فمها نفخات ربو متتالية وسريعة، ثم تفتح الدفتر لتصنع هامشاً. أقصد، تحفر بظفر إبهامها خطّاً عمودياً واضحاً، تثني الورقة من الجهة المقابلة له، تضغطها، تحرّرها، ثم تملّسها بباطن كفّها، فيعود الدفتر إلى ما كان عليه، وتضعه أمامي جاهزاً للكتابة. يأتي الآن دور الريشة؛ تبلّ رأسها بشفتيها الطريّتيْن قبل أن تغمسها في المحبرة. ثم، مستمتعاً بوضوح خطوط الحروف التي أكتبها (خاصةً أن الدفتر السابق لم أولِهِ كلّ تلك العناية)، وبكلّ دقّة متناهية، أكتب كلمة «إملاء»، بينما تبحث الآنسة بين مجموعتها للاختبارات الإملائية عن مقطع صعب.

٥

في هذه الأثناء تغيّر المشهد من حولنا. غيّرت الطبيعة، اخصائيّة الديكور، وبكلّ صمت، شكل الشجرة التي أتلفها الصقيع، وأزالت الثلج المكدّس مع حفرته الصفراويّة. عادت الغيوم لتعلو زرقة سماء

الصيف في فترات بعد الظهيرة. تحرّكت ظلالٌ فوق ممرّات الحديقة بحذر. وعند ذلك الحين، كنّا قد انتهينا من دروسنا مع الآنسة التي صارت تقرأ لنا أثناء جلوسنا في الشرفة، حيث منظر الحصر وكراسي القش، يتضافر مع رائحة البسكويت الحادة لتزيد من حرارة الجو. فوق حواف النوافذ البيضاء، فوق مقاعد الشرفات الطويلة الملتفعة بنسيج باهت من الـ«كوركا» الهندي، تلمع أحجار كريمة بأشكال هندسية، أحدثتها أشعة الشمس عبر مرورها خلال مربعات ومعيّنات الكؤوس الملونة الشفافة. إنه الوقت الأمثل بالنسبة للآنسة.

يا لعدد الكتب الهائل الذي قرأته لنا عند تلك الشرفة! صوتها الهزيل يقوى شيئاً فشيئاً، ويستمرّ بوتيرة واحدة، دون أدنى عقبة من تردّد، آلة قراءة رائعة، مستقلّة تماماً عن جهاز تنفسّها العليل. قرأتْ لنا كلّ شيء: «أحزان صوفي»، «حول العالم في ثمانين يوم»، «الشيء الصغير»، «البؤساء»، «كونت مونتي كريستو»، والعديد غيرها. ها أنا الآن أراها، جالسة هناك، تستقطر صوت قراءتها من سجنها الساكن. وبالمنأى عن شفتيها، واحد فقط من ذقونها، الصغير منهم، كان وحده ما يتحرك من كتلة الـ«بوذا» تلك. نظّارة أنفها بإطارها الأسود تعكس الأبديّة. إن صدف وحطّت ذبابة فوق جبينها المقطّب، فإن تجاعيدها الثلاث ستقفز معاً كثلاث عدّائين فوق حواجز السباق. ولكن لا شيء كان ليغيّر تعابير وجهها ـ الوجه الذي لطالما حاولت رسمه، بجموده وبساطة تناظره، الذي يغري قلمي بالاختلاس، أكثر ممّا يفعل وعاء من الزهور، أو لعبة البطة الموجودة أمامي فوق الطاولة، والتي كان يفترض بي أن أرسمها.

سرعان ما سينصرف انتباهي إلى ما هو أبعد من ذلك، والذي هو، قد يكون، النقاء النادر لإيقاع صوت قادر على إيصال رسالته الحقيقيّة. نظرتُ إلى الشجرة وإلى أوراقها التي استعارت صوت حفيفها من الإيقاع ذاك. كان «إيغور» يتسكع قرب زهور «الصليب peony». مشى طائر

الذعرة خطوات قليلة، توقّف كما لو أنه نسي أمر ـ ثم تابع المشي، مؤكداً صفة اسمه. قادمة من مكان ما، استقرّت «فراشة الفاصلة Comma butterfly» فوق العتبة، لتفرد أجنحتها وتنقع زواياها الصفراء والحمراء بالشمس، ثم أغلقتها فجأة، لتُظهر التلوين الطباشيري الأساسيّ لجهتها الداخليّة الداكنة، وبشكل مفاجئ أيضاً، طارت بعيداً. ولكن مصدر السحر الأكثر ثباتاً خلال تلك القراءات، يأتي من الرسوم الهزلية فوق الألواح الزجاجيّة الملوّنة، المقحمة داخل أطر بيضاء في كل جهات الشرفة. النظر إلى الحديقة من خلال الزجاج السحريّ هذا، جعلها تبدو بغرابة، هادئة ومنعزلة. من خلال الزجاج الأزرق، تحوّل التراب إلى رماد، أما الأشجار القاتمة، فعامت في سماء استوائيّة. خلق اللون الأصفر عالماً من العنبر المسكوب مع نبيذ الشمس في كأس طويل. صار الأحمر قطرات ياقوتية تسقط من أوراق الشجر فوق الممشى الورديّ. غرق الأخضر في خضرة تزيده اخضراراً. وبعد كلّ هذا الثراء، إذا ما التفتّ لتنظر إلى المربع الزجاجيّ لكأس باهت لا يلفت النظر، مع ذبابة وحيدة أو عنكبوت القبو (الذبابة ذات السيقان الطويلة) فوق حرفه، فإن ذلك لا يشبه إلا تناول الماء دونما عطش، أو رؤية مقعد أبيض عاديّ تحت أشجار مألوفة. ولكن رغم كل ذلك فإن من بين كل الزجاج، وحده هذا المربع، وبعد سنين عدّة، هو من سيشعل حنيني لرؤيته مجدّداً.

لم تعرف الآنسة أبداً كم أن تدفّق صوتها الجميل كان مؤثراً. أما الادّعاءات التي قدّمتها لاحقاً فذات شأنٍ مختلفٍ كليّاً: «آه» تنهدّت «كم نحبّ بعضنا البعض! أيام القصر القديمة والجميلة! دمية الثعلب التي ماتت ودفنّاها تحت السنديانة [لا، إنها دمية «الغولييوغ» الصوفيّة]، وتلك المرّة حين تركتماني أنت و«سيرجي» وحدي في أعماق الغابة أتعثر وأنتحب [مبالغة]، أتذكر ضربي لك على مؤخرتك [حاولت مرّة واحدة

أن تصفعني ولكن المحاولة لم تتكرّر]، عمّتك، الأميرة، حين ضربْتَها بقبضة يدك لأنها كانت وقحة معي [لا أذكر ذلك]، مشاكلك الطفوليّة التي كنت تخبرني بها همساً [مطلقاً!]، زاوية غرفتي حيث تنكمش على نفسك لأنك كنت تشعر هناك بالدفء والأمان».

لطالما بدت غرفة الآنسة، سواء في القرية أو المدينة، غريبة بالنسبة لي. كمشتل زجاجي، يحوي نبتة خشنة الأوراق، مخصّبة برائحة بول ثقيلة. رغم كونها لصيقة بغرفتنا، إلاّ أنها لم تبدُ وكأنّها تنتمي لبيتنا المريح، ذي التهوية الجيدة. في تلك الغشاوة المقرفة، والنتنة، وكأنها عفن قشر تفاحة متأكسد، تنخفض إضاءة المصباح، لتلمع أشياء غريبة فوق طاولة المكتب: صندوق مصقول يحوي عيدان السوس، وقد قطّعتها بمدية الورق إلى شرائح سوداء صغيرة، توضع تحت اللسان فتذوب؛ صورة تذكاريّة لبحيرة وقصر، ونافذة تلمع كاللؤلؤ. طابة مليئة بالنتوءات، مصنوعة من مراكمة الأغلفة الفضيّة للشوكولا التي استهلكتْها ليلاً، ثم دحرجتْها؛ صور ابن أخيها الذي مات، وأمّه التي وقّعت لها خلف الصورة التذكاريّة لـ «سيدة الأحزان»، وصورة للسيد «مارانت»، الذي أجبرته عائلته على الزواج من أرملة ثريّة.

أما الأفضل بينها فصورة بإطار فخم ملبّس بقشر عقيقيّ؛ تظهر، في ثلاث أرباعها، شابّة سمراء تلبس فستاناً ضيّقاً، بعيونها الجريئة وشعرها المنسدل. «ضفيرة بسماكة زندي وتصل كاحليّ!»، كان هذا تعليق الآنسة الميلودرامي. كانت هي حقاً، ولكن كانت عيناي عبثاً تتحقق من شكلها المألوف لمحاولة استخراج الكائن الرشيق الذي ابتلعتْه. أمور كتلك التي انكشفتِ لي ولأخي الهلِع، جعلت من مهمتنا أكثر صعوبة؛ فالأشخاص البالغون الذين، خلال النهار، يبصرون آنسة شديدة الأناقة، لا يرون ما نراه نحن الأطفال عندما، يوقظها أحدنا بسبب صياحه بعد حلم سيء، امرأة شعثاء، الشمعة في يدها، رباط بلمعة ذهبية غير قادر على شدّ

الثوب الأحمر بلون الدم، والذي بالكاد يلفّ جسدها المرتجّ، إنه شبح «جيزابيل» المرعب في مسرحيّة «راسين»، يمشي في غرفتنا حافي القدميْن.

في كلّ مراحل حياتي، كنت أعاني من صعوبة في النوم. تذهلني قدرة الناس في القطارات على تكتيف أذرعهم بشكل مضحك بعد وضع جرائدهم جانباً، والبدء بالشخير بكلّ حميميّة صادمة، بقدر ما يذهلني شاب مستهتر قادر على التغوّط في حضور أخر يستحمّ ويثرثر معه، أو الذي يشارك في مظاهرات وحشيّة، أو حتى ذاك الذي ينضم إلى نقابةٍ وكلّه نيّة لحلّها لاحقاً. أغبى رابطة في العالم، هي رابطة النوم، بواجباته الثقيلة وطقوسه الكريهة. إنه تعذيب ذهنيّ أجده مذلاً. غالباً ما يدفعني التوتّر والاستنزاف خلال التأليف، وللأسف، لتناول حبّة قويّة تمنحني ساعة أو ساعتيْن من الكوابيس المروّعة، أو القبول بالراحة الهزليّة التي توفّرها قيلولة الظهيرة، كما يقبل عجوز خرِف بمصيره أثناء اقتياده مترنّحاً نحو موته الرحيم؛ بكلّ بساطة لم أستطع التعوّد على الخيانة الليليّة للمنطق، للإنسانية وللنبوغ. مهما عظم إرهاقي، فإن وجع فراق الوعي أشدّ وأعظم بالنسبة لي. أنا أبغض «سومنوس»[١]، الرجل ذا الرأس الملثّم بالسواد، الذي يقيّدني إلى كتلة ما؛ مع مرور السنوات، ومع اقتراب انفكاكي الكامل والمثير للسخرية عن تلك الدعامة، الذي، وأعترف، يخفف من وطأة عذابات النوم الروتينيّة حاليّاً، فإني إن كنت قد اعتدتّ الذهاب إلى النوم بكل ألمه، كما الوقوف بشجاعة أمام فأس للعائلة تُسحب من غمد مخمليّ، فإنني في بداية سنواتي، لم تكن آلية الدعم أو الدفاع قد تطوّرت لديّ: لم يكن هناك ما يعينني إلا ضوء من ثريّا محتملة تلمع في غرفة نوم الآنسة، والتي كان بابها، كما أمر طبيب

(١) سومنوس: أو مورفيوس إله النوم عند الرومان.

العائلة (أحييك دكتور «سوكولوف»!) يبقى مفتوحاً بشكل جزئيّ. وكنت كلّما دار رأسي في العتمة المطلقة، وتلاشت روحي في صراعها مع هذا الموت الزائف (النوم)، أتشبث بما يصلني من ذاك الخيط الرأسي (الذي يمكن لدموع طفل أن تحوّله إلى أشعّة مبهرة من التعاطف).

كانت ليلة السبت، أو كان ينبغي لليلة السبت أن تحمل تسلية محتملة، لأنها كانت ليلة الآنسة، التي تنتمي إلى مدرسة النظافة الكلاسيكيّة وتعتبر أن نزعتنا الإنكليزيّة هي مصدر للزكام لا أكثر، فكانت في تلك الليلة تسرف في تحقيق رغباتها من خلال حمّامنا الأسبوعيّ، وبالتالي إطالة أمد سهرتنا العابرة. ولكن من جهة أخرى، كان هنالك عذاب أشد وطأة يتربص بي.

كنّا قد انتقلنا حينها إلى بيتنا في المدينة، تصميم إيطاليّ مبنيّ بالغرانيت الفنلنديّ، وقد أسّسه جدّي حوالي ١٨٨٥، في «سانت بطرسبرغ» (التي أصبحت لينينغراد) شارع «مورسكايا» ٤٧ (هيرتزين حالياً)، مزيّناً بزخارف الزهور الجصيّة، فوق الطابق الثالث (والأخير). شغل الأولاد الطابق الثالث. خلال عام ١٩٠٨، الذي أنا بصدده الآن، كنت لا أزال أتشارك مع أخي غرفة الحضانة. يقع الحمّام المخصّص للآنسة في نهاية ممر على شكل حرف Z، على بعد حوالي عشرين خفقة قلب من سريري. وبين تخوّفي من عودتها المبكّرة من الحمّام إلى غرفة نومها المضاءة واللصيقة بغرفتنا، وبين الحسد الذي كنت أشعر به تجاه صوت صفير أخي النائم وراء ساتر يابانيّ يفصل بيننا، لم أكن لأستفيد من الوقت الإضافي وأستسلم هادئاً للنوم، طالما أنّه كان هناك صدع نور في الظِلام يمسك ولو بذرّة ضئيلة منيّ ويحجزها في العدم. في النهاية كانت تصل، تلك الخطوات التي لا تُحصى، تتقدّم متثاقلةً في الممر، مسببةً اهتزاز غرض زجاجيّ هشّ، متوضّع فوق أحد الرفوف، وكان هو وحده من يشاركني يقظتي.

دخلتْ الآن غرفتها. علمت من خلال تبديل مفاجئ في شدّة الضوء، أن الشمعة فوق منضدة سريرها، قد حلّت مكان عنقود المصابيح المتدلّي من السقف، الذي، وبفعل طقتيْن، قد سطعتْ إنارته درجتيْن إضافيتيْن بشكل طبيعيّ، ثم فجأة، وعلى نحو غير طبيعيّ، انطفأت تماماً. لا زلت أرى خطّ النور الخاص بي، لكنّه بدا قديماً وشاحباً، وصار يرمش كلّما صرّ سرير الآنسة بسبب تحرّكها. لا زلت أسمعها. أسمع حفيفاً فضياً وهي تقول «سوشار»[(١)]؛ والآن، صوت «تريك، تريك، تريك trk-trk-trk» تصدره سكّينة فاكهة أثناء فتحها صفحات نشرة «La Revue des Deux Mondes»[(٢)]. بدأت فترة الانحدار: إنها تقرأ «بورجيه»[(٣)]. لن تحييه أية كلمة مما قد كتب. لقد اقتربت النهاية. وأنا في كرب شديد، أحاول يائساً تملّق النوم، أفتح عينيّ كل عدّة لحظات لأتحقق من تلاشي النور، وأتخيّل الجنّة، حيث جار مصاب بالأرق، يقرأ كتاباً لا نهاية له، على ضوء شمعة سرمدية.

وقع ما لا مفر منه: أُغلقت علبة نظارتها الأنفيّة بصوت حاد، وارتمت النشرة فوق رخام منضدة السرير، وبدأت شفاه الآنسة المزمومة، بعصف الريح؛ فشلت المحاولة الأولى، ما زال لهب الشمعة يترنّح ثملاً؛ دفعة أخرى من الريح، وها هو النور قد خبا. في هذا السواد الفاحم أضعت بوصلتي، بدا سريري وكأنه ينجرف قليلاً، جلست محدقاً يدفعني الذعر، وأخيراً تكيّفتْ عيناي مع الظلام، ومن خلال العوائم العينية، تسرّبت غشاوة لا تقدّر بثمن، وبقيت عيناي هائمتيْن في حالة من فقدان الذاكرة، إلى أن، استعادتا نصفها، بعد أن اخترقت

---

(١) سوشار: اسم علامة تجارية لنوع من الشوكولا السويسريّة القديمة.
(٢) La Revue des Deux Mondes: نشرة أدبية سياسية فرنسية شهرية. تأسست ١٨٢٩.
(٣) بول بورجيه: ١٨٥٢ ـ ١٩٣٥، روائي فرنسي.

أضواء الشارع التي لا تزال حيّة، سماكة الستائر القاتمة، وعندها أرخت أجفاني سدولها.

ما أغرب كيف تنتهي العذابات الليليّة، بأصباح مثيرة كتلك الخاصة بـ«سانت بطرسبرغ»، حيث وصل الربيع القطبيّ، العنيف والحنون، الرطب والساطع، ليزيح بعيداً الجليد المتكسّر أسفل الـ«نيفا»، اللامع وكأنه بحر! لقد أعاد ألق الأسطح. لُوّن طين الشوارع بخليط غنيّ من الأزرق والبنفسجيّ، والذي، خلال كلّ حياتي اللاحقة، لم أرَ له مثيلاً، في أي بقعة من هذا العالم. في تلك الأيام المجيدة، كنّا نذهب للنزهة ضمن طواقم «equipages» ـ كلمة قديمة كانت رائجة في عصرنا. يمكنني بسهولة أن أشعر من جديد بذاك الانتقال المنعش، من معطف «بولوشوبوك polushubok» السميك المبطّن، بياقة القندس، والذي يصل حتى الركبتيْن، إلى سترة البحريّة الزرقاء القصيرة، مع رسم المرساة والأزرار النحاسيّة الصفراء. جلست في عربة «لانداو» المفتوحة، تحت غطاء العربة الممدود فوق المقعد الأسود والأجمل، الذي يشغله كلّ من جلالة الآنسة، والمبتهج بنصره، ذارف الدموع «سيرجي»، وكنت قد أنهيت لتوّي شجاراً معه في المنزل. استمريّت في ركله بين الحين والآخر، تحت غطائنا المشترك، إلى أن نهرتني الآنسة. نمرّ ببطء أمام واجهة «فابرجيه»(١)، حيث قاعدة ثلاثية معدنية مذهلة، «ترويكا» مرصّعة بالجواهر، تحمل بتوازنٍ بيوض نعام مصنوعة من الرخام، وغيرها من المجوهرات المشابهة، والتي كانت ذات قيمة عاليّة بالنسبة للعائلة الامبراطوريّة، أما لنا فلم تعنِ أكثر من زخرفة غروتيسكيّة غريبة ومتنافرة. تُقرعِ أجراس الكنيسة، تطير أوّل «فراشة كبريت Brimstone» فوق قوس

---

(١) فابرجيه: House of Fabergé عالم فابرجيه للمجوهرات، مؤسسه غوستافو فابرجيه ١٨٤٢ سانت بطرسبرغ.

القصر، وعلينا أن نعود إلى القرية بعد شهر؛ حين نظرتُ إلى الأعلى، رأيت حبال زينة معلّقة من واجهة بيت إلى واجهة آخر على امتداد الشارع، تتدلّى منها أعلام كبيرة، مشدودة بشكلّ جيد. بنسيجها نصف الشفّاف، وبخطوطها الثلاث، الأزرق الفاتح، الأحمر الفاتح والأبيض، تلاطمت وكأنها أمواج، وقد حرمتْها ظلال الغيوم التي تحجب الشمس، من كل ما يدلّ على بهجة العيد الوطنيّ. ولكن مما لا شكّ فيه، فإني أحتفل الآن، في مدينة الذكريات، بروح ذاك اليوم الربيعيّ، هسهسة الطين، بداية النكاف، وعصفور غريب، فوق قبّعة الآنسة، منفوش الريش، وتحتقن عيناه بالدمّ.

٦

خلال السنوات السبع التي قضتها بيننا، كانت الدروس تصبح أقلّ فأقلّ، أما مزاجها فمن سيء لأسوأ. ومع ذلك، بقي طباعها المكتئب شبيهاً بصخرة صامدة، إذا ما قارنّاه بأطباع «المدّ والجزر» للمربّين الإنكليز والمعلمّين الروس، الذين مرّوا في أماكن إقاماتنا العديدة. لم تكن العلاقة بينها وبينهم جيّدة. من النادر أن يتواجد حول مائدة الطعام خلال فصل الصيف أقلّ من خمسة عشر شخصاً، وحين، خلال الأعياد، يرتفع هذا العدد إلى ثلاثين أو أكثر، تصبح مسألة إيجاد مكان لها بينهم، أمراً مزعجاً للغاية. يصل الأعمام والعمّات وأبناء العمومة في أيّام كهذه من مزارعهم المجاورة، ويصل طبيب القرية في عربة من عجلتيْن يجرّها حصان، ويُسمع دويّ عطاس أستاذ القرية في الردهة الرطبة، حيث يتنقّل بين مرآة وأخرى، حاملاً في قبضته، باقة خضراء، نديّة، من زنابق الوادي، أو من قنطريون عنبريّ جاف، بلون السماء.

في حال وجدتْ الآنسة نفسها وقد أُقعدت بعيداً عند نهاية الطاولة،

وخاصّة إن فقدت الأسبقيّة أمام إحدى قريباتنا التي تساويها سُمنةً تقريباً (أنا «سيلفيد»[1] مقارنة بها»، تقول الآنسة بازدراء مستهجن)، فإن الاحساس بالإهانة سيدفعها لزمّ شفتيّها، وتوزيع الابتسامات الساخرة - وإن صدف وقام أحد السذّج المجاورين لها بمبادلتها الابتسام، تهزّ رأسها بشكل سريع وكأنها قد خرجت لتوّها من تأمّل عميق، ثم تعلّق قائلةً: «عذراً، كنت أبتسم لأفكاري الحزينة».

كانت تعاني من صعوبة في السمع، وكأن الطبيعة لا ترغب في تجنيبها ما يزيد في حساسيتها المفرطة. انتبهنا نحن الصغار مرّة، وكنّا جالسين إلى الطاولة، إلى دموع الآنسة الغزيرة تنهمر فوق وجنتيّها. «لا تهتمّا للأمر» قالت بصوت منخفض، واستمرّت بالأكل إلى أن عمت الدموع، التي لم تمسحها، عينيْها؛ ثم، وبعد أن أصابها فواق يُفطر القلب، انتفضتْ من على كرسيّها وغادرتْ غرفة الطعام. شيئاً فشيئاً ظهرت الحقيقة. يكون الحديث العام دائراً، على سبيل المثال، عن السفينة الحربيّة التي قادها عمّي، فإنها تأخذ الكلام على أنه سخريّة من سويسرا حيث لا سلاح بحريّ هناك. أو ربما كانت تتوهم، إذا تكلم أحد بغير الفرنسيّة، أنّ هنالك مؤامرة متعمّدة لمنعها من المشاركة وإدارة الحديث. يا للسيّدة المسكينة! لا عجب أنها كانت في عجالة عصبيّة دائمة لتستولي على أحاديث الطاولة قبل أن تتحوّل إلى الروسيّة، فهي لا تتقن حقّ الردّ من خلالها.

«وماذا عن البرلمان يا سيدي؟ كيف هو حال الأمور؟»، يصل صوتها فجأة من آخر الطاولة مزهواً، معترضةً والدي، الذي، بعد يوم مرهق، لم يكن توّاقاً البتّة لمناقشة أمور الدولة مع شخص منفصل عن الواقع،

---

(١) سيلفيد: كائن خرافي ، جنيّ في الهواء، حسب الأساطير الألمانية، وهو أيضاً اسم بطلة عرض باليه يحمل نفس الاسم، عام ١٨٣٢ ، فيليبو تاليوني (إيطالي).

لم يكن أبي ليعرف عنه شيئاً أو يهتم لشؤونه. حين يثني أحدٌ ما على الموسيقى «لكن الصمت، أيضاً، له جماليته» تهمهم، «ذات مساء، في وادٍ منعزل من جبال «الألب»، في الواقع قد سمعتُ الصمت». في نهاية قصصها الرعناء والمفاجئة، وخاصة عندما ترويها بأسلوب دفاعيّ يجعلها تجيب عن أسئلة لم يطرحها أحد، يسود صمت رهيب، بدل أن تثير أحاديث مبهجة يشارك فيها الجميع.

وحقاً، كانت فرنسيتها رائعة! هل كان يتوجّب على أحدنا أن يهتمّ لضحالة ثقافتها، مرارة مزاجها، وتفاهتها الذهنيّة، عندما تغزل بخيوط ذهبية لغتها المتلألئة النفيسة تلك، والخالية من المعنى، كالجناس المستخدم لوصف الخطايا في قصائد «راسين» الورعة؟ مكتبة أبي، التي تفوق حدود معارفها، قد علّمتني قيمة الشعر الأصيل؛ ولكن وضوح وبهاء نطق الآنسة، كان لهما شديد الأثر الاستثنائيّ فيّ، كتلك الأملاح المتوهّجة التي نستخدمها لتنقية الدم. وهذا ما يجعلني الآن تعيساً جداً، حين أتخيّل ألم الآنسة عند شعورها بكمّ خسارتها، وعدم التقدير لصوتها العندليبيّ الذي يصدر من جسمها الفيليّ. مكثتْ معنا وقتاً طويلاً، طويلاً جداً، وبقيتْ بكلّ عناد تأمل حصول معجزة تحوّلها إلى شبيهة «السيدة دي رامبويلييه Madame de Rambouillet»، تدير صالوناً أدبيّاً مزيّناً بالذهب والساتان، حيث يقع كل الشعراء، الأمراء، ورجال الدولة، تحت فتنة صوتها الأخّاذ.

واستمرتْ في أملها، لو أنهم لم يحضروا «لينسكي» ذاك، المعلّم الشاب الروسيّ، المصاب بقليل من قصر النظر وكثير من الآراء السياسيّة القويّة، ليعطينا دروساً خصوصيّة في عدّة مواد، ويشارك في رياضاتنا البدنيّة. كان له العديد من الأجداد، الذين لم يعجب أحدهم الآنسة، ولكن هو، حسب رأيها، كان «الممتلئ». رغم إجلاله لأبي، إلاّ أن «لينسكي» لم يتقبّل بعض المظاهر في مسكننا، كوجود خادم استقبال

ومدرّس لغة فرنسية، لأنه يعتبر ذلك عرفاً أرستقراطياً لا لزوم له في منزل ليبراليّ. من ناحية أخرى، قررتْ الآنسة أنه إذ استمرّ «لينسكي» بإجابة أسئلتها الصريحة بنخرات مختصرة (التي حاول جاهداً أن يجعلها ألمانيّة لعدم وجود وسيلة أفضل للتعبير)، فذلك ليس لأنه لا يتقن الفرنسيّة، بل لأنه يتعمّد إهانتها أمام الجميع.

أتذكر صورتها تطلب منه بصوت عذب، وشفة عليا منقبضة تنذر بالسوء، أن يناولها الخبز؛ وبالمثل أيضاً، يمكنني سماع ورؤية «لينسكي»، دون أي أدبيّات فرنسيّة، ودون توقّف، يتابع رشفه للحساء؛ ثمّ، وبكلّ صرامة، «لو سمحت يا سيّد Pardon, monsieur» تقولها الآنسة أثناء هجومها عبر طبقه، تنتزع سلّة الخبز، ثم تنكص قائلةً «merci»، أمّا «لينسكي» الذي استشعر بسخرية الجميع، فقد اكتسبتْ أذناه الزغبيّتان لون زهرة الراعي. «الجلف»، «الوغد»، «الملحد»، سوف تتنهّد لاحقاً في غرفتها، التي لم تعد مجاورة لغرفتنا، ولكنها لا زالت في الطابق ذاته.

إن صادف نزول «لينسكي» الدرج بخفّة أثناء صعودها، علماً أنها تتوقف لاستراحة كل عشر درجات تقريباً بسبب الربو (إذ أن المصعد الهيدروليكي في بيتنا في «سانت بطرسبرغ» كان معطّلاً معظم الأوقات، ثم توقف عن العمل نهائيّاً) كانت تؤكدّ أنّه وبكل وحشيّة، قد ارتطم بها، دفعها، ورماها أرضاً، لدرجة أننا كنا نرى جسدها المنبطح وهو يدوس فوقه. ومع الوقت، صارت، وفي أغلب الأحيان، تترك الطاولة قبل تقديم الحلوى، فيتم إرسالها إلى غرفتها بكل ديبلوماسيّة. من غرفتها البعيدة، كتبتْ رسالة من ستة عشر صفحة لوالدتي، التي أسرعت نحو الطابق العلويّ، لتجدها قد حزمتْ أمتعتها بطريقة دراميّة. ثمّ بعد ذلك، وذات يوم، سُمح لها أن ترحل مع متاعها.

عادت إلى سويسرا. بدأت الحرب العالميّة، ومن ثمّ الثورة. في بداية العشرينات، بعد وقت طويل من توقّفنا عن مراسلة بعضنا، وبضربة حظّ أثناء إقامتي في المنفى حصلت على فرصة لزيارة «لوزان» مع أحد زملائي، ففكّرت أني ربما أستطيع لقاء الآنسة، إن كانت لا تزال حيّة.

كانت كذلك. استقبلتني بعاطفة جامحة، إنها أكثر سمنة من أي وقت مضى، يملأ الشيب رأسها تماماً، وتكاد تكون صمّاء. وبدل صورة قصر «دي شييون de Chillon»، كان هنالك ترويكا مبهرجة. تكلّمتْ عن حياتها في روسيا بحرارة كما لو أنها وطنها الأم. علاوة على ذلك، عرفتُ أن جالية من المربيات السويسريّات على شاكلتها، موجودة في حيّها. تجمعّن سويةً، وبقين يتنافسن على تحريض ذكرياتهن، لقد شكّلن جزيرة صغيرة وسط بيئة قد أضحت غريبة عنهن. صديقة الآنسة الحميمة، ذاك الحين، كانت الآنسة «غولاي» الشبيهة بالمومياء، مربيّة والدتي السابقة، وكانت لا تزال في عامها الخامس والثمانين متزمّتة ومتشائمة؛ لقد بقيتْ مقيمة في عائلتنا حتى ما بعد زواج والدتي بفترة طويلة، عادت إلى سويسرا قبل سنتين من عودة الآنسةِ، التي لم تكن تبادلها الكلام، حين عاشتا سويّة تحت سقفنا. عند تذكر الماضي، نشعر دائماً أننا في بيتنا، وهذا ما يفسّر إلى حدّ ما الحبّ المتأخر لتلكما الآنستيْن البائستيْن تجاه بلد ناءٍ، أو لأكون صريحاً، هو بالأحرى بلد مروّع، لم تعرفه أيّ منهما حقّ معرفته، ولم تكونا راضيتيْن حين كانتا فيه.

وبما أن الحوار كان صعباً بسبب صمم الآنسة، فقد قررنا أنا وزميلي أن نحضر لها في اليوم التالي جهاز تقوية السمع، وكنا قد فهمنا أنها لم تتمكّن من شرائه. لم تتوصّل بدايةً إلى وضعه بشكل صحيح، ولكن ما إن فعلتْ، التفتتْ نحوي بعينين فرحتيْن، يملأهما ندى الدهشة والهناء.

أقسمتْ إنها استطاعت سماع كلّ كلماتي وكلّ همساتي. لا أعتقد أنها فعلتْ، أشكّ في ذلك، لم أكن قد تكلّمت. لو أنها سمعتْ، لكنت قلتُ لها أن تشكر زميلي الذي دفع ثمن الجهاز. أيُعقل إذاً؟ أتكون حقاً قد سمعتْ صوت الصمت، صمت «الألب» الذي تكلّمت عنه فيما مضى؟ في الماضي، كانت تكذب على نفسها؛ أمّا اليوم، فهي تكذب عليّ.

قبل المغادرة إلى «بازيليا» و«برلين»، خرجتُ للمشي على طول البحيّرة، في ليلة باردة وضبابيّة. عند بقعة معيّنة، كان هنالك ضوء وحيد يبدّد العتمة رغم وهنه، ويحوّل الضباب إلى رذاذ مرئيّ. «إنها تمطر دائماً في سويسرا» كان واحداً من تعليقات الآنسة العفويّة، والذي كان، فيما مضى، يبكيها. في الأسفل، تموّج عريض، يكاد يكون موجة، وشيء ما أبيض غامض قد جذب عيني. عندما اقتربتُ من الماء المتلاطم، عرفت ما هو ـ إنّها بجعة مسنّة، كبيرة وغريبة، تشبه طائر الدودو(١)، تقوم بجهود سخيفة لرفع نفسها إلى قارب يرسو هناك. لم تستطع. الضرب الثقيل والواهن لجناحيها، صوت انزلاقهما نحو قارب يهتزّ ويهدر كلما ارتطم الماء به، اللمعان اللزج للموجة الداكنة حين لفحها الضوء ـ كلّ ذلك بدا خلال لحظة محمّلاً بأهميّة غريبة، نستشعرها في أحلامنا أحياناً حين نرى سبّابة تضغط فوق شفاه مطبقة، ثم تشير إلى شيء ما، ما إن يقترب الحالم من تمييّزه، حتى يصحو فجأة. رغم أني نسيت لاحقاً تلك الليلة الكئيبة، ولكن، تلك الليلة، تلك الصورة المركّبة ـ القشعريرة، البجعة، الموجة ـ كان فيها من الغرابة ما جعلها أوّل ما لمع في ذهني عندما أُخطرت بعد عدّة سنوات، أن الآنسة قد ماتت.

قضتْ سنيّ عمرها وهي تشعر بالبؤس؛ كان البؤس عنصرها

(١) طائر الدودو: طائر عاجز عن الطيران منقرض وقد كان مستوطناً في جزيرة موريشيوس، شرق مدغشقر في المحيط الهندي.

الأساسيّ؛ تقلّباته وتفاوت درجات عمقه، هم فقط ما كان يدفعونها للاستمرار في العيش. ما يزعجني، هو أن الشعور بالبؤس وحده، ولا شيء آخر، لا يكفي لتخليد ذكرى روح. أأكون حقاً قد أنقذتها من الخيال؟ قبل أن يخفت إيقاعها الذي أسمعه ويتلاشى، لم أتوقّف يوماً عن سؤال نفسي، أيمكن خلال تلك السنوات التي عرفتها بها، أن فاتني منها ما هو أهم من ذقونها أو أساليبها أو حتى فرنسيّتها ـ ربما هو شيء أشبه بنظرتها الأخيرة لي، مكرها الحاذق لتجعلني أغادر مسروراً مكافأة لنبالتي، أو ربما ألم تلك البجعة الذي فيه من الفنّ الحقيقيّ أكثر ما في رخوِ راقصة لذراعيها الضعيفيْن؛ بالمختصر، إنه شيء عرفت قيمته بعد أن غابت كلّ الأشياء والكائنات التي أحببتها جداً في طفولتي الآمنة، وتحوّلتْ إلى رماد، أو إلى طلقة في هذا القلب.

هناك ملحق لقصّة الآنسة. عندما كتبتها للمرّة الأولى لم أكن أحط علماً بوجود بعض الباقين على قيد الحياة أثناءها. وعليه، فإن ابن عمّي «بيتر دي بيترسون» قد أخبرني بأن مربيتهم الإنكليزيّة، التي بدت لي مسنّةً في «أبخازيا» عام ١٩٠٤، هي الآن في تسعينيّاتها وبصحة جيّدة؛ كما لم أكن أعرف أن مربيّة شقيقتيّ والدي الصغيرتيْن، الآنسة «بوفييه» (لاحقاً السيدة «كونار») قد بقيت حيّة بعد وفاة أبي بما يُقارب نصف قرن. كانت قد دخلت بيتهم عام ١٨٨٩ وبقيت فيه ستّ سنوات، كما أنها كانت الأخيرة في سلسلة المربّيات. وهناك تذكار صغير رسمه «إيفان دي بترسون» عام ١٨٩٥، والد «بيتر»، يُظهر عدة مراحل من الحياة في «باتوفو»، وتحته كُتب وصفٌ بخطّ والدي: «إلى تلك التي أحبّتنا دائماً، والتي لن ننساها أبداً»، أمّا التوقيع فلأربعة من شباب آل «نابوكوف» وأخواتهم الثلاث، «ناتاليا»، «إليزافيتا»، و«ناديزدا»، إضافة إلى زوج «ناتاليا» وأصغر أبنائهما «ميتيك»، واثنتين من بنات أعمامي، و«إيفان آليكساندروفيتش تيهوتسكي»، المدرّس الروسيّ. بعد خمس وستين

عاماً، وفي «جنيف»، عثرت أختي «إيلينا» على السيدة «كونارد»، وكانت في عقدها العاشر. ظنّت تلك السيّدة العجوز، المتخطّية جيلاً كاملاً، وبكل سذاجة، أن «إيلينا» هي أمّنا، التي عرفتْها شابة ذات ثمانية عشر عاماً، توصلها عربة من «فيرا» إلى «باتوفو» تصحبها الآنسة «غولاي»، في تلك الأزمنة البعيدة، التي يجد ضوؤها الطويل ألف طريقة وطريقة عبقريّة، ليصلني.

الفصل السادس

١

في روسيا الأسطورة التي عرفتها في طفولتي، كان أوّل ما يقع عليه نظري، لحظة استيقاظي، في أصباح الصيف، هو الشقّ بين المصاريع الداخليّة البيضاء للنافذة. فإن كانت تشي برطوبة مطر باهتة، فيُفضّل عندها أن لا أفتح النافذة مطلقاً، لأوفّر على نفسي رؤية نهار مكشر، قد وقف وسط بركة ليلتقطوا له بعض الصور. كيف يمكن للمرء أن يستنتج، من خيط ضوء ضعيف، السماءَ الرماديّة، الرمل المرويّ، الفوضى الدبقة لبراعم بنيّة مسحوقة تحت الزنابق ـ وورقة مسطّحة قد تساقطت (حادث الموسم الأوّل) والتصقت بمقعد الحديقة المبلّل.

وإن أومض الشقّ موحياً بتألقّ الندى، فأسرع لأرغم النافذة أن تتنازل عن كنوزها. وبضربةٍ واحدة، ستُصدع الغرفة بالنور والظلال. تحت الشمس، تتحرك أوراق ممّتدةّ فوق القصب الذي يحمل عناقيد عنب خضراء شفّافة، يتضارب لونها مع المخمل الداكن لأشجار التنوب، ذات الزرقة الكثيفة الاستثنائيّة، كتلك التي اكتشفت وجودها، بعد سنين عدّة، في منطقة «كولورادو» الجبليّة.

منذ أن بلغت السابعة، أصبحتْ كلّ أحاسيسي المرتبطة بمستطيل أشعة الشمس الذي تؤطّره النافذة، واقعة تحت سطوة شغف واحد. إن

كان أوّل ما ألمحه صباحاً هو الشمس، فإن أوّل ما أفكّر به هو الفراشات. هنالك حدث سخيف يقف وراء السبب. الملاك الذي يوجّهني (يشبه الملاك «غابرييل» الذي رسمه «فرا أنجليكو»[1]، ولكن دون ذؤابة الشعر بالنمط الفلورنسيّ) قد دلّني إلى وجود زائر فوق زهرة العسل المتدلّية فوق الظهر المنحوت للمقعد الذي يواجه المدخل الرئيسيّ. إنه كائن نادر، بديع، تشوب صفرة لونه الباهتة لطخات سوداء يتخللها الأزرق، وبقع عين قرمزيّة فوق طرفيّ جناحيْه السفلييْن المؤطرّيْن بالأسود. إنها فراشة قد تعلّقت بالزهرة المائلة، وبعد أن جسّتها، حنتْ هيكلها الهشّ بكل رفق، ولم تتوقف عن رف أجنحتها، أما رغبتي بها، فكانت من أشدّ الانفعالات التي خبرتها يوماً. «آجيل أوستين»، بوّاب بيتنا في المدينة، الذي ولسبب هزليّ (سأشرحه لاحقاً) كان معنا في بيت القرية ذاك الصيف، تمكّن من التقاطها بقبّعتي، التي تمّ نقلها لاحقاً، مع الفراشة، إلى خزانة ملابس تعبق برائحة نفتلين، كانت لتخنقها ليلاً، حسب توقّعات الآنسة الساذجة. ولكن عند الصباح التالي، عندما فتحتْ الآنسة الخزانة لتأخذ غرضاً ما، طارت خطّافية الذيل في وجهها، بأجنحتها التي أصدرت حفيفاً رائعاً، ثمّ أكملتْ طريقها عبر النافذة المفتوحة، ولم يبقَ منها إلاّ ومضة ذهبيّة، تطير ذهاباً وإياباً وترتفع شرقاً، تعبر الأشجار والسهول الجرداء، باتّجاه «فولوغدا»، «فياتكا» و«بيرم»؛ ثم تطير وراء سلسلة جبال «أورال» الكالحة نحو «ياتوسك» و«فيركني» «كوليميسك»، ومن هناك، حيث فقدت أحد أجنحتها، تكمل إلى جزيرة «سانت ـ لورنس» الخلاّبة، ثم تعبر «آلاسكا» وصولاً إلى «داوِسن»، ثم تحلّق جنوباً على امتداد جبال «روكي» ـ حيث سيتمّ أخيراً القبض عليها، بعد سباق دام أربعين عاماً، فوق زهرة طرخشقون

(١) فرا أنجليكو: ١٣٨٥ ـ ١٤٥٥، رسّام إيطالي.

مهاجرة، تحت شجرة حور مستوطنة، بالقرب من «بودلر» ـ «كولورادو». في رسالة من السيّد «برون» إلى السيّد «راولينز»، ١٤ يونيو ١٧٣٥، ضمن مجموعة «بودلاين»[(١)]، ذكر أن المدعوّ بالسيّد «فيرنون»، قد طارد فراشة لتسعة أميال قبل أن يتمكّن من التقاطها «المراجعة الجديدة لانحرافات الأدب والحياة. المجلّد الأوّل، صفحة ١٤٤، لندن، ١٨٢١).

بعد فترة وجيزة من مغامرة خزانة الملابس، وجدتُ عثّة مذهلة، منعزلة في زاوية إحدى نافذات الدهليز، وقد قتلتها والدتي بمادّة الإثيل. في السنوات اللاحقة، لجأتُ لعدّة طرق قاتلة. ولكن الاحتكاك الأدنى بالمادّة الأولى، سوف يسلّط الضوء دائماً على الماضي، ويستعيد تلك الروعة المتخبّطة. ذات مرة، بعد نضوجي، كنت تحت تأثير الإثيل أثناء عملية استئصال الزائدة الدوديّة، وبحيوية الرسوم الانطباعيّة، رأيت نفسي ببزّة بحرية أمتطي عثّة «الامبراطور» تحت قيادة سيّدة صينيّة، والتي عرفت أنها كانت أمي. كان كلّ شيء في حلمي مستنسخاً ببراعة، بينما كانت أعضائي مكشوفة: قطن ماصّ منقوع بالإثيل البارد، يُضغط فوق رأس الحشرة الشبيه برأس الليمور؛ تشنّجات جسمها الخفيفة؛ شقّ مباشر لقشرتها القاسية التي تغطي قفصها الصدريّ بواسطة دبوس؛ إيلاج الدبّوس بكلّ حذر في قعر الشق الفلّيني لهيكلها المبسوط؛ التناظر المضبوط لأجنحتها القويّة، والمضلّعة ببراعة، بواسطة ورق لاصق نصف شفّاف مثبّت فوقها.

---

(١) مجموعة بولايدن: مجموعة كبيرة من الدراسات موجودة حالياً في مكتبة جامعة أوكسفورد.

٢

لا بدّ أني كنت في الثامنة، حين دخلت مرّة مخزن بيتنا القرويّ، واكتشفت بين كلّ الأشياء التي يكسوها الغبار، وجود كتبٍ رائعة، مكتسبة منذ الأيام التي كانت خلالها والدة والدتي مهتمّة بالعلوم الطبيعيّة، وكان «شيمكيفيتش» بروفيسور محاضر في علم الحيوان في الجامعة، هو من يعطي دروساً خصوصيّة لابنتها. كان بعض تلك الكتب عبارة عن تحف، كالمجلّدات الأربع الضخمة ذات الأغلفة البنيّة لموسوعة «ألبرتوس سيبا»[1] «خزانة عجائب الطبيعة»، التي طبعت في «أمستردام» حوالي عام ١٧٥٠. فوق صفحاتها ذات الحبيبات الخشنة، وجدت نقوشاً خشبيّة لأفاعي وفراشات وأجنّة. جنين بجنس أنثى أثيوبيّة معلّقة من الرقبة في وعاء زجاجيّ، كان يسبب لي صدمة قاسية كلّما مررت عليه؛ لكنّي لم أبالِ بحيوان الهيدرا المحشوّ فوق لوحة الفهرس، مع رؤوس الأسد السبع المسنّنة فوق أعناقه السبع الأفعوانيّة، مع جسد منتفخ غريب يحمل درنات تشبه الأزرار تنتشر فوق الحواف، وينتهي بعقدة عند الذنب.

اكتشفتُ كتباً أخرى في ذلك المخزن، من بينها مجموعات عشبيّة ملأى بالأنقوليّات الألبيّة، «باليومنوس» أزرق، نبتة «مرافق جوبيتر»، الزنابق البرتقاليّة الحمراء، وغيرها من أزهار «دافوس»، وكلّها ذات صلة بالموضوع الذي يهمّني. احتضنتُ بين يديّ حمولة مجيدة من المجلّدات النفيسة الجذّابة وأنزلتها للطابق السفليّ: «ماريا سيبيلا ميريان» (١٦٤٧ ـ ١٧١٧) ومخطوطاتها الرائعة عن «حشرات سورينام»، وكتاب «إيسبير» لـ«دي شمايتارلينخ Die Schmetterlinge» (إيرلنغن ١٧٧٧)، وأيقونات

(١) ألبيرتوس سيبا: ١٦٦٥ ـ ١٧٣٦ عالم حيوان وصيدليّ هولنديّ.

«بوادوفال» التاريخيّة عن الحرشفيات المكتشفة حديثاً وغير المعروفة على نطاق واسع (باريس، بداية عام ١٨٣٢). وهناك مؤلّفات أكثر إثارة قد ظهرت في النصف الثاني من القرن، كـ«لتاريخ الطبيعي للفراشات والعثّات البريطانيّة» لـ«نيومان»، «أعظم فراشات أوروبا» لـ«هوفمان»، «مذكّرات الحراشف الآسيويّة» للدوق الكبير» نيكولاي ميهافوتيش» (مع رسومات مذهلة بريشة «كافريغن»، «ريباكوف»، و«لانغ») وكتاب «سكادر» المذهل، «فراشات نيوإنغلاند».

رغم كل نشاط صيف ١٩٠٥ الذي أذكره، إلاّ أنّه لم يكن قد اكتسب بعد كامل حيويته من خلال الرفرفة السريعة للألوان الزغبيّة، التي اكتشفتها خلال النزهات مع معلّم القرية: فراشة «خطّاف الذيل» الخاصّة بشهر يونيو عام ١٩٠٦، كانت لا تزال يرقة فوق نبات الخيميّة، عند الطريق الجانبيّ؛ ولكنيّ خلال هذا الشهر، اطّلعت على كثير من الأمور العامّة، وكانت الآنسة قد اختارت طريقاً معيّناً من الغابة يفضي إلى درب الفراشات البنيّة، وإلى مرج سبخيّ تملأه زهور العرّار الصغيرة ذات الحواف المتلألئة (هكذا ورد وصفها في مؤلَفٍ حديث «فراشات الجزر البريطانية» لـ«ريتشارد ساوث»، أوّل كتيّب ساحر قرأته ولا يمكن أن أنساه مطلقاً). أدركت في العام التالي أن العديد من فراشاتنا وعثّاتنا لا تظهر في إنكلترا أو أوروبا الوسطى، وبمساعدة أطلس أكثر شموليّة، استطعت تحديد أنواعها. في بداية عام ١٩٠٧، ألّم بي مرض شديد (التهاب رئويّ مع حرارة وصلت لـ٤١ درجة مئويّة)، وقد ألغى بشكل غامض، وخلال أشهر قليلة، موهبتي الحسابيّة الخارقة التي سبق أن جعلتْ مني «الطفل المعجزة» (لا أستطيع اليوم أن أعرف ناتج ١٣×١٧ دون ورقة وقلم؛ ولكني رغم ذلك أستطيع أن أعدّ بلمحة عين، أسنان الرقم ٣ المكتوبة بشكل واضح)؛ لكنّ الفراشات قد نجت. أقامت أمي مكتبة ومتحفاً حول

سريري، والتوق لوصف أصناف جديدة قد حلّ مكان شوقي لاكتشاف رقم رئيسيّ جديد. رحلة إلى «بياريتيز» خلال أغسطس ١٩٠٧، قد أضافت لي عجائب جديدة (رغم أنها لم تكن واضحة وعديدة كحالها عام ١٩٠٩). مع حلول عام ١٩٠٨، صار لديّ معرفة تامّة بكلّ ما يخصّ «الحرشفيات الأوروبيّة» كما وصفها «هوفمان». عام ١٩١٠، همْتُ في قراءة المجلّدات الأولى من كتاب «فراشات الأرض العظيمة» ذي الصور المذهلة، لمؤلفه «سيتز»، واشتريتُ عدداً من الفراشات النادرة الموصوفة في الكتاب، وكنت أقرأ بنهم النشرات المختصّة بعلم الحرشفيّات، الروسيّة والإنكليزيّة منها على وجه التحديد. أحدثتْ التطوّرات المنهجية انقلاباً في علم الحرشفيّات. مع بداية منتصف القرن، كان علم الحرشفيّات في أوروبا، بالمجمل، شأناً بسيطاً وثابتاً، أداره الألمان بسلاسة. كان رئيس كهنتهم، الدكتور «شتاودينغر»، رئيساً لأكبر شركة مختصّة بتجارة الحشرات. حتى يومنا هذا، وبعد مرور نصف قرن على موته، لم يفلح علماء الحرشفيّات بالتخلّص من سحر سطوته التي أخضعهم لها. كان لا يزال حيّاً، حين مُنيت مدرسته بخسائر جغرافيّة وعلميّة على امتداد العالم. في حين بقي وتلاميذه ملتزمين باستخدام التسميّات الطويلة لتحديد أنواع الفراشات وفصائلها، ومكتفين بتصنيفها حسب خصائصها المرئيّة بالعين المجرّدة، كان الكتّاب الناطقون بالإنكليزيّة، يقدّمون تغييرات إسميّة مبنيّة على دراسة مجهريّة للأعضاء. فعل الألمان كلّ ما يمكن لتجاهل الاتجاهات الجديدة، والاستمرار في تمجيد الجانب الشبيه بجمع الطوابع، في علم الحرشفيّات. اهتمامهم بـ«جامع الفراشات العادي الذي لا يُعنى بالتشريح»، يماثل ما يقوم به الناشرون المتململون حين يقدّمون الروايات الشعبيّة، للقارئ العاديّ الذي لم يُخلق ليفكّر.

كان هنالك تغيير أكثر عموميّة، وقد تزامن مع اهتمامي المراهق والمحتدم بالفراشات والعثّات. النوع الذي وُصف بالطريقة «الشتاودنغريّة»[1] و«الفيكتوريّة»[2]، على أنه محكم ومتجانس، وبأشكال خارجيّة متنوّعة (ألبيّة، قطبيّة أو جزيريّة...إل خ) تظهر من خلال ذيل ملحق كما لو أنّه زائد، هذا النوع قد تمّ استبداله بآخر، ذي فصيلة رشيقة ومتعدّدة الهيئات، تتكوّن عضوياً من سلالات ذات صفات وراثيّة تنويعيّة. بعبارة أخرى، كانت الجوانب التطوريّة للمسألة أكثر وضوحاً من خلال أساليب أكثر مرونة للتصنيف. كما وفّرت الاستقصاءات البيولوجيّة علاقة جديدة بين الفراشات ومشاكل الطبيعة الرئيسيّة.

كانت أسرار التكيّف البيئيّ تجذبني بصور خاصّة. إن لهذه المظاهر من الكمال الفنيّ ما نراه عادة في أعمال متقنة من صنع الإنسان. على سبيل المثال محاكاة رشح السمّ من خلال بقع تشبه الفقاعات فوق جناح (تكتمل العمليّة بشبه انكسار للضوء) أو من خلال نتوءات صفراء لامعة فوق الشرنقة («لا تأكلني، لقد سحقوني، أخذوا عيناتهم اللازمة ثم رموني»). مثال آخر عن العثّة البهلوانيّة «caterpillar» (من فصيلة «Lobster») التي تبدو في طفولتها كبراز عصفور، ولكن بعد خروجها من هيكلها القديم، تكون مزوّدة بذيول ملحقة مخرّشة، بملامح باروكيّة، تسمح لهذا الكائن أن يلعب دورين في وقت واحد (كالممثل في العروض الشرقيّة الذي يؤدّي دور مصارعيْن متشابكيْن في آن واحد): أوّلهما دور يرقة متلوّية، وثانيهما دور نملة كبيرة تبدو وكأنّها تعذب اليرقة. عندما تشبه عثّة معيّنة، دبّوراً معيّناً بالشكل واللون، فإنها أيضاً

(١) هيرمان شتاودنغر: ١٨٨١ ـ ١٩٦٥ كيميائي ألماني. مكتشف الفراشة المسمّاة باسمه.
(٢) فيكتور فاون رايختر: ١٨٤١ ـ ١٨٩١ كيميائي ألماني. مكتشف الفراشة المسمّاة باسمه.

تمشي وتحرّك قرون استشعارها بطريقة لا تخصّ العثّات. عندما يتوجّب على فراشة أن تبدو كورقة، فإنها لا تقدّم كل خصائص الورقة بكلّ روعة وحسب، بل تقدّم أيضاً، وبسخاء، علامات ثقوب تحاكي تلك التي تفتعلها ديدان الأرض. «الانتقاء الطبيعيّ» وفقاً لنظريّة «داروين»، لا يمكنه تفسير التطابق العجيب بين محاكاة الشكل ومحاكاة السلوك، ولا يمكننا أن نلجأ لنظريّة «صراع من أجل الوجود» أمام حشرة تلبس تنكراً يحميها، وهو على درجة من الرقّة، والحيويّة، والكمال، ما يجعلها أبعد ما تكون عن إدراك مفترس. اكتشفتُ في الحياة وجود ملذّات غير نفعيّة، سعيتُ إليها من خلال الفنّ. كان كلاهما ضرباً من السحر، كان كلاهما لعبة تتشابك فيها الفتنة والخيبة.

٣

طاردتُ الفراشات في ظروف مناخيّة عدّة، وبمختلف أساليب التخفّي: كصبيّ أنيق بسروال الغولف وقبّعة البحريّة؛ كمغترب كوزموبوليتاني طويل وهزيل، بسروال الفانيلا وقبّعة البيريه؛ كرجل مسنّ، سمين، وحاسر الرأس، يرتدي سروالاً قصيراً. أصاب صناديقي التي كانت في القرية ما أصاب «فيرا». المجموعات التي كانت موجودة في منزلنا في المدينة، والضميمة التي تركتُها في متحف «يالطا»، كلّها قد أبيدت بفعل العثّ وغيرها من الهوام المؤذية. مجموعة من الفراشات التي جمعتها إبّان سنين المنفى من جنوب أوروبا، قد اختفتْ في «باريس» أثناء الحرب العالميّة الثانية. كلّ طرائدي الأمريكيّة بين ١٩٤٠ و١٩٦٠ (آلاف عدّة من العيّنات تحوي أصناف نادرة وكبيرة) موجودة في متحف علم الحيوان المقارن، المتحف القوميّ للتاريخ الأمريكيّ، ومتحف «جامعة كورنيل» لعلم الحيوان، حيث سيتوّفر لها الأمان الذي

لن تجده في «تومسك»[1] أو «آتومسك»[2]. أحمل ذكريات فائقةَ السعادة، تماثل، في الواقع، تلك الخاصّة بطفولتي في روسيا، وهي مرتبطة بعملي البحثيّ في متحف علم الحيوان المقارن، «كامبريدج» - «ماساشوسيتس» (١٩٤١ ـ ١٩٤٨). أما رحلات جمع الفراشات العديدة، والتي كنت أقوم بها كل صيف تقريباً، على مدار عشرين سنة، وعبر أغلب ولايات البلد الذي احتضنني، فإنّ فيها من السعادة ما لا يقلّ عمّا سبق.

في «جاكسون هول» و«غراند كانيون»، وعلى المنحدرات الجبليّة فوق «تيلورايد» ـ «كولورادو»، وفي أحراش الصنوبر الشهيرة قرب «آلباني» ـ «نيويورك»، عاشت، وسوف تعيش، أجيال عديدة من فراشة معيّنة تفوق عدد الكتب التي ذكرتْها، إنّها الفراشة التي وصفتُها على أنها جديدة. لقد استفاد باحثون آخرون من اكتشافاتي العديدة؛ وكنت أنا من أطلق تسميات على بعضها. إحداها «نابوكوفز باغ Nabokov's Pug» (أوبيثيسيا نابوكوفي ماك دانوو Eupithecia nabokovi McDunnough) التي التقطها في ليلة من ليالي ١٩٤٣، فوق زجاج صورة لـ«جايمس لولين»[3] في فندق «آتلا لودج» في «يوتا»، يتوافق عثوري عليها، من الناحية الفلسفية، مع نظرية الدّوامة، التي بدأت أول دوائرها اللولبية في غابة فوق نهر «الأورديج»، حوالي ١٩١٠، أو ربّما قبل ذلك، فوق نهر «نوفا زيمبلا» منذ قرن ونصف خلا.

قليل فقط من الأمور التي خبِرتها، والمرتبطة بالشغف والعاطفة، بالطموح والإنجاز، استطاعت أن تفوق غِنى وقوّة اندفاعي نحو

---

(١) تومسك: مدينة شمال روسية.
(٢) أتومسك: رواية خيال علمي نشرت عام١٩٤٩ لمؤلفها الأمريكي كوردوينر سميث.
(٣) جايمس لولين: ١٩١٤ ـ ١٩٩٧ شاعر أمريكي.

الاكتشافات الحشريّة. كانت، منذ البداية، تحمل كثيراً من وجوه الومضان المتشابك. أحدها رغبتي الكبيرة في البقاء وحيداً، باعتبار أن أيّ مرافق، مهما كان هادئاً، سوف يقاطع استمتاعي المركّز بهوسي الخاصّ، الذي لم أتمكّن من التوصّل لحلولٍ وسطى لإشباعه. وبالفعل، عندما بلغت العاشرة، كان المعلّمون والمربّيات يعرفون جيّداً أن الصباح هو لي، فيبتعدون عني بحذر.

بهذا الصدد، أذكر زيارة أحد زملاء المدرسة لي، وهو فتىً كنت مولعاً به وأجد برفقته مرحاً عظيماً. وصل في إحدى ليالي صيف ١٩١٣، حسبما أذكر ـ من بلدة تبعد حوالي ٢٥ ميلاً. كان والده قد لقي حتفه مؤخّراً في حادث، تأزّمت أمور العائلة، ولم يستطع هذا الفتى الجسور أن يتحمّل كلفة بطاقة السكّة الحديديّة، فقطع كل تلك المسافة بدرّاجته، ليمضي معي فقط أيّاماً قليلة.

في الصباح التالي لوصوله، فعلت كل ما بوسعي لأخرج سرّاً إلى نزهتي الصباحيّة دون أن يدري بمكان وجهتي. فوّتُّ وجبة الفطور، وبسرعة هيستيريّة، تناولت شبكتي، صناديقي الصغيرة، جرّة لحفظ الفراشات، وهربت من النافذة. ما إن وصلت للغابة، حتى شعرت بالأمان. لكنّني استمرّرت بالمشي، مع ربلتي المرتجّة، وعينيّ المليئتيْن بالدموع الحارقة، يرافقني إحساس العار والاشمئزاز من الذات، وأرتعش كلّما تصوّرت صديقي المسكين، بوجه شاحب وربطة عنق سوداء، يتجوّل في الحديقة تحت أشعّة الشمس الحارّة، يداعب الكلاب اللاهثة وراء شيء ما كأفضل ما يُمكن فعله في غيابي، محاولاً بكلّ جهده إيجاد مبرّرات له.

لننظر إلى فعلي الشيطانيّ بشكل موضوعيّ. باستثناء أهلي، لم يفهم أحدٌ حقاً شغفي ذاك، كما أنّ الحادثة جرت سنين طويلة قبل أن ألتقي بشخص مثلي. أوّل ما تعلّمته هو عدم اعتمادي على أحد بهدف توسيع مجموعتي. بعد ظهيرة أحد أيام صيف ١٩١١، دخلت الآنسة غرفتي،

مع كتاب بين يديها، وبدأت تقول إنها تريد أن تريني كيف أنّ «روسو» يشجب بشدّة علم الحيوان (لصالح علم النبات)، وفي تلك اللحظة، كانت، وبفعل الجاذبية، تهوي بكتلتها الضخمة فوق أريكتي، فزجرتها بعوائي الغاضب: كنت قد وضعتُ فوقها جاروراً زجاجياً يحوي مجموعة مذهلة من الفراشات البيضاء الكبيرة «أبو دقيق الملفوف». ظهر كبرياؤها المجروح في أوّل ردّة فعل لها: لا يمكن، بكل تأكيد، اتّهام وزنها بإتلاف ما سبق أن أتلفه فعلاً؛ أمّا في الثانية، فقد حاولت تعزيتي: «كفاك، إنها مجرد فراشات حديقة» - ممّا جعل الأمر أسوأ. تم سحق زوجيْن من الفصيلة الصقليّة، كنت قد ابتعتهما من «شتاودينغر»، تمّ بشكل كامل، إتلاف نموذج كبير من فراشة «Biarritz»، ومن الضحايا أيضاً، مختارات من أجمل طرائدي المحليّة. من بينها، نموذج شاذ يشبه الفصيلة «الكناريّة»، تمكّنت من إصلاحه ببعض نقاط الصمغ؛ ولكن فراشة «gynandromorphy مزدوجة الصفات الجنسية»، النفيسة جداً، ذات جانب ذكريّ وآخر أنثويّ، التي لم أجد أثراً لبطنها بعد أن انفكّت أجنحتها تماماً، فقد خسرتُها للأبد: كان من الممكن جمع الأجنحة وإلصاقها، ولكن يستحيل إثبات أن تلك الأجنحة الأربعة، تخصّ صدراً بلا رأس، لا شيء يسنده إلاّ وتد منحنٍ. في اليوم التالي، وفي جوّ من الغموض الكبير، ذهبت الآنسة المسكينة إلى «سانت بطرسبرغ»، وعادت في المساء وقد جلبت لي معها («شيء أفضل من فراشات الملفوف خاصتك») عثّة «Urania» بالية، متوضّعة فوق لوح جصّي («أتذكُر كيف عانقْتني؟ كيف رقصتَ من الفرح؟») بقيت تهتف بتلك العبارات عشر سنوات لاحقة، في سياق اختراعها لماضٍ جديد تماماً.

طبيب قريتنا، الذي تركتُ عنده شرنقة عثّة نادرة حين كنت في رحلة خارج البلد، أرسل يخبرني بأن كل البيوض قد فقست بشكلٍ رائع؛ ولكن الحقيقة هي أن فأراً قد التهم تلك الشرنقة الثمينة، وعند عودتي،

قدّم لي العجوز المخادع فراشات «درع السلحفاة» عاديّة، والتي افترضتُ، أنه أسرع في التقاطها من حديقته ثم وضعها في قفص التكاثر كبدائل مقبولة (حسب تفكيره). هناك من كان أفضل منه، إنّه مساعد الطباخ، وهو فتى متحمّس جداً، يستعير مني أحياناً بعض المعدّات، ويعود بعد ساعتين منتصراً، مع جعبة ممتلئة باللافقاريّات الحيّة وعدّة أشياء أخرى. وما إن يحلّ السلسلة التي ربط بها فتحة الشبكة، حتى تنسكب غنائمه الوفيرة ـ كتلة من الجنادب، قليل من الرمل، قسمان من حبة فطر كان قد التقطها ـ بقصد التوفير ـ من طريق عودته، مزيد من الجنادب، مزيد من الرمل، وفراشة «أبو دقيق الملفوف» صغيرة وميّتة.

لم أجد في قصائد كبار الشعراء الروسيين إلا صورتيْن حسيّتيْن بشكل حقيقي لوصف الفراشات والعثّات: استحضار «بونين»[1] الذي لا تشوبه شائبة لما هو بالتأكيد فراشة «درع السلحفاة»:

ستدخل الغرفة بضربة جناح
فراشة من حرير ملوّنة
لترفرف، تحفحف، وترتعش
فوق السقف الأزرق

وفراشة «فيت» تناجي نفسها:

من أين أتيتُ وإلى أين أُسرعُ الخطى
لا تسألوني
لقد حطّ رحالي فوق زهرة جميلة
وها أنا الآن أتنفس.

---

(١) إيفان بونين: ١٨٧٠ ـ ١٩٥٣ أديب وشاعر روسي. حائز على نوبل الأدب ١٩٣٣.



والد ووالدة الكاتب. «إيلينا إيفانوفا نابوكوف»، «روسكافيتشينيكوف سابقاً» (١٨٧٦ ـ ١٩٣٩)، الصورة ملتقطة عام ١٩٠٠، في شرفة الحديقة في «فيرا»، عزبتهم في مقاطعة «سانت بطرسبرغ». أشجار البتولا والتنوب الظاهرة في خلفيّة هذه الصورة، تظهر هي ذاتها في صور فصول الصيف السابقة.



أخي «سيرجي» وأنا، بأعمارنا المتلاحقة سنة وسنتين (ونبدو وكأننا الطفل ذاته، مرّة بشعر ومرّة من دونه)، في ديسمبر ١٩٠١، في «بياريتز». كنا (كما أفترض) آتين من «بو» حيث أمضينا شتاءنا. سقف لامع رطب، هذا كلّ ما أذكره من رحلتنا إلى الجنوب الفرنسيّ. تبعتها رحلات أخرى، اثنتان إلى «بياريتز» (خريف ١٩٠٧ و١٩٠٩) وأخرى إلى «الريفييرا» (آخر خريف ١٩٠٣ وبداية صيف ١٩٠٤).



والدي، بعمر الخامسة والثلاثين، معي أنا وكنت بعمر السابعة، «سانت بطرسبرغ» ١٩٠٦.

أما في الشعر الفرنسي فتهزّنا تلك الأبيات الشهيرة لـ«موسيه»[1] في قصيدة (في حديقة الصفصاف):

العثّة الذهبية في سباقها الهادئ

قد اجتازت المروج العطرة.

وهو وصف دقيق للرحلة الغسقيّة لذكر عثة «أرفيّة» والتى تسمّى في إنكلترا العثة البرتقاليّة؛ وهنالك عبارة «فارغ»[2] الدقيقة إلى حدّ ساحر في (الأيام الأربعة) والتي يصف بها حديقة، عند هبوط الليل، تصبح زرقاء كجناحيْ «سيلفين» كبيرة (poplar admirable). ومن بين نوادر الصور التي وردت في الشعر الإنكليزيّ، فإنَ أفضلها عندي ما كتبه «براونينغ»[3]:

من الجهة الأخرى، تعلو صخرة مستقيمة

يفصلها عن المضيق درب متعرّج

حيث الأشنات فوق الصخور لا تشبه

إلا الخطوط التي تزيّن عثّة

وحيث يبدو السرخس وكأنّه

يعضّ الكتلة المصقولة بأسنانه.

(بجانب النار).

يذهلني حقّاً كيف أن قلّة من الناس العاديين فقط ينتبهون للفراشات. «ولا واحدة» أجابني بكلّ هدوء المتنزِه السويسريّ القويّ الذي كان يحمل كتاباً لـ«ألبير كامو» داخل حقيبة ظهره، حين سألته، بغرض أن

---

(١) ألفريد دي موسيه: ١٨١٠ ـ ١٨٥٧ شاعر، مسرحي وروائي فرنسي.

(٢) ليون بول فارج: ١٨٧٦ ـ ١٩٤٧ شاعر فرنسي.

(٣) روبيرت براونينغ: ١٨١٢ ـ ١٨٩٨ مسرحي وشاعر إنكليزي.

يسمع جوابه رفيقي الشكّاك، إن كان قد رأى فراشات أثناء نزوله الدرب، حيث كنا، أنا وأنتِ، قبل دقيقة، نبتهج بأسراب الفراشات. ومن الصحيح أيضاً أنني حين أستذكر التفاصيل الدقيقة لمسار معيّن كنت قد مشيته قبل ١٩٠٦، أي قبل العام الذي بدأت به إطلاق تسمياتي الخاصة على المناطق، ولم أعد لزيارته مرّة أخرى، فإني أفشل في تذكّر جناح واحد، رفيف جناح واحد، ومضة لازورديّة واحدة، ولا حتى زهرة واحدة تتوّجها عثّة، كما لو أنّ سحراً أسوداً قد وقع فوق الساحل الأدرياتيكيّ وأخفى كلّ الفراشات والعثّات (حسب تعبير العوام). هذا تماماً ما قد يشعر به عالم حشرات يمشي جنباً إلى جنب مع عالم نبات حاسر الرأس مبتهج، وسط حديقة نباتات بشعة في كوكب موازٍ، حيث لا وجود لحشرة واحدة على الأقل. وعليه (دليل غريب على حقيقة غريبة مفادها أن كل ما يمكن أن نراه في طفولتنا، يستخدمه عقلنا المدبّر لاحقاً لصناعة أحلامنا في سنّ النضوج) فإني في كابوس متكرّر، أراني فوق رأس تلّة واقعة على الشاطئ، وقد حملت معي من عالم الوعي شبكة بالية، وكانت التلّة تغصّ بالزعتر والحندقوق، ولكن بشكل غير مفهوم، كانت خالية من أي فراشة يفترض وجودها هناك.

سرعان ما اكتشفت أن المتخصّص بعلم الحرشفيّات الذي كرّس نفسه لبحوثه، يتمتّع بقدرة على إثارة ردود فعل غريبة عند كائنات أخرى. كم من المرات، عند تنظيم نزهة، كنت أحاول بكامل وعيي أن أضع معدّاتي دون أن ينتبه أحد في الصندوق المطليّ بالقطران (يستخدم لإبقاء الحشرات بعيدة عن الأحصنة) أو صندوق برائحة الشاي في سيّارة الأوبل المكشوفة (هكذا كانت تُسمّى رائحة البنزين منذ أربعين سنة)، ولكن كان بعض أبناء عمومتي أو عمّاتي يلاحظون ذلك: «أعليك حقاً أن تأخذ تلك الشبكة معك؟ ألا تستطيع أن تستمتع كولد طبيعيّ؟ ألا تظنّ أنّك تفسد متعة الآخرين؟». بالقرب من لافتة كُتب فوقها «ناش بودن لوب»

في مدينة «باد كيسينغن» ضمن إقليم «بافاريا»، كنت على وشك الانضمام إلى نزهة يقوم بها والدي مع العجوز العظيم «موروموتسيف» (الذي، وقبل أربعة أعوام، كان أوّل رئيس برلمان روسي عام ١٩٠٦) عندما أدار الأخير وجهه الرخاميّ نحو ولد هزيل في الحادية عشر من عمره، وبوقاره المعروف قال لي: «نحن نرحّب بك معنا شريطة أن لا تطارد الفراشات يا فتى. فإنّ ذلك يفسد إيقاع النزهة». على درب فوق البحر الأسود، في شبه جزيرة القرم، بين شجيرات شمعيّة البراعم، خلال مارس ١٩١٨، حاول حارس بلشفيّ مقوّس الساقيْن إلقاء القبض عليّ لأنني كنت أرسل إشارات (بشبكتي، كما زعم) إلى سفينة حربيّة بريطانيّة. خلال عام ١٩٢٩، كلما مشيت في قرية من السلسلة الشرقية لجبال «البرانس»، إن حدث ونظرت إلى الخلف، أرى في أعقابي، في أيّ نقطة من مسار نزهتي، فلاحين يحدّقون بي مذهولين، كما لو كنت «سدوم» وهم زوجة لوط. بعد عقد من الزمن، في جبال «الألب» المجاورة للبحر، انتبهت مرّة، أنّ العشب يتموّج ورائي بطريقة أفعوانيّة، بسبب شرطي ريفيّ سمين كان يزحف على بطنه في إثري ليكتشف ما إذا كنت أصطاد عصافير مغرّدة. في أمريكا، أكثر من كل باقي البلدان، تجلّى اهتمامي المرضيّ بنشاطاتي تلك ـ ربما لأنني كنت في أربعينيات عمري حين ذهبت للعيش هناك، وكلّما كبر المرء، زادت غرابة شكله وهو يحمل شبكة صيد فراشات بين يديه. لفت انتباهي بعض الفلاّحين الصارمين إلى لافتات «ممنوع الصيد»؛ كان يصدر من السيارات التي تجتازني ولاويل ساخرة؛ وكلاب نعِسة، رغم أنها لا تعرف ما أنا بصدده، كانت ترفع رأسها وتركض صوبي مزمجرة؛ أطفال صغار ينبّهون أمهاتهم إلى وجودي؛ سألني بعض الذين يقضون إجازات، رغم أنهم يُعتبرون من الناس المنفتحين، إن كنت أجمع الحشرات لأستعملها كطعم. وذات صباح في أرض بور، تشعّ فيها براعم اليوكا الطويلة، قريباً من «سانتا فيه»، تبعتْني فرس سوداء كبيرة لما يزيد عن ميل.

٤

بعد أن تخلّصت من جميع المتعقّبين، استلمت الطريق الأحمر الوعر الواصل من «فيرا» إلى الحقول والغابة، بدا كل ما في ذلك اليوم الحيويّ والمتألق يهتزّ بهجةً ليشاركني وجدانياً. فراشات «Arran Browns»، بشكلها النضر جداً، ولونها القاتم جداً، والتي تظهر مرة كل سنتيْن (بشكل ملائم، تعاود ظهورها هنا) رفرفتْ بين أشجار التنوب، أو ربما أكون قد اكتشفت علاماتها الحمراء والمربّعات فوق حواف أجنحتها حين حطّت فوق أجمات السراخس، جانب الطريق، لتستحمّ بالشمس. تملّصتْ من شبكتي فراشة «Ringlet» صغيرة جداً تسمى «البطل hero»، وصارت تطير قفزاً فوق العشب. عثّات عدّة أيضاً كانت تطير ـ عشّاق الشمس المبهرجين الذين يطوفون من زهرة إلى أخرى وكأنهم ذباب ملوّن، أو ذكور يؤرّقهم البحث عن الإناث المختبئة، كعثّة «Oak Eggar» بلونها الصدئ، مندفعة بين الشجيرات. لقد انتبهت (أحد أهم ألغاز طفولتي) إلى جناح ناعم بلونه الأخضر الخفيف وقد علق بشبكة عنكبوت (وعندها كنت أعرف ما هو: جناح فراشة زمرديّة كبيرة). اليرقة الهائلة لـ«عثّة الماعز Goat Moth»، المجزّأة ببراعة، برأسها المسطّح، ولونها اللحمي ذي اللمعة الأرجوانيّة، مخلوق غريب، «عارٍ وكأنه دودة» إن أردت استخدام المقارنات الفرنسيّة، قد قطعتْ طريقي أثناء بحثها المحموم عن مكان مناسب لخادرتها (حالة تحوّل طارئة، مع كل التشنجات المشينة في مكان عام). قرب بوّابة الحديقة، وفوق لحاء شجرةِ البتولا، ظهرت فراشة نشيطة، كنت قد وجدتها خلال الربيع السابق، وهي نموذج شاذ لـ«Sievers' Carmelite» (ما هي إلا عثّة رماديّة بالنسبة للقارئ). في الخندق تحت الجسر الصغير، يتزواج ذكر فراشة «Silvius Skipper» صغيرة بلونه الأصفر البرّاق مع فراشة يعسوبيّة (ليست

إلاً يعسوباً أزرقاً بالنسبة لي). على رأس زهرة، اشتبك زوجان من ذكور الفراشات النحاسيّة في عراك، ثم ارتفعا حتى وصلا علوّاً هائلاً، ثم بعد دقيقة، جاء السقوط المفاجئ لأحدهما عائداً فوق الشوك.

كلّ تلك الحشرات كانت مألوفة، ولكن ظهور شيء أفضل في أية لحظة، يجعلني أتوقف مع أنفاسي اللاهثة. أذكر مرّة أمسكت شبكتي وصرت أقترب شيئاً فشيئاً من فراشة «Hairstreak» ذات الشعر، غير المألوفة، وكانت قد استقرّت فوق غصن. أمكنني أن أرى بوضوح حرفW الأبيض فوق جانبها الداخليّ بنيّ اللون. كانت كل أجنحتها مغلقة، أما السفليّة منها فكانت تحتكّ ببعضها البعض، في حركة دائريّة غريبة ـ من المحتمل أنها كانت أيضاً تصدر فرقعات صغيرة تعبيراً عن بهجتها، لا يمكن أن تلتقطها أذن بشريّة. لطالما أردت الحصول على تلك الفصائل المميزة، وعندما اقتربت بما يكفي، قمت بضربتي. قد تكونُ سمعتَ نواح لاعب كرة مضرب بعد أن فوّت ضربة سهلة. قد تكون رأيت وجه معلّم الشطرنج الكبير والمشهورعلى مستوى العالم «فيليم إدموندسون»، حين، وبسبب إغفال سخيف، خسر الرخّ أثناء لعبة كانت تجري في مقهى «مينسك»، أمام هاوٍ محليّ، البيطريّ «شايش»، الذي فاز في النهاية. ولكن في ذاك اليوم، لا أحد ـ باستثنائي بعد أن كبرت ـ يستطيع أن يتصوّر بعد أن هززت الغصن ورفعت شبكتي لأجدها خالية، كيف حدّقت في ثقوب الشاش الشفّاف.

٥

بالقرب من تقاطع طريقيْ نقل، (الأول، وقد بقي بحالة جيّدة، يصل من الشمال حتى الجنوب، ما بين حديقتنا القديمة والجديدة، أما الآخر، فموحل ووعر، يقود نحو «باتوفو»، بالاتجاه غرباً) وعند نقطة يتزاحم فيها الحورعلى جانبيّ منحدر، كنت واثقاً أني خلال الأسبوع الثالث من

يونيو، سأجد الفراشات «الحورائية» ذات اللون الأزرق القاتم والمخطط بالأبيض النقي، تدور وتنزلق منخفضةً فوق الطين الغنيّ الذي يتطابق لوناً مع أجنحتها السفليّة حين تغلقها وتستقر فوق زهرة. إنهم الذكور المحبّين للروث، وقد أطلق عليهم علماء الحرشفيات القدماء اسم (poplar admirable)، أو لنكن أكثر تحديداً، إنهم ينتمون للتصنيف النويعي البوكوفيني (بوكوفانيا). كطفل في التاسعة لا يعرف شيئاً عن تلك السلالة، لاحظت الاختلاف الكبير بين النماذج الموجودة في شمال روسيا وبين تلك الخاصة بأوروبا الوسطى، كما وصفها «هوفمان»، فسارعتُ متهوراً إلى مراسلة «كوزنيتزوف»، أهم عالم حرشفيات في روسيا، لا بل في كل العالم وعلى مرّ الأزمنة، واهباً الصنف الجديد الذي اكتشفته اسم «Limenitis populi rossica». بعد مرور شهر طويل، أعاد لي رسمي مع رسم مائيّ آخر لـ«rossica Nabokov» مع خربشة كلمتيْن فقط خلف رسالتي: «bucovinensis Hormuzaki». كم كرهت الاسم وكم آلمتني تلك الإشارة الفظّة التي قرأتها بين أوراق «كوزينتزوف»، يوجهها إلى «صبية المدرسة الذين لا ينفكّون يعطون تسميات لتنويعات «Poplar Nymph» الصغيرة جداً!». ومع ذلك، لم أفقد شجاعتي رغم فشلي الذريع، فقد «اكتشفت» في العام التالي عثّة جديدة. في ذلك الصيف، كنت قد ثابرت على جمع الفراشات في ليالٍ غاب عنها القمر، في ظلال الحديقة، حيث فرشت غطاء السرير فوق العشب حيث توجد حشرات «سراج الليل» المزعجة، ثمّ سلّطت عليه ضوء مصباح الأستيلين (الذي أضاء دربي إلى «تامارا» بعد ستّ سنوات). في حلبةِ الإشعاع تلك، انبثقتْ العثّات من قلب الظلام متّجهة نحوي، وبتلك الطريقة، وفوق ذاك الغطاء السحريّ، حصلت على «plusia» رائعة (Phytometra حاليّاً) والتي ما إن رأيتها، حتى عرفت أنها تختلف عن أقرب حشرات صنفها، بلون أجنحتها البنفسجي والكستنائيّ (بدل البنيّ

الذهبيّ)، وعلاماتها القنابيّة الضيّقة التي لم يسبق أن قرأت عن وصفها في أيّ من الكتب الموجودة لديّ. أرسلت وصفها مع صورة إلى «ريتشارد ساوث»[١]، لينشرها في «The Entomologist». لم يكن هو أيضاً يعرفها، ولكنه، وبغاية اللطف، تحقق من فراشات مجموعة متحف بريطانيا، ووجد أنها قد وُصفت منذ زمن بعيد من قبل «كريتشمار»، وسُميت بـ «Plusia excelsa». تلقيّت الأخبار المحزنة، التي تحمل كثيراً من التعاطف المكتوب بمنتهى الرصانة: («... علينا أن نهنئك لحصولك عليها... حشرة نادرة من «الفولغا».. صورة رائعة»)؛ ولكنّي كنت محظوظاً بعد سنوات عدّة (أعرف أنّه لا يجب أن أشير إلى تلك التفاصيل الخاصّة للناس) لقد وهبت اسم ذلك الرجل الذي كان أول من كشفت له عن عثّتي، لرجل أعمى في إحدى رواياتي.

دعوني أيضاً أستحضر عثّات «أبو الهول»، تلك النفّاثات المرتبطة بطفولتي! كانت الألوان قد خمدت في أمسيات يونيو، وكنت واقفاً أمام شجيرات الليلك بكامل براعمها؛ الشبكة في يدي، وقد بدأ انتشار جماعات من العثّات الرماديّة الزغبيّة عبر الغسق ـ إنها الأشباح البنفسجيّة. قمر فتيّ ونديّ قد تعلق بضباب المرج المجاور. في كل الحدائق العديدة التي وقفتُ فيها خلال السنوات اللاحقة ـ «أثينا»، «أنتيب»، «أتلانتا» ـ لم أشعر مطلقاً بحرارة تلك الرغبة أثناء انتظار هبوط الظلمة فوق الليلك. وفجأة تصل، أزيزها المنخفض الذي ينتقل من زهرة إلى أخرى، هالة الذبذبات المحيطة بالجذع المستقيم لعثّة «الذبابيّ الطائر» بلونها الورديّ والزيتونيّ، ترفرف في الهواء فوق تويجة قد غمستْ فيها لسانها الطويل. بعد شهرين، يمكن العثور على يرقاتها السوداء الجميلة (تشبه كوبرا

---

(١) ريتشارد ساوث: ١٨٤٦ ـ ١٩٣٢ ـ عالم حشرات إنكليزي تخصص في علم الحرشفيات (فراشات وعثات). مؤسس ورئيس تحرير مجلة The Entomologist.

مصغّرة حين تنفخ حلقاتها الأماميّة) فوق العشب البارد تحت الصفصاف. وهكذا فإن لكلّ ساعة ولكلّ فصل مسرّاته. وأخيراً، في برد ليالي الخريف، لا بل في صقيعها، يمكن أن تقدّم تحلية للعثّات إن طليتَ جذوع الشجر بخليط من الدبس والبيرة والرّم. وخلال الظلام العاصف، يمكن لمصباح أن ينير ثلوم اللحاء الدبقة اللامعة، فترى عثّة أو عثّتيْن تمتصّان الحلويات، أجنحتهما المتوترة نصف مفتوحة بطريقة فراشة، أما السفليّة منها فتُظهر الحرير القرمزي المدهش تحت رؤوس أشنة رماديّة. «Catocala adultera!» صرخت منتصراً في وجه النوافذ المضاءة، بينما كنت أكبو في طريقي إلى البيت لأُري والدي صيدي الثمين.

٦

كان المتنزّه الإنكليزيّ الذي يفصل بيتنا عن حقول التبن، واسعاً ومفصّلاً بمسارات متاهة، مقاعد تورغينيفيّة، وشجرات بلوط مستوردة ومزروعة بين التنوب المستوطن والبتولا. الصراع الذي استمر منذ زمن جدّي لمحاولة منع عودة الحديقة إلى وضعها البريّ، لم يكن دائماً مكلّلاً بالنجاح. لا يمكن لبستانيّ أن يتعامل مع أكمات التراب الداكن المجعّدة، التي كوّمتها الأيدي الورديّة لحيوانات الخلد، فوق تراب الممشى النظيف. الأعشاب الضارّة، الفطريّات، جذور الأشجار الممتدّة كجسر، كلّها تعبر ممرّات الشمس المرقّطة ذهاباً وإياباً. تم إقصاء الدببة منذ الثمانينات، ولكن بقي غزال الموظ يزور الأراضي في المناسبات. فوقِ صخرة خلاّبة، تسلقت شجرة دردار صغيرة مع شجرة أصغر من الحور الرجراج، متشابكتا الأيدي، كولديْن أرعنيْن وخجوليْن. ثمّة منتهكون آخرون للمكان وهم أشدّ مراوغة ـ متنزّهون تائهون أو فلاحون ثملون ـ كانوا يدفعون بحارسنا الأشيب «إيفان» للجنون، حين ينقشون

كلمات بذيئة فوق المقاعد والبوّابات. لا تزال عملية التخريب مستمرّة، بمعنى، حين أحاول اليوم أن أتبع في ذاكرتي طريقاً متعرجاً يصل بين نقطة وأخرى، فإنني أنتبه إلى وجود ثغرات عدّة، بفعل النسيان أو الجهل، كتلك العلامات البيضاء لأراض غير معروفة، كان رسّامو الخرائط فيما مضى يسمّونها «الجميلات النائمات».

خلف المتنزه، حقول تومض فيها أجنحة فراشات فوق زهور برّاقة ـ أقحوان، جريس، شيخ الربيع، وغيرها ـ تمر الآن سريعاً أمامي كضباب ملوّن، كتلك المروج الخصبة والجميلة، التي لم يكتشفها أحد بعد، تراها من نافذة قطار يعبر القارّات، أثناء تناولك للعشاء. في نهاية تلك الأرض العجائبيّة العشبيّة، تبرز الغابة وكأنها حائط. هناك تجوّلت، مسحت جذوع الأشجار (الجزء الفاتن والصامت من الشجرة) بحثاً عن عثّات معيّنة صغيرة، تسمى «باغ pug» في إنكلترا ـ كائنات رقيقة صغيرة، تتشبث خلال النهار بالأسطح المرقّطة، حيث تتماهى أجنحتها المسطحة مع بطونها المرفوعة. هناك، في قعر بحر الخضرة ذاك الغارق في الشمس، درت ببطء حول جذوع الشجر العظيمة. لا شيء في العالم يعادل حلاوة قدرتي على إضافة، بضربة حظ، بعض أصناف جديدة ومميّزة إلى القائمة الطويلة لعثّات الـ«pug»، والتي سبق أن سُميت من قبل الآخرين. بشكل ظاهريّ وغريب، يتملق خيالي لرغبتي (ولكنه طوال الوقت، يتآمر بشكل خفيّ وراء الكواليس، ليخطط بشكل جميل لأحداث مصيري الأكثر بعداً) ويستمرّ بتزويدي بأنماط صغيرة من الهلوسات: «...العيّنة الوحيدة المعروفة حتى الآن...»، «التُقطت العيّنة الوحيدة لفراشة Eupithecia petropolitanata بواسطة طالب مدرسة روسيّ...»، «بواسطة جامع فراشات روسيّ شاب...»، «بواسطتي في حكومة «سانت بطرسبرغ»، منطقة «تسارسكوي سيلو» عام ١٩١٠.. ١٩١١.. ١٩١٢.. ١٩١٣..». ثم بعد ثلاثين سنة، تجلّت تلك الليلة السوداء المباركة في جبال «واساتش».

في البداية، لنقل، في الثامنة أو التاسعة من عمري، نادراً ما كنت أتجوّل أبعد من الحقول والغابات بين «فيرا» و«باتوفو». لاحقاً، عندما كنت أسعى وراء نقطة معيّنة تبعد حوالي عشرة أميال أو أكثر، كنت أستخدم الدرّاجة لأصل هناك، مع شبكتي المربوطة إلى الإطار؛ ولكن لم يكن اجتياز كل دروب الغابة ممكناً بالعجلات؛ بطبيعة الحال، كان بالإمكان امتطاء ظهر حصان، ولكن وجود ذباب النعرة المتوحش، كان ليسبب مقتل حصان في الغابة إن بقي لفترة قصيرة أو طويلة: في أحد الأيّام، تسلّق حصاني الشجاع الشجرة التي كان مربوطاً إليها في محاولة لتفادي النعرة: إنها حشرات كبيرة بعيون متموّجة وهيئات نمور، ولكنّها ذات خراطيم رماديّة موجعة رغم هزالها وصغرها. حين تلتصق اثنتيْن أو ثلاث من تلك المرتشفات الحقيرات بعنق مطيّتي، وأقضي عليها بضربة واحدة من يدي المحميّة بالقفاز، فإن ذلك كان يمنحني راحة مذهلة (الأمر الذي لن يستسيغه جامعو الحشرات الطائرة). بكل الأحوال، لمطاردة فراشاتي، لطالما فضّلت المشي على أي وسيلة أخرى (ما عدا، بالطبع، أريكة سحريّة تنزلق بكل رويّة فوق جبل لم يُكتشف بعد، يمتدّ فوقه بساط من النبات والصخور، أو التحليق فوق سقف مزهر لغابة مطريّة)؛ عندما يمشي أحدنا، وخاصّة في منطقة يكون قد قام بدراستها جيّداً، فإن هنالك متعة كبيرة حين يخرج عن مساره، ليتفقّد، هنا وهناك، هذا الظل وذاك الجدول، هذه أو تلك البقعة حيث تختلط الزهور مع التربة، ليزور فراشة مألوفة في مسكنها الخاص، ويرى ما إذا كانت قد ظهرت، أو لمجرّد أن يتفقدّ حالها.

ثم كان يوم في يوليو ـ حوالي ١٩١٠، كما أفترض ـ عندما شعرت بحاجة ملحّة لاكتشاف المستنقعات الشاسعة خلف «الأورديج». بعد أن طفت فوق النهر لثلاثة أو أربعة أميال، وجدت جسراً متداعٍ للمشاة. أثناء عبوره، رأيت أكواخ قرية على يساري، أشجار تفاح، صفوفاً من حطب

الصنوبر الأسمر المصفرّ فوق مقعد أخضر، بقعاً ملوّنة فوق العشب صنعتْها ثياب القرويّات الشابّات اللواتي، بكامل عريهن، كن يمرحن ويصخبن في المياه الضحلة، ولم يعرنني اهتماماً، كما لو كنت مجرّد روح تنقل تلك الذكريات.

فوق الجانب الآخر من النهر، حشود من ذكور الفراشات الصغيرة بلونها الأزرق البرّاق، وكانت ترشف من الطين الممرّغ والغنيّ، وروث بقرة قد خضتُ خلاله بدوري، فارتفعتْ سوية في الهواء ثم عادت لتستقر مرّة أخرى بعد عبوري.

وصلت المستنقع بعد أن عبرت طريقاً بين بعض أشجار الصنوبر وشجيرات النغت. وعندها بدأتْ أذناي بالتقاط همهمة الحشرات حولي، بكاء طائر الشنقب الذي يصدره من حلقه، صوت المستنقع تحت قدميّ وكأنه يبتلع شيئاً ما، فأدركت حينها أنّي سأجد هنا فراشات قطبيّة، والتي كنت قد أجللتُ صُورها، أو بالأحرى وصفها اللامصوّر، لمواسم عديدة. في اللحظة التالية أصبحتُ بينها. فوق شجيرات «عنبية المستنقعات» ذات الثمر الأزرق القاتم والحالم، فوق العين البنيّة للمياه الراكدة، فوق الطحالب والوحل، فوق سيقان زهور الأوركيدا العطرة (nochnaya fialka البنفسج الليليّ بالنسبة لشعراء روسيا)، كانت فراشة «Fritillary» غريبة وصغيرة، تحمل اسم آلهة نرويجيّة، تطير على ارتفاع منخفض. عثّة «Cordigera» الجميلة بزينتها التي تشبه الأحجار الكريمة، كانت تطنّ حول نبات المستنقع الذي تتغذى منه. لحقتُ بفراشة «Sulphurs» ذات الحواف الورديّة، «Satyrs» بلون الرخام الرمادي. وبغضّ النظر عن الذباب الذي اكتسح ساعداي، فقد نخرتُ مبتهجاً حين انحنيت لأجعل بعض الحرشفيّات المرصّعة بالفضة تهزّ طيّات شبكتي بخفقانها. لم تمنعني رائحة المستنقع عن التقاط الرائحة الحادّة لأجنحة الفراشات فوق أصابعي، الرائحة التي تتغيّر تبعاً للفصيلة ـ فانيليا، أو

ليمون، أو مسك، أو رائحة عفنة ذات حلاوة يصعب تحديدها. نهمي الذي لا يشبع، دفعني للتقدم أكثر. انتبهت آخر الأمر إلى وصولي لنهاية السبخة. الأرض المرتفعة خارجاً، عبارة عن جنّة من الترمس، زهور الأنقوليّة، والبنسطمون. «زنابق الماريبوزا» قد أزهرت تحت صنوبر «البونديروزا». وبعيداً، ظلال غيمة عابرة مرّت سريعاً فوق أشجار الغابة، برقشت الأخضر الباهت للمنحدرات، والأبيض الرماديّ لجبال «لونغز بيك».

أعترف أني لا أؤمن بالزمن. أحبّ أن أطوي بساطي السحري، بعد الاستخدام، كما لو كنت أركّب القطع المبعثرة للوحة واحدة، ثم أتركها للزائرين. أعظم استمتاع بإحساس الخلود - في بقعة أرض مختارة عشوائيّاً - هي حين أقف بين فراشات نادرة وبين النباتات التي تغذيها. تلك هي النشوة، ووراء تلك النشوة ثمّة أمر آخر، يصعب شرحه. إنه كفراغ لحظيّ، يعبر كلُ ما أحب من خلاله مسرعاً. شعور بالتوحّد مع الشمس والحجر. شعور بالامتنان لمن يستحقونه - المبدع العبقري لمصير البشريّة، أو الأشباح اللطيفة التي تجعل من موتنا مجرّد دعابة.



صورة لمجموعة عائليّة في حديقة «فيرا»، التقطها مصوّر «سانت بطرسبرغ» عام ١٩٠٨. بين عودة والدي الحديثة من السجن ورحيله في اليوم التالي، مع والدتي، إلى «تريسا». الشيء المستدير فوق جذع الشجرة هو هدف الرماية. وضعت والدتي «تريني» المصاب بفوبيا الضوء فوق الطاولة الحديديّة ذات الصلة بالفطر والمذكورة في الفصل الثاني. لتزيين الصورة، حملت جدتي لأبي بكل حذر شقيقتيّ، اللتين لم تحملهما مطلقاً في الحياة الحقيقيّة: «أولغا» على ركبتها، «إيلينا» فوق كتفها. عمق الظلام في أقدم قسم من حديقتنا هو ما يدعم الخلفيّة. السيدة بالأسود هي خالة أمي، «براسكوفيا نيكولاينا تارنوفسكي»، «كوزلوف» سابقاً (١٨٤٨ ـ ١٩١٠)، التي كانت تعتني بنا وبمعلمينا، أثناء رحلة والديّ إلى إيطاليا. أخي «سيرجي» ملتصق بكوعها الأيسر، وبيدها الأخرى تسندني. وأنا جالس فوق المقعد، كارهاً ياقتي وكارهاً «تريسا».

الفصل السابع

١

في السنوات الأولى لهذا القرن، عرضتْ وكالة سفر في «نيفيسكي» قاطرة نوم بلون السنديان البنّي بطول ثلاثة أقدام. تفوّقتْ بدقّتها الحقيقيّة على قطاراتي الميكانيكيّة المطليّة بالقصدير. لسوء الحظ لم تكن للبيع. يمكن للناظر أن يلاحظ تنجيدها الداخليّ الأزرق، البطانة الجلديّة المزخرفة لجدران مقصوراتها، الألواح المصقولة، المرايا المدرجة، مصابيح للقراءة على شكل الخزامى، وغيرها من التفاصيل المتقن. نوافذ واسعة تعقبها أخرى تضيق تدريجيّاً، بدرفة أو درفتين، كان بعضها غير شفّاف. وفية حدّ الاستفزاز. في عدد قليل فقط من المقصورات، وُضعت الأسرّة.

كان قطار «Nord Express[a]» العظيم والبرّاق آنذاك (لم يعد على حاله أبداً بعد الحرب العالمية الأولى حيث استبدل لونه البنّي بالأزرق الخاص بحديثي النعمة) هو الوحيد الذي يحوي مقطورات كتلك، ولا ينطلق في رحلات إلاّ مرّتان أسبوعياً، تصل بين «سانت بطرسبرغ» و«باريس». كان ينبغي أن أقول: مباشرة إلى «باريس»، لو لم يكن الرّكاب مجبرين على الانتقال من القطار إلى آخر يشبهه، عند الحدود الألمانيّة الروسيّة (Verzhbolovo - Eydtkuhnen)، حيث يتمّ استبدال السكّة الروسية البطيئة

بعرض ستين ونصف إنش، بأخرى أوروبيّة عرضها ستّ وخمسين ونصف إنش، وحيث يحلّ الفحم الحجري مكان حطب التنوب.

في أعماق ذاكرتي، يمكنني أن أكشف، على ما أعتقد، عن خمس رحلات على الأقل إلى «باريس»، بوجهتها إلى «بياريتز» أو «الريفييرا». ١٩٠٩، العام الذي أنا بصدده الآن، كانت قافلتنا مؤلّفة من أحد عشر شخصاً وكلب «داشهاند». بقفّازاته وقبعة السفر، جلس والدي يقرأ في المقصورة التي شاركها معه معلّمنا، وكان يفصلها حمام عن المقصورة الخاصة بي وبأخي. شغلتْ والدتي وخادمتها «ناتاشا» تلك المجاورة لنا. ثم تأتي المقصورة الخاصّة بشقيقتيّ الصغيرتين، مع الآنسة «لافينغتون» معلّمة الإنكليزي، وممرضة روسيّة. أما «أوسيب»، خادم أبي (الذي وبعد عقد من الزمن، قتله بعض البلاشفة المتطرفين لأنه استولى على دراجاتنا بدل تسليمها للأمة) فقد بقي منفرداً دون رفيق.

من ناحية فنيّة وتاريخيّة، بدأ العام بكاريكاتور سياسي ساخر في مجلة «Punch»[١]: آلهة إنكليزيّة منحنية فوق آلهة إيطالية، وقد هبطتْ فوق رأسها واحدة من أحجار «مسينا» ـ وعلى الأرجح، إنها أسوأ صورة قد يوحي بها زلزال. في أبريل من ذاك العام، وصل «بيري»[٢] إلى القطب الشمالي. في مايو، غنّى «شالايبن»[٣] في «باريس». في يونيو، أثارت حفيظة وزارة الدفاع الأمريكية شائعات حول وجود مناطيد «زبلين» جديدة وأكثر تطوّراً، فصرّحتْ عن خططها لإنشاء أسطول جوّي. في يوليو، طار «بلايريو»[٤] من «كاليه» إلى «دوفر» (مع جولة إضافية حين

---

(١) بانش: مجلة بريطانية سياسية ساخرة تأسست عام ١٨٤١.

(٢) روبيرت بيري: ١٨٥٦ ـ ١٩٢٠ مستكشف القطب الشمالي، أمريكي الجنسية.

(٣) فيودور شالايبن: ١٨٧٣ ـ ١٩٣٨ مغني أوبرا روسي.

(٤) لويس بلايريو: ١٨٧٢ ـ ١٩٣٦ رائد طيران فرنسي كان أول من قام برحلة من فرنسا إلى إنكلترا عام ١٩٠٩.

فقد اتجاهه). وصلنا إلى آخر أغسطس، حيث ولّى زمن المستنقعات والتنوب شمال روسيا، ليحلّ مكانه في اليوم التالي، زمن غابات الصنوبر الألمانيّة ونبات الخلنج.

فوق طاولة قابلة للطيّ، لعبنا أنا وأمي لعبة بالورق تدعى «دوراتشكي». كانت إضاءة النهار الباهرة تعكس فوق النافذة بطاقاتنا، كأساً، وعلى سطح آخر، أقفال حقيبة سفر. عبر الغابات والحقول، والوديان المفاجئة، وبين الأكواخ المتهدّمة، لم تكفّ روحا ذينك المقامريْن عن دفع الرهان للعبة لا ينتهي بريقها. كانت لعبة طويلة، طويلة جداً: في صباحي الشتويّ الرماديّ هذا، ومن خلال نظري إلى زجاج نافذة غرفتي المشرقة في الفندق، أرى نفس اللمعان، اللمعان ذاته، لتلك الحقيبة التي يعود عمرها إلى سبعين سنة خلت، الحقيبة الضروريّة للأسفار، الفاخرة، الثقيلة، المصنوعة من جلد الخنزير، مع «H.N» الحرفين الأساسييْن المنسوجيْن بخيوط فضّية بكل إتقان تحت تويْج صغير، وكانت قد ابتيعت لرحلة أمي إلى «فلورنسا» يوم عرسها، عام ١٨٩٧. عام ١٩١٧، تم نقل حفنة من المجوهرات فيها، من «سانت بطرسبرغ» إلى شبه جزيرة القرم، ومن ثمّ إلى «لندن». حوالي عام ١٩٣٠، خسرتْ حمولتها من نفائس الكريستال والفضّة لصالح أحد المرابين، تاركة جيوبها الجلديّة المصنوعة بمكر في الجزء الداخلي من الغطاء، فارغة. ولكن تمّ تعويض تلك الخسائر على نحو واسع، أثناء ترحالها معي لمدة ثلاثين سنة لاحقة ـ من «براغ» إلى «باريس»، من «سان نازير» إلى «نيويورك»، وعبر مرايا ما يزيد عن مائتيْ غرفة في فنادق أو بيوت مستأجرة، وفي ستّ وأربعين ولاية. أن تكون حقيبة مسافرة هي الناجي الأكثر صموداً من ميراثنا الروسي، تلك هي الحقيقة الرمزيّة والمنطقيّة على حدّ سواء.

«Ne budet - li, tï ved' ustal، ألم تكتفِ؟ ألست متعباً؟» تسأل أمي،

ثم تشرد أثناء خلطها للورق ببطء. كان باب المقصورة مفتوحاً وأمكنني رؤية نافذة الممر، حيث كانت الأسلاك ـ ستّة أسلاك سوداء نحيلة ـ تنحرف بأقصى جهدها صاعدة نحو الأعلى، على الرغم من ومضات أحد أقطاب التلغراف التي تبرق واحدةً تلو الأخرى، ولا تكاد الأسلاك الستة، وبضربة انتصار مثير للشفقة، أن تبلغ قمّة النافذة، حتى تعيدها ضربة شريرة خاصة إلى انخفاض لم يسبق لها أن وصلت إليه، لتبدأ من جديد ما قد أنهتْه للتوّ.

وحين كان القطار يخفّف من وتيرة سرعته، في رحلات كهذه، ليتهادى بفخامة حتى يكاد يلامس واجهات البيوت ولافتات المحلّات، أثناء مرورنا في بعض المدن الألمانيّة الكبيرة، كنت أشعر بإثارة مزدوجة، لم تمنحني إياها المحطّات الأخيرة. كنت أرى مدينة، مع حافلات الترام الأشبه باللعب، أشجار زيزفون وجدران من الطوب، تدخل إلى المقصورة، تنعكس على المرايا، وتملأ نوافذ الممر حتى حافّتها. هذا التماس غير الرسمي ما بين القطار والمدينة، كان جزءاً من التشويق. أما الجزء الآخر فكان بوضع نفسي مكان أحد المارّة، الذي أفترض أنه كان متأثراً، كما كنت أنا، بالنظر إلى تلك المقصورات الطويلة، الكستنائيّة والشاعريّة، مع ستائر سوداء كأجنحة خفاش تغطّي الدهاليز الواصلة بين المقصورات، وبريق حروفها النحاسيّ تحت نور الشمس الآيلة للغروب، تمرّ دون عجل فوق جسر حديديّ يمتدّ فوق ممر مائيّ، ثم تلتف، بنوافذها التي أضاءت فجأة، حول آخر كتلة من المنازل.

ثمّة ما يشوب تلك الاندماجات البصريّة. تظهر من النافذة الواسعة لغرفة الطعام، زجاجات مياه معدنيّة بسيطة، مناديل مطويّة على شكل قلنسوة، وألواح شوكولا وهميّة (تحمل أغلفتها أسماء «Cailler»، «Kohler» وغيرها، ولا تحوي داخلها إلا الخشب) وكل ذلك يوحي في

البداية بوجود ملجأ منعش وراء التعاقب المترنح لممرّات زرقاء؛ وفي حين تتقدم وجبة الطعام نحو مصيرها المشؤوم الأخير، يحملها بهلواني يمشي فوق الحبل ينسحب ليأتي بهلوانيّ آخر مع أطباق أخرى، أستمر في إيهام نفسي أن العربة مغروزة في غمد مشهد طبيعي، مع كل الخدم المترنّحين، في حين أن المشهد ذاته يخوض سلسلة حركيّة معقّدة، ويستمر القمر اليوميّ في المشي بمحاذاة أطباقنا، تنفتح المروج البعيدة وكأنها مروحة يد، وباتجاه السكّة، تندفع الأشجار القريبة فوق أرجوحة غير مرئيّة، خطوط سكة حديديّة موازية ترتكب انتحاراً جماعياً بعد تعرّضها لمفاغرة anastomosis، جفن أعشاب يرمش، يرتفع، يرتفع، يرتفع، إلى أن يتمكن الشاهد الصغير على تغيّر السرعات، من تقيّؤ حصّته من عجّة مربى الفراولة.

على كل حال، كانت «الشركة الدولية لمقطورات النوم»، وشركات «اكسبريس أوروبا العظيمة»، يتخلّون ليلاً عن أسمائهم. في مقصورتنا المعتمة جزئياً، ومن سريري، الذي يعلوه سرير أخي (هل كان نائماً، هل كان موجوداً بالأصل؟) كنت أراقب الأشياء، وأجزاء الأشياء، الظلال، وأجزاء من الظلال تتحرك ثم تختفي في لا مكان. يستمر الخشب بالطقطقة الخفيفة. قرب الباب الذي يُفضي إلى الحمام، ثمّة ثوب قاتم فوق المشجب، تعلوه شرابة زرقاء لمصباح ليليّ ذي صمّامين، تترنّح بإيقاع منتظم. كان من الصعب الربط بين تلك المقاربات المتقطّعة، التي تنسلّ مقنّعة، وبين الاندفاع المتهوّر للّيل خارج المقطورة، والذي كنت أعرف تماماً، أن شرارة غير مفهومة، هي ما تولد سرعته.

كنت لأتمكّن من النوم، إن اعتبرت نفسي بكل بساطة، سائق القاطرة. يجتاح عروقي النعاس في حال رتبت كل شيء في ذهني - ينعم الركاب غير المبالين بقيادتي الجيّدة لمقطوراتهم، يدخّنون، يتبادلون

الابتسامات، ينعسون، يغفون؛ الخدم والطبّاخون وحراس القطار (وكنت قد وضعتهم في مكان ما) يولمون في مقطورة الطعام، أما أنا، فجاحظ العينيْن يملأ وجهي السخام، أحدّق خارج مقطورة المحرّك في مسار السكّة، في بقعة زمرّد أو ياقوت تلمع في تلك العتمة البعيدة. ثم بعد ذلك، أثناء نومي، أرى شيئاً مختلفاً تماماً ـ كأساً رخامياً يتدحرج تحت بيانو كبير، أو محرّك عربة لعبة، ملقى على جانبها، مع استمرار عجلاتها بدوران ثابت.

تغيير مفاجئ في سرعة القطار قطع تيّار نومي. أضواء بطيئة كانت تقترب بمهابة؛ سبَر كلّ منها بدوره عمق الصدع ذاته، ثم قامت بوصلة مضيئة بقياس الظلال. حالياً، توّقف القطار وأطلق محرّك «وايت ويستينغهاوس» تنهيدة طويلة. سقط شيء ما من فوق (تبيّن في اليوم التالي أنه نظّارة أخي). مدفوعاً بالإثارة، تقدّمت نحو حافّة السرير، متبوعاً بطرف من الغطاء، وقفت بحذر محاولاً الإمساك بطرف ستار النافذة، المصنوع أساساً لتغطية نصفها فقط، ولكنّ حافة السرير العلويّ أعاقتني.

كأقمار حول «جوبتير»، دارت عثّات حول مصباح وحيد. خفقت صحيفة ممزقة فوق مقعد. في مكان ما من القطار، يمكن سماع أصوات مكتومة لسعال هادئ. لا شيء مميّز فوق رصيف محطة القطار أمامي، ومع ذلك لم أستطع إبعاد نظري عنه إلى أن اختفى من تلقاء نفسه.

في الصباح التالي، كانت رؤية الحقول الرطبة بصفصافها المشوّه الممتدّ فوق نصف قطر خندق، أو رؤية خطّ أفقي من ضباب حليبي يعبر أشجار الحور البعيدة، تنبؤني أن القطار يغزل حول بلجيكا. وصل إلى «باريس» عند الرابعة عصراً، وكنتُ حتى وإن طال مكوثنا هناك لليلة واحدة فقط، فإني دائماً أجد ما يكفي من الوقت لشراء شيء ما ـ على

سبيل المثال، مجسّم نحاسي لبرج إيفل، مطليّ بالفضة غير المصقولة ـ قبل أن نستقلّ عند ظهيرة اليوم التالي «Sud - Express» الذي، أثناء طريقه إلى «مدريد»، كان ينزلنا عند العاشرة صباحاً في محطة «لا نيغريس دو بياريتز»، قبل كيلومترات عدّة من الحدود الإسبانيّة.

٢

كانت «بياريتز» في تلك الأيام لا تزال محتفظةً بأصالتها. شجيرات توت العليق المغبرة، وأراض تكسوها الأعشاب الضارّة معروضة للبيع، يشكّلون حدود الطريق المفضي إلى فيلّتنا. لم يكن تشييد «كارلتون» قد انتهى بعد. انقضى ستّة وثلاثون عاماً قبل أن يشغل اللواء «صامويل ماك كروسكي» جناحاً ملكياً في «أوتيل دو باليه»، الذي يقع مكان قصر آخر، حيث، في ستينيات القرن الماضي، قُبض على «دانييل هوم»(١)، الوسيط الروحي الرشيق، يمسّد بقدمه العارية (على أنها يد شبح) الوجه الجميل والواثق للإمبراطورة «أوجيني». في متنزّه قرب الكازينو، بائعة زهور مسنّة، بحاجبيها القاتمين وابتسامتها الملوّنة، تُزلق برشاقة برعم قرنفل غضّ في عروة زرّ متشرّد عابر، فينتفخ خدّه الأيسر مُظهراً طيّات ذقنه الملكيّ، حين يراقب بطرف عينه إيلاج الزهرة المحتشم.

عثّات «السنديان» بلونها الغنيّ، الساعية وراء رزقها بين الأغصان، لم تكن تشبه مثيلاتها عندنا (التي وبكل الأحوال، لم تكن تتكاثر على شجرات البلوط)، كذلك فإن فراشات «Speckled Woods» الموجودة هنا لا تسعى وراء الخشب، بل سياج الشجيرات، إضافة إلى وجود بقع صفراء ضاربة إلى السمرة فوق أجنحتها. فراشة «كليوبترا» بمظهرها

(١) دانيال هوم: ١٨٣٣ ـ ١٨٨٦ وسيط روحي اسكوتلندي شهير.

المداريّ، ولونها الكبريتيّ بمزيجه البرتقاليّ والليمونيّ، والتي تطير هنا بخمول لتتغلغل في عمق الحدائق، كانت قد أثارت فضولي عام ١٩٠٧، ولا يزال التقاطها حتى اليوم مصدر سعادة عارمة.

على امتداد الخط الخلفيّ للشاطئ، جلس بعض الأهالي على مقاعد بحريّة يراقبون أطفالهم الذين يعتمرون قبعات القش ويلعبون فوق الرمال. أما أنا، فيمكن رؤيتي راكعاً، محاولاً أن أشعل مشطاً من خلال عدسة مكبّرة. كان الرجال يتباهون بارتداء سراويل بيضاء التي تبدو في أيامنا هذه ملابس هزليّة متقلّصة بفعل الغسيل؛ أما النساء فقد لبسن، خصّيصاً لذلك الموسم، سترات رقيقة مع طيّات أماميّة حريريّة، قبّعات ذات أكاليل كبيرة وحواف واسعة، أوشحة رقيقة، مطرّزة وبيضاء، قمصان بكشاكش أماميّة، كشاكش حول معاصمهن، وكشاكش حول مظلّاتهن. النسيم يملّح الشفاه. بوتيرة سريعة، تندفع فراشة «أبي دقيق الأصفر» ضالّة، فوق الشاطئ النابض.

مزيد من الحركة والضجيج أضافه الباعة المتجوّلون الذين حملوا الفول السوداني، حبّات السكّر البنفسجيّة، مثلّجات الفستق بلونها الأخضر الكثيف، حبيبات الكاتشو، وقطع كبيرة محدّبة من أشياء تشبه البسكويت الجاف، تخرج من برميل أحمر. بكل وضوح، لم تستطع ذكرياتي اللاحقة أن تفسده، أرى بائع الكعك يمشي الهوينا على امتداد الرمال الشاحبة، مع برميل خشبيّ يعتلي ظهره المنحني. عندما يناديه أحدهم، فإنه يفتل حزامه ليرفع البرميل فوق كتفه، ثم يضعه فوق الرمل بوضعية برج «بيزا»، يمسح وجهه بكمّه، ثم يبدأ بالتلاعب بقرص السهم والأرقام المحفورة فوق غطاء البرميل. أصدر السهم صريراً وطنيناً. كان من المفترض أن يشير سهم الحظّ إلى قطعة تتناسب حجماً مع الـ«سو»[1]. كلّما كانت القطعة أكبر، أشفقت على البائع أكثر.

(١) سو: عملة نقدية فرنسية قديمة.

جرت السباحة في مكان آخر من الشاطئ. سبّاحون محترفون، باسكيّون قويّو البنية، بملابس سباحة سوداء، كانوا هناك لمساعدة النساء والأطفال على التمتّع بالأمواج المخيفة التي تضرب الصخور. حمل أحدهم زبوناً فوق ظهره نحو الموجة القادمة، أمسك يده عندما وصلت من الخلف كمية كبيرة مرتفعة ومزبدة من الماء الأخضر لتضرب أقدامهما بعنف. بعد عشرات من الشقلبات تلك، قام السبّاح، اللامع كفقمة، بحمل الشخص اللاهث، المبلّل، المرتعش والمتنخّم نحو اليابسة، عند الشاطئ المنبسط، حيث امرأة مسنّة لا يمكنني نسيان شكلها بشعرات رماديّة فوق ذقنها، قد اختارت توّاً ثوب سباحة من بين عدّة أُخر معلّقين فوق حبل غسيل. في مقصورة آمنة، استطاع صاحب بزّة السباحة التي أثقلها البلل والرمل، أن يخلعها بمساعدة خادم. تخلّص من اللباس الذي كان يقطر فوق الألواح، واستمر بالارتعاش، بعد أن طرحه أرضاً وداس فوق خطوطه الزرقاء. عبقت المقصورة برائحة الصنوبر. أما الخادم الأحدب، ذو التجاعيد المشرقة، فقد جلب حوض ماء ساخن، ليغمر سيدُه قدميْه بها. كان هو من أخبرني، وقد حفظتُ ذلك في خليّة زجاجيّة من ذاكرتي، أن الفراشات في «الباسك» تُدعى «misericoletea» أو ما شابه ذلك (من بين الأسماء السبع التي وجدتها في القواميس، كان الأقرب لذاك الاسم هو «micheletea»).

٣

فوق قسم الشاطئ الأكثر سمرةً وبللاً، القسم الذي يخْلي مكانه لقصور الطين عند المدّ المنخفض، وجدت نفسي ذات يوم أحفر جنباً إلى جنب مع فتاة فرنسية تدعى «كوليت».

كانت لتبلغ العاشرة في نوفمبر، وكنت لأبلغها في أبريل. لفتتْ

انتباهي إلى قطعة خشنة من صدفة محار بنفسجيّة كانت تمشي فوقها بباطن قدمها الرفيعة والطويلة، دون حذاء. لا، لم أكن إنكليزيّ. بدت عيناها الخضراوتان مرقّشتيْن بانعكاس النمش الفائض الذي يملأ وجهها بقسماته الدقيقة. كانت ترتدي ما نسمّيه اليوم زيّ الشاطئ، قميص «جيرسي» أزرق مع أكمام مرفوعة، وسروال أزرق، قصير ومزرود. ظننتها في البداية فتى، ثم خاب ظني عند رؤية سوار يلف معصمها الرقيق، وضفيرة بنيّة تتدلّى من تحت قبعة البحريّة الخاصّة بها.

تحدّثت كعصفور مندفع يغرّد بإيقاع سريع، مازجة بين ما تعلمتْه من الإنكليزيّة وبين الفرنسيّة بلهجة باريسيّة. قبل سنتين، كنت أكثر تعلّقاً بـ«زينا»، الابنة الصغيرة لطبيب صربيّ، وكانت ذات طباع سيء، وبشرة قد دبغتها الشمس ـ كي تعطيني عثّة «الطائر الطنان» التي قتلتْها قطتها، ذهبتُ ذات صباح مبكّر إلى غرفتهم التي يقيمون فيها داخل الفندق، وكانت ترتدي ملابسها عند وصولي، أذكر (وهذا سخيف، لأنني كنت في الثامنة من عمري فقط) أني رأيت فوق جلدها المشمشيّ، حبة خال تحت قلبها تماماً، كما أذكر وجود مجموعة مخيفة من أواني الغرف الخاصّة بالتبرّز، ممتلئة ونصف ممتلئة، مع فقاعات على سطح أحدها، مصفوفة فوق أرض الردهة أمام الغرفة. ولكن حين قابلت «كوليت»، عرفت أني وجدت من كنت أبحث عنه، لقد بدتْ بالنسبة لي أغرب من كل من اللواتي عرفتهنّ سابقاً في «بياريتز» وكانت لديّ فرصة لمرافقتهن. بطريقة ما، راودني شعور بأنها أقلّ سعادة مني، وغير محاطة بالحب مثلي. وجود كدمة فوق الجهة الأماميّة من ساعدها الرقيق الأملس، أوِحى لي بتخمينات بشعة. «إنه يقرصني بقسوة كما تفعل أمي»، قالتها أثناء حديثها عن سرطان البحر. وضعتُ عدّة مخطّطات لإنقاذها من ذويها، الذين كانوا من «برجوازيي باريس»، كما سمعت أحدهم يخبر أمي بلهجة استخفاف. كان لي تفسيراتي الخاصة لذاك الازدراء، فقد

عرفت أن أولئك الناس قد وصلوا من باريس بسيارة الليموزين الصفراء والزرقاء، الخاصّة بهم (وكانت تعتبر مغامرة عصرية آنذاك) ولكنهم، وبطريقة مبتذلة، أرسلوا «كوليت» إلى «بياريتز» مع كلبتها ومعلمتها، على متن قطار عاديّ. كانت كلبة من فصيلة «فوكس تيرييه» مع أجراس تطوّق عنقها، ولم تكن لتكفّ عن هزّ ذنبها. بكلّ مرح وحيويّة، كانت تلعق من المياه المالحة في سطل «كوليت الصغير». لازلت أذكر الشراع، غروب الشمس والمنارة، المرسومين فوق السطل، لكني لا أتذكر اسم الكلبة، وهذا يزعجني.

خلال شهريْ إقامتنا في «بياريتز»، كاد شغفي بـ«كوليت» أن يفوق شغفي بـ«كليوبترا». وبما أن أهلي لم يهتموا لمقابلة أهلها، فلم يُتح لي أن أراها إلا فوق الشاطئ؛ ولكنني كنت دائم التفكير بها. إن لاحظتُ بكاءها، تدفّقت من عيوني دموع من يشعر بألم العجز. لم أتمكّن من القضاء على البعوض الذي لدغها فوق عنقها الهزيل، ولكنّي استطعت، ونجحت، في خوض عراك مع فتى أحمر الشعر كان فظّاً معها. كانت تعطيني حفنات من الحلوى القاسية. ذات يوم، أثناء انحنائنا سوية لرؤية نجم بحر، وكانت عقصة شعرها توخز أذني، استدارت نحوي فجأة وقبّلتني فوق خدّي. «أيتها القردة الصغيرة!»، لم يسمح لي انفعالي الشديد بالتفكير بجملة أخرى.

كان لديّ عملة ذهبيّة افترضّتُ أنها ستفي كلفة هروبنا. إلى أين أردتُ اصطحابها؟ إسبانيا؟ أمريكا؟ الجبال التي تعلو «بو»؟ «هناك هناك في الجبل»، كما سمعت «كارمن» تغنّيها في الأوبرا. في ليلة غريبة، أذكر أني تمددتُ مستيقظاً أصغي إلى هدير المحيط المتكرر، بينما كنت أخطّط لهروبنا. كانت الأمواج ترتفع، تشقّ طريقها عبر الظلام، ثم تنكبّ ساقطة على وجهها.

أما عن هروبنا الحقيقيّ، فليس لديّ الكثير لأرويه. تحتفظ ذاكرتي

بصورتها تنتعل بكل طاعة حذاءً قماشيّ بنعله المصنوع من الحبال، تقف إلى جانب خيمة ترفرف، بينما كنت أحشر شبكة فراشات قابلة للطيّ داخل كيس ورق بنيّ. الصورة التالية التي أذكرها أثناء تنفيذ الهروب، هي دخولنا لسينما مظلمة (والتي بكل تأكيد كانت محرّمة على أمثالنا) قريبة من الكازينو. هناك جلسنا وعقدنا أيدينا فوق الكلبة، التي ما انفكّت تجلجل بأجراسها في حضن «كوليت»، وقد شعرنا بالتشنّج والتعرّق، أثناء مشاهدتنا لمصارعة ثيران مثيرة في «سانت سيبستيان». آخر ما أذكره، رؤيتي لنفسي يقودني «لينديروفسكي» على طول المتنزّه. كانت ساقاه تتحرّكان بخفّة تنذر بالسوء، وقد استطعت رؤية عضلة فكّه المتجهّم، وهي تتشنّج تحت بشرته المشدودة. أما أخي، في عامه التاسع، الذي كان يضع نظارته ويمسك بيد «لينديروفسكي» الأخرى، فكان يهرول محاولاً تجاوزنا، ليتمكّن من النظر في وجهي، يدفعه فضول مرعب، وكأنه بومة صغيرة.

من بين الهدايا التذكارية الكثيرة التي اشتريتها قبل مغادرة «بياريتر»، لم يكن أفضلها عندي الثور الصغير الأسود المصنوع من الحصى، ولا محارة الأذن تلك التي تعطي طنيناً، بل شيء صرتُ اليوم أراه رمزيّاً ـ حاملة ريشة من معدن «الميرشوم» مع ثقب كريستالي في جهتها المزخرفة. إن قرّبت الثقب جيّداً إلى عينك، وأغلقت العين الأخرى، وتوقّفت عن الرمش، تظهر لك صورة فوتوغرافيّة ساحرة للشاطئ مع خط الصخور، حيث المنارة عند آخره. يغمرني الآن سرور كبير. استعادة الحاملة تلك مع المجسّم المصغّر داخل العين الصغيرة، تحفّز ذاكرتي نحوِ جهدها الأخير. أحاول مجدّداً تذكّر اسم كلبة «كوليت» ـ وأخيراً، عبر كلّ تلك الشواطئ النائية، فوق رمال الماضي المسائيّة اللامعة، حيث يملأ ماء الغروب كل حفرة قد تركها أثر قدم، ها هو يصلني، ها هو يصلني، بصداه المهتزّ: «فلوس»، «فلوس»، «فلوس»!

كانت «كوليت» قد عادت إلى «باريس»، حين توقّفنا هناك لقضاء يوم، قبل متابعة رحلة العودة إلى منزلنا؛ وهناك، في حديقة يميل لونها إلى الصفرة، وتحت سماء زرقاء باردة، رأيتها للمرة الأخيرة (بتدبير من مربياتنا على ما أذكر). كانت تجرّ طارة تقودها بعصا قصيرة، وكانت، بكامل أناقتها الخريفيّة، الباريسيّة، تمثّل طراز فتاة المدينة. أخذتْ هدية وداع من يد معلّمتها ووضعتْها في يد أخي الصغير، صندوق من اللوز الملبّس بالسكّر، وقد عرفتُ، أنها كانت تعنيني به أنا وحدي؛ ثم غادرتْ فوراً، تجرّ طارتها اللامعة بين الظلال والضوء، حول نافورة تكسوها الأوراق الميّتة، حيث كنت واقفاً. تختلط الأوراق في ذاكرتي مع جلد نعلها وقفّازها، وكان هنالك، حسبما أذكر، ما يلفت الانتباه في ملابسها (ربما شريط فوق قلنسوتها الاسكتلنديّة، أو نمط جواربها) قد ذكّرني حينها، بقوس قزح لولبيّ، فوق كرة زجاجيّة. يبدو أني لا زلت أحتفظ بلمحة من ذاك التقزّح، دون معرفتي الدقيقة بمصدره، بينما كانت تدحرج طارتها حولي، إلى أن تلاشت مع ظلال هزيلة، قد ألقتها قناطرُ متشابكة عند نهاية ممرّ الحصى.

الفصل الثامن

١

سأقوم بعرض بعض اللقطات، ولكن دعوني بداية أخبركم بزمانها ومكانها. وُلدنا أنا وأخي في «سانت بطرسبرغ»، عاصمة الامبراطوريّة الروسيّة، هو في منتصف مارس ١٩٠٠، أما أنا فقبله بأحد عشر شهراً. ساعد أساتذةٌ ناطقون باللغة الروسيّة مربياتنا الإنكليزيات والفرنسيات، ولكن في نهاية المطاف، حلّوا مكانهنّ، وكان معظمهم طلّاباً خرّيجي جامعة العاصمة. بدأ ذاك العهد التعليميّ حوالي ١٩٠٦، واستمرّ لما يقارب عقداً من الزمن، متضمّناً، ومنذ عام ١٩١١، أعوام تعليمنا الثانويّ. خلال فصل الشتاء، أقام معنا كلّ معلّم بدوره، في منزلنا القائم في «سانت بطرسبرغ». أما الوقت الباقي، فإما أنّه كان يرافقنا إلى عزبتنا الصيفيّة، التي تبعد خمسين ميلاً عن المدينة، أو إلى المنتجعات الأجنبيّة، التي غالباً ما زرناها في الخريف. استغرقني الأمر ثلاث سنوات كحدّ أقصى، حتى صرت قادراً على إنفاذ صبر أيّ من أولئك الشبّان الأقوياء (كنت أبرع من أخي في أمور كهذه).

عند اختيار معلّمينا، كان والدي، ولأهداف عبقريّة، ينتقي في كل مرّة ممثلاً عن طبقة اجتماعيّة مختلفة، أو عرق مختلف، ليعرّضنا لكلّ الرياح التي اجتاحت الامبراطوريّة الروسيّة. لست واثقاً ما إذا كان قد

تعمّد ذلك كليّاً، لكن بالنظر إلى الوراء، أجد الجدول واضحاً جداً، إذ تظهر صور أولئك المعلّمين داخل قرص الذاكرة المضيء، بينما يقوم فانوس سحريّ بعرضها على الشاشة.

مدير مدرسة قريتنا الرائع، الذي علّمنا عام ١٩٠٥ التهجئة الروسيّة، والذي كان يأتي إلينا يومياً لساعات قليلة فقط، لم يبدُ أنّه ينتمي لتلك السلسلة. لكنّه شارك في أوّلها وآخرها، باعتبار أن آخر ما أذكره عنه يعود لعطلة الفصح ١٩١٥، التي قضيناها، أنا وأخي مع والدنا برفقة شخص يُدعى «فولغين» ـ آخر وأسوأ معلّم ـ بالتزلّج فوق الجبال المحيطة بمزرعتنا والمكسوّة بالثلوج، تحت سماء تكاد تكون بنفسجيّة. دعانا صديقنا القديم مرّة لتناول ما سمّاه وجبة خفيفة، في مسكنه المدرسيّ، حيث ترى هوابط الجليد فوق المزراب؛ كانت بالحقيقة وجبة مركّبة تم إعدادها بحبّ. لا زلت أذكر وجه والدي المبتهج والمتظاهر بفرح عارم، عند استقباله للطبق (أرنب برّي محمّر مع القشدة) رغم معرفتي أنّه يكرهه. كانت التدفئة في الغرفة أعلى ممّا ينبغي. لم يكن حذاء التزلّج الخاص بي مانعاً للتسرّب كحاله المفترض. رغم الحرقة التي كنت لا أزال أشعر بوخزها في عينيّ بسبب الثلج، كنت أحدّق في رسم يسمّونه «تايبوغرافياً» لـ«تولستوي»، محاولاً فكّ طلاسمه. كذنب فأرة في صفحة ما من كتاب «آليس في بلاد العجائب»، كان كلّ ما في اللوحة مصنوعاً من أوراق مطبوعة. كامل رواية «تولستوي» (السيد والخادم) قد استخدمت لتشكيل وجه الكاتب الملتحي، والذي، بمحض الصدفة، يشبه ملامح وجه مضيفنا إلى حدّ ما. كنّا على وشك بدء العراك مع الأرنبِ عديم الحظ، حين فُتح الباب فجأة ليدخل «كريستوفر»، الخادم ذو الأنف الأزرق والوشاح الصوفيّ النسائي، ليغيّر بابتسامته الغبيّة مسار المشهد، معلناً عن وصول سلّة غذائية ضخمة ملأى باللحوم والنبيذ، أرسلتها جدتي التي تنقصها الكياسة (وكانت تقضي شتاءها في «باتوفو»)،

لاعتقادها أنها ستكون ضروريّة، في حال لم تكن وليمة المعلّم كافية. وقبل أن يشعر مضيفنا بجرح في كرامته، أعاد والدي السلّة كما هي، مع ورقة تحمل ملاحظة صغيرة، من المرجّح أن تكون قد أربكتْ السيّدة ذات النوايا الحسنة، كما كان يربكها كلّ ما يقوم به والدي. قضتْ معظم حياتها فوق أريكة، مرتدية ثوباً حريرياً فضفاضاً وقفّازات شبكيّة، حاملة بين يديها مروحة عاجيّة، وكأنها تمثال في عصرها أكثر من كونها كائناً بشريّاً. صندوق من سكاكر اللبان، أو كأس من حليب اللوز، كانا دائماً تحت متناول يدها، وكذلك مرآة يد تستخدمها لإصلاح مسحوق وجهها كل ساعة تقريباً، بواسطة فرشاة ورديّة كبيرة، فتظهر شامة خدّها من تحت كل هذا الطحين، كحبّة زبيب. رغم الكسل الذي كان يطغى على نهارها، إلاّ أنها حافظت على بنية قويّة لا تُصدّق، كما أولتْ أهميّة كبرى لنومها قرب النافذة المفتوحة، طوال العام. ذات صباح، وبعد عاصفة ثلجيّة دامت طويلاً، وجدتْها خادمتها ممّدة تحت طبقة من الثلج اللامع الذي اجتاحها وسريرها معاً، دون أن يؤثر على توهّج نومها الصحيّ. إن كانت قد أحبّتْ أحداً، فقد أحبّت ابنتها الصغرى «ناديزدا فونليارليارسكي»، وقد باعتْ لأجلها، وعلى حين غرّة، عزبة «باتوفو» عام ١٩١٦، الصفقة التي لم تصبّ في صالح أحد، بعد غروب الامبراطوريّة الروسيّة. كانت تشكي أمام كل أقاربها انزعاجها من الجيوش الشرّيرة التي أغرتْ ابنها ليرفض وظيفة رفيعة المستوى في خدمة القيصر، الذي قام كل أجداده بخدمته. ما كان عصيّاً على فهمها، هو أنّ والدي، الذي تعرفه جيّداً، والذي قد عاش منعّماً بثروة عظيمة، استطاع أن يغامر بكل تلك الملذّات في سبيل أن يصبح ليبرالياً، مساعداً بذلك على قيام ثورة ستتركه، وعلى المدى الطويل، رجلاً معوزاً، وتبيّن أنها كانت محقّة في ذلك.

٢

معلّم القراءة الخاص بنا كان ابن نجّار. بين الصور اللاحقة التي يعرضها الفانوس السحريّ، يظهر أوّلاً شابٌ يُدعى «أوردو»، الابن المثقّف لشمّاس يونانيّ كاثوليكيّ. أثناء نزهاته معي وأخي، خلال صيف عام ١٩٠٧ المنعش، كان يرتدي عباءة بايرونيّة[١] سوداء، مع مشبك فضيّ على شكل .S في أعماق غابات «باتوفو»، قرب جدول يُحكى أنّ روح رجل مشنوق تطوف حوله، كان» أوردو» يقوم بتخويفنا أنا وأخي كلّما مررنا هناك، بأداء حركات ساخرة وتافهة، لم نملك إلاّ صراخنا لنعترض عليها. كان يحني رأسه ويرفرف بعباءته بطريقة مصّاصي الدماء الغريبة، بينما يثب حول شجرة حور كئيبة المظهر. ذات صباح نديّ، وخلال ممارسته لطقسه ذاك، سقطت منه علبة السجائر، وبينما كنت أساعده في البحث عنها، اكتشفت عيّنات حديثة الظهور لعثّات «Amur hawkmoth»، نادراً ما نراها في منطقتنا ـ مخلوقات جميلة، مخمليّة، ذات لون رماديّ بنفسجيّ ـ تمارس طقوس الجماع، تتشبث بالعشب عند ساق شجرة، بواسطة أقدامها المكسوّة بفراء الشنشيلة. في خريف السنة ذاتها، رافقنا «أوردو» إلى «بياريتز»، وبعد أسابيع قليلة، غادرنا فجأة تاركاً فوق الوسادة ملاحظة مكتوبة، مع هديّة كنّا قد قدّمناها إليه، أداة حلاقة «جيليت» الآمنة. فيما يخصّ ذكرياتي، أكون عادة متيقّناً ما إذا كانت تخصّني أو تخصّ أحداً آخر، ولكن هذه الذكرى تحديداً تربكني، خاصّة أنّ والدتي، وبعد وقت طويل، حين كانت في مزاج لاستحضار الذكريات، حدثتني بفرح، عن جذوة الغرام التي أشعلتْها دون أن تدري. أذكر باب غرفة الرسم مفتوحاً بشكل جزئيّ، وهناك، عند منتصف

---

(١) بايرونية: نسبة إلى جورج غوردون بايرون أو اللورد بايرون شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي. ١٧٦٦ ـ ١٨٢٤.

الأرضيّة، كان «أوردو»، «أوردو» خاصّتنا، جاثماً على ركبتيه، وماداً يديه نحو أمي الشابّة، الجميلة، والمصدومة. أتذكر الآن بشكل حياديّ، أن ما رأيته من تموّجات العباءة الشاعريّة حول «أوردو»، ذات الأكتاف العالية، قد أوحى لي أن شيئاً ما من الرقصة السابقة التي شهدتها في الغابة، قد انتقل إلى تلك الغرفة الضبابيّة في شقّة «بياريتز» (التي تحت شبابيكها، وفي وسط الساحة، حيث مُدت حواجز من الحبال منعاً لاقتراب الناس، كان ملّاح محليّ «سيغموند لوجواييه»، يقوم بعمليّة نفخ منطاد أصفر اللّون).

ثمّ تأتي صورة الأوكرانيّ، عالم رياضيّات بارع ذو شارب قاتم وابتسامة مشرقة. أمضى فترةً من شتاء ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ معنا. كانت له مواهب خاصّة أيضاً، من بينها إتقانه لخدعة إخفاء العملة، والتي كانت تنطلي علينا. يضع عملة ما على خرقة أو ورقة، ثم يغطّيها بكأس، فتختفي فوراً. خذ كوب شرب عاديّ. ألصقْ بدقّة فوق رأسه قطعة ورق مدوّرة. على الورقة أن تكون مخطّطة (أو ذات نقش ما) بغرض تعزيز الخدعة البصريّة. ضع فوق قطعة ورق مشابهة عملة نقديّة صغيرة (عشرين كوبيك فضيّة ستفي بالغرض). اسحب الكأس فوق الورقة برشاقة، مع كل الحرص أن تكون الورقتان متطابقتان. صدفة التطابق تلك هي إحدى عجائب الطبيعة، التي أثّرت في طفولتي المبكّرة. في أحد أيّام عطلته، سقط مشعوذنا أرضاً بينما كان في الشارع، وقامت الشرطة بزجّه في زنزانة مع عشرات السكّيرين. كان في الحقيقة يعاني من علّة في قلبه، وقد أدّت إلى موته بعد سنوات قليلة.

تبدو الصورة التالية على الشّاشة وكأنها معروضةً رأساً على عقب. يظهر فيها معلّمنا الثالث واقفاً على رأسه. كان محترف رياضة من لتوانيا، ذا بنية ضخمة مذهلة، يتقن المشي على يديه، ورفع الأثقال، والتلاعب بالكرات الحديديّة، كما كان قادراً، خلال لحظات، على ملء غرفة

كبيرة برائحة عرق نتنة، تخلّفها عادة كتيبة كاملة من الجنود. عندما كان يقرر معاقبتي على فعل سيء قد ارتكبته (أذكر، على سبيل المثال، أني رميت مرّة لعبة رخاميّة من الطابق العلويّ فوق رأسه الجذاب والصارم، أثناء مشيه في الطابق السفليّ)، كان يلجأ إلى طريقة تربويّة استثنائية، من خلال اقتراحه بأن نخوض، أنا وهو، سجالاً وديّاً بقفّازات الملاكمة، ثم كان يلكمني في وجهي بدقّة لاذعة. ولكن رغم ذلك، كنت أفضّل هذا العقاب على التشنجات العضليّة لساعدي، التي تسببها عقوبات الآنسة، حين ترغمني على كتابة المثل القائل: «من أبكاك ربّاك، Qui aime bien, châtie bien»، مئتيّ مرة. لم آسف على رحيل الرجل الطيب بعد إقامته العاصفة التي دامت لشهر واحد.

ثم جاءنا آخر بولنديّ. إنّه طالب طبّ وسيم، بشعر حريريّ وماء بنيّ يترقرق في عينيْه، يشبه الممثل الفرنسيّ الكوميديّ الشعبيّ، «ماكس ليندر». بقي «ماكس» معنا منذ ١٩٠٨ وحتى ١٩١٠، وقد حاز على إعجابي ذات يوم شتويّ في «سانت بطرسبرغ»، حين قاطع اضطرابٌ مفاجئ نزهتنا اليوميّة. قوقازيون بوجوه غاضبة وغبيّة، كانوا هناك يلوّحون بسياطهم، ويدفعون بخيولهم التي تصهل وتثب، بمواجهة حشود غاضبة. كان هنالك كثير من القبّعات وثلاث أزواج من الجراميق على الأقل مرميّة فوق الثلوج. بدا لوهلة وكأن أحد القوزاقيين يتّجه نحونا، وعندها رأيت «ماكس» يُخرج بخفّة من جيبه الداخلي مسدّساً صغيراً قد وقعتُ في حبّه فوراً - ولكن لسوء حظّي، انتهت الاضطرابات. اصطحبنا مرّة أو مرّتين لرؤية شقيقه، كاهن روماني كاثوليكيّ هزيل، ذي مرتبة عالية، والذي كانت يداه الشاحبتان تداعبان دون انتباه منه، رؤوسنا اليونانيّة الكاثوليكيّة، بينما كان يناقش مع أخيه شؤوناً سياسيّة أوعائليّة، بلهجة بولنديّة لا ينتهي صفيرها. أرى صورة والدي ذات يوم صيفيّ في قريتنا، يتنافس مع «ماكس» برماية الرصاص على لوح صدئ في غابتنا، كُتب

عليه: «الصيد ممنوع». كان «ماكس»، الدمث، رجلاً قوياً، لذا كان يُفاجئني حين يشتكي من صداع نصفيّ ويرفض أن ينضمّ إليّ في ركل الكرة أو الذهاب للسباحة في النهر. الآن قد عرفت أنّه كان آنذاك على علاقة بامرأة متزوّجة، يقع بيتها على بعد عشرات الأميال. كان أحياناً، خلال أوقات غريبة، يتسلّل إلى أوجرة كلاب الحراسة المقيّدة بغرض إطعامها، وكسب ودّها. كان إطلاقها يتمّ عند الحادية عشر ليلاً لتطوف حول المنزل، وكان عليه أن يواجهها أثناء تسلّله إلى الخارج عند منتصف الليل، حيث تنتظره وراء الشجيرات درّاجة مع كامل ملحقاتها ـ زرّ جرس، مضخّة، حقيبة جلد بنيّة تحوي بعض الأدوات، وحتى سروال ـ قد أعدّها له سرّاً شريك في الجريمة، خادم أبي البولنديّ. طرقات الغابة الموحلة، كثيرة الحفر والنتوءات، سوف توصل «ماكس» الولهان إلى مكان لقاء الأحبّة البعيد، وهو كوخ صيد ـ العرف السائد للزنا الراقي. ضباب الفجر البارد، وأربعة من كلاب «غرايت دان» قصيرة الذاكرة، شهدوا عودته فوق الدرّاجة، وعند الثامنة صباحاً، بدأ نهاراً جديداً. أتساءل الآن ما إذا كان منزعجاً، حين أُمر بمغادرة مسرح مآثره الليليّة، ليرافقنا في رحلتنا الثانية إلى «بياريتز»، خريف عام ١٩٠٩. متظاهراً بالتوبة والورع، طلب إجازة ليومين، لزيارة قرية «لورد» برفقة الايرلندية الرشيقة والجميلة، معلّمة «كوليت»، رفيقة لعبي فوق الشاطئ. غادرَنا ماكس في العام التالي، لوظيفة في قسم الأشعّة السينيّة في مشفى «سانت بطرسبرغ»، وعرفتُ فيما بعد، أنه بين الحربيْن العالميّتيْن، قد أصبح من مشاهير الأطبّاء في بولندا.

وبعد الكاثوليكيّ جاء البروتستانتيّ ـ لوثريّ من أصول يهوديّة. سيظهر هنا تحت اسم «لينسكي». ذهبنا أنا وأخي معه أواخر عام ١٩١٠ إلى ألمانيا، وبعد أن عدنا خلال شهر يناير من العام التالي، وبدأنا بالذهاب إلى مدرسة «سانت بطرسبرغ»، بقي «لينسكي» معنا حوالي ثلاث سنوات

ليساعدنا في وظائفنا. كان ذلك في عهده، حين قرّرت الآنسة التي أقامت معنا منذ عام ١٩٠٥، أن تستسلم وتوقف صراعها مع الموسكوفيين الدخيلين، لتعود إلى «لوزان». وُلد «لينسكي» فقيراً، وكان يحلو له أن يذكر أنّه في الفترة الواقعة ما بين تخرّجه من جيمنازيوم مدينته الأمّ، على البحر الأسود، وبين قبوله في جامعة «سانت بطرسبرغ»، قد اعتمد كلّياً على نفسه من خلال رسم مناظر بحريّة طبيعية رائعة فوق حصى الشواطئ، ثم بيعها كثقّالات للورق. كان ذا وجه بيضاويّ ورديّ، رموش قصيرة، عيون خالية من التعابير بشكل غريب وراء نظّارة دون إطار، ورأس حليق شاحب الزرقة. لقد اكتشفنا ثلاث أمور عنه دفعة واحدة: كان معلّماً ممتازاً، يفتقر لروح الدعابة، وعلى نقيض كل أساتذتنا السابقين، كان علينا نحن أن نوفّر له الحماية. الأمان الذي أحاطاه به والداي أثناء تواجدهما، كان قابلاً للاختراق خلال أية لحظة من غيابهما، من قِبل عمّاتي الهجوميات. بالنسبة لهن، لم تكن كتابات والدي الشرسة التي يشجب بها المجازر والممارسات الحكومية، إلا نزوات نبيل ضال، ولطالما سمعتهنّ يناقشن بطريقة مرعبة، أصول «لينسكي» و«تجارب والدي المجنونة». بعد حادثة كتلك، كنت أردّ عليهن بوقاحة، ثم أنصرف إلى المرحاض لأنفجر باكياً بدموع حارّة. ليس لأنني أحببت «لينسكي» بشكل خاص. ولكن كان هناك ما يستفزني في صوته الجاف، نظافته المفرطة، طريقة مسحه للنظارات بقطعة قماش، أو تقليم أظافره بأداة خاصة، خطابه اللائق، وربما أكثر من كلّ ما ذكر، عادة مشيه الصباحيّ الفاتنة نحو أقرب صنبور (يبدو كرجل قد استيقِظ لتوّه بفارق انتعال حذاء وارتداء سروال، بحمّالات حمراء فوق صدار شبكيّ غريب، يغطّي جذعه غزير الشعر)، حيث كان يختصر وضوؤه مكتفياً بإنعاش وجهه الورديّ، جمجمته الزرقاء وعنقه السمين، واستنشاق الماء ثم عصفه، بواسطة أنفه الروسيّ القويّ، ثم بعد ذلك

كان يمشي، بخطواته الهادفة ذاتها، ولكنه هذه المرّة يقطر ماءً ولا يبصر دربه جيّداً، ليعود إلى غرفته حيث أخفى في مكان سريّ ثلاث مناشف مقدّسة (بين قوسين، كان «brezgliv بريزغلاف»، بالمعنى الروسي الذي لا يمكن ترجمته، أي كان ليغسل يديه بعد لمس أوراق نقديّة أو حتى درابزين).

كان يبثّ شكواه إلى أمي، متهماً إيانا، أنا وأخي، بأننا نبدو كطفلين أجنبييْن، غريبيْ الأطوار، كثيريْ النزوات، مدلّعيْن، وغير «مباليين بطريقة مرضية»، كما عزا السبب إلى «غونشاروف»، «غريغوروفيتش»، «كوروليكنو»، «ستانيوكوفيتش»، «مامين ـ سيبيرياك»، وغيرهم من أسماء العيار الثقيل (مقارنة بـ«المؤلفين الإقليميين» الأمريكيين) الذين، حسب رأيه، قد ضلّلوا بأعمالهم «الصبية الطبيعيين». لإخراجي من كدري الغامض، نصح أهلي أن يعرّضا ولديْهما (لم يكن الثالث ضمن نطاق وصايته) لنمط حياة أكثر ديمقراطيّة، مما يعني، على سبيل المثال، أن ننتقل من فندق «آدلون» في «برلين» إلى شقّة واسعة في نزل موحش، أقلّ رفاهية، وأن نستبدل القطارات السريعة العالمية المفروشة بالسجاجيد، بقطار «شنيلزاغ» الألمانيّ المترنّح، ذي الأرضيات القذرة ورائحة الدخان النتنة. في المدن الأجنبيّة، وكذلك في «سانت بطرسبرغ»، كان ليقف جامداً أمام واجهات المحال التجارية، مندهشاً بسلع لا قيمة لها بالنسبة لنا. كان على وشك الزواج، ولم يكن يملك سوى راتبه، ولكنّه كان يخطط لإنشاء عائلة مستقبليّة بكل حرص ودهاء. بين الحين والآخر، كان يتورّط ببعض الدفعات التي تؤثر على ميزانيته. رأى مرّة عجوزاً شمطاء قذرة، تنظر مبتهجة إلى قبعة قرمزية مزيّنة بالريش، معروضة في واجهة أحد المتاجر المتخصصة بصنع القبّعات، فاشتراها لها، ثم استغرقه الأمر وقتاً طويلاً ليتخلّص منها. أما فيما يخصّ مشترياته الخاصّة، فكان حريصاً جداً. استمعنا أنا وأخي له، وبكلّ صبر،

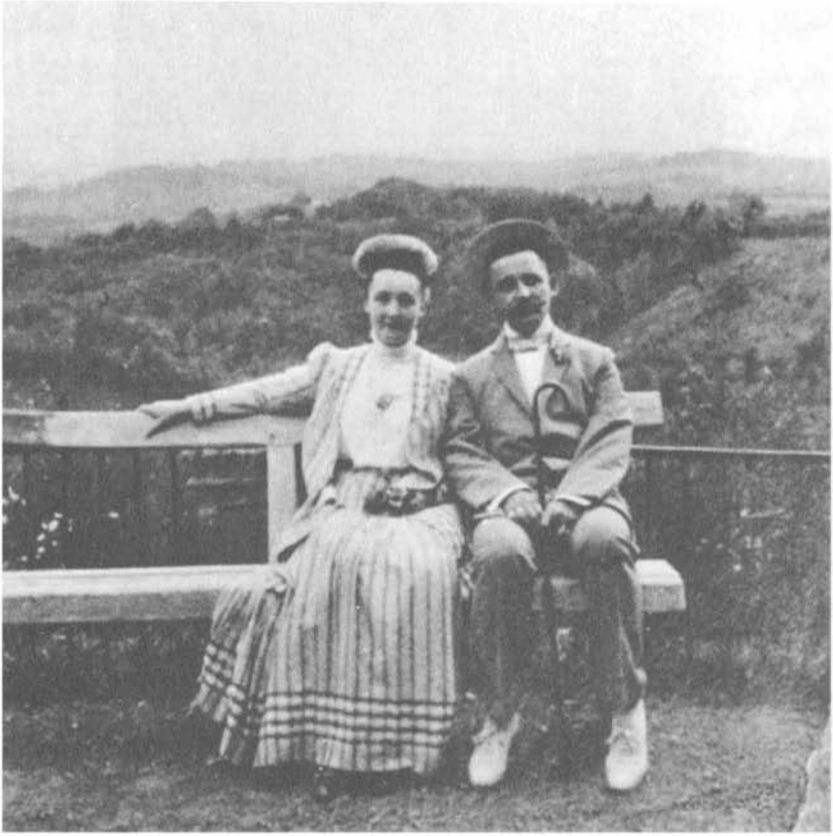
حين كان يصف لنا يوميّاً، تفاصيل كل زاوية من زوايا الشقة المريحة والمتواضعة، التي أعدّها في ذهنه له مع زوجته. كان يجمح بأوهامه أحياناً، إلى أن بلغتْ مرّة مصباح سقف من مخزن «آلكسندر» في «سانت بطرسبرغ»، حيث تُعرض الخردوات البرجوازيّة السيئة. وخوفاً من أن يخمّن صاحب المتجر ما يرغب «لينسكي» بشرائه، قال لنا إنه سيأخذنا معه إن أقسمنا على ضبطِ نفسيْنا، وتأملِ القطعة مباشرة دون لفت انتباه أحد. مع كامل الاحتياطات اللازمة، اصطحبنا إلى حيث تتدلّى ثريّا برونزيّة مروّعة، لها شكل اخطبوط، ومن خلال إشارة صغيرة وتنهيدة مخرخرة، فهمنا أنها كانت ما يحلم باقتنائه. حين عرّفنا على خطيبته، تصرّف بالحذر ذاته، همساً ومشياً على رؤوس أصابعه، خوفاً من أن يوقظ وحش القدر (الذي، حسب اعتقاده، يكنّ له ضغينة شخصيّة). كانت شابّة رشيقة، صغيرة الحجم، لها عينا غزال مذعور، ورائحة بنفسج طازج تفوح من وشاحها الأسود. أذكر أننا التقينا بها قرب صيدليّة، عند زاوية «بوتسداميرستراس» و«بريفاتستراس»، حيث تغطي الأوراق المتساقطة الممر، أمام النزل الذي أقمنا فيه، وقد ألحّ علينا أن نخفي أمر وجود خطيبته في «برلين» عن ذوينا. في لحظتها، قام عارض آلي صغير في واجهة الصيدليّة بحركات حلاقة، أطلقت حافلة ترام صفيرها، وبدأ الثلج بالهطول.

٣

سنستعرض الآن الموضوع الرئيسيّ لهذا الفصل. في وقت ما من الشتاء الذي جاء لاحقاً، تبنّى «لينسكي» فكرة شنيعة، كان ينفذها كل أسبوعين خلال يوم الأحد، وهي عبارة عن عرض صور تعليميّة من خلال فانوس سحريّ، في بيتنا القائم في «سانت بطرسبرغ». وبكل معنى



والدتي في الرابعة والثلاثين، صورة باستيل (٦٠سم × ٤٠سم)، بريشة «ليون باكست»، رسمها عام ١٩١٠، داخل غرفة الموسيقى في بيت «سانت بطرسبرغ». طُبع هذا الاستنساخ في السنة ذاتها، وتحت إشرافه. كان لديه مشكلة كبيرة برسم الخط الخارجي لشفتيها، إذ كان يتردد كثيراً أثناء رسمه، وكان يمضي أحياناً جلسة كاملة من أجل رسم تفصيل واحد. أما النتيجة فكانت تطابقاً مذهلاً بين الأصل والصورة، وتُظهر مرحلة مهمة جداً من تطوّره الفنيّ. كما كان والداي يملكان عدداً كبيراً من الرسومات المائية التي قدّمتْ لباليه «شهرزاد». في «باريس»، بعد خمس وعشرين سنة تقريباً، أخبرني الرسام «آلكسندر بينوا» أنه، وبعد قيام الثورة السوفيتية، قد حصل على كل أعمال «باكست»، كما أخبرني أنه قد تمّ نقل بعض أعماله الخاصة كلوحة «يوم ممطر في بريطانيا»، من منزلنا إلى متحف «القيصر الثالث» («المتحف الحكوميّ» حالياً).



والدتي مع أخيها، «فاسيلي إيفانوفيتش روكافيشنيكوف» (١٨٧٤ ـ ١٩١٦)، «بو»، «البرانس» الأطلسيّة، أوكتوبر ١٩١٣.

الكلمة، اقترح عرض وسائل إيضاح للقراءة («وافرة» كما قال متمطّقاً بشفاهه الرقيقة) أمام مجموعة من الفتية والفتيات المبهجين، معتقداً بكلّ سذاجة، أنهم سيشاركوننا في ذكرى لا يمكن نسيانها. إضافة إلى نيّته بتوسيع قاموس معلوماتنا، فإنه ربما كان يعتقد، أن تلك المخالطة الاجتماعيّة ستكون مفيدة لكلّ منّا، أنا وأخي. مستخدماً إيانا كنواة، قام بتكديس طبقات من المتطوّعين حول ذلك المركز المتجهّم ـ أبناء عمومتنا الذين يقاربوننا عمراً وقد صادف وجودهم هناك آنذاك، مختلف الفتية الذي كنّا نقابلهم كلّ شتاء في بعض الحفلات المملّة، بعض زملاء المدرسة (الذين لم يكونوا هادئين كعادتهم) وأولاد الخدم. باعتبار أن أميّ اللطيفة والمتفائلة قد أطلقت يده، فقد استأجر معدّات دقيقة، ووظّف طالب جامعة بسحنته الكئيبة، لتشغيلها؛ ما أراه جليّاً اليوم، أن «لينسكي» طيّب القلب ذاك، من جملة ما قام به، فإنه قد حاول أيضاً مساعدة رفيقه المعدم.

لن أنسى أبداً القراءة الأخيرة. اختار «لينسكي» قصيدة سرديّة لـ«ليرمونتوف»، تحكي عن مغامرات راهب شاب قد ترك عزلته في «القوقاز» ليطوف بين الجبال. كعادته، يجمع «ليرمونتوف» في تلك القصيدة ما بين وصف المشاهد التي يراها السائر، وبين آثار السراب المنصهرة فيها «fata - morgana». كانت قصيدة طويلة جداً، قد وزع «لينسكي» أبياتها الرتيبة، السبعمائة والخمسين، على أربعة شرائح (وخامسة قد تمكّنت من كسرها قبل بداية العرض).

خوفاً من صدفة اندلاع حريق أثناء العرض، اختيرت له غرفةُ حضانة قديمة ومهملة حيث يوجد سخّان ماء عاموديّ، مطليّ بالبنيّ البرونزيّ، ويقف حوض استحمام على قواعد تشبه قوائم الزواحف، وقد تمّت تغطيته باحتشام، لأجل تلك المناسبة. ستائر النافذة المغلقة بعناية، قد حجبت الباحة السفليّة، حطب البتولا المكدّس، والجدران الصفراء للمبنى الملحق المعتم، حيث توجد الاسطبلات (تمّ تحويل قسم منها

إلى مرآب لسيارتيْن). رغم إنحاء خزانة ملابس قديمة وصندوقيْن، إلا أن هذه الغرفة البالية والكئيبة، بوجود المصباح السحريّ المتوضّع خلف صفوف الكراسي، الوسائد، والأرائك المعدّة لمجموعة المتفرجين (فيما بينهم خطيبة «لينسكي»، ثلاث أو أربع مربّيات، ناهيك عن الآنسة، والآنسة «غرينوود»)، قد بدت مزدحمة تفتقر للهواء. على يساري، جلستْ الأكثر تململاً بين بنات عمومتي، فتة شقراء، مترددة، في الحادية عشر من عمرها تقريباً، لها شعر «آليس في بلاد العجائب»، وبشرة ورديّة شاحبة، قد التصقت بجانبي لدرجة كنت أشعر بعظمة وركها النحيلة تلامس مثيلتها عندي، كلّما حرّكت كرسيّها لتداعب قلادتها، أو لتمرر باطن يدها بين شعرها المعطّر وقفا عنقها، أو ضربت ركبتيْها ببعضهما ليُسمع هسيس ملابسها الداخلية الصفراء الحريريّة، التي أشرقتْ من تحت دانتيل فستانها. علي يميني، ابن خادم والدي البولنديّ، ولد عديم الحركة كليّاً، بلباس البحرية؛ كان يشبه «تسارفيتش»[1] إلى حدّ كبير، وبمحض صدفة لا تُصدق، كان يعاني من نفس مرضه ـ هيموفيليا ـ الأمر الذي جعلنا، خلال مرّات عدّة في السنة، نستقبل طبيباً مشهوراً، تحمله إلينا عربة المحكمة، وتنتظره طويلاً تحت ثلج ينهمرعلى شكل رقائق رماديّة، إن حدّقتَ بأكبرها، بشكلها الخشن والشاذ، ولاحقتها حتى هبوطها أرضاً (من وراء زجاج المشربية) مع كل دورانها وتقلّبها في الهواء، فإنك حتماً ستشعر بالدوّار وبالملل، بالملل وبالدوّار.

أطفأت الأنوار، واستهلّ «لينسكي» بالافتتاحيّة:

الزمان ـ منذ سنوات خلت

المكان ـ حيث اجتمعا وتدفّقا

---

(١) تسارفيتش: ابن القيصر، وليّ العهد.

وتعانقا كأخوة

نهر «آراغفا»، ونهر «كوراه»؛ عند هذه النقطة

انتصب دير.

ظهرت صورة الدير، مع النهرين، كما ينبغي لها أن تفعل، وبقيت معلّقة (حبّذا لو مرّ سنونو واجتاحها!) وكأنها منوّمة مغناطيسيّاً، وبعد أن تجاوزنا مئتيْ سطر، تمّ استبدالها بصور عذراء جورجيّة تحمل جرّة. عندما سحب المشغّل الشريحة، بدّلها بأخرى بحركة رشيقة جداً، كان تكبير الصورة يعتمد على تلك السرعة في التبديل. بوجهة تأمّل أخرى، كان هنالك قليل من السحر. لقد عُرضت أمامنا صوراً لقمم جبال مألوفة وعاديّة، بدل جبال «ليرمونوتوف» الشاعريّة، التي:

أشرقت في مجد الفجر

كمذابح الكنائس يغشاها دخان،

وبينما كان الراهب يخبر صاحبه المنعزل عن صراعه مع فهد ـ

يا لرهبة ما رأيت!

تحوّلتُ إلى فهد، متوّحش وجريء

غضبه الساطع، صراخه، كل ما فيه أصبح لي.

ـ سمعت خلفي أصواتاً مكتومة كمواء القطط؛ ربما صدرت عن الصغير «رزيفوسكي»، الذي كنت أحضر معه دروساً للرقص، أو «آليك نيت» الذي اكتسب شهرة بعد سنة أو سنتين، في مجال تحضير الأرواح، أو ربّما أحد أبناء عمومتي. رويداً رويداً، وبينما كان «لينسكي» يتابع تلاوته بصوته الأجشّ، أدركتُ أن كلّ المشاهدين، باستثناء القليل منهم ـ ربّما كـ«صموئيل روسولف»، أحد زملاء المدرسة الحسّاسين ـ كانوا يسخرون سرّاً من العرض، وأنني بعد أن ينتهي، سيتحتّم عليّ الردّ على

كلّ الملاحظات المهينة. اجتاحتني رعشة شفقة حادّة تجاه «لينسكي» ـ تجاه تلك الطيّات الوديعة أسفل عنقه، تجاه تصميمه، تجاه الحركات المتوتّرة لمسطرته، التي، وكأنها كفّ قطّة لعوب ـ كانت تتسبب بتشويش الألوان، عندما كان يقرّبها جداً من الشاشة. عند الاقتراب من النهاية، أصبحت رتابة الإجراءات المملّة لا تُطاق؛ لم يتمكّن المشغّل المرتبك من إيجاد الشريحة الرابعة، فقد اختلطت مع السابقات، وبينما كان «لينسكي» ينتظر في العتمة بفارغ صبره، بدأ أحد المتفرّجين بعرض ظلال يديه المرفوعتيْن أمام الشاشة البيضاء المروّعة، ثم توّاً، قام ولد سفيه ورشيق (أيمكن أن يكون أنا ـ أيُعقل أكون «هايد» في شخصيّة «جيكل»؟[1]) بتظليل قدمه، فاتحاً الطريق أمام باقي الأقدام لبدء منافسة شرسة. حين عُثر في نهاية المطاف على الشريحة وأومضت الشاشة، تذكّرت رحلة قمنا بها خلال طفولتي المبكّرة، عبر نفق «سانت غوثارد» الطويل والمعتم، وقد دخله قطارنا خلال عاصفة رعديّة، ولكنّها كانت قد انتهت عند خروجنا منه، حيث

بكامل سحرها وحظّها
كانت تتأملّ الألوان، أزرق، أخضر، برتقاليّ
حين هبط قوس قزح
وأسر الغزالة الواقفة فوق الصخرة

عليّ أن أضيف أنني خلال عرض ذاك اليوم وأيام الآحاد التي تلته، والتي بقيتْ مزدحمة وشنيعة، كنت مسكوناً ببعض الحكايا التي كنت قد سمعتها من أفراد عائلتي. في بداية الثمانينيات، لم ترق لـ«إيفان

---

(١) السيد جيكل والسيد هايد: رواية خيالية للأديب الاسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون نشرت لأول مره في لندن عام ١٨٨٦. وتتناول الرواية الصراع بين الخير والشر داخل الإنسان.

روكافيتشنيكوف»، جدّي لأمي، أية مدرسة خاصة ليرسل أبناءه إليها، فأنشأ أكاديميّة خاصة به من خلال توظيف عشرات من أرقى الأساتذة المتاحين، وتجميع فتية من مراحل دراسيّة عدّة، ليقدّم لهم تعليماً مجّانياً ضمن قاعات منزله في «سانت بطرسبرغ» (رقم ١٠. شارع «أدميرالتي كواي»). لم ينجح المشروع. الرفاق الذين أراد لأبنائهم أن يقترنوا بأبنائه، لم يكونوا متعاونين، كما خابت آماله بمعظم الفتية الذين حصل عليهم. تشكّلت لديّ صورة له يبدو فيها منزعجاً، يدور بين المدارس بحثاً عن هدفه المتعنّت، وبعينيه الغريبتيْن والحزينتيْن، اللتيْن أحمل شبيهتيْهما كما تنبؤ الصور الفوتوغرافيّة، يفتّش عن الأجمل بين الطلّاب. يُقال إنه دفع المال للأهالي المحتاجين بهدف حشد صحبة لولديْه. كنت أرى أنّ ما تقوم به شرائح مصباح معلّمنا السحريّ، يشبه إلى حدّ ما الأفكار الروكافيتشينكوفيّة المجنونة، ولم يساعدني الربط ما بين الفكرتيْن في تقبّل ما يفعله «لينسكي» بجعله من نفسه موضع سخرية وملل، لذا كنت سعيداً، حين بعد ثلاثة عروض («الفارس البرونزي» لـ«بوشكين»، و«دونكيشوت»، و«أفريقيا، أرض العجائب») استجابت أمي لتضرّعاتنا المحمومة، وألغت الأمر برمّته.

حين أفكّر بالأمر الآن، أرى كم كانت تافهة وسمجة، تلك الصور الهلاميّة، التي كانت تُعرض فوق شاشة كتّان رطبة (كان يُفترض بالرطوبة أن تجعلها أكثر زهواً)، ولكن من جهة أخرى، كم كانت جميلة تلك الشرائح الزجاجيّة، التي بمجرد حملها بين السبّابة والإبهام، ورفعها نحو المنمنمات الضوئيّة نصف الشفّافة، تُظهر أرض عجائب يمكن وضعها في الجيب، وعوالم صغيرة أنيقة باهتة الإضاءة! في السنوات اللاحقة، اكتشفت جمالاً آخر يحمل ذات الدقّة والصمت، في القعر المشعّ لذراع مجهر سحريّ. داخل زجاج الشريحة، المصنوعة للإسقاط فوق شاشة، يوجد تجسيم مصغّر جداً لمنظر طبيعي، وهذا ما يحفّز الخيال؛ أمّا

تحت المجهر، يتمّ تكبير عضو حشرة لأغراض علميّة. وهذا ما يبدو، في نطاق الأبعاد العالميّ، المكان الدقيق حيث يلتقي العلم والخيال، النقطة التي يُمكن الوصول إليها، بتصغير الأشياء الكبيرة، وتكبير الصغيرة، وهذا هو جوهر الفنّ.

٤

بالنظر إلى مواهب «لينسكي» المتعدّدة، وإلى مقدرته على شرح كلّ ما يتعلّق بعلومنا المدرسيّة، فإن متاعبه الجامعيّة التي لم تكن لتنتهي تبدو أمراً لا يُصدق. وكان سببها، كما اتضّح في النهاية، أنه لم يكن لديه بالمطلق قدرة على حلّ المسائل الماديّة والسياسيّة، العصيّة على فهمه. أذكر نرفزته الشديدة حين كان مرّة في صدد تقديم أحد امتحاناته الأخيرة. كنت قلقاً بقدره، ولم أستطع، قبل الحدث المعلّق، مقاومة التنصّت من وراء باب الغرفة حيث والدي، وبناءً على طلب مستعجل من «لينسكي»، أخضعه لامتحان خاص، مختبراً معلوماته حول مبادئ الاقتصاد السياسيّ لـ«شارل جيد». قلّب والدي صفحات الكتاب، ثم سأله، على سبيل المثال: «ما سبب القيمة» أو «ما الفرق بين الأوراق النقديّة والمال الورقيّ؟»، تنحنح «لينسكي» بقوّة، ثم صمت تماماً كما لو أنّه أسلم الروح. بعد قليل، توقّف حتى عن قليل سعاله الحاد، ولم يكن يتخلّل فترات الصمت إلاّ نقر والدي فوق الطاولة. ذات مرة، متهوراً في طرح احتجاج يحمل أملاً، هتف صاحب المعاناة فجأة وقال: «الجواب ليس في الكتاب يا سيدي» ـ ولكنه كان كذلك. بلطف مسموع، أطلق والدي تنهيدة حسرة، أغلَق الكتاب، ثم أبدى ملاحظة: «حظّاً موفّقاً [يا رفيقي العزيز]، لا يمكنك إلاّ أن تفشل ـ أنت بكلّ بساطة لا تفقه شيئاً»، «أختلف معك بذلك» ردّ عليه «لينسكي»، بكلّ عنفوان. في عربتنا التي أقلّته إلى الجامعة، جلس

متيبّساً كما لو كان محشوّاً، بقي هناك حتى المغيب، وعاد فوق مزلاج، داخل كتلة، تتدحرج في عاصفة ثلجيّة، ثم دخل غرفته بصمت يائس.

في نهاية إقامته معنا، تزوّج ثم ذهب في رحلة شهر العسل إلى «القوقاز»، إلى جبال «ليرمونتوف»، ثم عاد إلينا لشتاء آخر. أثناء غيابه، خلال صيف ١٩١٣، تولّى مهامه معلّم سويسريّ، السيّد «نوايبه». كان رجلاً ذا بنية متينة، وشارب خشن، وقد قرأ لنا مسرحية «سيرانو دي برجراك» لـ«روستاند»، تالياً كلّ سطر بطريقة فاتنة، ومبدّلاً صوته ما بين الناي والمزمار، وفقاً للشخصيّات التي قلّدها. أما في كرة المضرب، في حال كان هو مستهلّ اللعب، فإنه كان يقف بحزم فوق الخطّ الخلفيّ، بساقيْن غليظتيْن متباعدتين، وسروال قطنيّ مجعّد، يثني ركبتيه فجأة، ثم يضرب الطابة بقوّة هائلة ولكنّ غير موفّقة.

عندما غادرنا «لينسكي» نهائيّاً ربيع ١٩١٤، أتانا شابٌ آخر من إحدى مقاطعات إقليم «الفولغا». كان رجلاً وسيماً جيّد المنشأ، يلعب كرة المضرب بشكل مقبول، أما في الفروسيّة فهو بارع؛ بامتلاكه لمقوّمات كتلك، لم نكن أنا وأخي، في ذلك التاريخ المتأخر، نحتاج كثيراً إلى مساعدته التعليميّة التي أكّد مديرُه المتفائل لوالديّ، أنّه كفؤ لها. في سياق ندوتنا الحوارية الأولى، أخبرني بعفويّة، أن «تشارلز ديكنز» هو من كتب «كوخ العم توم»، مما دفعني إلى خوض رهان معه، ربحت في نهايته أداة اللكم البُرجُميّة المعدنيّة الخاصّة به (knuckle - duster). بعد تلك الحادثة، أصبح حريصاً على عدم ذكر أي موضوع أو أيّ شخصيّة تتعلّق بالأدب في حضوري. كان فقيراً جدّاً، تفوح من بزّته الجامعيّة الرثّة، رائحة غريبة وكريهة للغبار ومادة الإيثر معاً. كان عالي الأخلاق، حلو المزاج، ذا خطّ جميل، يكتبه بالحروف المسنّنة والحادة (الطريقة التي لم أرَ مثيلاً لها إلا في رسائل رجل مجنون، التي، وللأسف، تصلني من وقت لآخر منذ عام ١٩٥٨)، وذخيرة لا تنضب من قصص فاحشة، تخصّ أصدقاءه والعاهرات

(وقد كان يزوّدني بها سرّاً، بصوته الحالم، المخمليّ، متجنّباً استخدام أي تعبير بذيء)، كما تخصّ أشخاصاً نعرفهم، من بينهم، سيّدة عصريّة بضعفيّ عمره، كيّ يتخلّص منها، تزوّجها لاحقاً ـ خلال مسيرته المهنيّة في حكم لينين ـ ثم أرسلها إلى معسكر للأشغال الشاقّة، حيث توفيّت هناك. كلّما فكرت بذلك الرجل، تأكّدت أنه كان مجنوناً بالكامل.

أعود لأكمل في أثر «لينسكي». خلال إقامته معنا، اقترضَ مالاً من زوج أمّه، ليبدأ مشروعاً رائعاً يقوم على الاستئثار بمختلف الاختراعات الجديدة ثم استثمارها. ليس لطيفاً ولا حتى منصفاً أن أدّعي أنّه نسب تلك الاختراعات لنفسه؛ ولكنّه تبّناها وكان يتحدّث عنها بحنان وحماس كما لو كان والدها الطبيعيّ ـ مجرّد سلوك عاطفيّ، بعيدٍ عن الاحتيال، ولا وجود لحقائق تدعمه. ذات يوم، وبكلّ فخر، دعانا جميعاً لنختبر بعربتنا نوعاً جديداً من الأرضيّات المرصوفة التي كان مسؤولاً عنها، مشكَلة من (على قدر ما يسمح لي وميض الذاكرة الضعيف أن أرى عبر عتمة الزمن) خطوط معدنّية محبوكة بطريقة غريبة. وفي النتيجة، ثُقبتْ العجلة. على أيّ حال، لقد وجد تعزيته من خلال شراء شيئاً جديداً رائعاً: مسودّة عمل طائرة الكترونيّة شبيهة بطائرة «بليرون»، ولكنّها مزوّدة ـ وعنه أقتبس ـ «بمحرّك فلطائيّ». لقد طارت في أحلامه فقط ـ وأحلامي. خلال الحرب، طرح في الأسواق أطعمة أحصنة على شكل كعك عيد الغطاس المسطّح (قضم بعضها بنفسه وقدّم بعضها لأصدقائه)، ولكنّ معظم الأحصنة فضّلت البقاء على الشوفان. باع عدّة براءات اختراع، كانت كلّها جنونيّة، وعندما حصل على ميراث صغير جرّاء موت زوج أمّه، كان غارقاً في الديون. لا بدّ أن ذلك حصل بداية عام ١٩١٨، لأني أذكره أنه راسلنا (وكانت السبل قد تقطّعت بنا في إقليم «يالطا») عارضاً علينا المال أو أي مساعدة أخرى. استثمر ميراثه دون إبطاء في متنّزه فوق ساحل القرم الشرقيّ، وخاض مشاكل لا تنتهي

للحصول على أوركسترا جيّدة، وبناء حلبة تزلّج بنوعيّة خشب خاصّة، وإنشاء نوافير وشلّالات تنيرها مصابيح حمراء وخضراء. وصل البلاشفة عام ١٩١٩ وأطفأوا الإنارة، وهرب «لينسكي» إلى فرنسا؛ آخر ما سمعت عنه، كان في العشرينات، إذ قيل إنه خلال إقامته غير المستقرّة في «الريفييرا»، كان يعتاش من الرسم فوق الصدف والحجارة. لا أعرف ـ ولا أريد أن أتخيّل ـ ما جرى له أثناء الغزو الألماني لفرنسا. رغم كل غرابته، إلا أنه كان حقاً رجلاً نقيّاً ومحترماً، ذا مبادئ صارمة في الحياة كما في قواعد اللغة، التي أذكر ببهجة، كيف كان يزرعها فينا من خلال إملاءاته الخاصّة: «kolokololiteyshchiki perekolotili vïkarabkavshihsya vïhuholey» «ذبح صانعو أجراس الكنيسة قوارض الدسمان المتزاحمة». بعد سنوات عدّة، في المتحف القومي للتاريخ الأمريكيّ في «نيويورك»، ردّدتُ العبارة الشاقّة ذاتها عندما سألني أحد علماء الحيوان، ما إذا كانت اللغة الروسية صعبة كما يُشاع عنها. عندما التقينا بعد أشهر عدّة، قال لي: «أتعلم! لقد فكّرت طويلاً في تلك القوارض الموسكوفيّة: لماذا كانت تتزاحم؟ هل كانت تبحث عن مأوى لسباتها الشتويّ أم للاختباء، أم ماذا؟».

٥

حين أفكّر في أساتذتي المتعاقبين، أجد أن الاستقرار الأساسي والمكتمل الذي أدخلوه إلى سنين عمري الفتيّ، كان أكبر وأهم من التناقض الغريب الذي حملوه إليها. أشهد بسرور على أسمى إنجازات ذاكرتي، وعلى الانسجامات الفطريّة التي استخدمتْها بإبداع حين جمعتْ تحت ثنيّاتها كل صور الماضي المبعثرة والمتقطّعة. كلما توصّلتُ إلى حلّ تلك الأوتار المتشابكة، ونظرتُ إلى الماضي بلمحة خاطفة، يسرّني أن أتخيّل شيئاً ثابتاً، كالطاولة الطويلة في الفناء الخارجي خلال الصيف، حين توضع فوقها الحلويات والشوكولا أيام الآحاد والأعياد، في ممرّ

شجيرات البتولا، الزيزفون والقيقب، حيث تبرز فوق المساحة الملائمة من رمل الحديقة الناعم، والتي تفصلها عن المتنزّه. أرى مِفرش الطاولة ووجوه الناس الجالسين والمشاركين في مسرحية الضوء والظلال، تحت أوراق الأشجار الرائعة والمتحرّكة، لا شكّ أني أبالغ في وصف المشهد، مدفوعاً بذاك الاحتفال الحيويّ، ورغبتي بالعودة الدائمة، للاقتراب من طاولة الوليمة، قادماً من الخارج، من عمق المتنزّه ـ وليس من المنزل ـ كما لو أنّ عقلي، بخطوات صامتة، يقود ذاك الطفل الضال، حافي القدمين، المفتقر للعاطفة، كي يعيده هناك. من خلال موشور زجاجيّ مرتعش، أميّز ملامح الأقارب وأخرى مألوفة، شفاه صامتة تتحرّك برقّة لتهمس بأحاديث منسيّة. أرى بخار الشوكولا الساخنة وأطباق فطائر التوت. أرى الأجنحة المروحية لزهرة السمارة، تدور فتهبط برفق فوق مِفرش الطاولة، والتي تسترخي بالقرب منها فتاة مراهقة تمدّ ساعدها بكامل طوله، بعروقه الفيروزيّة التي أدارت وجهها لأشعة الشمس اللامعة، وباطن كفّها المفتوح وكأنه يتوقع زائراً ما ـ ربما كسّار البندق. في المكان الذي يجلس فيه معلّمي الحالي، هنالك صورة تتغيّر في تعاقب بصريّ، تبدأ باهتة ثم تتضحُ لتخفتَ كما بدأتْ وهكذا؛ يمتزج خفق أفكاري مع خفق ظلال الأوراق، محوّلاً «أوردو» إلى «ماكس»، و«ماكس» إلى «لينسكي»، و«لينسكي» إلى مدير المدرسة، ثم تتكرر تلك التحوّلات المرتجفة بالترتيب ذاته. ثم فجأة، حين تستقر أخيراً الخطوط والألوان وتنهي مهمّاتها المختلفة ـ مهمّات طائشة وباسمة ـ وبكبسة زر، يولد سيل من الأصوات: أناس يتحدّثون إلى بعضهم البعض، حبة جوز تُكسر، تسقط حبة أخرى دون انتباه أحد، ثلاثون قلب بشريّ يُغرقون قلبي بإيقاعهم المنتظم؛ آلاف الأشجار تئنّ وتتنهد، عصافير الصيف المحليّة تنسجم صخباً، وهناك، وراء النهر، وراء الأشجار المتناغمة، صخب الفتية القرويين الذي يسبحون بحماس، وكأنهم صوت التصفيق المحموم الذي نسمعه في خلفيّة مشهد.

الفصل التاسع

١

أمامي الآن دفتر ذكريات متداعٍ، رُبط حوله شريط قماش أسود. يحوي وثائق قديمة، بما فيها، شهاداتٍ، مسودّات، يوميّات، بطاقات هويّة، ملاحظات مكتوبة بالرصاص، وقصاصات مطبوعة، كانت والدتي قد حرصت على حفظها في «براغ» حتى وفاتها هناك، ثم بعد ذلك، بين ١٩٣١ و١٩٦١، طرأ على هذا الدفتر تغييرات شتّى. بمساعدته إضافة لمقدرتي على التذكر، قمت، فيما يلي، بتأليف سيرة ذاتيّة قصيرة لوالدي.

«فلاديمير ديمتريفيتش نابوكوف»، رجل قانون، ورجل دولة خبير بالقانون الدوليّ، والده «ديمتري نيكولايفيتش نابوكوف»، وزير العدل، ووالدته البارونة «ماريا فون كورف»، وُلد في ٢٠ يوليو ١٨٧٠، في «تسارسكوي سيلو»، واغتيل رمياً بالرصاص في «برلين»، ٢٨ مارس ١٩٢٢. تلقّى تعليمه المنزليّ حتى عامه الثالث عشر على يد مربيّات فرنسيّات وإنكليزيّات، وأساتذة روس وألمان؛ ترك له أحدهم «la passio et morbus aureliani»[١] وأنا ورثتها بدوري عن والدي. في خريف

(١) la passio et morbus aureliani: قد يكون المقصود بها مسرحية العذراء أورليان للمسرحي الألماني فريديريش فون شيللر.

١٨٨٣، بدأ التحاقه بالجمنازيوم (يعادل ثانويّة أمريكيّة أو معهد) في شارع «غاغارين» القائم آنذاك (أعيدت تسميته في الغالب من قِبل السوفييت قصيري النظر). كانت رغبته بالتفوّق ساحقة. ذات ليلة باردة، مفضّلاً إصابته بالتهاب رئويّ على أن يبدو مثيراً للسخرية أمام اللوح، جلس وراء طاولة الدراسة حتى وقت متأخر، معرّضاً نفسه للصقيع القطبيّ، آملاً أن لا يمرض في وقت غير مناسب، مواجهاً النافذة المفتوحة بملابس نوم رقيقة (تطلّ على ساحة القصر ونصب تذكاري مطليّ بضوء القمر)؛ بقي متمتّعاً بصحّة جيّدة في يومه التالي، ولكنّ أستاذه المحصّن، دون استحقاقه للأمر، هو من لزم السرير. في عامه السادس عشر، في مايو ١٨٨٧، تخرّج بميداليّة ذهبيّة، وبدأ بدراسة القانون في جامعة «سانت بطرسبرغ»، ثمّ تخرّج منها في يناير ١٨٩١، (غالباً في «هال»). بعد ثلاثين سنة، قام زميل له في الدراسة، كان قد رافقه في رحلة فوق الدرّاجة إلى الغابة السوداء، بإرسال مجلد «مدام بوفاري» إلى أمّي الأرملة، وكان والدي قد كتب فوق صفحته البيضاء الأولى، شهادةً لا تزال موجودةً حتى اليوم: «لؤلؤة الأدب الفرنسي التي لا شيء يضاهيها».

في ١٤ نوفمبر (المناسبة السنويّة التي تحتفل بها عائلتي التي تُعنى بالمناسبات والأعياد بصرامة) من عام ١٨٩٧، تزوّج من «إيلينا إيفانوفا روكافيتشينيكوف» ذات الحادية والعشرين عاماً، وهي ابنة أحد جيران القرية، لديه ستّ من الأبناء (أوّلهم قد وُلد ميّتاً).

عام ١٨٩٥ عُيّن في البرلمان وكان أصغر أعضائه. منذ عام ١٨٩٦ وحتى ١٩٠٤، حاضر في القانون الجنائيّ في مدرسة القانون الامبراَطوريّة (برافوفيديني Pravovedenie) في «سانت بطرسبرغ». فُرض على أعضاء المجلس أخذ إذن من رئيس المحكمة قبل القيام بأي أمر عام، الإذن الذي لم يطلب والدي الحصول عليه حين نشر في مجلّة

«Pravo» مقاله الشهير «حمّام الدمّ في كيشيناو»، والذي أدان فيه الدور الذي لعبته الشرطة في مجزرة «كيشيناو» ١٩٠٣. وبموجب مرسوم امبراطوريّ، جُرّد من صفته القضائيّة في يناير ١٩٠٥، وقطع بعد ذلك كلّ صلاته بحكومة القيصر وانغمس في مكافحة الاستبداد، مواصلاً أعماله كمحامي. من عام ١٩٠٥ وحتى ١٩١٥، كان رئيس القسم الروسيّ في الجمعيّة العالميّة لعلم الجرائم، وفي المؤتمرات التي أقيمت في هولندا، كان يمتّع مستمعيه بالترجمة المباشرة، عند الحاجة لذلك، خطابات إنكليزيّة وروسيّة يترجمها إلى الألمانيّة والفرنسيّة أو العكس. عارض بفصاحة بالغة عقوبة الاعدام، وكان شديد الإلتزام بمبادئه في الشؤون العامّة والخاصّة. في مأدبة رسميّة عام ١٩٠٤، رفض أن يرفع نخباً بصحّة الملك. يقال إنّه قد عرض في الجريدة، دون مبالاة، بزّة المحكمة الخاصة به للبيع. من عام ١٩٠٦ وحتى ١٩١٧، تعاون مع «إي. في. هيسين» و» آ. إي. كامينكا» في رئاسة تحرير: «Rech» أي «الخطاب»، واحدة من أهمّ الصحف اليوميّة الليبراليّة في روسيا، فضلاً عن مراجعته القانونيّة لمجلّة «Pravo». كان في السياسة «Kadet، كاديت» أي عضواً في Konstitutsionno - demokraticheskaya partiya) K.A الحزب الدستوري الديمقراطي)، الذي أُعطي لاحقاً التسمية التي تليق به «حزب الشعب الحرّ» (partiya Narodnoy Svobodi). بروح الدعابة العالية لديه، كان يستقبل ضاحكاً التوصيفات الواهنة والشريرة التي أطلقها النقّاد الروس حول آرائه وإنجازاته، ضمن تعليقاتهم الخاصّة بسيرته الذاتية. انتُخب عام ١٩٠٦ ليكون عضواً في أوّل برلمان روسيّ (Pervaya Duma)، مؤسسة إنسانيّة، بطوليّة، ليبراليّة بغالبها (ولكن الصحافة الأجنبيّة غير المطّلعة، والمتأثّرة بالبروباغاندا السوفيتيّة، كانت تخلط بين «Pervaya Duma» وبين «boyar duma، البرلمان البرجوازيّ»). هناك ألقى خطبه الرائعة عن تداعيات الأحداث في أنحاء البلاد. بعد سنة، حين حلّ

القيصر البرلمان، تحضّر أعضاء عدّة بمن فيهم والدي (يحمل بطاقة سفره في القطار تحت عصبة قبّعته، كما تُظهر صورة فوتوغرافيّة التُقطت له في محطة فنلندا) للسفر إلى «فيبورغ» لعقد جلسة غير شرعيّة. عام ١٩٠٨، سُجن لمدة ثلاثة أشهر، كعقوبة متأخرة على البيان الثوريّ الذي أصدره ورفاقه في «فيبورغ». «هل حصل ف. على فراشة Speckled Woods هذا الصيف؟» سأل في إحدى رسائله السريّة التي كتبها في السجن، والتي كانت تصل إلى والدتي في «فيرا»، بفضل رشوة الحارس ومساعدة «كامينكا»، صديقه المخلص. «أخبريه أن كل ما أراه هنا في فناء السجن هو فراشات «Brimstones»، و» «أبو دقيق الملفوف Cabbage Whites». بعد إطلاق سراحه، كان ممنوعاً من المشاركة في الانتخابات العامّة، ولكنه (وكما كان حكم القيصر معروفاً بمفارقاته) قد أعطي حريّة العمل في صحيفة «Rech» الليبراليّة، الواجب الذي كرّس له تسع ساعات يوميّاً. عام ١٩١٣، غرّمته الحكومة بمائة روبل نقداً (تساوي الكثير من الدولارات في الوقت الراهن) بسبب تقريره الذي أرسله من «كييف»، حيث، وبعد محاكمة صاخبة، أدين «بيليز»[1] مذنباً بتهمة قتل ولد مسيحيّ لأغراض تخصّ طقوساً دينيّة: الرأي العام والعدالة، في بعض المناسبات، كانا لا يزالان قادران على الانتصار في روسيا القديمة؛ كان قد بقي خمس سنوات على سقوط الامبراطوريّة. بعد بداية الحرب العالميّة الأولى مباشرة، تمّ إرساله إلى الجبهة. في نهاية الأمر، كان مرتبطاً بمجموعة أركان الحرب. منعته أخلاقه العسكريّة من لعب دور نشط في أولى اضطرابات الثورة الليبراليّة في مارس ١٩١٧. منذ البداية،

(١) مناهم مندل بايليس: روسيّ يهودي. عام ١٩١٣، حصل على محاكمة سيئة السمعة، المعروفة باسم «محاكمة بيليس» أو «قضية بيليس». أثارت العملية انتقادات دولية للسياسات اللاسامية للإمبراطورية الروسية. قصة بيليس كانت الأساس لرواية برنارد مالامود فيكسر، التي فازت بجائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطني.

بدا التاريخ حريصاً على حرمانه من إظهار مؤهلاته العظيمة ليبرز كرجل دولة في الجمهوريّة الروسيّة بطابعها الغربيّ. عام ١٩١٧، أثناء المرحلة الأولى للحكومة المؤقّتة ـ بينما كان أعضاء البرلمان Kadets لا يزالون يشكّلون جزءاً منها ـ تولّى في مجلس الوزراء منصب الأمين التنفيذيّ، المسؤوليّة التي لم تكن واضحة تماماً. في شتاء ١٩١٧ ـ ١٨، انتُخب للجمعيّة التأسيسيّة، ليُلقى القبض عليه عند حلّها من قِبل بعض بحارة البلاشفة الحازمين. كانت ثورة نوفمبر قد دخلت معتركها المحتدم، وكانت الشرطة نشطة بشكل فعّال، ولكن فوضى الأوامر والأوامر المضادة في تلك الحقبة، قد صبّت في مصلحتنا: سار والدي في ممرّ معتم، رأى باباً مفتوحاً في آخره، خرج نحو شارع جانبي وشقّ طريقه نحو جزيرة القرم، مع حقيبة ظهر كان قد أمر خادمه «أوسيب» بجلبها إلى ركن مظلم، مع صرّة من شطائر الكافيار قام طباخّنا الطيب «نيكولاي أندريفيتش»، بإضافتها من تلقاء نفسه. من منتصف عام ١٩١٨ وحتى بداية ١٩١٩، في فاصل زمنيّ بين فترتيْ احتلال البلاشفة، وأثناء خلاف دائم مع أعضاء جيش «دينكين»[1] المستعدّين أبداً لإطلاق النار لأي سبب، كان وزيراً للعدل («العدالة بحدّها الأدنى» كما كان يقول ممتعضاً) في واحدة من الحكومات الإقليميّة، شبه جزيرة القرم. ذهب عام ١٩١٩ إلى منفىً طوعيّ، حيث عاش أوّلاً في «لندن»، ثمّ في «برلين»، وهناك قام بالتعاون مع «إي. في. هيسين» بتحرير صحيفة مهجر ليبراليّة يوميّة «Rul الدفّة»، إلى أن اغتاله مجرم همجيّ عام ١٩٢٢، قد جعل منه «هتلر» أثناء الحرب العالميّة الثانية مدير شؤون اللاجئين الروسيين.

---

(١) أنطون إيفانوفيتش دينيكين: كان فريقًا في الجيش الإمبراطوري الروسي ١٩١٦، وواحدًا من أول جنرالات الحركة البيضاء في الحرب الأهلية.

المواضيع الرئيسية التي كتب عنها مكثفاً تخص السياسة وعلم الجريمة. كان واسع الاطلاع على الآداب النثريّة والشعريّة لبلدان عدّة، حافظاً عن ظهر قلب مئات الأبيات (أحبُّ الشعراء الروس إليه هم «بوشكين»، «تيوتشيف» و«فيت» ـ وقد نشر مقالاً هاماً جداً عن الأخير)، استحوذ عليه «ديكنز»، وإضافة إلى «فلوبير»، فقد ثمّن جدّاً «ستاندال»، «بلزاك» و«زولا»، الثلاث الذين أمقتهم ولا أراهم إلاّ متوسطي الموهبة. كان يعترف أن إبداع قصّة أو قصيدة، أيّاً كانت، هي بالنسبة له معجزة غير مفهومة، تماماً كصناعة آلة الكترونيّة. في المقابل، لم يكن يجد صعوبة مطلقاً في كتابة المسائل القانونيّة والقضائيّة. كان أسلوبه صحيحاً، وإن كان رتيباً إلى حدّ ما، وهذا ما أراه اليوم، حسب رأي الشخصيّ على الأقل، بغضّ النظر عمّا فيه من استعارات العالم القديم المأخوذة من مدارس التعليم الكلاسيكيّ وكليشيهات الصحافة الروسيّة الطنّانة، أراه أسلوباً يحمل جاذبيّة كئيبة خاصّة به، لها من التباين ما هو مذهل (كما لو أنّها تخصّ أقاربنا المسنين والفقيرين) فيه من التلوين والطرافة وبعض الشذوذ ما يجعله شبيهاً بالشعر، المتوافق مع كل الأحاديث اليوميّة. أنظر إلى مسودّات بعض مقالاته المحفوظة (بداية «Grazhdane!» وتعني «أيها المواطنون!») وافتتاحيّات الأعداد المكتوبة في دفتر مخطّط، بخط يد منساب ومنتظم بشكل رائع، خالي تقريباً من التصويبات، وأجد كثيراً من المتعة حين أقارن عملاً ذهنياً كهذا منفّذاً بجودة، وبكل نقاء وثقة بالنفس، مع واحدة من خربشات مسودّاتي الفوضويّة، مجازر تنقيحاتي وكتاباتي المتكرّرة، وتعديلاتي المضافة في هذه السطور، والتي قضيِت ساعتين في كتابتها، لأضع وصفاً يُقرأ خلال دقيقتين، لكتابة يده التي لا تشوبها شائبة. مسودّاته هي النسخة الجميلة لتفكيره الفوريّ. بهذه الطريقة، وبتلك السهولة والسرعة الهائلتيْن (جالساً بشكل غير مريح وراء مقعد دراسة طفل في قصر موحش) كتب نصّه حول تنحّي «الدوق الكبير

مايكل»[1] (وكان القيصر قد أعلنه وابنه وريثيْن للعرش من بعده). لا عجب أنّه كان متحدّثاً بارعاً، وخطيباً هادئاً على «الطريقة الإنكليزيّة»، التي تتحاشى الإيماءات الحادّة، والبلاغة الدهماويّة الصارخة، وها أنا ثانية، متحدث سخيف وفاشل بارتجال الكلمات الصحيحة إن لم تكن مطبوعة أمامي على ورقة، لم أرث من تلك الموهبة شيئاً.

قرأت له مؤخراً فقط، ولأول مرّة، مجموعته المهمّة «Sbornik statey po ugolovnomu pravu» (مجموعة مقالات عن القانون الجنائي)، نُشرت عام ١٩٠٤ في «سانت بطرسبرغ»، وهي نسخة نادرة جداً وربما تكون الوحيدة (امتلكها سابقاً «مايكل إيفغرافوفيتش هودونوف»، مختومة بالحبر البنفسجيّ فوق الصفحة البيضاء الأولى) أعطاني إياها رحّالة لطيف، «أندرو فيلد» وكان قد اشتراها من مستودع الكتب المستعملة، حين زار روسيا عام ١٩٦١. إنه مجلّد من ٣١٦ صفحة، يحوي تسعة عشر مقالة. في واحدة من تلك («جرائم الشهوة» المكتوبة عَام ١٩٠٢) ناقش والدي بطريقة غريبة وتنبّؤية إلى حدٍّ ما، قضايا الفتاة الصغيرة (في لندن) في عمرها الفتيّ (v nejneïchem nozraste) يعني: بين عامها الثامن والثاني عشر، كانت ضحيّة لرجال فاسقين (slastolyubtsam). في المقالة ذاتها، كشف عن مقاربات ليبراليّة وحديثة لبعض الممارسات الشاذّة، مخترعاً وصفاً باللغة الروسية يوافق كلمة «مثليّ الجنس»: «ravnopoli».

يبدو مستحيلاً تفصيلُ مواضيع آلاف المقالات التي كتبها في الصحف والمجلّات الدوريّة، مثل «Rech» و«Pravo». في فصل لاحق سأتحدّث عن كتابه المهمّ والتاريخي حول زيارته غير الرسميّة لإنكلترا إبّان زمن الحرب. ظهرت بعض مذكّراته الواقعة بين ١٩١٧ ـ ١٩١٩ في كتاب

---

(١) الدوق الكبير مايكل آلكساندروفيتش: ١٨٧٨ ـ ١٩١٨ أصغر أبناء قيصر روسيا الثالث، والأخ الأصغر لنيكولاس الثاني.

«Arhiv russkoy revolyutsii، أرشيف الثورة الروسيّة» الذي نشره «هيسين» في «برلين». في ١٦ يناير ١٩٢٠، ألقى محاضرة في «كليّة الملك، لندن»، حول» القانون السوفييتيّ ومستقبل روسيا»، وقد نُشرت بعد أسبوع في ملحق مجلّة «The New Commonwealth»، العدد ١٥ (ملصق بعناية داخل ألبوم والدتي). حفظتُها عن ظهر قلب خلال ربيع العام ذاته، بينما كنت أتحضّر للتحدّث ضدّ البلشفية ضمن نقاش الاتحاد في جامعة «كامبريدج»؛ كان نديّ (المنتصر) رجلاً من «Manchester Guardian»؛ لقد نسيت اسمه ولكني أذكر كيف بُهت تماماً عندما سمع مني ما كنت قد تدرّبت على حفظه، وكان ذلك أوّل وآخر خطاب سياسيّ لي. قبل أشهر عدّة من وفاة والدي، بدأت صحيفة المهجر «Teatr i zhizn، المسرح والحياة» بنشر مذكّرات طفولته في مقالات متسلسلة (تتقاطع ذكرياته مع ذكرياتي الآن ـ بشكل موجز). أجد ضمنها وصفاً دقيقاً لنوبات الغضب الرهيبة الخاصّة بمعلّمه اللاتينيّ المتحذلق في الجمنازيوم الثالث، فضلاً عن وصف ولع والدي بالأوبرا، الذي بدأ في سنّ مبكرة واستمرّ طيلة حياته: لا بدّ أنه حضر حفلات حيّة لمغنين أوروبيين من الدرجة الأولى ما بين ١٨٨٠ و١٩٢٢، وبالرغم من عدم قدرته على عزف أي شيء (ماعدا النغمات الأولى لـ«رسلان» التي يعزفها بكلّ مهابة) إلاّ أنّه كان يحفظ كل نوطة في مقطوعات الأوبرا المفضّلة لديه. على امتداد سلالتنا النابضة بالحياة، انتقل الجين الموسيقيّ من «Wolfgang Graun» أهم عازف أرغن في القرن السادس عشر، واصلاً إلى والدي، ومنهِ إلى ابني، لكنّه لم يمرّ بي مطلقاً.

٢

كنت في الحادية عشر من عمري حين قرّر والدي أن الدروس الخصوصيّة التي حصلت عليها، ستكتمل بنجاح عند التحاقي بمدرسة «تينيشيف». إنّها من مدارس «سانت بطرسبرغ» الأكثر تميّزاً، وكانت تعتبر، نسبياً، مؤسسة ذات طابع شبابيّ، أكثر حداثة وليبراليّة من الجمنازيوم العاديّ، الذي تنتمي إليه الفئة العامّة. نهجها الذي يشمل ستّة عشر فصلاً (ثمان صفوف من الجمنازيوم) يعادل في أمريكا السنوات الست الأخيرة في مدرسة إضافة إلى سنتيْن في معهد. عند قبولي عام ١٩١١، تمّ إلحاقي بالفصل الثالث، أو ببداية الفصل الثامن، وفقاً للنظام الأمريكيّ.

تبدأ المدرسة في ١٥ سبتمبر وتنتهي في ٢٥ مايو، مع عطلتين فصليتْن: عطلة أسبوعين لإفساح الطريق ـ إن صحّ التعبير ـ لوصول شجرة عيد الميلاد الضخمة التي كان النجم في أعلاها، يلامس السقف الأخضر لغرفة الرسم، أجمل غرفنا على الإطلاق، ثم يأتي أسبوع عطلة الفصح، التي كان البيض الملّون خلالها، يضيف البهجة إلى طاولة الإفطار. وبما أنّ الصقيع كان يستمرّ من أكتوبر وحتى أبريل، فلا عجب أن أغلب ذكرياتي المدرسيّة كانت شتويّة بشكل ملحوظ.

حوالي الثامنة صباحاً، حين كان «إيفان» الأوّل (الذي اختفى ذات يوم) أو «إيفان» الثاني (رسولي في المهمّات العاطفيّة) يوقظني، كان العالم في الخارج لا يزال مغموراً بالصقيع القطبيّ المكفهرّ. كان للمصباح الإلكتروني في غرفة النوم إنارة مزعجة، كئيبة، مستهجنة، تدفع عيناي للتيقّظ. ضاغطاً أذني التي تطنّ بكفّ يدي، ومثبّتاً كوعي فوق الوسادة، كنت أجبر نفسي على تحضير عشرات الصفحات من واجب لا ينتهي. فوق المنضدة بجانب سريري، بالقرب من مصباحي ذي الجذع المتحرّك ورأسيْ أسديْن برونزييْن، انتصبتْ ساعة صغيرة غير

تقليديّة: في داخلها صندوق كريستاليّ مستقيم، حيث صفائح عاجيّة صغيرة، شبيهة بالصفحات، تحمل أرقاماً سوداء تشير كلّ منها إلى دقيقة معيّنة، تنزلق من اليمين إلى اليسار عند مرور كلّ دقيقة، كالطريقة التجاريّة القديمة لعرض الصور في السينما. منحت نفسي عشر دقائق لحفظ النص في ذهني (تلزمني ساعتان اليوم لفعل ذلك) وعشرات الدقائق تقريباً للاستحمام، ارتداء الملابس (بمساعدة إيفان)، نزول الدرج مسرعاً وتناول كوب كاكاو فاتر، عليّ في كلّ مرة أن أنزع عن سطحه غشاوة مجعّدة سمراء قد تجمّعت في الوسط. كانت أصباحاً فوضويّة، وكان لا بدّ من التوقّف عن بعض الأمور، كمشاهدة دروس المبارزة والملاكمة، التي كنت أتعلّمها من رجل فرنسيّ فاتن شديد المرونة، السيّد «لوستاتو».

بطبيعة الحال، كان يأتي بشكل يوميّ تقريباً، من أجل أن يدرّب والدي على الملاكمة والمبارزة. كنت أندفع، بمعطف الفرويّ قبل أن أكمل ارتداءه، عبر غرفة الرسم الخضراء (التي لا زالت تعبق برائحة التنوب، الشمع الساخن واليوسفيّ، عقب انتهاء عيد الميلاد)، باتّجاه المكتبة حيث يختلط صوت نقر الأقدام بصوت صرير الأسنان. هناك وجدت والدي، رجلاً ضخماً، وقويّاً، كما أنّه يظهر أكبر حجماً في بزّة التدريب البيضاء خاصّته، يسدّد طعنات ويتفادى أخرى، بينما يضيف مدرّبه الرشيق إلى صوت القعقعة، عبارات تعجّب سريعة («اضرب! اقطع!»، «Battez! Rompez!»). مع قليل اللهاث، يرفع والدي قناع المبارزة عن وجهه المتعرّق الورديّ، ليعطيني قبلة الصباح. إنه المكان الذيَ جمع بشكل محبّب بين العلم والرياضة، جلد الكتب وجلد قفّازات الملاكمة. ثمّة أرائك ضخمة أمام الجدران التي تحمل كتباً فوق رفوفها، وكرة لكم دقيقة تمّ شراؤها من إنكلترا ـ أربع ركائز معدنيّة تحمل لوحاً تتدلى منهَ كتلة مخصّصة للضرب على شكل حبّة إجاص ـ . عُلقت في

عمق الغرفة الفسيحة. الغرض من وراء استخدام كرة اللكم هذه، خاصّة بوجود جهازها المريب الشبيه بالسلاح، كان هذا ما سُئل عنه كبير الخدم، والذي قدّم أجوبة مقنعة، لبعض مسلّحي الشوارع المدججين بالسلاح، أثناء عبورهم أمام النافذة، عام ١٩١٧. حين أُرغمنا بسبب الثورة السوفيتيّة على مغادرة «سانت بطرسبرغ»، تفككت تلك المكتبة وتبعثرت كتبها، ولكني لا زلت أرى بقاياها بشكل غريب عبر كلّ تلك المسافات. في «برلين»، بعد اثنيّ عشر عاماً، وجدت في أحد أكشاك الكتب، كتاباً مسروقاً يحمل لصاقة تحمل اسم والدي، اعتاد أن يضعها فوق كتبه. تبيّن، وبشكل يناسبني، أنه يدور حول حروب الموارد المائيّة العالميّة. وبعد انقضاء عقد آخر، وجدت في المكتبّة العامّة في «نيويورك»، نسخة كاتالوج نظيفة مسجّلة باسم والدي، كان قد طبعها سرّاً، حين كانت الكتب المسجّلة بأسماء وهميّة، والمدرجة هنا، لا تزال تلمع بملمسها الناعم فوق رفوف مكتبته.

٣

أعاد قناعه فوق وجهه وعاد للنقر واللكز بينما رجعت مسرعاً من حيث أتيت. ما إن عبرت مدخل الرواق الدافئ، حيث يطقطق الحطب في الموقد الكبير، حتى صفع الهواء الخارجيّ الجليديّ رئتيْ. كنت أسأل لأتأكّد أيّاً من السيّارتين ستقلني إلى المدرسة، الـ«بنز» أم الـ«ولسلي». كانت الأولى «لاندولي» رماديّة، يقودها «فولكوف» اللطيف ذو الوجه الشاحب، وكانت أقدم سيّاراتنا. تبدو خطوطها أكثر ديناميكيّة مقارنة مع سابقتها، الـ«كوبيه» الإلكترونيّة، عديمة اللون والرائحة والتي لا ضجيج لها؛ ولكن، الـ«لاندولي» أيضاً، بدت قديمة الطراز، بسقف ثقيل، وغطاء محرّك منكمش بشكل سيئ، مقارنة بالـ«ليموزين» الإنكليزيّة، السوداء والطويلة، والتي وصلت لتتشارك معها المرآب.

في السيارة الجديدة، كنت أبدأ نهاري بانتعاش. كان «بيروغوف»، السائق الثاني، بديناً وقصيراً، ذا بشرة روسيّة، متوائمة مع ظلّة معطفه الفرويّ الذي يلبسه فوق بزّة مخطّطة وقماط بنيّ برتقاليّ. عندما كان يضطر لكبح الفرامل بسبب الزحام (يعلو ويهبط بطريقة غريبة وكأنّه رقّاس)، أو عندما كنت أناقشه بأمر من خلال أنبوب المحادثة الذي يصدر صريراً ولا يبدو فعّالاً، كنت أرى مؤخرة عنقه من خلال اللوح الزجاجيّ الفاصل بيننا، وقد أصبحت قرمزية. لقد أعلن صراحة أنّه يفضّل قيادة «أوبل» القويّة القابلة للكشف، التي استخدمناها في القرية لثلاثة أو أربعة مواسم، والتي تصل سرعتها إلى ٦٠ ميلاً في الساعة (لتدرك أهميّة سرعة كتلك في عام ١٩١٢، عليك أن تأخذ بعين الاعتبار التزايد المتسارع للسرعات في يومنا هذا): وفي الحقيقة، فإن جوهر حريّة الصيف ـ بلا مدرسة وبعيداً عن المدينة ـ مرتبط في ذهني مع الهدير المفرط للمحرّك الذي يصدره «العادم» المفتوح طوال الطريق السريع، حيث لا أحد سوانا. عندما التحق «بيروغوف» بالجيش خلال العام الثاني من الحرب العالميّة الأولى، تمّ استبداله بـ«تسيغانوف»، رجل ببشرة داكنة وعينيْن ثاقبتيْن، وكان لاعب سباقات سابق، قد شارك في مختلف المباريات ضمن روسيا وخارجها، وقد كسر بعض أضلاعه ذات حادثِ تحطّمٍ شنيع في بلجيكا. لاحقاً، خلال فترات من عام ١٩١٧، بعد استقالة والدي من حكومة «كيرنسكي»، قرّر «تسيغانوف» ـ رغم اعتراضات والدي الصارمة ـ أن ينقذ سيّارة «ولسلي» المتينة من مصادرة محتملة من خلال تفكيكها وتوزيع أجزائها في أماكن لا يعرفها أحد سواهِ. ثم بعد ذلك، وخلال كآبة خريف مأساويّ، بعد أن وضع البلاشفة يدهم على الحكم، طلب أحد مساعدي «كيرنسكي» من والدي سيّارة متينة ليستعملها رئيس الوزراء في حال طُلبت منه المغادرة على عجل؛ ولكن سيّارة «البنز» القديمة الهزيلة لن تفي بالغرض، فما كان من

سيّارة «الولسلي» إلا أن اختفت بشكل محيّر. بوجهة نظري، أجد أهمية هذا الطلب (نفاه مؤخّراً صديق بارز لي، لكنّ مساعد له عاد ليؤكّده) في رفد تأليفي الأدبي فقط ـ بسبب التطابق المسلّي للحدث مع مشاركة «كريستينا فون كورف» في تهريب الملكة «فارين» عام ١٧٩١.

مع أن هطول الثلوج الكثيفة في «سانت بطرسبرغ» هو أمر شائع واعتياديّ أكثر ممّا هو عليه في أطراف «بوسطن»، على سبيل المثال، فإن السيّارات هناك، التي كانت منتشرة بين عديد عربات التزلج، في زمن ما قبل الحرب العالميّة الأولى، لم تكن تتعرض لتلك المشاكل الفظيعة، التي قد تتعرض لها سيّارات اليوم الحديثة، خلال فترة عيد الميلاد الثلجيّ، في إقليم «نيو إنجلاند». ثمّة قوى غريبة قد ساهمت في بناء المدينة. مما يدفع للاعتقاد بأن تسوية مشكلة ثلوجها ـ متراكمة بترتيب على أطراف الشوارع، مع طبقة ملساء وسميكة ممتدّة فوق حجارة الأرصفة الخشبيّة بأضلاعها المثمّنة ـ قد تمّت من خلال تعاون شيطانيّ بين هندسة الشوارع وفيزياء غيوم الثلج. بكلّ الأحوال، لم تكن القيادة نحو المدرسة تستغرق أكثر من ربع ساعة. كان عنوان منزلنا ٤٧. شارع «مورسكايا». ثمّ يأتي شارع الأمير «أوجينسكي» (رقم.٤٥)، السفارة الإيطاليّة (رقم.٤٣)، ثمّ السفارة الألمانيّة (رقم.٤١)، ثم بعد ذلك «ساحة ماريا» الفسيحة، والتي تستمر أرقام البيوت بعدها بالعدّ التنازليّ. كان هنالك حديقة عامّة صغيرة عند جانب الساحة الشماليّ. فوق إحدى أشجار الزيزفون، تمّ ذات يوم العثور على أذن وأصبع مقطوعيْن ـ ما بقي من رجل إرهابيّ كان يقوم بتحضير عبوة ناسفة داخل غرفته القائمة في جهة الساحة الأخرى للساحة. وبين أغصان الأشجار ذاتها (رسمٌ لتخريمات فضّية في قلب ضباب لؤلؤيّ نقيّ، تظهر في خلفيّته القبّة البرونزيّة لكنيسة «سانت إيزاك») وُجدت جثث أطفال مقتولة رمياً بالرصاص، بينما كانوا يحاولون التسلّق هرباً من رجال الشرطة،

قامعي تظاهرات الثورة الأولى ١٩٠٥ ـ ٠٦. قليل من قصص كتلك، بقيت ملتصقة بساحات وشوارع عدّة في «سانت بطرسبرغ».

ما بعث السرور في نفسي، عند الوصول إلى جادة «نيفيسكي»، الذي استغرق وقتاً طويلاً، رؤية سيّارتنا تتجاوز بسهولة مرور حارس يرتدي معطفاً ويركب عربة ثلج خفيفة، يجرّها فحلان من الأحصنة يصهلان ويسرعان تحت شبكة زرقاء زاهية تمنع كتل الثلج القاسية من أن تطير في وجه الراكب. ثمّة شارع على الجانب اليساري يحمل اسماً بهيجاً «كرفانايا» (شارع الكرفانات) ـ حيث وُجد، فيما مضى، مستودع ألعاب لا يمكن نسيانه. وصلنا بعد ذلك لسيرك «سينيزيلي» (الشهير بمباريات المصارعة). أخيراً، وبعد عبور قناة يكسوها الجليد، وصلنا إلى بوابة مدرسة «تينيشيف» في شارع «موهوفايا» (شارع المستنقعات).

٤

باعتبار أن والدي كان منتمياً، بإرادته، إلى نخبة مثقفي روسيا، فقد ارتأى أنه من الصواب إلحاقي بمدرسة تتميّز بمبادئها الديمقراطيّة، وسياسة عدم التمييز تبعاً للطبقة الاجتماعيّة، العرق أو العقيدة، فضلاً عن مواكبتها لأساليب العلم الحديثة. بالمنأى عن كلّ ما ذكر، لم تكن «تينيشيف» تختلف عن أية مدرسة أخرى في ذات المكان والزمان. كما في كلّ المدارس، كان الصبية يتعاونون مع بعض الأساتذة ويبغضون آخرين، وكما في كلّ المدارس، كان هنالك تبادل دائم في إطلاق التهكّمات البذيئة والمعلومات الإيروتيكيّة. وبما أنني كنت بارعاً في الريَاضة، فإن التحاقي بتلك المدرسة، بكلّ ما فيها، لم يكن أمراً مغمّاً، لو لم يصرّ أساتذتي على محاولات إنقاذ روحي.

اتهموني بعدم انسجامي مع محيطي؛ اتهموني بالتباهي (وذلك لأني

كنت أستخدم عباراتي الإنكليزيّة والفرنسيّة كفلفل أرش به فوق نصوصي الروسيّة)؛ برفضي للمس مناشف الحمّامات الرطبة والقذرة؛ بتسديد لكمة بمفاصل أصابعي أثناء القتال بدل توجيه صفعة من أسفل باطن الكف، الطريقة التي يتبنّاها الملاكمون الروس. أما مدير المدرسة الذي لم يكن ضليعاً في أمور الرياضة، فإنه رغم ادّعاء موافقته على تعزيز روح الفريق، إلاّ أنّه كان حريصاً على إبقائي حارساً للمرمى «بدلاً من ركضي مع اللاعبين الآخرين». أمر آخر قد أثار امتعاض الجميع، ألا وهو ركوبي السيارة أثناء قدومي وذهابي، بدل الترمواي أو عربة أحصنة، مثلما كان يفعل بقية التلاميذ، الديمقراطيّون الصغار. بوجه يقطر سمّاً واشمئزازاً، اقترح عليّ مرة أحد الأساتذة إبقاء السيّارة على بعد مبنيْن أو ثلاث، لأجنّب زملائي رؤية خادم يرفع قبعته أمام سيّده. كمّا لو أنّ المدرسة سمحت لي أن أجرّ فأراً ميّتاً شريطة أن لا أرخيه متأرجحاً تحت أنوف الناس.

في الحقيقة، ما جعل الوضع أكثر سوءاً، كونه ناجماً عن نفوري من الانضمام لأي نشاط أو تجمّع كان. لقد أغضبتُ ألطف أساتذتي وأكثرهم طيبة برفضي المشاركة في النشاطات الجماعيّة الخارجة عن المنهاج ـ كإنشاء جمعيّات للنقاش مع انتخابات رسميّة لعضوية مجلسها، وقراءة بيانات تعنى بالشأن التاريخيّ، وبين مراتبها العليا، تُدار نقاشات حماسيّة حول الوضع السياسيّ الراهن. لم تفلح الضغوطات التي مورست عليّ بثنيي عن رفضي الصامد، ولكنها خلقت جوّاً من التوتّر الشديد، خاصّة عند إصرار أحدهم على طرح والدي كمثال ومقارنتي به.

كان والدي حقاً كثيف النشاط، ولكن كما يحصل دائماً لأبناء المشاهير، فقد رأيت نشاطاته من خلال موشوري الخاص، الذي قام بتوزيع الضوء الباهت الذي لمحوه أساتذتي إلى ألوان فاتنة عديدة. لمتابعة اهتماماته المتنوّعة ـ الجنائيّة، التشريعيّة، السياسيّة، التحريريّة، الخيريّة ـ كان عليه أن يحضر اجتماعات لجان عدّة، والتي كانت بغالبها

تُعقد في منزلنا. أمكننا دائماً الاستنتاج أنّ اجتماع من هذا القبيل قد أوشك أن يُعقد، من خلال الأصوات العجيبة القادمة من نهاية مدخل القاعة الفسيحة والشهيرة. هناك، عندما عدتُ من المدرسة، رأيت الـ«shveitsar» (أي البواب) منشغلاً ببري الأقلام، في مخبأ تحت الدرج الرخاميّ. للقيام بالأمر، كان يستخدم آلة كبيرة قديمة الطراز، بعجلة يدوية صغيرة تصدر صريراً، يمسك مقبضها بيد ويديرها بسرعة، بينما يمسك بالأخرى قلماً محشوراً في فوهة جانبيّة. لسنوات طويلة، بقي نموذجاً حقيقيّاً للخادم الأمين والمسنّ معاً، وكان مفعماً بالحكمة وروح الدعابة، تراه في أغلب الأحيان، ممسكاً شاربه بأصبعيه، وبطريقة غريبة وأنيقة يمسدّه يميناً ويساراً، إضافة لرائحة خفيفة من السمك الطازج المقلي، التي كانت تعبق منه دائماً: تعود نشأتها لمسكنه في القبو، حيث لديه زوجة بدينة وتوأمين ـ تلميذ من عمري و«أورورا»، فتاة مخيفة قذرة، ذات عيون زرقاء مصابة بالحوَل، وضفيرة شعر برونزيّة؛ ولكنّ عملية بري الأقلام الروتينيّة تلك، لا بدّ أنها زادت من كدر العجوز المسكين «أوستين» ـ وباعتباري كنت لا أحبّ الكتابة إلاّ بأقلام رصاص مسنّنة، فقد تعاطفتُ معه عن طيب خاطر، فصرت، محيطاً نفسي بباقات الورد المشتراة من متجر B'3، أساعده في برم مقبض الآلة (المثبت فوق الطاولة) مئات المرّات في اليوم، فتتكدّس الرقائق الخشبيّة السمراء بسرعة هائلة، في درج الطاولة الصغير. واتضّح في نهاية الأمر أنه كان على اتصال بشرطة القيصر السرّية ـ قليلي الخبرة طبعاً، مقارنة مع رجال «دزيرجينسكي»(١) أو «ياغودا»(٢)، ولكنهم مزعجون بنفس القدر. في

---

(١) فيلكس ادموندوفيتش دزيرجينسكي: ١٨٧٧ ـ ١٩٢٦. ثوري ورجل دولة سوفيتي وعضو بارز في الحركات الثورية الروسية والبولندية.

(٢) غينريخ فيليبوفيتش ياغودا: ١٨٩١ ـ ١٩٣٨. سياسي وثوري روسي شيوعي وهو أحد المشاركين بثورة أكتوبر سنة ١٩١٧.

وقت مبكّر من عام ١٩٠٦، على سبيل المثال، اشتبهتْ الشرطة بقيام والدي باجتماعات سرّية في «فيرا»، فوظّفوا «أوستين» لخدمتهم، الذي بدوره ترجّى والدي أن يصحبه معه إلى القرية كخادم إضافيّ، تحت غطاء حجة لم أتوصّل لتذكرها، ولكن بغاية التجسس الماكرة لمعرفة ما يجري (كان الخادم المسؤول عن حجرة المؤونة في منزل «روكافيتشينيكوف»)؛ وقد كان «أوستين» المحيط علماً بكلّ الأمور، هو من قاد ببطولة مجموعةً من ممثليّ السوفييت المنتصرين، خلال شتاء ١٩١٧ ـ ١٨، نحو مكتب والدي في الطابق الثاني، ومن هناك، وعبر غرفة الموسيقى ومخدع والدتي، إلى الركن الجنوبيّ الشرقيّ حيث وُلدت، ثم إلى فتحة سريّة في الجدار، حيث وُضع تاج ملوّن ثمين جداً، يعادل بقيمته ما سبق أن التقطه لي مرة: فراشة «خطّاف الذيل».

حوالي الثامنة مساء، كانت الردهة تكتظّ بالقبّعات والجراميق. في غرفة اللجنة، بجانب المكتبة، وحول طاولة طويلة مغطّاة بالجوخ الأخضر (حيث وُضعت أقلام الرصاص المسنونة الجميلة تلك) كان والدي يجتمع مع زملائه لمناقشة بعض مراحل معارضتهم للقيصر. فوق كل الصخب، كانت دقّات ساعة «Westminster» القادمة من زاوية مظلمة، تُسمع عالياً؛ أما وراء غرفة اللجنة، فكانت تكمن الأعماق الغامضة ـ مخازن، درج لولبيّ، وغرفة المؤونة ـ حيث توقفت مرة لاستراحة مع ابن عمي «يوري»، مع مسدساتنا المعبّأة، في طريقنا نحو تكساس، وهناك أيضاً، وضعتْ شرطة القيصر مرة جاسوساً سميناً بعينيْن دامعتيْن، قد نخّ بكلّ ثقله على ركبتيْه أمام أمينة مكتبتنا «لودميلا بوريسوفنا غرينبرغ»، عندما كُشف أمره. ولكن بحق الجحيم! كيف كان يمكن لي أن أناقش كلّ هذه الأمور مع أساتذة مدرستي؟

٥

لم تتوقف الصحافة الرجعيّة عن مهاجمة حزب والدي، وكنت قد اعتدتُ على رؤية الرسوم المصوّرة المبتذلة إلى حدّ ما، والتي كانت تظهر من وقت لآخر ـ والدي و«مليوكوف»[1] يقدمان روسيا المقدسة على طبق ليهود العالم، ورسوم من هذا القبيل. ولكن ذات يوم، خلال شتاء ١٩١١ على ما أعتقد، استخدمتْ واحدة من أهمّ الصحف اليمينيّة صحافياً مجهولاً ليلفّق مقالاً يحمل تلميحات مؤذية، لم يستطع والدي التغاضي عنها. وبما أن كاتب المقال الحقيقي كان شهيراً بنذالته، وليس بالنزال («neduelesposobnïy» حسب التعبير الروسيّ)، فما كان من والدي إلاّ أن استدعى من يقلّ نذالة عنه بقليل، محرّر الجريدة التي ظهر فيها المقال.

كانت المبارزة الروسيّة، أمراً أكثر جدّية من المبارزات الباريسيّة التقليديّة. قضى المحرّر أيّام عدّة وهو يفكر إن كان سيقبل التحدّي أم لا. في آخر هذه الأيام، وكان يوم اثنين، كنت قد ذهبتُ كعادتي إلى المدرسة. نتيجة لعدم قراءتي للصحف، كنت جاهلاً لرمّة الأمر. انتبهت في بعض الأحيان خلال ذاك النهار، أنّ صحيفة مفتوحة عند صفحة معيّنة يتمّ تمريرها من يد ليد، مثيرةً أصوات ضحكات مكبوتة. بضربة دقيقة التوقيت، حصلت على نسخة اتّضح أنها الأخيرة من مجلّة أسبوعية رخيصة تحوي تقريراً ملوّناً عن نزال والدي، مع تعليقات غبيّة حول خيار الأسلحة الذي عرضه على خصمه. كما كُتبتْ تعليقاتٌ ساخرة حول لجوءِ والدي إلى الأعراف الاقطاعيّة القديمة التي كان قد أدانها في كتاباته الخاصّة. وكان هناك استفسار كبير حول عدد الخدم لديه وعدد بزّاته.

---

(١) بول مليوكوف: ١٨٥٩ ـ ١٩٤٣. مؤرخ روسي ويعتبر من أهم القادة الليبراليين.

اكتشفتُ أيضاً أنه قد اختار صهره «الأدميرال كولوميتسيف» كشاهد على المبارزة، وهو أحد أبطال الحرب اليابانيّة. خلال معركة «تسوشيما»، تمكّن عمّي هذا، الذي أصبح نقيباً فيما بعد، من إحضار طوربيده الحربيّ، وسفينة حربيّة محترقة، وإنقاذ قائد البحريّة.

عقب انتهاء دوامي المدرسي، تأكدّت أن المجلّة تخصّ أحد أصدقائي المفضّلين. اتّهمته بخيانة صداقتنا والاستهزاء بها. أثناء العراك الذي تلا، دفعت به وراء المقعد، فتهشّم مفصل قدمه، وانكسر كاحله. لزم سريره لشهر كامل، لكنّه تصرّف بنبالة وأخفى حقيقة ضلوعي بالأمر عن ذويه وأساتذتنا.

رؤيته محمولاً في الطابق السفليّ، قد ولّدت عندي غصّة سرعان ما فقدتها أمام البؤس الذي كان يغشاني. لسبب أو لآخر، لم تأتِ أية سيّارة لإعادتي إلى المنزل ذلك اليوم. وخلال المسافة الطويلة الباردة التي قطعتها ببكلّ بطء وكآبة فوق عربة ثلج قد استأجرتها، كان لديّ ما يكفي من الوقت للتفكّر في الأحداث التي جرت. عندها فقط فهمت، لمَ لمْ تقضِ أميّ معي كثير الوقت في اليوم السابق، ولم تتناول العشاء. أدركت أيضاً غاية التدريبات الخاصّة، التي كان «ثيرنانت»، الأكثر خبرة من «لوستالو» في مجال المبارزة، يعطيها لوالدي في الآونة الأخيرة. ما السلاح الذي اختاره خصمه، السؤال الذي بقي يشغلني ـ السيف أم المسدس؟ وهل تمّ الاختيار حقّاً؟ بكلّ عناية، استعرت صورتي المفضّلة لوالدي، المألوفة والممتلئة حيوية، أثناء قيامه بمبارزة، بالمعزل عن القناع واللباس الخاص، ونقلتها إلى أرض النزال، في حظيرة أو ربما مدرسة فروسيّة. تصوّرته وخصمه، عاريَيْ الصدر، مرتديَيْن سراويل سوداء، ينخرطان في معركة شرسة، يسددّ كل منهما للآخر طعنات غريبة وقويّة، يصعب على سيّاف متمرّس أن يتفاداها في مواجهة حقيقيّة. كانت الصورة منفّرة جدّاً، إذ كنت أسمع بقوّة الضخّ الجنونيّ لقلب يانع أعزل

على وشك أن يُثقب، وهذا ما كنت أرغب به في لحظة عراك بدت تجريديّة. ولكن ما إن زالت الصورة حتى وقعت في كرب أعمق بكثير.

بينما كانت العربة تنزلق على طول طريق جادة «نيفسكي»، حيث تطفو أضواء ضبابيّة على سطح الغسق المتكاثف، كنت أفكّر في الـ«براونينغ» الأسود الثقيل، الذي لطالما احتفظ به والدي في الدرج اليمينيّ العلويّ، لطاولة مكتبه. كنت أعرف هذا المسدّس جيّداً بقدر ما أعرف كل الأشياء الأخرى، الأكثر تميّزاً، والموجودة في مكتبته؛ القطع الفنيّة المصنوعة من الكريستال أو من الحجر المنحوت والتي كانت رائجة آنذاك؛ الصور العائليّة البرّاقة؛ لوحة «بيروجينو»[١] الكبيرة بإضاءتها اللطيفة؛ عبوات الزيوت الهولندية الصغيرة بلونها العسليّ الزاهي؛ وفوق المكتب، صورة والدتي بألوان الباستيل الورديّة والرماديّة، التي رسمها «باسكت»: رسم الفنّان ثلاث أرباع وجهها، مظهراً معالمه الدقيقة بشكل مبدع ـ شعرها الرماديّ المرفوع نحو قمّة رأسها (شاب شعرها منذ أن كانت في عشرينياتها) ـ الانحناء الحقيقي لجبهتها، زرقة عينيها النقيّة، وذاك الخط الجميل في عنقها.

عندما حثثتُ السائق الذي بدا كدمية بأسمال بالية كي يسرع، مال جانباً وقام بتحريك ساعده بشكل نصف دائريّ، موحياً لفرسه أنه سيقوم بضربها بالسوط القصير الذي يحمله في ساق الفردة اليمينيّة من حذائه اللبّادي، ما يكفي لجعل تلك الصغيرة الشعثاء تتظاهر بتسريع خطواتها كما تظاهر سيّدها برفع الـ«knoutichko» خاصته. خلال الهلوسات الناجمة عن الجولة الثلجيّة تلك التي لا يُكاد يُسمع لها صوت، قمت باستعراض كل المبارزات الروسيّة الشهيرة التي يعرفها جيداً فتىً مثلي. رأيت «بوشكين»، مصاباً بالطلقة الأولى القاتلة، يحاول النهوض ليفرغ مسدسه

(١) بيترو بيروجينو: ١٤٥٠ ـ ١٥٢٣. من أهمّ رسّامي عصر النهضة في إيطاليا.

في وجه «دانتيس d'Anthès»[(١)]. رأيت ابتسامة «ليرمونتوف» عند مواجهة «مارتينوف»[(٢)]. رأيت «سوبينوف»[(٣)] البدين مؤدّياً دور «الينسكي»[(٤)]، ينهار أرضاً ثم يرمي سلاحه ليحلق فوق الأوركسترا. لم يفت أي كاتب روسيّ، مهما كبرت شهرته أو صغرت، أن يصف مبارزة، مواجهة غير ودّية، تّدار دائماً بنمطها الكلاسيكيّ وبموافقة الطرفيْن (ليس كتلك التي تُعرض في الأفلام الكوميديّة والكرتونيّة «قفا ظهراً لظهر! تقدّما بعض خطوات! أطلقا»). وقعتْ في السنوات الأخيرة، وفيّات مأساويّة كثيرة فوق أرض المبارزة، بين عدّة عائلات مرموقة. ببطء، واصلتْ عربتي الحالمة طريقها نحو شارع «مورسكايا»، وببطء أيضاً، تقدّم خيالا المبارزيْن من بعضها، رفعا مسدّساتهما وأطلقا النار ـ عند أوّل خيوط الفجر، تحت الظلال الرطبة في العزبات القرويّة القديمة، داخل قاعدة تدريب عسكريّ نائية، أو تحت ثلج يهطل بلا توقّف بين صفّيْن من شجر التنوب.

وخلف كل ذلك، كان هنالك هاوية عاطفيّة خاصّة جداً، حاولتُ يائساً تفاديها، خشية انفجاري في زوبعة من الدموع، إنّها الصداقة الحنونة الكامنة وراء الاحترام الذي أكنّه لوالدي؛ سحر انسجامنا المثاليّ؛ مباريات «ويمبلدن» التي تابعناها سويّة في صحف «لندن»؛ مسائل الشطرنج التي حللناها؛ قصائد «بوشكين» العمبقيّة (الخماسية)

---

(١) جورج ـ شارل دو هيكرين دانتيس: ١٨١٢ ـ ١٨٩٥. سياسي وعسكريّ فرنسي وكان من رجالات القيصر. تحرّش بزوجة بوشكين مرات عدة مما دفع الأخير لطلب منازلة قد كلّفته حياته.

(٢) نيكولاي مارتينوف: ١٨١٥ ـ ١٨٧٥: ضابط في الجيش الروسي. أجهز خلال مبارزة على ميخائيل ليرمونتوف الشاعر الروسي.

(٣) ليونيد سوبينوف: ١٨٧٢ ـ ١٩٣٤. مغنّي أوبرا روسي شهير.

(٤) لينسكي: اسم شخصية البطل في مسرحية اوجيني.

التي كانت شفتاه تصدح بها بكلّ فخر كلّما ذكرتُ شاعراً حديث البروز؛ ما ميّز علاقتنا هو ذاك التبادل المعتاد للحماقات العائليّة، الكلمات الهزليّة المحرّفة، تقليد الأدوار المقترحة، وكل تلك النكات الخاصة التي تمثّل الشيفرة السريّة للعائلات السعيدة. مع كل ما سبق، كان صارماً فيما يخصّ مسائل السلوك ومتشدّداً في توجيه الملاحظات عند غضبه من طفل أو خادم، ولكنّ إنسانيته الأصيلة كانت أكبر من أن تسمح له بتوبيخ «أوسيب» بطريقة مهينة، حين أخطأ في تحضير القميص المناسب، كما لو أن معرفته لمعنى عزّة النفس التي تربّى عليها قد خففت من جلافة ردّة فعله ودفعته لمسامحة مفاجئة. وهكذا، كنتُ متفاجئاً أكثر من كوني مسروراً حين علمَ أني قد جرحت ساقي عمداً فوق الركبة بواسطة شفرة حلاقة (لا تزال الندبة ظاهرة) لأتجنّب تسميع درس في صفي لم أكن متحضّراً له، ومع ذلك لم يظهر لي أي غضب، لا بل قد كافأني على قول الحقيقة، باعترافه لي لاحقاً بأنّه قد قام بما يشبه فعلتي في زمن فتوّته.

تذكّرت عصر أحد أيام الصيف (الذي بدا لي حينها سحيق البعد رغم مضي أربع أو خمس سنوات فقط) حين اقتحم غرفتي، أمسك بشبكتي، ونزل درجات الشرفة مسرعاً، ثم عاد بعد قليل متهادياً، يمسك بين السبّابة والإبهام أنثى فراشة روسيّة نادرة «Poplar Admirable»، كان قد رآها من شرفة مكتبته تستحمّ بالشمس فوق ورقة شجرة حور. تذكّرت نزهاتنا الطويلة فوق الدرّاجات على طول طريق «لوغا» السريع الأملس، وطريقته الفعّالة ـ بطّة ساق مشدودة، سروال الغولف، معطف تويديّ، قبّعة ذات مربّعات ـ في امتطاء صهوة درّاجة «Dux» خاصّته، التي كان خادمه يقودها كما لو كانت حصان «بالفري»، كي يوصلها إليه أمام مدخل الرواق. ليتأكد من جودة جاهزيتها، كان والدي ينزع قفّازه المصنوع من جلد الظباء، ثم يتفحصّ تحت نظر «أوسيب» الحريص، ما

إذا كانت العجلات متينة بما يكفي. ثم كان يقبض على المقود، يضع قدمه اليسرى فوق إسفين معدنيّ عند الفرامل الخلفيّة، يضغط بقدمه اليمنى فوق الجهة الأخرى من الدوّاسة الخلفية، وبعد ثلاث أو أربع دفعات (مع درّاجة قد بدأت بالتحرّك) ينقل قدمه اليمنى بروّية لتأخذ وضعية الدوس، يرفع اليسرى، ويعتلي المقعد.

وصلت أخيراً إلى المنزل، وفور دخولي الردهة سمعت أصواتاً عالية ومبتهجة. ملاءَمةً مع الترتيبات التي أعددتها في حلمي، رأيت عمّي الأدميرال نازلاً نحو الطابق السفلي. ومن فوق السجادة الحمراء هناك، حيث تمثال رخاميّ لامرأة يونانيّة بلا أذرع يظهر فوق كأس من حجر المالاكيت مخصّص لبطاقات التعريف، كان والداي لا يزالان يتحدّثان إليه، وما إن وصل أسفل الدرج، نظر إلى الأعلى ضاحكاً، ثم ضرب الدرابزين بقفازه الذي حمله في يده. عرفتُ حالاً أنّه لن يكون هناك مبارزة، أن الخصم قد اعتذر عن المبارزة، وأن كلّ شيء على ما يُرام. أسرعت نحو عمّي وهبطت الدرج. رأيت وجه أمي الهادئ ككلّ يوم، لكني لم أستطع النظر إلى والدي. وعندها حدث ذلك: انفجر قلبي داخلي كما فعلت الموجة التي حملت طوربيد «Buynïy»، التي قادها ربّانها وأنقذها مع سفينة القائد «Suvorov» التي كانت تحترق، ولم أكن أحمل منديلاً حينها، ثمّ جاءت تلك الليلة بعد عشر سنوات، عندما كان هناك محاضرة عامّة في برلين عام ١٩٢٢، وقام والدي بحماية المحاضر («مليوكوف» صديقه القديم) من رصاصات روسييْن فاشييْن، وبينما كان بكلّ قوّته يطرح أحد المجرميْن أرضاً، تلّقى رصاصة قاتلة من الآخر. ولكن أحد من الواقفين فوق درج بيتنا المشعّ في «سانت بطرسبرغ» آنذاك، لم يكن ليتنبّأ بذلك المصير المستقبليّ؛ استراحت يده الضخمة والهادئة والتي لم تكن ترتجف فوق رأسي، وكثير من حلول مسائل الشطرنج الصعبة، كانت لا تزال في انتظارنا.



الكاتب عام ١٩١٥، «سانت بطرسبرغ».

الفصل العاشر

١

كانت مؤلّفات الكابتن «ماين رايد» (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)، المترجمة والمبسّطة، رائجة جداً بين أطفال روسيا في بداية هذا القرن، بعد أن كانت شهرته في أمريكا قد تلاشت منذ زمن طويل. إتقاني للغة الإنكليزيّة، جعلني أتلذذ بقصة «فارس بلا رأس» بنصّها الأصلي غير المختصر. صديقان قد تبادلا القبّعات، الملابس والمطيّات، فقُتل أحدهما خطأً ـ الجوهر الرئيسي لمؤامرة معقّدة. لا تزال نسختي (بريطانيّة ربما) بين ركام ذكرياتي كتاباً ضخماً تلفّه قطعة قماش حمراء، غلافه الخارجيّ رماديّ باهت، قد حُجب بريقه حين كان جديداً بنسيج ورقيّ خاص. يبدو هذا التغليف لي الآن بالياً ـ إنه أولاً مثنيّ بشكل غير صحيح، ومن ثمّ ممزق ـ ولكن صفحة الغلاف ذاتها، التي تحوي ومن دون شكّ صورة الأخ تعيس الحظ «لويس بوينتديكستر» (إضافة لصورة قيوط أو اثنين، ما لم يكن الأمر مختلطاً عليّ بين هذه القصة وبين «طلقة الموت»)، قد تعرّضت لحرائق في ذاكرتي، وها هي الآن بلا معالم (ولكنها، وبأعجوبة، قد استُبدلت بشيء حقيقيّ، كما لاحظت عند ترجمة هذا الفصل إلى الروسيّة خلال ربيع ١٩٥٣؛ ما أعنيه تحديداً، استُبدلت بإطلالة مزرعة المواشي التي استأجرناها، أنت وأنتِ، ذاك

العام: قفر ممتد حيث الصبّار واليوكا، وقد وصل عبره عند ذلك الصباح انتحاب طيور السمّان ـ سمّان «غمبل» على ما أعتقد ـ الذي غمرني بمكاسب ومكافآت لم أكن لأستحقّها).

سنقابل الآن نسيبي «يوري»، فتى هزيل ذا وجه شاحب، شعر قصير جداً يغطيّ رأسه المدوّر، وعينيْن رماديتيْن مضيئتيْن. كان يختلف عني في نواحي عديدة، فهو ابنٌ لوالدين مطلّقيْن، ليس لديه أستاذ خاص ليهتمّ به، يعيش في المدينة، ولا مسكن له في القرية. كان يقضي فصول الشتاء في «وارسو» مع والده البارون «إيفجيني روش فون تروبيربيغ»، حاكم المدينة العسكريّ، ويقضي فصول الصيف في «باتوفو» أو «فيرا»، إن لم يسافر مع والدته، عمّتي «نينا» غريبة الأطوار، إلى منتجعات وسط أوروبا المملّة، حيث كانت تذهب وحدها لنزهات مشي طويلة جداً، تاركة رعايته لمستخدَمي الفندق أو خادمات الغرف. في القرية، كان «يوري» يستيقظ متأخراً، ولم أكن أراه قبل عودتي لتناول الغداء، بعد مطاردةٍ للفراشات دامت لأربع أو خمس ساعات. في فتوّته المبكّرة، لم يعرف معنى الخوف، لكن حساسيته المفرطة من «التاريخ الطبيعيّ»، جعلته غير قادر على لمس الأشياء المتحرّكة، أو تحمّل الدغدغة الممتعة لضفدع يحاول الخروج من قبضة اليد، أو حتى المداعبة اللطيفة، المبهجة، لعثّة «caterpillar»، التي تتموّج بإيقاع أثناء تسلّقها للذقن. كانت لديه مجموعة من الجنود الملوّنين ـ لم يعنوا شيئاً بالنسبة لي ولكنّه كان يعرف عن بزّاتهم بقدر ما عرفت عن الفراشات. لم يلعب بالكرة مطلقاً، ولم يكن مؤهّلاً لرمي حجر، وكذلك السباحة، لكنّه لم يخبرني أبداً عن الأمر حين قمنا مرّة باجتياز النهر القريب من المنشرة قفزاً فوق قطع خشب الصَنوبر الطافية فوق الماء، إذ كاد أن يغرق حين بدأ أحد الجذوع بالانزلاق، ليغطس في الماء ويدور تحت قدميه.

في «فيسبادن»، حوالي عيد الميلاد عام ١٩٠٤، بدأ أحدنا يسترعي

انتباه الآخر (كان عمري خمس سنوات ونصفاً أما هو فسبعاً): أذكره خارجاً من متجر للهدايا التذكارية، راكضاً نحوي مع حلية صغيرة، مسدس فضّي صغير بطول إنش، كان حريصاً على أن يريني إياه ـ ارتمى فجأة فوق الرصيف ثم انتشل نفسه دون بكاء، متمسّكاً بسلاحه المصغّر غير منتبه لركبته التي كانت تنزف. في صيف عام ١٩٠٩ أو ربما ١٩١٠، أقحمني بحماس في مغامرات «ماين رايد» الدرامية. كان قد قرأها باللغة الروسيّة (كان روسيّاً أكثر مني في كل شيء ما خلا اسم عائلته)، وعندما كان يبحث بينها عن مؤامرة قابلة للتمثيل واللعب، كان ميّالاً للمزج بينها وبين قصص «فنيمور كوبر»[(١)] وبين اختراعاته المتوقّدة. كنت أتبّنى أدوارنا بتجرّد كبير وأحاول المحافظة على السيناريو. كانت المسرحية تُدار عادة في متنزّه «باتوفو»، حيث كانت المسارات المتعرّجة قابلة لنصب الأفخاخ، أكثر منها في «فيرا». لمطارداتنا المشتركة، استخدمنا مسدّسات رفّاسيّة، تُطلق، بشق الأنفس، قضيباً بطول قلم الرصاص (قمنا بتعليق قطع المطّاط الضاغط حول رأسه). تمتّ لاحقاً صناعة بنادق هوائية بأنماط عدّة، تطلق حبيبات شمعيّة أو أسهماً صغيرة عنقوديّة، غير مؤذية، ولكنّ غالباً ما تكون مؤلمة جداً. المسدس الرائع ذو الطلاء الصدفيّ الذي جاء به «يوري» عام ١٩١٢، انتزعه منه معلّمي «لينسكي» ووضعه في مكان مقفل، ولكن ليس قبل أن نحوّل غطاء صندوق الأحذية إلى أجزاء (تمهيداً لشيء حقيقيّ، الذرّة)، وكنّا قد تناوبنا على حمله حتى مسافة بعيدة من الطريق الأخضر المشجّر، حيث يُشاع أن مبارزة في الزمن الغابر قد دارت. كان في الصيف التالي مع والدته في سويسرا ـ بعد موته (عام ١٩١٩)، وخلال زيارة ثانية للفندق ذاته وإقامةٍ في الغرف ذاتها التي شغلها وأمه في يوليو ذاك، أقحمتْ الأخيرة يدها

(١) جايمس فنيمور كوبر: ١٧٨٩ ـ ١٨٥١ كاتب وروائي أمريكي.

في تجويفات الأريكة، بحثاً عن دبوس سقط من شعرها، فوجدت فارساً صغيراً جداً دون حصان، لكنّ ساقيْه المقوّستيْن كانتا لا تزالان تضغطان على مطيّة غير مرئيّة.

عنما وصل لزيارة أسبوع خلال يونيو ١٩١٤ (كان يبلغ ستة عشر عاماً ونصفا أما أنا فخمسة عشر، والفارق بين هذين السنّيْن ينطوي على الكثير) فإنّ أوّل ما فعله حين وجد أننا وحيديْن في الحديقة، هو أن تناول لفافة تبغ «عنبريّة»، أخرجها بلا مبالاة من علبة فضّية أنيقة، أراني فوق غطائها الداخليّ الذهبي «٣×٤=١٢»، الصيغة التي نُقشت في ذكرى قضائه ثلاث ليال، على الأقلّ، مع الكونتيسة «G». كان مغرماً حينها بزوجة شابّة لجنرال عجوز في «هلسنكي»، وبابنة نقيب في «غاتتشينا». شهدتُ بشيء من القنوط، على اكتشافاته الجديدة لأسلوب «رجل العالم» الذي بدأ يعيشه. «أين يمكنني إجراء بعض المكالمات الخاصّة» سأل. قدته إلى ما وراء شجرات الحور الخمس والبئر القديمة المعطّلة (انتشلَنا منه ثلاثُ بستانيين خائفين قبل عاميْن فقط) إلى دهليز في جناح الخدم حيث يصل هديل الحمام من عتبة نافذة مفتوحة، وحيث، عُلق فوق جدار قد دبغته الشمس، أبعد وأقدم هاتف بين هواتف بيوت قريتنا، تلك الآلة التي تشبه الصندوق الضخم، تدار ذراعها الجانبية لتصدر صوتاً ضعيفاً لعامل المقسم. أصبح «يوري» آنذاك اجتماعياً ومسترخياً أكثر من حصان «موستانج» بريّ الذي كانه سابقاً. كان يجلس إلى طاولة خشبية مواجهة للحائط، يدلي ساقيْه الطويلتيْن، ويثرثر مع الخدم (الأمر الذي لا يُفترض بي القيام به، حتى أني لا أعرف كيفيته) ـ مع خادم عجوز ذي سوالف لم يسبق لي أن رأيته يضحك، أو مع خادمات المطبخ اللعوبات اللواتَي لم ألحظ أعناقهنّ العارية وعيونهن الجريئة، إلاّ حينها. بعد أن اختتم «يوري» حديثه الثالث الطويل جداً (انتبهت يائساً إلى لجهته الفرنسية الشنيعة) مشيْنا نحو بقالية القرية التي لم أحلم بزيارته قبل ذلك،

ناهيك عن شراء رطلاً من بذور دوار الشمس المخطّطة بالأسود والأبيض. خلال عودتنا المتمهّلة إلى المنزل، بين فراشات تتحضّر لمبيتها آخر العصر، كنّا نقزقز البذور ثم نبصق، وقد علّمني الطريقة المثاليّة لفعل ذلك: نضع الحبة تحت الجهة اليمينيّة للسنّ الخلفي، ثم نضغط لنفلقها، نبصق القشور، ننقل بطرف اللسان البذرة الملساء إلى الضرس الخلفي، ثم نقضمها هناك بينما، في الوقت ذاته، تُفلق الحبّة التالية عند الجهة اليمينيّة، للتحضّر بدورها لعملية جديدة. في حديث له عن الحقوق، اعترف أنه كان مناصراً شديداً للملكيّة (بطبيعتها الشاعريّة وليس السياسيّة) واستمرّ في استنكار ديمقراطيتي المزعومة (والنظريّة). تلا نماذج من مجموعته الشعريّة البليغة، وذكر بكلّ فخر أن الشاعر العصريّ «ديلانوف تومسكي» (الذي يفضّل الاقتباسات الإيطاليّة والعناوين المفصّلة مثل» أغنية الحب الضائع»، «جرار الليل»، وهكذا) قد أثنى على قصيدته الطويلة جداً «vnemlyu múze ya» («أنا أسمع وحي الشعر») و«lyubvi kontúziya» («كدمة الحب»)، والتي رددتُ عليها بأفضل قصائدي (لم تُستخدم حتى اليوم): «zápoved» («الوصايا»)، و«posápïvat» («العطاس»). كان مستعر الغضب جرّاء نبذ «تولستوي» لفنون الحرب، بينما فاض إعجاباً بشخصية «الأمير أندريه بولكونسكي» ـ كان لتوّه قد اكتشف رواية «الحرب والسلام» والتي قرأتها أنا في الحادية عشرة من عمري (في «برلين»، في شارع «بريفاتستراس»، فوق أريكة تركيّة، في شقة مزيّنة بأسلوب الروكوروكو الكئيب، مفتوحة على حديقة مظلمة ورطبة، تملؤها شجيرات «الأرزيّة» والتماثيل الصغيرة، والتي بقيت محفوظة في ذاك الكتاب، كبطاقة بريديّة قديمة، للأبد).

رأيت نفسي فجأة في زيّ ضابط متدرّب: كنا نتمّشى ببطء عائدَين نحو القرية، عام ١٩١٦، وقد قمنا (كما فعل «موريس جيرارلد» والفاشل «هنري بوينتديكستر») بمبادلة ملابسنا ـ ارتدى «يوري» قميصي الأبيض

وربطة عنقي المخطّطة. خلال أسبوعه القصير الذي قضاه معنا ذاك الصيف، ابتدعنا تسلية استثنائيّة لم أرَ مثيلاً لها في أي مكان آخر. في أدنى حديقتنا، كان هنالك أرجوحة وسط ملعب دائريّ صغير تحيط به شجرات الياسمين. قمنا بتعديل حبال الأرجوحة بحيث يمرّ لوحها فوق جبين وأنف شخص مستلق على ظهره فوق التراب، بفارق بضع إنشات فقط. يبدأ أحدنا بالعرض فيقف فوق اللوح ويدفع الأرجوحة نحو سرعة متزايدة؛ يضع الآخر مؤخرة رأسه فوق نقطة محدّدة، ثم تنزل الأرجوحة من علوّها الذي يبدو هائلاً، لتلامس برشاقة وسرعة وجه المستلقي. بعد ثلاث سنوات، كضابط سلاح الفرسان في جيش «دينيكن»، قُتل خلال معركة مع «الجيش الأحمر» في شمال شبه جزيرة القرم. رأيته ميتاً في «يالطا»، تهشّمت واجهة جمجمته بالكامل بفعل عدّة طلقات، وكأنها لوح معدنيّ لأرجوحة عملاقة، وذلك أثناء تجاوزه لكتيبته، ليهاجم وحده متهوراً، وكر مجموعة مدجّجة من الجيش الأحمر. وهكذا أخمد عطش حياته الدائم لقيادة المعارك الباسلة، لحبّه الأقصى للفروسية الشجاعة، رافعاً مسدسه أو مستلاً سيفه. لو كنت كفؤاً لنقش كلمة فوق ضريحه، لكنت اختصرت أمور عدّة بقولي ـ بكلمات أفخم من تلك التي أحشرها هنا ـ إن كل المشاعر وكل الأفكار التي هيمنت على «يوري» كانت بفضل هبة واحدة: إحساس بالشرف يوازي، معنوياً، تأرجحاً مطلقاً.

٢

أَعدتُ مؤخراً قراءة «فارس بلا رأس» (نسخة مملة وبلا صور). لنأخذ على سبيل المثال تلك الحانة ذات الجدران الخشبيّة في «تكساس»، في «سنة ربنا» (كما كان الكابتن يقول) ١٨٥٠، مع «موظّف الخمّارة»

بقميصه ذي الأردان ـ غُندور مثله يستحقّ تلك الوظيفة، بما أن كشاكش قميصه كانت من «أفخم أنواع الكتّان والدانتيل». وراء كتفيه، كانت دنان الخمر الزجاجيّة الملوّنة (وُضعت بينها ساعة هولندية تتكّ بانتظام) تلمع وكأنها قوس قزح، «كهالة تحيط برأسه المعطّر». من كأس لآخر، يمرّز الثلج والنبيذ وويسكي «مونونغاهيلا». ويعبق المكان برائحة المسك، الإفسنتين، وقشر الليمون. «تتنخّم» مصابيح الكامفين فينشر وهجها ظلال نجوم مغبّشة فوق رمل الأرضيّة الأبيض. في عام آخر من أعوام ربنا ـ تحديداً ـ ١٩٤١، التقطتُ عثّات جيّدة جداً، تحت أضواء النيّون في محطة وقود، بين «دالاس» و«فورت وورث».

يدخل إلى البار الشرير «جالد العبيد المسيسيبيّ»، الزعيم السابق لفرقة متطوّعين، الأنيق، المتجهّم والمتبجّح، «كاسيوس كالهون». وبعد رفع نخب «أمريكا للأمريكيين، وإرباك كل الأجانب المتطفّلين ـ خاصة م ـ م الإيرلنديّ [وقد اجتاحتني الحيرة في البداية عند تخمين معنى الحروف: هل هو ميت؟ مكروه؟]!»، ارتطم عمداً بـ«موريس» فارس الـ«موستانغ» (وشاح قرمزيّ، سروال مخمليّ مشقّق، دم إيرلندي حامي) تاجر أحصنة شاب، وكان باروناً حقيقيّاً، السيد «موريس جيرارلد»، كما اكتشفت عروسه الفاتنة في نهاية الكتاب. مواقف تشويقية خاطئة كتلك، قد تكون من بين الأسباب التي أدّت إلى خبو شهرة الكاتب الإيرلنديّ الأصل، في البلد الذي احتضنه.

مباشرة بعد التصادم، قام «موريس» بعدّة حركات بالترتيب التالي: وضع كأسه فوق المنضدة، سحب منديلاً حريريّاً من جيبه، مسح عن صدارة قميصه المطرّز «دنس الويسكي»، نقل المنديل من يده اليمنى إلى اليسرى، أمسك بكأسه نصف الممتلئ، رشق ما تبقى من محتواه في وجه «كالهون»، وأعاد الكأس بكلّ هدوء فوق المنضدة. حفظت هذا

التسلسل عن ظهر قلب، كما قمنا أنا ونسيبي بإعادة تمثيله في كثير من الأحيان.

جرت المبارزة مباشرة في غرفة البار التي فرغت، وقد استخدم الرجلان مسدسات «كولت ستة». بغضّ النظر عن اهتمامي بالعراك (... كلاهما قد جُرح.. وجرت دماؤهما فوق الأرضيّة الرمليّة....) إلاّ أنّني لم أستطع منع نفسي من مغادرة الصالون في مخيّلتي، لأنضمّ إلى الحشد الصامت المنتظر أمام الفندق، حيث اكتشفت، في الظلام العطر، وجود سيّدات «señoritas» ذوات «مهنة مشبوهة».

قرأت عن «لويس بوينتديكستر» بمزيد من الحماس، ابنة عمّ «كالهون»، ابنه مزارع سُكّر، «الأعلى مقاماً والأكثر تعجرفاً بين المزارعين» (لَم كان على مزارع سُكّر أن يكون رفيع المستوى ومتعجرفاً، كان ذلك لغزاً بالنسبة لي). في خضّم نوبات الغيرة (خبرتُ الغيرة خلال عدّة حفلات بائسة، حين كانت «مارا رزيفوسكي»، طفلة هزيلة تربط شعرها الأسود بأنشوطة بيضاء حريريّة، تتجاهلني فجأة ولأسباب غير مفهومة) كانت «لويس» تقف على حافّة شرفتها، ترخي يدها فوق الدرابزين الحجريّ الذي «لا يزال مرطّباً بندى الليل»، تتنفّس باهتياج وسرعة، فينخفض ثدياها التوأمان ثم يعلوان منتفخيْن، دعوني أعيد القراءة، ثدياها التوأمان، ينخفضان ويعلوان منتفخيْن، ثم توّجه ناظورها....

بعد ذلك، وجدت ذلك الناظور في يد «مدام بوفاري»، ثمّ حصلتْ عليه «آنّا كارنينا»، ثم انتقلتْ ملكيته إلى سيدة «تشيخوف» صاحبة الكلب الصغير، لكنّها أضاعته فوق رصيف ميناء «يالطا». عندما حملتْه «لويس»، وجهتْه صوب ظلال شجر المسكيت (خرنوب المعزى) المرقّطة، حيث كانَ فارسها يخوض اجتماعاً غير بريء مع ابنة ضابط ثريّ، الدونا «إيزيدورا كوفاريبيو دو لوس لانوس» (التي «ينافس شعرُ رأسها في زخرفته ذيلَ فرس برّية»).

«لقد أتيحت لي الفرصة»، أوضح «موريس» لـ«لويس» وكأنه يتحدث من فارس لفارس، «كي أكون مفيداً لـ«دونا إيزادورا»، «حين أنقذتها مرّة من بعض الهنود الأشرار». «يمكن تسميتها خدمة بسيطة»! هتف الشاب الكريوليّ. «رجل قدّم لي معروفاً كهذا» ـ «كيف يمكنني مكافأته؟» سأل «موريس» بحماس. «بحق الرب! لا بدّ أن أحبّه!» «أودّ أن أدفع نصف عمري كي أراكِ بين أيدي رجال «القط المتوحّش Wild Cat» السكّيرين، ثم أدفع النصف الاخر لإنقاذك».

وهنا تظهر فروسية الكاتب حين كشف عن اعتراف غريب: «أجمل قبلة قد حصلت عليها في حياتي، من امرأة ـ كائن فاتن في ميدان المطاردة ـ قد مالت فوق سرجها لتقبلني بينما كنت جالساً فوق سرجي».

لنعترف بالأمر، يتطلّب إشباع القبلة أمداً وشكلاً وهذا ما قد حصل عليه الـ«كابتن»، لكني لطالما أحسست، حتى عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، أن ممارسة الحب القنطوريّ[1]، لا بدّ محدودة بقيود خاصّة. علاوة على ذلك، كنّا قد علمنا أنا و«يوري» بأمر فتىً كان له نفس التجربة، لكنّ حصان الفتاة قد دفعه نحو خندق. بعد أن أنهكتنا مغامرات الأحراش، تمدّدنا فوق العشب وناقشنا أمور النساء. بالنظر إلى اعترافاتنا الجنسيّة المختلفة (الموجودة في كتب «هافلوك إيليس»[2] وغيرها) أرى أن براءتنا كانت شنيعة، يتزاوج فيها صغار مهووسون بالجنس. لم نكن نعرف شيئاً عن الجنس في الأحياء الفقيرة. إن حدث وسمعنا عن فتييْن قد مارسا بغباء الاستمناء أمام بعضهما البعض (ما تصفه الروايات الأمريكيّة الحديثة بكلّ عذوبة وبتفصيل لكلّ الروائح

(١) القنطور: كائن خرافي نصفه حصان والنصف الآخر إنسان.

(٢) هافلوك إيليس: ١٨٥٩ ـ ١٩٣٩. طبيب بريطاني وأحد علماء النفس الذين درسوا الجنس، وهو أيضا كاتب، ومصلح اجتماعي.

المنبثقة) فإن مجرّد فكرة كهذه كانت تبدو لنا مضحكة ومستحيلة كالنوم مع مسخ عديم الأطراف. الملكة «غوينيفر» كانت هي مثالنا الأعلى، إيزولد، سيّدة حسناء قليلة الرحمة، زوجة رجل آخر، فخورة ومطيعة، أنيقة وسريعة، مع كاحليْن ناعميْن وأيدٍ نحيلة. كنا نرى انعكاس كل السحر والحلاوة ونجمات شجر الميلاد، في بريق عيون الفتيات الصغيرات ذوات النهود والجوارب الأنيقة، اللواتي كنّا وبقية الصبية نلتقيهنّ في دروس الرقص أو في حفلات الميلاد، واللواتي كنّ يغظننا، يبادلننا النظرات، يشاركن بشكل ممتع في أحلامنا الاحتفاليّة الغامضة، ولكن تلك الحوريات كنّ ينتمين إلى فئة من المخلوقات تختلف عن المراهقات الجميلات المغريات، ذوات القبّعات العريضة، اللواتي كنّا نتوق إليهن. بعد أن جعلني أوقّع على قسم السرّية بدمي، أخبرني «يوري» عن السيّدة المتزوّجة في «وارسو» التي أغرم بها سرّاً حين كان في الثانية أو الثالثة عشر من عمره، ثم بعد عاميْن، مارس معها الحبّ. خوفاً من أن أبدو بالمقارنة معه ساذجاً، لم أخبره عن رفيقات الشاطئ اللواتي كنت ألعب معهن، لكنّي لا أذكر القصص التي اخترعتها مواكبة مع قصصه الشاعريّة. غير أن مغامرة عاطفيّة حقيقيّة قد اعترضت طريقي خلال تلك الفترة، سأقوم الآن بأمر صعب للغاية، ما يشبه الشقلبة المزدوجة مع «اهتزاز ويلزيّ» (بهلواني قديم سيفهم ما أعنيه)، وأطلب منكم الصمت التام، لو سمحتم.

٣

خلال آب ١٩١٠، كنت وأخي في «باد كيسينغن» مع ذوينا ومعلّمنا «لينسكي»؛ سافر بعد ذلك والدي مع والدتي إلى «ميونخ وباريس»، ثم عادا إلى «سانت بطرسبرغ»، ومنها إلى «برلين»، حيث كنّا نحن الصبية،

خلال قضائنا للخريف وبداية الصيف مع معلّمنا «لينسكي»، قد أنهينا إصلاح أسناننا. طبيب أسنان أمريكيّ ـ ربما «لووير» أو «لووين» لم أعد أذكر اسمه تماماً ـ قلع بعض أسناننا ودعم بعضها الآخر بخيوط قبل أن يشوّهنا بالأقواس. وهذا ما بدا لي أكثر فظاعة من الألم الساخن الذي أقحمته مضخة كاوتشوك على شكل إجاصة، داخل تجويفات محشيّة بالقطن ـ لم أستطع تحمّل صريرها ولا احتكاكها الجاف ـ الذي كان يُستخدم عادة للفصل بين اللسان واللثة كيّ يسهّل عمل الطبيب؛ وهناك، فوق اللوح الزجاجي الشفّاف الموضوع أمام عيوني العاجزة، كنت أرى مشاهد بحريّة موحشة أو عرائش كئيبة، تهتزّ مع أصداء ترام يسير بعيداً تحت سماء غائمة. «إين دين زيلتن آختزين أ، In den Zelten achtzehn A» يتراقص هذا العنوان أمامي كتفاعيل بيت شعر، يتبعه فوراً هدير خفيف لسيّارة أجرة إلكترونيّة قشديّة اللون قد أوصلتنا هناك. كنّا ننتظر كل ما يمكن من تعويضات تكفيراً عن تلك الأصباح المروّعة. أحبَ أخي صالة عرض متحف الشمع في جادة «أونتر دين ليندن» ـ جنود «فريديريك»، «بونابارت» يناقش مومياء، «ليست»[١] الشاب، الذي ألّف مقطوعته الملحميّة أثناء نومه، و«مارا»[٢] الذي مات في حوض استحمام؛ ما كان مهمّاً بالنسبة لي (أنا الذي كنت أجهل أنّ «مارا» كان مهتماً بالحرشفيّات) وجود متجر «غوبر»، عند زاوية المعرض وهو شهير ببيع الفراشات، بضع درجات توصل إلى جنّته الكافوريّة، تلك الدرجات الضيّقة التي كنت أتسلّقها كل يومين لأستفسر ما إن كانت قد وصلت طلبيتي: النوع الصغير اللؤلؤي الجديد لفراشة «Chapman»، أو فراشة «Mann» التي اكتُشفت مؤخراً. حاولنا لعب التنس في ملعب عام؛ ولكن عاصفة شتوية

(١) فرانز ليست: ١٨١١ ـ ١٨٨٦. موسيقيّ ألماني.

(٢) جان بول مارا: ١٧٤٣ ـ ١٧٩٣. أحد أهم مفكري وقادة الثورة الفرنسية.

استمرّت في مطاردة الأوراق المتساقطة هناك، إضافة إلى أنّ «لينسكي»، الذي بقي مرتدياً معطفه، لم يلعب بشكل جيد رغم إصراره على الانضمام إلينا في لعبة ثلاثيّة غير متوازنة. وبعد ذلك، كنّا نقضي معظم أوقات بعد الظهر في حلبة تزلّج جليديّة في «كورفورستيندام». أذكر كيف كاد «لينسكي» أن يعانق العمود بعد أن وقع متدحرجاً نحوه، مصدراً قعقعة مريعة؛ واظب لدقيقة على التزلج حتى وصل عند تلك المنصّات التي تحيط بالحاجز المصنوع من الـ«بيلوش»، حيث جلس والتهم ثلاث قطع من تورتة الموكا قليلة الملوحة، مع القشدة المخفوقة، بينما استمريّت وحدي في تجاوز المسكين «سيرجي» الذي كان يتزلّج ببسالة رغم تعثّره، في واحدة من تلك الصور المزعجة التي لا تنفك تدور في الذاكرة. فرقة موسيقيّة عسكريّة (كانت ألمانيا آنذاك أرض الموسيقى) بقيادة استثنائيّة لرئيس أوركسترا متشنّج، عزفتْ كلّ عشر دقائق تقريباً، ولكنها بالكاد أخفتْ الدويّ الكاسح والمتواصل، لعجلات أحذية التزلّج.

كان يتواجد في روسيا، وحتى الآن بلا شك، نمط خاص من الفتية في سنّ الدراسة، ليس بالضرورة أن يمتلك أحدهم مظهراً رياضياً أو قدرة ذهنية بارزة، حتى أنه لا يُظهر أيّ تفاعل حيويّ في الصف، وهزيل لدرجة قد تظن أنه مصاب بسلّ خفيف، ولكنّه يتفوّق بشكل هائل في كرة القدم أو الشطرنج، وينعم بملكة سرعة التعلّم لأي نوع من أنواع الرياضة أو كلّ ما يتطلّب مهارة («بوريا شيك»، «كوستيا بوكوتوف»، الأخوان «شارابانوف» الشهيران ـ زملاء فريقي ومنافسيّ، أين هم الآن؟). كنت متزلجاً بارعاً فوق الجليد، وبالنسبة لي، فإن التحوّل إلى أحذية التزلّج كان بسهولة تبديل رجل لشفرة حلاقته العادية بأخرى أكثر أماناً. تعلّمت بسرعة كبيرة حركتيْن صعبتيْن فوق أرضيّة الحلبة الخشبية، وأتقنتهما بكلّ رشاقة ومهارة، لم يحصل أن أظهرتها في أيّة صالة رقص (نحن، «شيك» و«بوكوتوف» رديئون بالرقص كما هو معروف). كان

العديد من مدرّبي الرقص يرتدون بزّات قرمزيّة، نصفها يشبه لباس جنديّ والنصف الآخر خادم فندق. يتكلم جميعهم الإنكليزيّة، بجودة متفاوتة. بين الروّاد المنتظمين، سرعان ما لاحظت وجود مجموعة من الشابات الأمريكيّات. بدايةً، اتحدّن جميعهن لأداء دوران مشترك، في غاية الروعة والإشراق. بدأ تمايزي بالظهور عندما، خلال واحدة من رقصاتي المنفردة (وقبل لحظات من قيامي بأكثر حركة فاشلة على الإطلاق فوق حلبة) سمعت أحدهم يتكلّم عني وأنا على وشك الالتفاف، وإذ بصوت فتاة رنّان ورائع يجيب: «أجل، أليس رائعاً؟».

مازال بإمكاني رؤية خيالها الطويل بلباسها الكحلي، وقبّعة مخمليّة زرقاء مثبّتة بدبوس خلّاب. لأسباب واضحة، قرّرتُ أن اسمها هو «لويس». خلال الليل، كنت أستيقظ وأتخيّل كل أشكال الأوضاع العاطفيّة، وأفكّر في خصرها النحيل وعنقها الأبيض، وكان يقلقني انزعاج غريب لم أعرفه مسبقاً إلا عند ارتداء سراويل مسبّبة للحكّة. بعد ظهر أحد الأيام، رأيتها واقفة في بهو الحلبة، وكان أكثر المدرّبين أناقة، من نمط «كالهون» الخسيس، يمسكها من معصمها ويستنطقها بابتسامة خبيثة، وكانت تنظر بعيداً محاولة إفلات معصمها من قبضته بطريقة طفوليّة، وفي الليلة التالية، أُطلق عليه الرصاص، جُرّ بحبل، دُفن حيّاً، أُطلق عليه الرصاص من جديد، خُنق، أُهين بشدّة، استهدف، ثم أُخلي سبيله، ليَجر وراءه عمراً من العار.

«لينسكي» المتواضع ذو المبادئ العالية، والذي كان لأول مرّة مسافراً خارج البلد، واجه بعض الصعوبات في خلق توازن بين مسّرات اكتشافه لمعالم المدينة، وبين قيامه بواجباته التربويّة. اغتنمنا حاله ذاك وقدناه نحو الأماكن التي لم يكن والدانا ليسمحان لنا بزيارتها. على سبيل المثال، لم يستطع مقاومة مسرح «الحديقة الشتويّة»، وهكذا وجدنا أنفسنا ذات ليلة هناك، نشرب الشوكولا المثلجة في مقصورة أوركسترا.

أخذ العرض مساره المعتاد: بهلوانيّ في ملابسه المسائيّة؛ ثم امرأة، مع مجوهرات تلمع فوق صدرها، يرتعش صوتها في غناء احتفاليّ، تحت تناوب ومضات إضاءة حمراء وأخرى خضراء؛ ثم وصل كوميديّ فوق عجلات تزلج. بينه وبين وصلة الدراجة (سنتكلّم عنها لاحقاً) كان هناك عرض يسمى «فتيات غالا»، وبصدمة مؤذية ومخزية، كتلك التي خبرتها عند رقصتي المنفردة فوق الحلبة، تعرّفت على الآنسات الأمريكيات الصاخبات قليلات الحياء، وقد تلاحمن وبدأن بالتماوج من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، مع رفعهن الإيقاعي لسيقانهن العشر المتطابقات، بألوان كشاكشها العشر. أبصرت وجه «لويس» ـ وعرفت فوراً أنّ كل شيء قد انتهى، وأني قد خسرتها، وأني لن أغفر لها أبداً غناءها بصوت عالٍ، وأحمر شفاهها، وتنكّرها بتلك الطريقة السخيفة، التي لا سحر فيها، خلافاً لل «الكريوليّات الفاتنات» أو «السيدات ذوات المهنة المشبوهة». من المؤكّد أني لم أكن أستطيع إقصاءها عن فكري، ولكن يبدو أن تلك الصدمة قد ولّدت عندي عملية تحريضيّة، جعلتني ألاحظ أن أي استحضار لشكل أنثويّ، فإنه يكون مصحوباً بنفس الإزعاج المحيّر والذي أصبح مألوفاً. سألتُ عنه والديّ (كانا قد وصلا إلى برلين ليطمئنا عن حالنا) طوى والدي الجريدة الألمانيّة التي كان قد فتحها لتوّه وأجابني بالإنكليزيّة (مع اقتباس ساخر ـ طريقته التي اعتادها عندما يريد إغلاق حديث): «يا ولدي، إنها مجرّد تركيبة طبيعيّة غريبة، مثل احمرار الوجه الذي يرافق الخجل، أو احمرار العنينيْن الذي يرافق الحزن»، «تولستوي يموت» أضاف بصوت مغاير ومفاجئ، ملتفتاً إلى أمي.

«Da chto ti [بمعنى «فليرأف الرب به»]»! هتفت بحزن، ضاربة كفّيْها فوقَ حضنها. «Pora domoy [حان وقت العودة للمنزل]»، ختمت حديثها، كما لو أنّ موت «تولستوي» نذير كارثة محتملة.

٤

يأتي الآن دور الحديث عن وصلة الدرّاجة ـ من وجهة نظري على الأقل. في الصيف التالي، لم يزرنا «يوري» في فيرا، وكنت قد تُركت وحيداً في مواجهة فورتي الجنسيّة. في الأيام الممطرة، كنت أقرفص تحت رفّ صغير للكتب، مع إضاءة باهتة تفعل كلّ ما في وسعها لتقف حائلاً بيني وبين بحثي السريّ، عن مصطلحات غامضة، مستفزّة بطريقة غير مفهومة، داخل النسخة الروسية المؤلفة من اثنيْن وثمانين مجلّداً، لموسوعة «بورخوس»، حيث، من أجل توفير مساحة، تُكتب الكلمة الدالة على موضوع معيّن بشكل مختصر، أي بحروفها الأساسيّة الأولى، عند بدء كل مناقشة تفسيريّة. وهكذا فإن الأعمدة ذات النمط المتوسط كثيف الطباعة، فضلاً عن أنها تستنزف جهد القارئ، إلاّ أنّها تعطي الكلمات المتنكّرة سحراً مضلّلاً، بحيث تبدو الكلمة المختصرة مهما كانت مألوفة، وكأنها تلعب الغميضة مع عيون الباحث الشرهة: «حاول موسى ردع P لكنّه لم يفلح...في العصور الحديثة ازدهرت أعمال P المضياف في النمسا تحت رعاية «ماريا تيريزا»... من عدة أماكن في ألمانيا ذهبت أرباح P لصالح رجال الدين... في روسيا تم الإعفاء رسميا عن P بعد عام ١٨٤٣... بعد أن أغواها سيّدها في العاشرة أو الثانية عشر من عمرها، ربما أبناء ذاك الأخير أو ربما أحد رجاله، فإن تلك اليتيمة فد انتهى أمرها في P وهكذا دواليك، كانت عبارات تثري الغموض، أو بالأحرى تنطوي على تلميحات لحبّ ماجن، كنت قد قرأتها أثناء انغماسي الأوّل في كتب «تشيخوف» أو «أندرييف». شغلت مطاردة الفراشات ساعات نهاري إضافة إلى رياضات مختلفة، ولكن لم يتمكّن أي تمرين من تخفيف هياجي، الذي كان كل ليلة، يأخذني نحو عوالم الاستكشافات الغامضة. بعد ركوب الخيل في معظم فترات ما بعد

الظهر، كان ركوب الدرّاجة تحت ألوان الغسق، يمنحني شعوراً بالعذوبة المبهمة. وقفت رأساً على عقب ضاغطاً فوق مقود دراجة «انفيلد» خاصتي، لينخفض ويصير تحت مستوى مقعدها، محوّلا إياها إلى ما هو، بمفهومي الخاص، نموذج للسباق. قدتها على طول مسارات المتنزّه، متتبّعاً الآثار التي تركتْها عجلات «دانلوب» في اليوم الفائت؛ كنت أتجنّب بمهارة جذور الأشجار الناتئة؛ أختار الغصيْن المتساقط وأكسره بعجلتي الأماميّة المرنة؛ أتعرّج بين ورقتيْن مسطّحتيْن، ثم بين حجر صغير والحفرة التي أزيح منها في اليوم السابق؛ أستمتع بالسلاسة الوجيزة لعبور جسر فوق جدول؛ أطوف حول السلك الكهربائي المحيط بسياج ملعب التنس؛ أدفع البوابة البيضاء الصغيرة في نهاية المتنزّه لأفتحها؛ عندئذٍ، وبنشوة كئيبة من الحرّية، أزيد سرعتي فوق الحواف التي جفّت تربتها، مبتهجاً بقيادتي على طول طرقات القرية الطويلة.

في ذاك الصيف، لم يفتني المرور بكوخ خاص، كان يبدو ذهبياً تحت شمس منخفضة، وعند عتبته، كانت «بولينسكا»، فتاة من عمري وهي ابنة رئيس الخدم «زاهار»، قد وقفت متّكئة على عضادة الباب، تكتّف ذراعاها فوق صدرها، بطريقة ناعمة ومريحة خاصّة بريفيي روسيا. أشرق الترحيب على محياها ما إن لمحتني أقترب، ولكن عندما اقتربتُ، تقلّص إشراقها ليصبح نصف ابتسامة، ثم إضاءة باهتة عند زوايا شفتيْها المزمومتيْن، وفي النهاية، حتى هذه قد خبثْ، إلى أن أصبح وجهها الجميل والمدوّر خالٍ من التعبير في لحظة وصولي إليها. ما إن عبرتُها، ورميت نظرة خاطفة إلى الوراء قبل الانطلاق صعوداً فوق تلّة، عادت الغمّازة لتظهر فوق وجنتها، وعاد ذاك البريق الحيويّ ليلعب فوق معالمها المحبوبة. لم أتحدث إليها مطلقاً، ولكن بعد توقفي لفترة طويلة عن ركوب الدراجة عند ذلك التوقيت، أتيح لعلاقتنا العينيّة أن تتجدّد من وقت لآخر على مدار صيفيْن أو ثلاث. كانت تظهر فجأة، ودائماً تقف

بعيدة إلى حدّ ما، دائماً حافية القدمين، تفرك مشط رجلها اليساريّ بربلتها اليمنى، أو تحكّ بإصبعها الرابع مفرق شعرها البنيّ الفاتح، ودائماً تتكئ على شيء ما: على باب الاسطبل بينما يتمّ سرج حصاني أمام جذع شجرة، حيث تجمّع كل خدم القرية في صباح أحد أيام سبتمبر الغائمة، لتوديعنا قبل الرحيل إلى المدينة، حيث سنقضي شتاءنا. كان صدرها في كل مرة يبدو أنعم من ذي قبل، وساعداها أقوى بقليل، ولقد لحظت لمرّة أو مرتيْن، قبل أن تختفي عن ناظري، بريق السخرية اللطيفة يلمع في لون البندق الذي يتوسّط عينيها الواسعتيْن (تزوّجت في عامها السادس عشر من حدّاد في قرية بعيدة). من الغريب أن أقول، إنها من خلال الابتسامة التي لم تمنحها، كانت أوّل من استحوذني بسطوة مؤثّرة، قد ألهبت حفرة في نومي وهزّت وعيي النديّ والدبق، في كلّ مرة حلمت بها. رغم أنني في الحياة الواقعية كنت أخشى اشمئزازي من قذارة قدمها المتشققة، ورائحة ملابسها العفنة، أكثر من خشيتي إيذائها بالتحرّش الجنسي المبتذل والبائد، الذي كان يمارسه الأسياد مع خدمهم.

٥

لها هيئتان حيويتان على نحو خاص، أودّ أن أقدّمهما معاً في ختام مطاردتي لصورتها. عاشت الأولى داخلي لفترة طويلة، منفصلة كل الانفصال عن «بولنسكا» الخاصة بالعتبات وغروب الشمس، كما لو أني لمحت حورية تجسّد جمالها المثير للشفقة، وكان يُفضل لو أني تركتها وحدها دون أن أتورط. في أحد أيام يونيو، من العام الذي كنّا أنا وهي قد بلغنا الثالثة عشرة، وعلى ضفاف «أورديج»، كنت مشاركاً في جمع ما يسمى «Parnassians» ـ «Parnassius Mnemosyne» لأكون دقيقاً ـ فراشة غريبة من ذريّة قديمة، بأجنحة شبه شفافة، لامعة، وتصدر هسيساً،

وبطون زغبيّة تشبه زهرة «عسيل الصفصاف». قادني بحثي نحو تشابك كثيف لنبات «الأقتى العنقوديّة» بلونها الحليبيّ، مع «جار الماء» بلونه الغامق، عند حافة النهر الأزرق البارد، وفجأة اندفع صراخ ورشقات ماء، ومن وراء شجيرة عطرة، لمحت «بولنسكا» مع ثلاث أو أربع أطفال آخرين يستحمون عراة عند أنقاض حمّام قديم على بعد عدّة أقدام. برطوبتها، ولهاثها، وبلتيها المرقّطتين بالطين، بفتحة أنفها الأفطس التي يسيل منها ما يسيل، بأضلاع جسدها المراهق المتقوّسة تحت جلدها الشاحب المنمّش، بمشط يتوهّج في شعرها الغامق المبلل، كانت تندفع متجنّبة سيقان زنبق الماء التي تصدر أصواتاً كالصفير، حيث وقفت فتاة لها رأس حليق وكرش يشبه طبل، مع مراهق مثار وقليل الحياء، يلفّ حول عورته خيطاً يستخدمه عادة السكان المحليّون لحمايتهم من العين الشريرة، وكانا يرشّانها بالماء ويزعجانها؛ وللحظة أو لحظتيْن - قبل أن أنسلّ مبتعداً في ضباب من القرف والرغبة يقبض على صدري - رأيت «بولنسكا» بشكل غريب، تجلس القرفصاء وترتعش عند حافة رصيف الضفة شبه المهدّم، تقاطع ذراعيْها فوق ثدييْها لتمنع عنهما الريح الشرقيّة، بينما تمدّ لسانها ساخرة من متعقّبيها.

تعود الصورة الثانية ليوم أحد خلال فترة الميلاد من عام ١٩١٦. من فوق الرصيف الصامت المكسوّ ثلجاً في محطة «نيفيرسكي» الصغيرة العاملة على خطوط «وارسو» (وكانت الأقرب إلى مكاننا) كنت أشاهد أيكة فضّية بعيدة يتغيّر لونها تحت سماء المساء وأنتظرها حتى تلفظ الدخان البنفسجيّ المتلبّد، الذي يطلقه قطار سيحملني إلى «سانت بطرسبرغ» بعد قضاء يوم في التزلّج. ظهر الدخان في اللحظة ذاتها بوفرته المعهودة، اجتازتني «بولينسكا» التي كانت تمشي هناك برفقة صديقة، وكانتا متلفّحتان وتنتعلان أحذية لبّادية مريعة عالية الساق، وترتديان سترات طويلة بشعة، مع بطانات تظهر رقعاً ممزقة، فوق القماش الأسود

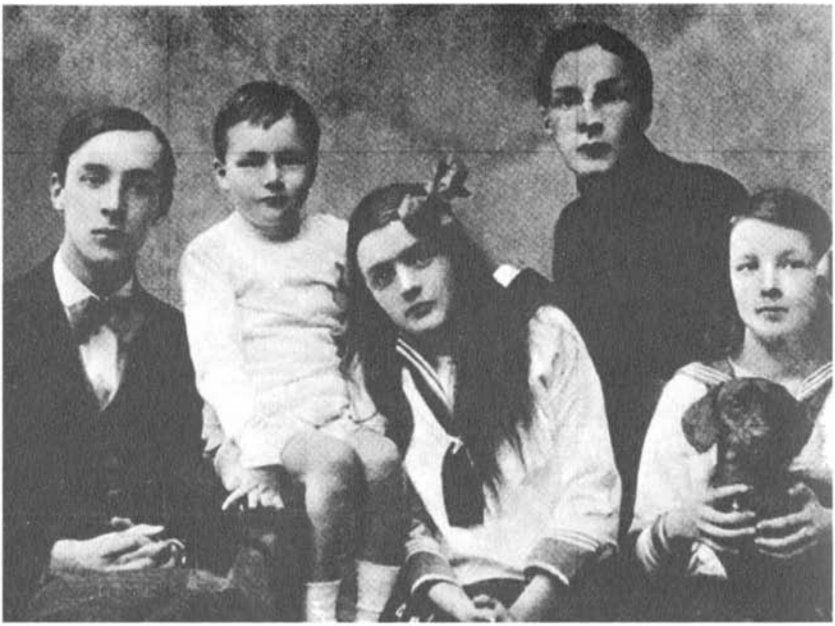
الخشن، ولمحت عند مرورها، أعني «بولينسكا»، كدمات تحت عينيها وتورّم فوق شفتيْها (ترى هل كان زوجها يضربها أيّام السبت؟) وبصوتها الشجيّ، أشارت بأسى دون أن تحدّد من هو المعنيّ: «A barchuk - to menya ne priznal [انظري! حتى السيّد الشاب لم يتعرّف إليّ]»، وهذه مرّتي الأولى أسمعها تتكلّم.

٦

ليالي مراهقتي الصيفيّة تلك، حين كنت أقود دراجتي نحو كوخها، تتحدثّ إلي الآن بذات الصوت الذي سمعته. فوق طريق بين الحقول، وعند نقطة التقائه بالطريق السريع، قدت دراجتي صعوداً ودفعتها نحو عمود التلغراف. من السماء الواسعة المكشوفة، تدلّى قرص الغروب برونقه الهائل. وتحت درجات إضاءته المتغيّرة تدريجيّاً، يمكن للمرء أن ينتبه إلى كائنات سماوية بهياكلها اللامعة والملوّنة، أو شقوق ينبثق منها وهج عند الضفاف المظلمة، أو شواطئ أثيريّة مسطّحة تبدو كالسراب في وسط صحراء. لم أكن أعرف حينها (كما أعرف الآن جيداً) ما يمكن القيام به بأشياء كتلك ـ كيف التخلّص منها، وكيف يمكن تحويلها لشيء أستطيع تسليمه للقارئ عبر حروف مطبوعة لأقحمه في هذا الانتشاء المبارك ـ وهذا العجز هو ما عزّز عندي الاحساس بالقهر. بدأ ظلّ شاسع برخْي سدوله فوق الحقول، وبدأ أزيز أعمدة التلغراف يُسمع في الصمت العذب، وصعدت اليرقانات التي تتغذّى ليلاً إلى أعلى سيقان النباتات التي اختارتها. إحدى العثات المخطّطة الأنيقة، لم أجد توصيفاً لها في كتب «سبولر»، ما إن تعلّقت بساق جرُيْس، حتى بدأتْ تقضم وتقضم وتقضم، وراح فكّها السفلي يدور حول حواف أقرب ورقة، لتلتهم على أقلّ من مهلها نصف دائرتها، ثمّ تمدّ عنقها من جديد، ومن جديد أيضاً

تنحني تدريجيّاً، لتزيد من عمق التقعير الذي بدأته. بشكل آليّ، كنت أستطيع انتزاعها مع قطعة من النبات، ووضعها في صندوق صغير لأصحبها معي إلى المنزل وأستعملها في العام التالي كمفاجأة ممتازة، ولكنّ تفكيري كان في مكان آخر: «زينا وكوليت» رفيقات اللعب فوق الشاطئ؛ «لويس» الراقصة؛ كل تلك الفتيات الصغيرات المتورّدات، ذوات الزنانير المنخفضة والشعر الحريريّ، اللواتي كنت أراهنّ في حفلات الأعياد؛ الكونتيسة «G» النحيلة؛ «بولينسكا» التي تبتسم في سكرات أحلامي الجديدة ـ اختلطت صورهن جميعاً لتشكيل صورة فتاة لا أعرفها، ولكني سأفعل قريباً، لا محالة.

أذكر كم كان غروباً استثنائيّاً، وكيف رمى انعكاساته الجمريّة فوق جرس درّاجتي. في السماء، وفوق الموسيقى الصادرة عن احتكاك أسلاك التلغراف، اصطفّت مجموعة غيوم طويلة بلونها البنفسجيّ القاتم، مع رفوف طيور النحام الساكنة، راسمةً شكل مروحية يد؛ بدا كلّ شيء وكأنه احتفاء إعجازيّ بالألوان والأشكال! يتلاشى الضوء، وكلّ الأشياء تتبعه نحو الظلام. ولكن فوق خطّ الأفق، في الفضاء الفيروزيّ الشفّاف، وتحت الرهج الأسود، تلتقط العين لوحة، لا يمكن إلاّ لمجنون أن يخطئ في نسبها إلى هذا الغروب تحديداً أو لآخر في بلد آخر. احتلّتْ تلك اللوحة قطاعاً صغيراً جداً من السماء الهائلة، وكان لها من غرابة الدقّة المتناهية، ما نراه فقط تحت مجهر. مجموعة من الغيوم المصغّرة الرائقة، كانت أيضاً تنتظر هناك تراكمَ الدوائر المتألقة، التي تصل من ساحق المكان والزمان لتحيط قرصَ المغيب برقّتها القديمة؛ قديمة ولكن مثالية بكل تفاصيلها؛ تتلاشى على نحو خياليّ دون أن تشوبه شائبة؛ وها هوَ غدي البديع يتحضر لانتظار وصولي.



الكاتب في عمر التاسعة عشرة مع شقيقيه وشقيقتيه، في «يالطا»، ١٩١٨. «كيريل» في السابعة؛ «سيرجي» في الثامنة عشرة (صورته ليست واضحة تماماً للأسف) يضع نظارة أنفية لا إطار لها، ويرتدي زيّ جمنازيوم «يالطا»؛ «يولغا» في الخامسة عشرة؛ «إيلينا» (الممسكة بـ «بوكس ٢» بشدة) في الثانية عشرة.

الفصل الحادي عشر

١

لإعادة تشكيل صيف ١٩١٤، الفترة التي اجتاحتني فيها ولأول مرة فورةُ التأليف الشعريّ، فإن كلّ ما أحتاجه هو تصوّر سرادق معيّن. كنتُ هناك، بهزالي وسنين عمري الخمس عشرة، أبحث عن مأوى خلال عاصفة رعديّة، واحدة من عديد العواصف التي ضربت يوليو من ذاك العام. أحلم بمأواي هذا مرتين بالسنة على الأقل. كقاعدة عامّة، يظهر في أحلامي مستقلاً عن مواضيعها، والتي بطبيعة الحال، قد تكون أي شيء، ابتداءً من الاغتصاب وصولاً لعبادة الحيوانات. يطوف حولها، كتوقيع فنّان غير واضح، إن جاز التعبير. أجده متعلّقاً بزاوية شراع أحلامي، أو يحشر نفسه باحتيال في زخرفة صورته. ومع ذلك، يبدو أحياناً معلّقاً بين الحلم وبين خلفيّته، كديكور باروكيّ منسجم مع الأشجار الأنيقة، التنوب القاتم والبتولا المشرقة، التي ينساب نسغها فوق الجذوع. قوارير زجاجيّة تحوي نبيذاً أحمر، مضلّعة على شكل معيّنات خضراء وكحليّة اللون، تضفي على شَعريات نوافذه هيئة معبد. أراه بنفس الحال التي كان عليها أثناء مراهقتي، هيكل من الخشب القديم المتين، فوق وهد تملأه السراخس، في أقدم جزء من متنزّه «فيرا» مطلّ على النهر. أراه كما كان، أو ربما أكثر كمالاً، إذ كان الحقيقيّ يحوي

واجهات زجاجيّة مفقودة، وبعض أوراق نبات مجعّدة قد كنستها الريح إلى داخله. كان الجسر الصغير الضيّق الذي تقوّس فوق أعمق جزء من الجدول، مع السرادق الذي برز عند منتصف الطريق كقوس قزح متخثّر، يتحوّل إلى ممر زلق بعد مدّة طويلة من انهمار الأمطار، كما لو أنّه طُلي بمرهم سحريّ قاتم. إيتمولوجيّاً، فإن كلمتيّ «pavillon [سرادق]» و«papilio [اسم فراشة]» وثيقتا الارتباط. في الداخل، لم يكن هناك شيء في طريق الأثاث ما عدا طاولة قابلة للطيّ قد ثُبتت إلى الحائط بمفصّلات صدئة، تحت النافذة الشرقيّة، التي قد فقد اثنان أو ثلاث من أطرها ألواحَهم الزجاجية المغبّشة، والتي من خلالها، وعبر الألوان الحمراء المترنّحة والزرقاء الثملة، يمكنك أن تلمح طرف النهر. فوق لوح من الأرضيّة، عند قدميّ، استلقت ذبابة «فرس الخيل» ميتة على ظهرها، قرب بقايا عسيلة بتولا بنيّة. وقد استغلّ بعض الدخلاء العابرون وجود بقع كلسيّة بيضاء متفسّخة فوق الجهة الداخليّة للباب، ليكتبوا ذكرى مرورهم مثل: «داشا، تمارا ولينا قد مرّوا من هنا» أو «أنا مع النمسا».

انقضت العاصفة سريعاً. والمطر، الذي هطل عنيفاً لاوياً ومكسّراً أغصان الأشجار، قد خفّ فجأة ليصبح خطوطاً ذهبيّة صامتة ومائلة، تتحوّل إلى خطوط قصيرة تهطل طويلاً، بينما يخبو النبات الذي كان مهتاجاً في خلفيّة اللوحة. ثغرات واسعة من الأزرق المبهج بدأت تباعد بين الغيوم الضخمة ـ طبقات من الأبيض النقيّ والرماديّ الأرجوانيّ تكدّست فوق بعضها البعض، «ليبوتا lepota» (المعنى القديم للجمال الفخمِ بالروسيّة)، خرافات متحركة، بألوان «الغواش» وأشكال ذراق الطيور، ومن خلال حوافها المنحنيّة يمكنك رسم خيال لحيوان ثديي أو لقناع شاعر ميت.

كان ملعب التنس قد تحوّل إلى منطقة بحيرات عظيمة.

وراء المتنزّه، فوق الحقول التي يعلوها البخار، انزلق قوس قزح إلى المشهد؛ تحوّلت الحقول إلى حدود مظلمة مسننة لأشجار التنوب بعيدة؛ عبَرها جزءٌ من قوس قزح، وأومض ذلك القسم من حافة الغابة بكلّ سحر، من وراء البرقع ذي اللون الورديّ والأخضر الشاحب، الذي رسمه القزح أمامه: عذوبة وبهاء قد ألّفا برقّة بين الانعكاسات الملونة المضلّعة على شكل معيّن، وقد رسمها ضوء الشمس الذي عاد فوق أرض السرادق.

بعد دقيقة وُلدت قصيدتي الأولى. ما الذي أطلقها؟ أعتقد أني أعرف. في غياب هبوب أي ريح، بقيت قطرة مطر بكامل وزنها ثابتة بكل ترف طفيْليّ فوق ورقة نبات على شكل قلب دون أن تنزلق عنها، وما بدا كأنه كرة زئبق صغيرة تحوّل فجأة إلى غليساندو أدنى العِرق المركزيّ، وعندها، وبعد أن ذرفت القطرة حمولتها المشرقة، تنفّست الورقة المتعبة صعداءها. قطرة، ورقة، سقوط، ارتياح ـ الدقيقة التي استغرقها الأمر برمّته، بدا لي صدعاً في الزمن أكثر من كونه كِسراً، ضربة قلب فاتتني، استوفيتُها أبيات شعر مطقطقة. قلت «مطقطقة» عمداً لأنه عندما هبّت عصفة ريح، بدأت الأشجار تقطر معاً ببساطة، مقلّدة انهمار الشعر الذي بدأت أدمدم به والذي كان يشبه صدمة اندهاشي في لحظة لم أدرِ خلالها ما إن كان قلبي هو ما يخفق في صدري، أم ورقة.

٢

مع بداية فترة بعد الظهر المتعطّشة للحرارة، كانت المقاعد، الجسور والجذوع (كل شيء في الواقع، ما عدا ملعب التنس) تجفّ بسرعة لا تصدّق، وبعد قليل، لم يكن ليبقى من الأشياء التي ألهمتني إلا القليل. ورغم أن الصدع الساطع قد التأم، إلا أني واصلت تأليفي الشعريّ بعناد.

كانت طريقتي بالتعبير روسيّة، ولكن أمكن لها أن تكون أحياناً أوكرانيّة، أو ذات قاعدة إنكليزيّة أو فولابوكيّة[1]. نوع القصائد التي أنتجتها في تلك الأيام، لم يكن أكثر من علامة تدلّ على أني حيّ، وأني أمرّ، أو مررت، أو ربما آمل أن أمرّ، ببعض الانفعالات الإنسانيّة الشديدة. كانت ظاهرة لتحديد اتجاهاتي أكثر من كونها فناً، كخطوط طلاء فوق صخرة على جانب طريق، أو أعمدة صغيرة من الحجارة المكدّسة للدلالة على مسار جبل.

لكن بعد ذلك، وبكلّ معنى الكلمة، كانت أشعاري موضوعيّة: حاجة أحدنا، المبنيّة على الوعي، للتعبير عن رأيه تجاه الكون، هي حاجة ملحّة وأزليّة. للوعي ذراعان تتلمسان بهما طريقة الوصول، وكلّما طالت الذراعان كان ذلك أفضل. أعضاء «أبولو» الطبيعيّة هي مخالب وليس أجنحة. قال لي «فيفيان بلودمارك»، صديقي الفيلسوف، في السنوات اللاحقة، إنه بينما يتمكّن علماءُ الطبيعة من رؤية كلّ ما يحدث قياساً إلى نقطة واحدة من المساحة، فإن الشاعر يراه قياساً إلى نقطة واحدة من الزمن. كان هائماً في أفكاره، يضرب ركبته بقلم يشبه العصا، وفي اللحظة ذاتها تعبر الطريق سيارة (تحمل لوحة ترخيص نيويورك)، يقرع ولد بعنف باب الرواق المجاور، يتثاءب رجل عجوز في بستان تركستانيّ، تتدحرج حبيْبة رماد فوق كوكب فينوس، الدكتور «جاك هيرش» في «غرونبول» يضع نظّارته، وبلايين من تلك التفاهات تحدث ـ مشكّلة الجسم اللحظيّ والشفّاف للأحداث، الذي يشكّل الشاعر بدوره (جالساً فوق مقعد حديقة في «إيتاكا. نيويورك») مركز نواته.

في ذلك الصيف، كنت أصغر من أن أكون مؤهلاً لاستنباط «التزامن

---

(١) لغة فولابوكية: لغة اصطناعية سهلة، اخترعها القس الكاثوليكي الألماني الأصل جوهان مارتن شيلر ١٨٣٩ ـ ١٩١٢ كمشروع لغة اتصال دولية في سنة ١٨٧٩.

الكونيّ» (مقتبِساً عن صديقي الفيلسوف مرة أخرى). ولكنّي اكتشفت على الأقلّ، أنه على من يودّ أن يصبح شاعراً، أن يمتلك القدرة على التفكير في عدّة أمور في آن واحد. خلال النزهات الطويلة التي رافقتْ إبداعي الشعريّ الأول، التقيتُ مدير المدرسة، اشتراكيّ متحمّس، رجل صالح، مخلص بالكامل لوالدي (أرحّب بهذه الصورة مجدّداً)، ويمسك دائماً بباقة زهور بريّة، دائم الابتسامة، ودائم التعرّق. بينما ناقشت معه بلطف رحلة والدي المفاجئة إلى المدينة، سجّلت في ذهني العديد من التفاصيل في آن واحد وبكل وضوح، ليس فقط أزهاره الذاوية، ربطة عنقه الفضفاضة والرؤوس السوداء فوق فتحات أنفه اللحيمة والحلزونيّة، بل أيضاً صوت الوقواق الضعيف الضجِر القادم من بعيد، ووميض فراشات «ملكة اسبانيا» تطير فوق الطريق، وذكرى انطباعي عن الصور (آفات زراعية وأدباء روس ملتحون) التي رأيتها في صفوف مدرسة القرية ذات التهوية الجيّدة والتي زرتها مرّة أو مرتين؛ ولمتابعة الجدولة التي تؤذي البساطة الأثيريّة للعملية بكاملها ـ صوت نقر هديّة تذكارية لا علاقة لها بما تذكرته لحظتها البتة (عدّاد الخطى الذي أضعته) قد أطلقتْه خليّة مجاورة في دماغي، واختلط تذوّق الساق الذي كنت أمضغه مع صوت الوقواق وتحليق فراشات «fritillary»، وطيلة ذاك الوقت الذي استمر، وبطمأنينة وافرة، كنت واعياً لوعيي المتشعّب.

انحنى مع ابتسامة عريضة (بطريقة الروسي الراديكاليّ المستعرضة)، وتراجع بضع خطوات إلى الوراء، ثم استدار، ومضى في طريقه جزلاً، أما أنا فالتقطت خيط قصيدتي. خلال البرهة القصيرة التي التهيت فيها عن صوري، بدا أنّ خطباً ما قد ألمّ بتلك الكلمات التي كنت قد غزلتها مع بعضها: لم تبدُ برّاقة كما كانت قبل المقاطعة. شككت لوهلة أني ربما كنت أتعامل مع دمى. ولحسن الحظ، فإن ذلك الوميض البارد للحسّ النقديّ لم يدم طويلاً. الحماس الذي كنت أحاول استرجاعه قد عاد

جالباً معه محيط حياة وهميّة. صفوف الكلمات التي استعرضتها مجدّداً كانت متوهجة للمرة الثانية، بصدورها الصغيرة المنتفخة وبزّاتها الأنيقة، وقد حوّلتها لخيال نقي، قادر على توصيف أتفه الأشياء التي لمحتها بطرف عيني.

٣

وبغضّ النظر عن نقص الخبرة الفادح، كان على ناظم الشعر الروسي الشاب أن يتعامل مع عائق خاص. خلافاً لغنى معجم المفردات المستخدمة في الشعر الساخر أو السرديّ، فإنّ الشعر التأمليّ قد عانى من فقر دم حاد. أمكن لأيدٍ خبيرة فقط أن تصل به إلى ما وراء حدود أصوله المتواضعة ـ الشعر الباهت الفرنسي في القرن الثامن عشر. صحيح أنه في وقتي، أوشكتْ مدرسة حديثة على التحرر من الإيقاعات القديمة، ولكن كان لا يزال هناك بعض المحافظين المبتدئين الذي عادوا إليها بحثاً عن أدوات شعريّة محايدة ـ ربما لأنهم لم يرغبوا بالمخاطرة في التحوّل من التعابير البسيطة عن المشاعر البسيطة، إلى بنية شعرية مغامِرة. تلك البنية، بكل الأحوال، قد ثأرت لنفسها. مع بداية القرن التاسع عشر، لم يقدّم الشعراء الروس للقصيدة التأمليّة المرنة إلا الأنماط الرتيبة، ممّا أدّى إلى اقتران بعض الكلمات، أو بعض أنواع الكلمات، مع بعضها البعض مراراً وتكراراً (كالمعادلات الروسيّة «حب مجنون» أو «سقيم وحالم»)، ولم يستطع الشعراء الذين أتوا لاحقاً، وعلى مدى قرن كامل، أن يتخلّصوا من تلك الرتابة.

في ترتيب خاص بدأ بفرض نفسه، كان غريباً بالنسبة للبحر الإيامبي المؤلَف من أربع أو ستّ تفعيلات، أن تحتلّ منه صفةٌ طويلة ومتعرّجة، المقاطعَ الصوتية الأربع أو الخمس الأولى، من التفعيلات الثلاث

الأخيرة للبيت الواحد. ومن الأمثلة الجيّدة على ذلك: «ter-pi bes-chis-len-nï - e mu-ki «en-dure in-cal-cu-la-ble tor-ments) تحمّل عذابات لا تحصى). كان الشاعر الروسي عرضة للانزلاق بسهولة قاتلة في تلك الهاوية المغرية للمقاطع الصوتيّة، ولتوضيح الفكرة، اخترت كلمة «beschislennïe» لسهولة ترجمتها فقط؛ ولكن في الحقيقة، كانت مفرداتي المفضلة هي التي تحوي مكوّنات الشعر التأمليّ بحد ذاتها، مثل «zadoumtchivye» (شديد التأمل)، «utrachennïe» (تائه)، «muchitel'nïe» (مكروب)، وهكذا دواليك، كلمات يظهر مدّها في مقطعها الصوتيّ الثاني. رغم طولها، إلا أن كلمات كتلك لا تحمل إلاّ نبرة واحدة، وبالتالي فإن نبرة التفعيلة ما قبل الأخيرة في بيت شعر، تتصادم عادة مع مقطع صوتي لا مدّ فيه («n]» كمثال روسيّ، «la» كمثال إنكليزيّ). وهذا ما نتج عنه تسارع ظهور المقاطع القصيرة الجميلة، التي وبكلّ الأحوال، لم تتخلّص من تفاهة المعنى.

كمبتدئ ساذج، وقعْتُ في كل الفخاخ التي تنصبها النعوت الغنائيّة. لا يعني هذا أني لم أعانِ. في الواقع، كنت أشتغل على قصيدتي بجهد كبير، مع متاعب لا تنتهي في كل بيت، أختار وأرفض، وأجيل الكلمة فوق لساني، مع تلك النظرة اللامعة والجدّية لخبير تذوّق شاي، ومع ذلك، كانت بعض الكلمات تخونني. فُرض الإطار على الصورة، كما فُرضت القشرة فوق اللب. وقدِ أدّى الترتيب المبتذل للكلمات (أفعال أو ضمائر قصير ـ صفة طويلة ـ اسم قصير) إلى فوضى مبتذلة في الأفكار، كما أنّ بعض الأبيات مثل «poeta gorestnïe gryozï» يمكن ترجمتها بـ» أحلام يقظة الشاعر الكئيبة»، قد أدّت على نحو قاتل، إلى نظم أبيات أخرى ينتهي عجزها بـ «rozï» (ورود)، أو» beryozï» (البتولا)، أو «grozï» (عواصف رعديّة)، وهكذا فإن مشاعر معيّنة كانت مرتبطة بمفردات معيّنة، وليس بفعل الإرادة الحرّ، بل برباط التقاليد البالية. رغم

كل ما ذكر، كلّما اقتربتُ قصيدتي من اكتمالها، تأكدتُ أن كل ما أره أمامي، سيراه الآخرون. وبينما كنت أركّز نظري على مسكبة زهور على شكل كِلية (ولاحظت تساقط بتلة ورديّة فوق التربة، ونملة صغيرة تتحقق من ذبول حوافها)، أو أتأمل قشرة جذع بتولا بلونه الأحمر المصفرّ، والذي قام أحد قاطعي الطريق بنزع لحاءه الرقيق المرقّش بالأبيض والأسود، كنت متأكداً تماماً أن القارئ سيلمس كل ذلك عبر الخمار السحري الذي يخفي كلماتي، مثل «utrachennïe rozï» أو «zadumchivoy beryozï». لم أدرك حينها أنّ ما كان يبدو لي خماراً، ليس إلا تعابير عويصة تشكّل جداراً، لا يمكن أن يصل من خلاله إلاّ فتات المفردات البالية التي استخدمها كبار الشعراء أو حتى المبتدئين، والذين قد قمت بتقليدهم ليس إلاّ. بعد سنين عدّة، وفي الضاحية البائسة لإحدى المدن الأجنبيّة، رأيت سياجاً خشبياً، كانت ألواحه قد جُلبت من مكان آخر، حيث استُعملت سابقاً كتحويطة لسيرك متنقّل، وقد رسم فوقها عامل سيرك متعدّد المواهب صوراً للحيوانات؛ ولكن الذي جلب الألواح وأعاد تركيبها، لا بدّ أنه كان مجنوناً أو أعمى، إذ أنه فعل ذلك عشوائيّاً فبدت الحيوانات بأشكال مفكّكة الأجزاء (علاوة على ذلك، فإن بعضها مقلوباً رأساً على عقب) ـ فخذٌ بنيّ يميل للصفرة، رأس حمار الوحش، ساق فيل.

٤

على المستوى البدنيّ، فإن جهودي المكثّفة قد تميّزت بالعديد من الأفعالِ والوضعيات التي لم أقم بها بوعي كامل، كالمشي، الجلوس والتمدّد. وقد تشظّى كل منها دون أي اعتبار مكانيّ: خلال المشي، على سبيل المثال، قد أكون متجوّلاً في أعماق المتنزّه، ثم أجدني فجأة أذرع غرف البيت جيئة وذهاباً. أو، خلال مرحلة الجلوس، كنت أنتبه فجأة

إلى صحن أو ماشابه، تتمّ إزالته من أمامي، وإلى أمي التي تغمز بخدّها الأيسر، كما كانت دائماً تفعل عند شعورها بالقلق، وتراقب بشدّة من مكانها على رأس طاولة الطعام الطويلة، كآبتي وقلّة شهيتي. وددت رفع رأسي لأشرح ـ ولكن الطاولة قد اختفت، ووجدت نفسي وحيداً جالساً فوق جِذْل شجرة، وبعصا شبكة الفراشات، وبإيقاع بَندوليّ، كنت أرسم قوساً وراء قوس فوق الرمال البنّية؛ أقواس قزح أرضيّة، مع اختلاف في مدى عمق خطوطها، لأعطيها ألواناً مختلفة.

عندما التزمتُ بإصرار لا رجعة عنه لإنهاء قصيدتي أو الموت دونها، عندها فقط عرفت معنى النشوة الذي يولّده أمر كذاك. لم أكن أتفاجأ كثيراً، عندما كنت أجد نفسي، بعد تواجدي في كلّ الأماكن، ممدّداً فوق أريكة جلديّة، في مكتبة جدّي الباردة العابقة برائحة العفونة، والتي كنا قليلاً ما نستعملها. فوق تلك الأريكة تمدّدت منبطحاً، كأنني حيوان زاحف مجمّد، تدلت ذراعي، سامحة لمفاصلي بلمس الزهور المنقوشة فوق السجادة. عندما استفقت لاحقاً من تلك الغيبوبة كانت الزهور الخضراء لا تزال مكانها، يداي لا تزالان متدلّيتيْن، ولكنّي وجدتني منبطحاً فوق رصيف ميناء متداعٍ، والزنابق المائية التي لمستها كانت حقيقيّة، والظلال الوفيرة لأوراق «جار الماء» المتساقطة والمتماوجة فوق الماء ـ بقع حبر عظيمة، خلايا أميبيا متضخّمة ـ كانت تخفق بإيقاع منتظم، تمتدّ وتتراجع كأخيلة سوداء وهميّة، تتكسّر أطرافها المدوّرة كلّما تقلّصت، مشكّلةً بقع سائلة ومنزلقة، للتجمع سوية وتعيد تشكيل قصيدتي التي كانت تتلمس طريق الختام. غرقتُ مجدّداً في ضبابي الخاص، وعندما رجعت إلى السطح من جديد، كان ما يسند جسدي الممدّد مقعدُ المتنزّه الواطئ، والظلال الحيّة التي حين أقحمت يدي فيها، تحرّكتْ فوق الأرض، بين ألوان بنفسجيّة وخضراء، بدل الأسود المائي. لم تعد التدابير العادية مجدية في تلك الأوضاع، إذ لم يعد

يفاجئني أن أخرج من نفقها لأتواجد مباشرة داخل متنزه فيرساي»، أو حديقة الحيوان في «برلين»، أو غابات «سيكويا» الوطنية؛ لا بل على العكس، في حال عاودتني النشوة القديمة في أيامي الحاضرة، فأنا في أتمّ الاستعداد لأجد نفسي عند الاستيقاظ منها، فوق شجرة معيّنة، فوف مقعد مراهقتي المرقّط، مع بطني الذي يضغط على غصن سميك ولكن مريح، ويدي التي تتدلى فوق أوراق تتحرّك فوقها ظلالُ أوراق أخرى.

مختلف الأصوات قد تصلني في مختلف الحالات. قد يكون ناقوس العشاء، أو ربما شيء أقلّ اعتياديّة، كموسيقى مجنونة منبعثة من أرغن همجيّ. من مكان ما بالقرب من الاسطبلات، وصلني صوت الرحى التي كان يديرها متشرّد عجوز، وبصلابة الانطباعات المباشرة التي تشرّبتها في طفولتي المبكّرة، ومن المكان الذي كنت قابعاً فيه، استطعت رؤيته في ذهني. صور لفلاحين بلقانيين يرقصون بين الصفصاف العالي، كانت مرسومة فوق جهة الرحى الأمامية. بين الحين والآخر، كان ينقل المقبض من يد إلى أخرى. رأيت قردته الصغيرة الصلعاء مرتدية تنورة وقميصاً صوفيّ، رأيت قلادتها، جلد عنقها الملتهب، السلسلة التي كانت تحاول التخلّص منها كلّما جرّها منها صاحبها، مسبّباً لها أذيّة مبرّحة، وعديد من الخدم قد تحوّقوا حولهما محدّقين مبتسمين ـ أناس بسيطون يبتهجون لمجرد رؤية الحركات المضحكة لقرد. في يوم آخر ليس ببعيد، قرب المكان الذي حدثت فيه الأمور التي أدوّنها الآن، مررتُ أمام مزارع وابنه (من نوع الأطفال الذي يمتلك صحّة جيّدة ونراه في إعلانات طعام فطور الأطفال) وكانا مسرورَيْن برؤية قط يقوم بتعذيب صغير سنجاب ـ يسمح له بالركض بضع إنشات ومن ثمّ ينقضّ عليه مجدّداً. اختفى القسم الأكبر من ذيله، أما جذعه فكان ينزف. وبما أن الركض لم يكن وسيلة لخلاصه، توصّل صاحبنا الصغير لحيلة أخرى: توقّف واستلقى على جانبه ليتماهى بين الضوء والظلال، ولكن الارتفاع والانخفاض الواضحان لخاصرته اللاهثة، قد خاناه.

الفونوغراف العائليّ الذي يُدار عند حلول كلّ مساء، كان آلة موسيقيّة أخرى استطعت سماع الأصوات المنبثقة منه عبر قصيدتي. فوق الشرفة التي اجتمع فيها أقاربنا وأصدقاؤنا، أطلق من بوقه النحاسيّ معزوفة تُدعى «tsïganskie romansï» (قصة حب تسيغانيّة)، أحبّها أبناء جيلي. كانت أقرب إلى كونها تقليداً مجهولاً لأغاني الغجر - أو ربّما تقليداً لذاك التقليد. ما شكّل غجرية أغانيهم، هو ذاك الحزن الرتيب العميق، يقطعه فجأة ما يشبه الفواق، الصوت المسموع لتحطم قلب أعياه الحب. أفضل ما قامت به تلك القصائد، أن كانت مسؤولة عن الاهتزاز الصاخب للنغمات، الذي ظهر هنا وهناك في أعمال الشعراء الحقيقيين (أفكر بشكل خاص بـ«ألكسندر بلوك»). أما الأسوأ، فكان تشبيهها بالقصائد الآباتشية السخيفة التي كتبها رجال قليلو الموهبة كرسائل سُلّمت لنساء بدينات في نوادي باريس الليليّة. تميّزت بيئة قصائدهم الخاصة بـ العنادل الباكية، الزنابق المزهرة، وأزقّة الأشجار الهامسة التي زيّنت متنزّهات النبلاء. غرّدت العنادل، وفي أيكة صنوبر، لفّ قرص الشمس الغارب الجذوعَ بالأحمر الناريّ، وعلى مستويات مختلفة. بدت التامبورين التي استمرّ صوت قرعها، وكأنها متمدّدة فوق طحالب تدخل في الظلام. واستمرّ تغريد الكونترالتو الأجشّ بملاحقتي عبر الغسق، بعد أن وضعني تحت سحره. وعندما عاد الصمت، وُلدت قصيدتي الأولى.

٥

كانت خليطاً بائساً حقاً، تحوي استعارات عديدة إضافة إلى تضمينات بوشكينيّة زائفة. ما يمكن مغفرته فيها، صدى رعد «تيوتشيف» وشعاع شمس «فيت» المنعكس. أما بالنسبة للباقي فإني أتذكر بشكل غير واضح ذكر «لدغة الذاكرة» - «vospominan'ya zhalo» (التي تصوّرتها حقاً

كذبابة نمسيّة حاملة للبيض تمتطي يرقانة ملفوف، ولكني لم أجرؤ على قول ذلك مباشرة). وجهاز أرغن بعيد يسحر العالم القديم بأنغامه. ولكن الأسوأ من كل ما ذكر، التقاطاتي المخجلة لكلمات «أبوختين» و«الدوق قسطنطين الكبير»، المكتوبة بالأسلوب التسيغانيّ. استخدمتها مدفوعاً بالضغط الذي ما انفكت تمارسه عليّ أصغر عمّاتي وأكثرهنّ جاذبية، والتي كانت أيضاً دائمة الإنشاد لقصيدة «لويس بوييه» الشهيرة («A une femme إلى امرأة») حيث يعزف كمان مجازيّ مع غيتار مجازيّ بشكل غير متناسب، وكثير من قصائد «إيلا وييلر ويلوكس» - التي نجحت نجاحاً هائلاً في كسب إعجاب الامبراطورة وحاشيتها النسائية. لا يبدو لي مجدياً أن أضيف، فيما يتعلق بمواضيع القصائد، أني كنت عبرها أرثي حبي الضائع - لعيشقاتي «دليا»، «تمارا» أو «لينور» - اللواتي لم أفقدهن، ولم أحبّهن، ولم ألتقيهنّ، ولكني بكامل جهوزيتي لألقاهنّ، أحبهنّ وأفقدهنّ.

ببراءتي الحمقاء، ظننتّ أنّ ما كتبته كان جميلاً ورائعاً. عدت إلى البيت أحملها غير مكتوبة، ولكن كاملة لدرجة أن حتى علامات التنقيط كانت مطبوعة في دماغي، كما تَترك وسادةٌ آثارَ تغَضنها فوق وجه شخص نائم، ولم أشكّ أن أمي سترحب بإنجازي بدموع الفخر الفرِحة. لم يخطر ببالي أبداً أنها قد تكون غارقة في انشغالها بأمور أخرى تمنعها من الاستماع لقصيدتي. لم أتمنّ ثناءها في كل حياتي كما فعلت حينها. لم يعترضني خطر مماثل. كانت أعصابي مشدودة جداً، بسبب ظلام الأرض الذي لم أنتبه له قبلاً وقد حجب نفسه، وعرْي قبّة السماء، التعرّي الذي فاتني أيضاً أن أنتبه له. فوق رأسي، بين الأشجار التي لا شَكل لها والتي تحدّ طريقي المتلاشي، كانت سماء الليل ممتلئة بالنجوم الشاحبة. في هاتيك الأيام، كانت الفوضى العجيبة لمجموعات النجوم، السديم والفراغات الفلكيّة، وما تبقى من العرض الرائع، كانت كلّها تثير

عندي شعوراً بالغثيان يصعب وصفه، وذعراً مطلقاً، كما لو كنت أتدلى من الأرض رأساً على عقب، فوق حافة الفضاء اللامتناهي، مع جاذبية أرضيّة لا تزال تمسك بكعبيّ، ولكنها قد تفلتني في أية لحظة.

باستثناء نافذتيْ الزاوية في القصّة أعلاه (غرفة جلوس والدتي) كا البيت مظلماً. سمح لي الحارس الليليّ بالدخول، وصعدت الدرجا بهدوء، وحذر، كما لو أني لم أرد تشويش ترتيب الكلمات في رأس الذي كان يؤلمني. كانت أمي متّكئة على الأريكة وفي يدها صحيف «Rech» الخاصّة بـ«سانت بطرسبرغ» وصحيفة «London Times» في حضنها لم تفتحها بعد. لمع هاتف أبيض فوق السطح الزجاجي للمنضد الموضوعة إلى جانبها. وكانت، كما دائماً، تنتظر حتى وقت متأخ اتصال والدي الذي كان محتجزاً في «سانت بطرسبرغ» بسبب التوتّر الذ سبق اندلاع الحرب. كان هنالك كرسيّ بذراعين قرب الأريكة، ولكن لطالما تجنّبته بسبب قماشه الساتين الذهبيّ، الذي كنت بمجرد نظر إليه، أشعر برعشة تنتابني بدءً من عمودي الفقري وصولاً لأعمق تشعّبا أعصابي، كمصباح ليليّ. سعال خفيف، ثم جلست فوق مسند القد وبدأت تلاوتي. وبينما انخرطت في الأمر، كنت أحدّق في أبعد حائط والذي أرى فوقه الآن خلال استذكاري له، وبكلّ وضوح، صو بأسلوب «داغيري»[1] ورسوماً ظلّية ضمن أطر بيضاويّة، لوحة مائيّ لـ«سوموف»[2] (شجرات بتولا صغيرة، نصف قوس قزح، وكل ما عد ذلك ذائب ورطب)، لوحة رائعة لخريف «فيرساي» رسمها «ألكسند

---

(١) أسلوب داغيري: نسبة إلى لويس داغير هو فنان وكيميائي فرنسي ولد عام ٧٨٧ وتوفي عام ١٨٥١. أبرز أعماله كانت تعاونه مع المخترع جوزيف نيبس على تطو التصوير الفوتوغرافي.

(٢) قسطنطين سوموف: ١٨٦٩ ـ ١٩٣٩ رسام روسي.

بونوا»، ولوحة رسمتها والدة والدتي أيام صباها، بأقلام التلوين ـ سرادق المتنزّه، من جديد، مع نوافذه الجميلة، وقد حجبتها جزئياً أغصان متشابكة. لوحة «سوموف» والأخرى الخاصة بـ«بونوا» موجودتان حالياً في متحف سوفيتيّ ما، ولكن أبداً لن يتمّ تأميم السرادق ذاك.

عندما تلكّأتْ ذاكرتي للحظة عند عتبة المقطع الأخير، والذي كنت قد جرّبت لبدايته كثيراً من الكلمات، بحيث أصبح آخر ما اخترته منها مموهاً وملتبساً مع البدايات الخاطئة، سمعت والدتي تشهق. ثم بعد أن انتهيت من إلقائي رفعت نظري إليها. ظهرتْ ابتسامتها من خلف الدموع التي كانت تنهمر فوق وجهها. «يا لروعتها! يا لجمالها!»، قالت، بينما استمرّتْ ابتسامتها بالإشراق أكثر فأكثر. أعطتني مرآة يد لأرى لطخة الدم المحمرّة فوق عظمة خدّي، حيث، وفي وقت يصعب تحديده، سبق أن سحقت ذبابة متخمة أثناء سند خدّي بقبضة يدي، الحركة التي أقوم بها لا واعياً. لكني رأيت ما هو أكثر من ذلك. بالنظر إلى عينيّ، صُدمت بإحساسي أني لم أجد في صورتي إلا مجرد بقايا من نفسي المعتادة، مخلّفات هوية متبخّرة، الأمر الذي تطلّب من إدراكي جهداً ليجمع كل أشلائي من جديَد في المرآة.



الكاتب في كامبريدج، ربيع ١٩٢٠. لم يكن أمراً غير مألوف بالنسبة لروسي حين يستكشف بالتدريج ملذات «كامبريدج»، أن يفضّل في البداية مركب تجذيف، على زورق كانو أو قارب بنط.

الفصل الثاني عشر

١

عندما التقيت «تامارا» للمرّة الأولى ـ اسم بنفس لون اسمها الحقيقيّ ـ كان عمرها خمسة عشر، وكنتُ أصغرُها بعام واحد. كان مكان اللقاء في قرية جنوب «سانت بطرسبرغ»، وعرة ولكن جميلة (تنوب أسود، بتولا بيضاء، أرض رخاخ، حقول تبن، وبقع جرداء). حرب بعيدة كانت على وشك الاقتراب. بعد عامين، وصلت الثورة الروسية التي قلبت موازين كلّ شيء، مسبّبة إزاحتي عن تلك المشاهد التي لا تُنسى. في الواقع، في ذلك الحين، يوليو ١٩١٥، تكهّنات غامضة، ثرثرات في الكواليس، لهاث حار للانقلاب الرائع، كل ذلك كان مؤثّراً فيما يسمى المدرسة «الرمزيّة» للشعر الروسيّ، وخاصة قصائد «ألكسندر بلوك».

خلال بداية ذاك الصيف، وطيلة الصيف الذي سبقه، لم يتوقف اسم «تامارا» عن الظهور (بالسذاجة النموذجيّة التي يدّعيها «القدر» حين يريد التدخّل بأمر ما) في كلّ مكان من ملكيتنا (الدخول ممنوع)، في أرض خالي (ممنوع الدخول قطعياً)، وفوق ضفة «الأورديج» الأخرى. كنت أجده محفوراً بعصا فوق الرمال الحمراء لساحة المتنزّه، أو مكتوباً بقلم الرصاص فوق باب صغير مطليّ بالكلس، أو محفوراً حديثاً (لكن غير مكتمل) فوق خشب بعض المقاعد القديمة، كما لو أنّ أمّنا الطبيعة كانت

تعطيني إشعارات مسبقة وغامضة عن وجود «تامارا». وفي ذاك اليوم من يوليو، في فترة بعد الظهر الساكنة، حين اكتشفتها واقفة بلا حراك (تحرك عينيْها فقط) في أيكة بتولا، بدت وكأنها قد وُلدت هناك تلقائياً، بين الأشجار اليقظة، مع الاكتمال الصامت للتجلّي الأسطوريّ.

بصفعة واحدة، قتلتُ ذبابة خيل بعد أن انتظرت حركتها حتى هدأت، ثم انطلقت في أثر فتاتيْن أقل جمالاً منها، وكانتا تناديانها. توّاً، وبفرصة مؤاتية رأيتهنّ فوق النهر، يعبرن الجسر، يطقطقن بكعوب أحذيتهن العالية، تضع كلّ منهن يديها في جيوب سترتها الزرقاء الغامقة، وبسبب الذباب المزعج، يهززن بين الحين الآخر رؤوسهن المزيّنة بالشرائط والزهور. سرعان ما تتبّعتُ «تامارا» حتى «داشكا» متواضع (كوخ صيفي) وكان ذووها قد استأجروه في القرية. كنت أركب حصاني أو درّاجتي في المنطقة المجاورة، وذات مرة، ومع الإحساس المفاجئ بانفجار مبهر (الذي احتاج قلبي بعده بضع وقت ليعود من حيث هبط) التقيت «تامارا» بالصدفة عند التفاف في هذا الطريق أو ذاك. أقصتْ الطبيعة الأم أول فتاة من مرافقاتها، ثم الثانية، ولكن قبل أغسطس ـ قبل التاسع من أغسطس ١٩١٥، لأكون دقيقاً على طريقة «بترارك»[(١)]، عند الرابعة والنصف من أجمل فترة بعد ظهر في الموسم كلّه، حين لمحت عابراً يدخل إلى السرادق ذي النوافذ التي تعكس قوس قزح ـ لم أتمكن قبل ذلك من حشد شجاعتي لأتحدّث إليها.

أرى جمال وجهها عبر عدسات قد مسح الزمنُ غبشَها بعناية، قريباً ولامعاً، أكثر من أي وقت مضى. كانت قصيرة وممتلئة، ولكن عالية الرشاقة، مع كاحليْن نحيليْن وخصر لدن. قد تكون قطرة من الدم التتريّ أو ربَما الشركسيّ الذي تحمله، مسؤولة عن ذاك الانحراف اللطيف

(١) فرانشيسكو بتراركا: ١٣٠٤ ـ ١٣٧٤ باحث وشاعر إيطالي.

لرسم عينيْها الداكنتيْن، وسمرة وجنتيْها المتورّدتيْن. زغب خفيف، كذلك الذي نراه فوق ثمار من فصيلة اللوز، يؤطر جانبيّ وجهها بإشعاع ناعم. اتّهمتْ شعرها البنيّ الغزير بأنه صعب التمشيط وثقيل، وهدّدت بقصّه قصيراً، وقد نفّذت تهديدها بعد سنة، لكني أذكره دائماً كما رأيته أوّل مرّة، بضفيرته الثخينة المشدودة، المرفوعة عند أعلى رأسها، تربطها أنشوطة حريريّة سوداء عريضة. كان عنقها الجميل عارياً دائماً، وحتى في شتاء «سانت بطرسبرغ»، تمكّنتْ من الحصول على إذن بالتخلّص من الياقة الخانقة للبزّة الموّحدة لمدارس البنات في روسيا. كلّما أبدتْ ملاحظة مضحكة، أو جلجلت بصوتها أثناء قراءة بعض من مخزونها الكبير لأشعار غير ذات أهميّة، أظهرتْ بطريقة ناجحة توّسع فتحات أنفها مع شخير طفيف مُسلّ. ومع ذلك، لم أكن أستطيع التمييز ما إن كانت جدّية أم لا. تموّج ضحكها السريع، خطابها السريع، لفظها لحرف r الصادر من لَهاة حلقها، البريق الرطب الحنون لجفنها السفليّ - في الواقع كانت كلّ ميزاتها تسحرني على نحو مثير، ولكن بشكل أو بآخر، لم تكشف لي تلك الميزات عن شخص «تامارا»، بل على العكس، ألقتْ فوقها حجاباً برّاقاً، ورّطني بمزيد من الغموض في كل مرّة حاولت معرفة المزيد عنها. حين قلتُ لها إننا سنتزوج في أواخر عام ١٩١٧، بمجرد تخرّجي من الثانوية، نعتتني بالمجنون بكل هدوء. لا أتذكر منزلها إلا بشكل غامض. اسم والدتها وكنيتها (وهذا كلّ ما عرفته عن تلك المرأة) كان ذا دلالة تجارية أو كهنوتيّة. أما والدها، فعلى قدر ما عرفت عنه، لم يكن مهتماً بأسرته، وكان مدير أعمال عقار كبير في مكان ما من الجنوب.

وصل الخريف مبكراً تلك السنة. في نهاية أغسطس، كانت الأوراق المتساقطة قد تكدّست حتى ارتفاع الكاحل. فراشات «Camberwell Beauties» قد أشرعت أجنحتها ذات المخمل الأسود والحواف القشديّة،

وسافرت عبر الغابة. المعلّم غريب الأطوار الذي أنيطت به رعايتي وأخي خلال ذلك الموسم، كان يختبئ بين الشجيرات ليتلصّص عليّ مع «تامارا» بمساعدة ناظور قديم قد وجده في العليّة؛ ولكنّه بدوره، كان مراقَباً من قبل بستانيّ خالي العجوز ذي الأنف البنفسجيّ «آبوستولسكي» (وبالمناسبة، هو بارع في غواية الفتيات اللواتي يقلعن الأعشاب) وقد وشى عنه لأمي بكلّ لطف. لم تستطع مغفرة التطفّل، كما أنها (رغم أني لم أحدّثها مطلقاً عن «تامارا») كانت على دراية بكلّ ما تهمّها معرفته عن غرامياتي من خلال قصائدي، التي كنت أتلوها عليها بروح موضوعيّة جديرة بالثناء، والتي نسختْ منها بعض المقاطع وحفظتها بكلّ حب في ألبوم خاص. كان أبي بعيداً مع فوجه؛ عاد من الجبهة بعد شهر، وصله الأمر، فطرح عليّ بعض الأسئلة مدفوعاً بإحساس يمليه عليه واجبه؛ ولكنّ نقاء قلب أمي هو ما كان يتحكّم بتصرفاتها، كما فعل في أصعب مواقف حياتها. اكتفتْ بهزّ رأسها بطريقة يغلب عليها الشكّ ولا تنقصها الرقة، وأمرتْ كبير الخدم أن يترك فاكهة لي كل ليلة في الشرفة.

صحبتُ محبوبتي إلى كل تلك البقع السحريّة في الغابة، حيث كنت بكلّ حماس أحلم يقظاً بلقائها، وبخلقها. في أيكة صنوبر مميّزة، تمّ كل شيء كما ينبغي له، نزعت ستار الوهم، وتذوّقت الحقيقة. وبما أنّ خالي كان غائباً ذاك العام، فقد تمكنّا من التجوّل بحريّة في متنزّهه الفسيح، الكثيف والذي يعود عمره لقرنيْن من الزمن بمقاعده الكلاسيكية المصنوعة من الحجر الملوّن بالأخضر، في ممره المشجّر الرئيسيّ ومسارات متاهته، والتي تنبثق من النافورة الرئيسيّة. تمشّينا «ممرجحين أيدينا»، على طريقة عشاق القرى. قطفت لها زهور «الأضاليا» عن حواف دربَ الحصى، تحت عيون العجوز «بريابوستولسكي» البعيدة والمُحبّة. كان إحساسنا بالأمان يتضاءل كلما صحبتها إلى منزلها، أو بالقرب منه، أو حتى إلى جسر القرية. أذكر الطريقة المصغّرة الغريبة والخشِنة لنقش

أسمائنا الأولى فوق بوابة بيضاء معيّنة، وبعيداً عماً قد يخربشه حمقى القرية، كتبنا قولاً مأثوراً، بخطّ يد أعرفه جيّداً، «التعقّل رفيق الشغف». ذات غروب شمس، وبالقرب من النهر البرتقاليّ والأسود، قام «dachnik» (شاب يستمتع بعطلته) يحمل سوطاً في يده، بالانحناء أمامها أثناء مرورها؛ بعد أن احمرّت خجلاً وكأنها بطلة رواية، ابتسم هازئاً وقال بحماس إنّه لم يسبق له أبداً أن ركب حصان. مرة أخرى وبينما ظهرنا عند منعطف الطريق السريع، كادت شقيقتاي المدفوعتان بالفضول الجنونيّ أن تلمحانا من سيارة العائلة «الطوربيد» الحمراء، والتي كانت متّجهة نحو الجسر.

في الأمسيات الممطرة الحالكة، كنت أعبّئ مصباح دراجتي بكتل كربيد الكالسيوم السحريّة، أقي عود كبريت مشتعل من هبوب الريح، وبعد أن أسجن شعلة بيضاء داخل المصباح الزجاجيّ، أقود دراجتي بحذر عبر الظلام. كانت دائرة الضوء التي يلقيها مصباحي قادرة على التقاط كتف الطريق الرطب والمصقول ما بين نظام البرك المركزيّ، وبين الأعشاب الطويلة التي تحدّ جانبيّ الطريق. ما إن بدأت بنزول منحدر باتّجاه النهر، ترنّح شعاع شاحب فوق كومة طين عند المنعطف، كشبح يطفو. وراء الجسر، انحدر الطريق مجدّداً ليلتقي مع الطريق السريع «روزيستفينو ـ لوغا»، وفوق ذلك التقاطع مباشرة، ارتفع ممر وعر للمشاة، بين شجيرات الياسمين التي كانت تقطر. اضطررت للترجّل ودفع دراجتي. حين وصلتُ القمّة، رفرفتْ إضاءة مصباحي الشاحبة عبر الأعمدة الستّة للرواق الأبيض في الجزء الخلفيّ من مزعة خالي الصامتة والمغلقة ـ كما هي اليوم صامتة ومغلقة بعد نصف قرن من الزمن. هناك، في زاوية ذلك المأوى المقنطر، ومن حيث تتبّعتْ آثار إضاءتي المتعرّجة، كانت «تامارا» هناك تنتظرني، جاثمة فوق حاجز الشرفة العريض، ساندةً ظهرها إلى عمود. أطفأتُ مصباحي وتلمّستُ طريقي

نحوها. يتمنّى أحدنا لو أنّه أكثر بلاغة في معرض كلامه عن أمور كتلك، وأمور أخرى يأمل لو يستطيع إبقاءها حيّة في أسر حديقة الكلمات ـ ولكنّ حفيف وتنهّد أشجار الزيزفون القديمة والمتزاحمة حول البيت، قد أغرق في هدأة الليل مناجاةَ «منيموساين». هدأ تأوّه الزيزفون. في إحدى جهات الشرفة، وعلى نحو مطرد، كنّا نسمع بقبقة الماء داخل مزراب المطر. ذات مرة، تدخّلت خشخشة إضافية لتخرّب إيقاع المطر فوق الأوراق، فظننتّ «تامارا» أنها وقع أقدام وأدارت رأسها نحو مصدر الصوت، وعندها، وتحت إضاءة شحيحة ـ يشرق الآن وجهها مجتازاً أفق ذاكرتي رغم كلّ الأمطار ـ تمكّنتُ من رؤية تفاصيل رسم وجهها؛ ولما تأكّدتْ من عدم وجود شيء أو أحد لنخشاه، زفرتْ بلطف نفسها الذي كانت قد كتمتْه، وأغمضتْ عينيها من جديد.

٢

بحلول الشتاء، انتزعنا غراس قصة حبّنا المتهوّرة لنزرعها في أرض «سانت بطرسبرغ» القاسية. وجدنا أنفسنا فجأة وقد حُرمنا من أمان الغابة الذي اعتاد عليه حبّنا فيما كان ينضج بيننا. لم تسمح لنا جرأتنا بتخطّي عتبة الفنادق سيئة السمعة، وكان عصر ممارسة الحب داخل سيّارة لا يزال بعيداً جداً. السريّة التي كانت ممتعة في القرية قد أصبحت الآن عبئاً، ولم يأتِ أيّ منّا على مجرد التفكير بتدبير لقاءاتنا في منزلها أو منزلي. وبناء عليه، أُجبرنا على التجوّل كثيراً في المدينة (هي بمعطفها الرماديّ الفرويّ الصغير، وأنا بجزمتي البيضاء وياقتي الصوفيّة، مع البرجَميّة التي وضعتها في جيبي ذي الحافّة المخمليّ) وهذا السعي الدائم للحصول على ملجأ ما قد ولّد إحساساً مزعجاً باليأس، والذي تنبّأ بدوره بتجوالات ستأتي لاحقاً، أكون فيها أكثر بعداً ووحدةً.

تملّصنا من الذهاب إلى المدرسة: نسيتُ ما كانت طريقة «تامارا» لفعل ذلك، ولكن طريقتي كانت قائمة على إقناع أحد السائقيْن بإنزالي عند زاوية معيّنة على طريق المدرسة (كلاهما كان من النوع المعتدّ بنفسه وقد رفضا الروبلات الخمس الذهبية التي كنت أحملها في يدي، والتي خرجتْ من المصرف ضمن لفافات نقديّة جميلة وثقيلة، تحوي كلّ منها عشراً أو عشرين قطعة برّاقة متراصّة، إنّه مشهد في ذاكرتي أستحضر جماليته الآن، وأستطيع أن أستفيض بوصفه، فخوراً بكبرياء المهاجر الروسي الفقير، والذي هو أمر قد ورثه من الماضي). لم يكن لديّ أي مشكلة مع الفاسد الرائع والمرتشي «أوستين»، الذي كان يجيب المكالمات الواردة عبر الهاتف الموجود في الطابق الأرضي، وكان رقم الخطّ آنذاك ٢٤ ـ ٤٣ «dvadtsat' chetïre sorok tri»؛ كان يردّ بثقة أنني مصاب بالتهاب حلق. بالمناسبة، أتساءل ما سيحصل إن ضربت نفس الرقم الآن من مكتبي وعبر كلّ تلك المسافات البعيدة؟ لا جواب؟ لا وجود لرقم مماثل؟ أو بلد مماثل؟ أو صوت «أوستين» يقول «moyo pochtenietse!» (تصغيره لعبارة «احترامي» حين يكون متملّقاً)؟ كان لدينا من الخدم السلافيين والأكراد ما يزيد عن مائة وخمسين خادماً، وكلّهم بارعون في تبنّي الأخبار ونشرها. رقم الهاتف في مكتبة والدي (٥٨٤ ـ ٥١) لم يكن مدرجاً ضمن فهرس الهواتف، وكلّ محاولات أستاذي في المدرسة للاستفسار عن حالتي الصحيّة المتدهورة، قد باءت بالفشل، وهكذا تمكّنت في بعض الأحيان من التغيّب عن المدرسة لثلاثة أيام على التوالي.

مشينا تحت سماء بيضاء مخرّمة في الحدائق العامة المكسوّة بالثلج. لززنا ببعضنا فوق المقاعد الباردة ـ بعد أن نفضنا طبقة الثلج النظيفة عنها، ثمّ عن قفّازاتنا. أكثرنا التردّد إلى المتاحف. كانت مملّة وفارغة من الناس في أصباح عطل نهاية الأسبوع، ولكن دافئة جداً على عكس

الضباب الجليدي فوق النوافذ الشرقية، التي يتدلى قرص الشمس الأحمر من وراءها كقمر متوهّج. كنّا هناك نسعى خلف الغرف الخلفيّة الهادئة، حيث البدائل الأسطوريّة التي لا ينظر إليها أحد، النقوش، الميداليّات، نصوص مكتوبة بالخطوط القديمة، قصة الطباعة ـ وأمور بسيطة كتلك. أفضل الغرف التي وجدناها، على ما أعتقد، تلك التي كانت مستودعاً للمكانس والسلالم؛ ولكن مجموعة من الإطارات انزلقت هناك فجأة وبدأت تتهاوى في الظلام محدثةً ضجيجاً قد جلب أحد عشّاق الفن الفضوليين، فهربنا. «الإرميتاج»، «لوفر سانت بطرسبرغ»، وفّر لنا خلوات جميلة، خاصّة في قاعة معيّنة من الطابق الأرضيّ، بين الحجرات والخنافس، وراء ناووس «نانا»، كبير كهنة الإله «بتاح». في المتحف الروسيّ للإمبراطور «آلكسندر الثالث»، هناك قاعتان (رقم ٣٠ و٣١ في الركن الشماليّ الشرقيّ) تحوي لوحات أكاديميّة إلى حدّ مثبّط، إحداها لـ«شيشكين» (اقتطاع الأشجار في غابة الصنوبر) والأخرى لـ«هارلاموف» (رأس غجري شاب)، استطعنا داخلهما الحصول على بعض الخصوصيّة بفضل المنصّات الطويلة لبعض الرسوم ـ إلى أن وصل عجوز مخضرم من الحملة العسكريّة التركيّة، مهدّداً بوقاحة بطلب الشرطة. انتقلنا بالتدريج من تلك المتاحف العظيمة إلى الأصغر حتى وصلنا إلى «سوفوروف»، حيث، على سبيل المثال، أذكر في أكثر غرفه صمتاً والمملوءة بالدروع القديمة والبسط، ورايات حريريّة ممزّقة، كيف كانت دمى لها أجنحة تنتعل جزماً ثقيلة، وتلبس زيّاً اخضراً موّحداً، تقف هناك تراقبنا. ولكن دائماً، وأينما ذهبنا، فإننا بعد زيارات عدّة كنّا نثير شكّ أحد المستخدمين العجائز ذوي العيون الغائرة والأحذية اللبّادية، ثم يتحتّم علينا أن ننقل تهوّرنا المحموم إلى مكان آخر ـ إلى المتحف التربويّ، متحف عربات البلاط، أو إلى متحف صغير للخرائط القديمة، والذي لم يُدرج اسمه حتى في كتب الدليل ـ ثم بعد ذلك

الخروج ثانيةً إلى البرد، في زقاق له بوابات كبيرة، حيث تنتصب أسُود خضراء تلمع حلقاتٌ في فكوكها، داخل لوحة ثلجية طبيعة مرسومة بأسلوب «الفن العالميّ، «Mir Iskusstva» - «دوبوزينسكي»، «آلكسندر بونوا» - والذي كان له في تلك الأيّام، منزلة خاصّة عندي.

في الأوقات المتأخّرة من فترات ما بعد الظهيرة، حشرنا نفسينا في الصفّ الأخير لمقاعد إحدى قاعتيْ السينما («باريزيانا» و«بيكاديلي») في شارع «نيفيسكي». كان ذلك الفنّ يتقدّم متطوّراً. لُوّنت أمواج البحر بالأزرق الشاحب، وبينما اندفعتْ بقوّة وتكسّرتْ زبداً أسوداً فوق صخرة أذكرها جيداً (صخرة «لافييرج» في «بياريتز» - وكم كان مضحكاً، فكّرت، أن أرى من جديد مسرح طفولتي العالميّ)، كانت آلة أخرى بنفس الوقت، تقوم بتقليد صوت الأمواج، منتجةً هسيساً هزيلاً، لكنّها لم تتمكّن من إيقافه تناسباً مع نهاية المشهد، بل رافق التالي لثانيتيْن أو ثلاث - جنازة سريعة، أو على سبيل المثال، مساجين حرب بهيئة رثّة، يمشي إلى جانبهم جزلاً، الشخص الذي قبض عليهم. كما في أغلب الأحيان، كان عنوان الصورة الرئيسيّة اقتباساً من قصيدة شعبيّة ما أو أغنية، وقد يكون طويلاً جدّاً، مثل «لا مزيد من براعم الأقحوان في الحديقة» أو «كان قلبها لعبة في يديه» أو «مثل لعبة مكسورة». كان للبطلات جبين منخفض، حواجب مهيبة، وعيون مظلّلة بسخاء. كان أفضل ممثل حينها «موزهوهين». اكتسب أحد المخرجين قصراً في ريف «موسكو» ذا أعمدة بيضاء (ليس كقصر خالي)، وقد ظهر في كل العروض التي قدّمها. كان «موزهوهين» يصل هناك فوق عربة ثلج سريعة، مثبّتاً نظره على مصباح إحدى النوافذ، بينما ترتجف عضلة صغيرة مشهورة تحت جلد فكّه المشدود.

حين لم يحالفنا التوفيق في المتاحف ودور السينما، وكان الليل لا يزال في أوّله، أُجبرنا على اكتشاف المعالم البريّة لأكثر مدينة غامضة

ومضنية. كانت رطوبة الجليد فوق أعيننا تحوّل مصابيح الشوارع المزويّة إلى كائنات بحريّة مع عمود فقري مشع. عندما عبرنا الساحات الواسعة، ظهرت أمامنا بشكل مفاجئ وصامت، مختلف الأشباح المعماريّة. شعرنا بالصقيع، ذاك الذي لا يقترن عادةً بالارتفاع وإنّما بالعمق ـ مع هاوية تفتح فمها تحت الأقدام ـ عندما تكون أعمدة كبيرة ومتجانسة من الغرانيت المصقول (صقلها العبيد، أعاد صقلها القمر، وتدور بسلاسة في فراغ الليل المصقول) تبرز فوقنا لتدعم الاستدارة الغامضة لكاتدرائيّة «سانت إيزاك». توّقفنا عند حافة المرتفعات الخطيرة، إن جاز التعبير، المصنوعة من الأحجار والمعادن، شبكنا أيدينا، وبهلع «ليليبوتي»(١)، مددنا رأسيْنا لنراقب رؤى جبّارة جديدة، تشرق في طريقنا. عشر أعمدة رماديّة لامعة في رواق القصر منحوتة على شكل «أطلس»، أو مزهريّة عملاقة من «الرخام السمّاقي» قرب بوابة الحديقة الحديديّة، أو ذاك العمود الهائل مع ملاك أسود فوق قمّته، مشوّهاً المنظر بدل أن يزيّنه، وساحة القصر الغارقة تحت أمواج ضوء القمر، التي كانت تعلو وتعلو، محاولة عبثاً أن تصل قاعدة تمثال «بوشكين» «Exegi monumentum».

ثم ادّعتْ بعد مدّة، في لحظات مزاجها السيء النادرة، أن حبّنا لم يصمد أمام جموح الشتاء ذاك؛ «هناك خلل» قالت. خلال كل تلك الشهور، استمرّرت في تأليف القصائد لها، وعنها، بمعدّل قصيدتيْن أو ثلاث أسبوعيّاً؛ خلال ربيع ١٩١٦ نشرت مجموعة منها ـوقد رُعبت عندما لفتتْ انتباهي لأمر لم أكن قد لاحظته البتّة عندما طرحت الكتاب للتداول. وهناك كان، ذاك الخلل المشؤوم ذاته، تلك الحفرة البلهاء التي وقعتِ فيها، حين أوحيتُ بزلّة قلم أن حبّنا كان محكوماً بالفشل طالما أنّه لم يكن قادراً على استعادة سحر لحظاته الأولى، حفيف وتنهّد

(١) ليليبوت: مدينة للأقزام.

أشجار الزيزفون تلك تحت المطر، والتعاطف الذي أحاطنا به الريف. وعلاوة على ذلك، رغم الملاحظة التي لم ينتبه أيّ منا لها مسبقاً، فإن قصائدي كانت مادة يافعة، مجرّدة من أيّة جدارة تؤهلها لمرتبة ديوان مطروح للبيع. وهذا الكتاب (لا تزال نسخة منه، للأسف، موجودة في «القسم المغلق» من مكتبة «لينين»، «موسكو») قد استحق ما ناله من مخالب قلّة من النقّاد الذين تناولوه في نشرات دوريّة مغمورة. أستاذ الأدب الروسيّ في المدرسة، «فلاديمير هيبوس»، أستاذ من الفئة الأولى رغم قصائده النخبويّة التي كنت معجباً بها (وقد تفوّق بموهبته، حسب رأيي، على ابنة عمّه الأكثر شهرة، «زنايدا هيبوس»، شاعرة وناقدة) قد قام بإحضار نسخة من كتابي إلى الصف، وانتقد أكثر الأبيات شاعريّة بسخرية لاذعة (كان رجلاً شرساً بشعر أحمر) مثيراً صخباً جنونيّاً بين غالبية زملائي. ابنة عمّه الشهيرة، وخلال جلسة للـ«صندوق الأدبي»، والذي كان والدي رئيساً له، رجتْه أن يخبرني أني أبداً لن أصبح كاتباً، أبداً. بنيّة حسنة، قام أحد الصحفيين المعوزين وعديمي الموهبة، وقد كان ممتناً لوالدي لأسباب معيّنة، قام بكتابة مقال حماسيّ عني بطريقة لا تُصدّق، حوالي خمسمائة سطر تقطر ثناءً عالياً؛ اعترضه والدي في الوقت المناسب، أذكر كيف أثناء قراءتنا، أنا وهو، لمخطوط المقال، صررنا أسنانا وتأوّهنا ـ طقسٌ تبنّته عائلتنا للتعبير عن الامتعاض من حماقة شخص ما، أو من أمر مبتذل. ولكن كلّ ما قد حدث قد شفاني بشكل دائم من اهتمامي بالشهرة الأدبيّة، وربما كان سبباً في تلك اللامبالاة المرضيّة الغير مبرّرة في كثير من الأحيان، تجاه المقالات النقدّية، ممّا حرمني في السنوات الأخيرة من اختبار المشاعر التي يُقال إن معظم الكتّاب قد خبِروها.

حين أذكر ربيع ١٩١٦، في معرض حديثي عن صور معيّنة كتلك الخاصّة بـ«تامارا»، فإني أقصد ربيع «سانت بطرسبرغ»، حين كانت تعتمر

قبّعة بيضاء غير مألوفة، بين المتفرّجين على مباراة كرة قدم عنيفة تجري بين طلّاب المدارس، والتي، ذات يوم أحد، كان الحظ الرائع حليفي في صدّ الهجمات الواحدة تلو الأخرى؛ فراشة «Camberwell Beauty»، بنفس عمر قصّة حبنا، تفرد أجنحتها السوداء المرضوضة تحت الشمس، بحوافها التي ابيضّت بفعل السبات الشتويّ، كانت جاثمة فوق ظهر مقعد في حديقة «آلكساندروفسكي»؛ طنين أجراس الكاتدرائية يسري في الهواء اللاسع، فوق التموّجات الزرقاء القاتمة لنهر الـ«نيفا»، وقد تدفّق فرحاً بتحرّره من الجليد؛ المعرض الذي يُقام في شارع «Horse Guard Boulevard» حيث تتساقط قصاصات الزينة فوق الأرض الطينيّة، خلال أسبوع «العساليج»، مع صخب فرقعة الألعاب الناريّة، الألعاب الخشبيّة، والصياح المبتهج للباعة المتجوّلين الذين يحملون راحة الحلقوم وأشكالا هلاميّة شيطانيّة، تُدعى «merikanskie zhiteli» («السكان الأمريكيّون» لقب قد حصلت عليه بغاية الإشارة إلى كونها غريبة فقط) - عفاريت صغيرة جداً تتحرك هبوطاً وصعوداً داخل أنابيب زجاجيّة مملوءة بالكحول المصبوغ بلونورديّ أو ليلكيّ، كما يفعل الأمريكيّون في المصاعد الشفّافة لناطحات السحاب، حيث تتماهى أضواء المكاتب مع السماء المخضوضرة. الهياج في الشوارع يجعل المرء ثملاً برغبته في الانطلاق نحو الغابات والحقول. كنّا أنا و«تامارا» توّاقيْن للعودة إلى مساكننا الأولى، ولكن أمّها بقيتْ طيلة الربيع متردّدة ما بين استئجار الكوخ ذاته، وبين البقاء في المدينة لأسباب اقتصاديّة. أخيراً، وتحت شرط معيّن (قبلتْ به «تامارا» دون جدل، كما فعلتْ حورية البحر الصغيرة في قصة «هانز آندرسون»)، تمّ استئجار الكوخ، وها هو صيف مجيد يحيط بنا من جديد، وها هي محبوبتي السعيدة، تقف على رؤوس أصابعها وتحاول شدّ غصن «كرز عنقوديّ» لتقطف ثمرته الذابلة، مع كلّ العالم وأشجاره الذي يدور في جرم عينيْها الضاحكتيْن، وبقعة من الجهد

الأسمر الذي بذلته تحت الشمس، قد ظهرتْ تحت إبطها المرفوع، فوق قماش «الشانتون» لفستانها الأصفر. تُهنا في غابات الطحالب، واستحمّينا في خلجان القصص الخرافيّة، وأقسمنا بتيجان الزهور على الحبّ الأبديّ، إلى أن، انتقلتْ إلى المدينة في الخريف للالتحاق بوظيفة، فقد كانت ككلّ الحوريّات الروسيّات، مولعة بالحياكة (وهذا ما كان عليه شرط أمّها)، وفي الشهور التي تلتْ والتي لم أتمكّن من رؤيتها خلالها، غرقتُ في تأمّل قصتنا كما لو كانت نوعاً من الخبرات التي ينبغي لكلّ أديب راقي أن يطمح لها. كنت قد دخلت فعلاً مرحلة مستفيضة بالمشاعر الحسيّة، وقد استمرّت حوالي عشر سنوات. عندما أنظر إليها اليوم من برجي أراني كمائة شاب اجتمعوا في شخص واحد، يسعى كلّ منهم وراء فتاة مختلفة في سلسلة من العلاقات العاطفية المتشابكة والمتزامنة، بعضها مسرّ، والبعض الآخر رخيص، تتراوح بين مغامرات الليلة الواحدة، وبين تورطي بعلاقات مديدة يتخللها الخداع، مع أقلّ النتائج الفنيّة. المغامرات التي خضتها، وظلال كل تلك الفاتنات، لا تبدو لي اليوم عديمة النفع وحسب في إعادة تركيبي للماضي، بل تحوّلت إلى تشويش مزعج، ومهما عانيت الآن لمحاولة شدّ براغي الذاكرة، فإنني لا أتذكر كيف انفصلنا أنا و«تامارا». قد يكون هناك سبب آخر لهذا التشويش: لقد انفصلنا مرّات عديدة قبلاً. خلال ذلك الصيف، كنّا ننفصل وللأبد بعد كلّ لقاء سريّ، إذ كنت كلّما سال ظلام الليل فوق الجسر الخشبيّ بين قمر ملثّم ونهر ضبابيّ، أقبّل جفونها الدافئة والرطبة، ووجها الممطر البارد، ثم أعود إليها مباشرة بعد مغادرتي، من أجل وداع آخر ـ ثم تأتي قيادة الدراجة المتهادية فوق ذاك الطريق الطويل، المعتم والعسير، أضغط فوق الدوّاسات ببطء ومشقّة، محاولاً عبور الظلام الجبار والمرن في الوقت ذاته.

ومع ذلك فإني أتذكر بوضوح يفطر الفؤاد، مساءً معيّناً من صيف

١٩١٧، بعد انفصال دام طوال الشتاء لأسباب غير مفهومة، قابلت حينها «تامارا» في محطة قطار إحدى الضواحي. لدقائق قليلة، بين محطّتيْن، فوق منصة عربة تهتزّ وتصدر صريراً، كنّا وجهاً لوجه، أنا في حالة شديدة من الحرج، والأسف المهين، وهي كانت تتناول لوحاً من الشوكولا، مقسّماً إلى أجزاء متناظرة، صغيرة وقاسية، وكانت تتحدّث عن المكتب الذي تعمل فيه. على أحد جانبيّ المسارات، وفوق المستنقعات الزرقاء، كان الدخان القاتم الناتج عن حرق الطحالب يندمج مع ألون الغروب العنبريّة، البقايا الناجية من حريق الشمس. أعتقد أن بإمكاني الاثبات، بالاستناد إلى سجلّات منشورة، أن «آلكسندر بلوك» لم يكن بعد قد أشار في يوميّاته إلى دخان حريق الطحالب الذي رأيته، والسماء الناجية من حريق. ويبدو أني في فترة لاحقة من حياتي، قد وجدت الرابط بين تلك الصور وبين نظرتي الأخيرة إلى «تامارا»، وكانت قد عادت بضع درجات لتلقي عليّ نظرتها الأخيرة قبل أن تهبط إلى غروب آخر بعطر الياسمين، حيث لا شيء يُسمع إلاّ صرير الجنادب؛ ولكن اليوم، لا يمكن لأيّة ملاحظة هامشيّة دخيلة، أن تلطّخ نقاء ألمي.

٣

في آخر السنة، وعندما تولّى «لينين» الحكم، قام البلاشفةُ مباشرة بإخضاع كلّ شيء لسلطتهم، وبدأ نظام شاذ يسري في البلاد، قائم على سفك دماء، معسكرات الاعتقال، والرهائن. اعتقد البعض حينذاك أن التصدِّي لـ«لينين» وإنقاذ بعض منجزات ثورة مارس، هو أمر ممكن. أما والدي، الذي تمّ انتخابه للجمعيّة التأسيسيّة، والتي كانت في مرحلتها الأولى تناضل لمنع التعدّيات السوفيتيّة، فقد قرّر أن يبقى في «سانت بطرسبرغ» طالما كان الظرف ممكناً، ولكنّه أرسل عائلته الكبيرة إلى شبه

جزيرة القرم، الإقليم الذي كان لا يزال حرّاً (حرية لم تستمر لما يزيد عن أسابيع قليلة). سافرنا في قسميْن، وكنّا أنا وأخي منفصليْن عن أمي مع إخوتي الثلاث الصغار. مرّ أسبوعٌ على الحقبة السوفيتيّة الثقيلة؛ استمرّت الصحف الليبيراليّة بالصدور؛ رافقنا والدي إلى محطة «نيكولايفسكي»، وبينما كان منتظراً معنا، جلس، برباطة جأشه، إلى طاولة زاوية في البوفيه ليكتب بيده المنسابة «السماويّة» (كما قال المنضّد، مندهشاً من عدم الحاجة لتصحيح كلمة)، مقالاً رئيسيّاً للـ «Rech» المحتضرة (أو بعض المنشورات الطارئة) فوق سطور طويلة من أوراق معدّلة، تتطابق بشكل مناسب مع أعمدة الطباعة. بقدر ما أذكر، فإنه قد تمّ التعجيل بتسفيرنا أنا وأخي، بسبب الخوف من احتمالية انتدابنا للالتحاق بالجيش الأحمر إن بقينا في المدينة. كنت منزعجاً من فكرة الرحيل إلى منطقة فاتنة في منتصف نوفمبر، بعد أن كان موسم صيد الفراشات قد انتهى، ولم أكن بعد بارعاً في الحفر بحثاً عن الشرانق (ومع ذلك، في نهاية المطاف، توصّلت لإيجاد بعضها تحت شجرة البلوط الكبيرة في حديقتنا في القرم). انقلب الانزعاج إلى ضيق، حين رسم أبي بدقّة إشارة الصليب فوق وجه كل منّا، وأضاف «ves'ma vozmozhno» أنه ربما لن يرانا مجدّداً؛ وهكذا، بمعطف مطريّ وقبّعة كاكيّة، بحقيبته تحت ذراعه، شقّ طريقه مبتعداً بخطوات كبيرة، واختفى في الضباب.

بدأت رحلتنا الطويلة نحو الجنوب بشكل جيّد ومقبول، مع حرارة عالية ومصابيح جديدة في مقصورات الدرجة الأولى لقطار «بتروغراد - سيمفروبول»، ومغنّية معروفة جداً، وقفت في الرواق، بزينة وجهها الدراميّة، وباقة أقحوان ملفوفة بورق بنيّ مشدودة إلى صدرها، وكانت تنقر على زجاج النافذة، التي كان يماشيها راكضاً رجل من الخارج يلوّح بيده، بينما بدأ القطار بالانزلاق، دون أي اهتزاز يوحي بأننا كنّا راحليْن

عن تلك المدينة الرماديّة للأبد. ولكن بعد أن عبرنا «موسكو»، فقدنا أدنى وسائل الراحة. عند نقاط عدّة من تقدّمنا البطيء، كان يغزو القطارَ، ومقصوراتنا ضمناً، بعض جنود البلاشفة العائدين من الجبهة إلى بيوتهم (قد تُطلق عليهم تسمية «المرتدّين» أو «الأبطال الحمر» حسب وجهة النظر السياسيّة لكلّ شخص). وجدنا أنا وأخي مرحاً في فكرة حبس نفسيْنا داخل المقطورة لنبقى بعيديْن عن أيّ إزعاج محتمل. بعض الجنود الذين كانوا يمشون فوق سقف العربة، قد أضافوا مرحاً للعبتنا، حين حاولوا وفشلوا، في استخدام فتحة التهوية الخاصة بمقطورتنا كمرحاض. وقد تمكّن أخي، ممثّل من الدرجة الأولى، من التظاهر بكل أعراض التيفوس المرعبة، وهذا ما أنقذنا من الإحراج، حين توصّلوا في نهاية المطاف لفتح بابنا. في الصباح المبكّر لليوم الثالث، وعند توقّف لم نعرف سببه، استغلّيتُ هدوء تلك الاجراءات اللطيفة لأتنفس هواءً نقيّاً. مشيت بحذر خلال ممرّ مزدحم، متخطّياً أجسام رجال يشخرون، ثم خرجت. ضباب حليبيّ قد غشي رصيف محطّة مجهولة ـ كنّا في مكان لا يبعد عن «خاركييف». كنت أنتعل نصف جرموق وأعتمر قبعة ركوب الخيل. العكّاز الذي كنت أحمله، هو من أحد الأشياء الثمينة التي جمعها خالي «روكا»، وكان من الخشب فاتح اللون، والمنمّش بروعة، أما المقبض فكُرة مرجان ورديّة مصقولة ومكلّلة بالذهب. لو كنت واحداً من أولئك المشرّدين البائسين الذين يفترشون رصيف المحطة، ورأيت أمامي شاباً غُندوراً وقحاً قد ظهر، وصار يتمشّى ذهاباً وإياباً، لم أكن لأصمد أمام غواية قتله. عندما أوشكتْ عودتي إلى متن القطار، أطلقَ رجفة وبدأ يتحرك؛ انزلقت قدمي وطارت عكازي تحت العجلات. لم أكن أحمل لها عاطفة خاصّة (في الحقيقة كنت قد أضعتها قبل سنوات خلت بسبب إهمالي) ولكن كان هناك من شهد الحادثة، وقد دفعني جنون المراهق المعتدّ بنفسه لارتكاب ما لا يمكن أبداً أن أتخيّل نفسي اليوم أقوم به.

انتظرت مرور عربة، اثنتيْن، ثلاث، أربع (كانت القطارات الروسيّة بطيئة جداً بحشد زخمها)، وحين ظهرتْ العجلات، أخيراً، انتشلت عكّازتي من بينها، وركضت وراء «صادّة العربات» التي كانت تبتعد وكأنّها كابوس. امتدّتْ لانتشالي ذراعان قويّتان لبروليتاريّ، تتطابق مع قواعد الخيال العاطفي (أكثر منها مع قواعد «ماركس»). لو أني تخلّفتُ عن القطار، لكنت أيضاً اعتبرت تلك القواعد جيّدة، بما أنني كنت سأبقى بالقرب من «تامارا»، التي هي بدورها انتقلت في ذلك الوقت إلى الجنوب لتعيش في قرية أوكرانيّة، على بعد أقلّ من مائة ميل، من مكان الحادثة السخيفة تلك.

٤

عرفت عن مكانِ تواجدها بعد وصولي إلى جنوب القرم بشهر أو ربما أكثر. استقرّت عائلتي في محيط «يالطا»، في «غاسبارا»، بالقرب من قرية «كوريز». بدا لي المكان برمّته غريباً؛ لم تكن الروائح روسيّة، وكذلك الأصوات، وحتى الحمار الذي كان ينهق مساءً كلّما أطلق المؤذّن أنشودته من مئذنة القرية (برج نحيل أزرق ومظلّل، تحت سماء خوخيّة اللون) كان بغدادياً بامتياز. وهناك، وقفتُ فوق مسار كلسيّ للبغال، قرب سرير سيلٍ طينيّ أيضاً، حيث تماوج الماء في خطوط منفصلة تشبه الأفاعي، ثم انسال فوق حجارة بيضاويّة ـ كنت هناك، ممسكاً برسالة من «تامارا». نظرت إلى جبال «يايلا» شديدة الانحدار، التي تكسوها حتى سفوحها، طبقة صوفيّة قد حاكتها أشجار الصنوبر الداكن في «توريسا»؛ بين البحر والجبل، يمتدّ غطاء نباتي دائم الخضرة؛ في السماء الورديّة الشفّافة، لمع هلال خجول، مع نجمة وحيدة ورطبة بالقرب منه؛ كل ذلك المشهد الاصطناعي قد هزّني

وجعلني أشعر أني موجود في رسم مصوّر بطريقة جميلة، ولكن مختصرة للأسف، ضمن طبعة لكتاب «الليالي العربية». أحسست فجأة بغصّة المنفى. لا بدّ أن هذا ما كان حال «بوشكين» عليه ـ «بوشكين» الذي تجوّل هنا منفيّاً، بين أشجار السرو والغار المستوطنة ـ ولكن رغم أن قصائده كانت بعض دافعٍ لأحاسيسي، إلا أني لا أظن أنّ ما اعتراني كان ادّعاءً. منذ ذلك الحينَ ولسنوات عدّة، وحتى أن جاءت كتابتي للرواية لتخفّف عني تلك العاطفة الجيّاشة، فإن فقدان بلدي كان يعادل عندي فقدان حبي.

في هذه الأثناء، تغيّر وضع عائلتي تماماً. لولا المجوهرات التي دفنّاها بذكاء في المحتوى العادي لعلبة مسحوق تالك، لكنّا دُمّرنا بالكامل. لكن يبقى هذا الأمر لا يُذكر أمام سواه. أُطيح بالحكومة المحليّة التتريّة لتحلّ مكانها أخرى سوفيتيّة جديدة، وقد وقعنا تحت إحساس رهيب ومهين من انعدام تامّ للأمان. خلال شتاء ١٩١٧ ـ ١٨، وأيضاً خلال ربيع القرم الريحيّ والمشرق، كان الموت يدور حولنا متهادياً. كل يوم، فوق ميناء «يالطا» الأبيض (حيث، كما تذكرون، أضاعت سيدة «تشخيوف»، «السيّدة والكلب»، ناظورها بين حشود الواصلين لقضاء عطلة) كان هناك شتّى الأشخاص المسالمين، يتقدّمون، مع أثقال مغلولة إلى أقدامهم، ومن ثمّ أطلق عليهم النار بعض البحارة البلاشفة الذين استُقدموا من «سيباستوبول» خصيصاً لهذ الغرض. أما والدي، الذي لم يكن مسالماً، فقد انضم إلينا في ذلك الوقت، بعد خوضه لعدّة مغامرات خطيرة، وفي تلك المنطقة التي تعجّ بأخصّائيي الرئة، استطاع أن يزوّر شخصية طبيب دون حاجة لتغيير اسمه («بسيطة وأنيقة» كان ليقولها معلّق مبارياَت شطرنج عند القيام بحركة مناسبة). أقمنا في فيلا غير مثيرة للشبهات، وضعتْها تحت تصرّفنا صديقة لطيفة، الكونتيسة «صوفيا بانين». في ليال معيّنة، عندما أثيرت شائعات عن وجود قتلة على مقربة

منا، قام رجال البيت متناوبين بحراسة البيت. كانت الظلال الهزيلة لأوراق الدفلى تتحرك بحذر بفعل نسيم البحر، فوق حائط كالح، وكأنها تشير إلى شيء، بطريقة سرّية للغاية. كان لدينا جفت وبندقيّة بلجيكيّة آليّة، وفعلنا أقصى ما أمكننا للاستخفاف بالمرسوم القاضي بإطلاق النار فوراً على كل من يُشاهد بحوزته سلاح غير مرخّص.

كان الحظّ لطيفاً معنا؛ لم يحدث شيء ما عدا الصدمة التي تلقيّناها في منتصف ليلة من ليالي يناير، عندما ظهر شخص على هيئة قاطع طريق، ملتفع بالجلد والفراء، وقد تسلل حتى صار بيننا ـ ولكن تبيّن أنه سائقنا السابق «تسيغانوف»، الذي جاءنا دون تردّد من «سانت بطرسبرغ» راكباً فوق «صادّات عربات» القطارات وفي شاحنات البضائع، عبر كلّ تلك المسافات الروسيّة الهائلة، الجليديّة والمتوحّشة، ليجلب لنا مبلغاً محترماً وغير متوقّع، أرسله لنا أحد أصدقائنا الطيبين، المبلغ الذي رحبّنا به أيّما ترحيب. كما أنّه جلب بريدنا الوارد إلى بيتنا في «سانت بطرسبرغ»؛ وقد وصلتني رسالة «تامارا» بين جملة ما وصل. بعد إقامة شهر، أعلن «تسيغانوف» أن مناظر القرم قد أضجرته فرحل ـ عائداً على طول الطريق الشماليّ، مع حقيبة كبيرة فوق كتفيْه، تحوي مختلف الأشياء التي كنا لنقدمها له بكلّ سرور لو علمنا أنّه يرغب بها (مشجب ضاغط للسراويل، أحذية تنس، ملابس نوم، ساعة منبّه، مكواة ملابس، وعديد من توافه أخرى قد نسيتها) ولم يُلاحظ غيابها إلا تدريجيّاً من قبل خادمة شاحبة المفاتن بسبب فقر دمها، وقد فضحتْ الأمر بحماس انتقاميّ، إذ تبيّن أنه قد سرقها أيضاً. ما يثير الغرابة أنه هو من أقنعنا بدفن علبة التالك التي تحوي الأحجار الكريمة الثمينة الخاصّة بوالدتي (المكان الذي رصده على الفور) داخل حفرة في الحديقة تحت شجرة بلوط، وكانت كلّها موجودة هناك بعد رحيله.

ثمّ، في أحد أيام ربيع ١٩١٨، عندما نفث اللوز براعمه الورديّة

فأنعشتِ الجبال المظلمة، اختفى البلاشفة ليحلّ مكانهم جيش ألمانيّ صامت ومتفرّد. وجد الوطنيون من الروس أنفسهم ممزّعين بين إحساسهم الغريزي بالارتياح من خطر إعدامهم على يد مواطنيهم، وبين اضطرارهم لعزو ذلك الخلاص إلى محتلّ غريب ـ الجيش الألمانيّ على وجه الخصوص. وكان هذا الأخير قد خسر معركته في الغرب ووصل «يالطا» على رؤوس أصابعه، مع ابتسامات متردّدة وخجولة، جيش رماديّ كهذا يسهل على وطنيّ أن يتجاهله، ولقد تجاهله الجميع فعلاً، باستثناء بعض الجاحدين الذين كانوا يكبتون ضحكاتهم كلّما نظروا إلى اللافتات الموضوعة فوق عشب الحدائق، والتي كُتب عليها «ممنوع المشي فوق العشب». بعد مرور شهرين، بعد أن قام الجيش الألماني بإصلاحات سمكريّة دقيقة في كلّ الفلل التي أجلاها المفوضون، اختفى بدوره أيضاً؛ تسللّ «البيض» من الشرق وسرعان ما بدأوا المعركة مع الجيش الأحمر، الذي كان يهاجم القرم من الشمال. أصبح والدي وزيراً للعدل في الحكومة الإقليميّة الواقعة في «سيمفروبول»، وأقامت عائلته قرب «يالطا» فوق أراضي «ليفاديا»، والتي كانت ملكيّة القيصر سابقاً. اهتياج الفرح الحماسيّ والمحموم، الذي عمّ المدن التي دخلها الجيش الأبيض، قد أعاد وسائل الراحة الخاصّة بسنوات السلم، ولكن بنسخة مبتذلة. ازدهر عمل المقاهي بشكل رائع، وكذلك المسارح بكلّ أنواعها. ذات صباح وعلى درب جبل، التقيت فارساً غريباً بزيّه الشركسي، وكان وجه المطليّ بالأصفر الخلاّب يتعرق بغزارة. كان وبكلّ عزمه يشدّ حصانه، ولكنّ ذاك الحرون قد بقي مصمّماً على النزول نحو المنحدر، متجاهلاً كل محاولات صاحبه، كما لو كان شخصاً أهين أثناء حفلة ويريد مغادرتها. كنت قد رأيت الكثير من الخيول الهاربة، ولكن لم يسبق لي أن رأيتها منسحبة، وكانت متعة دهشتي تفوق تلك التي خبرتها حين تعرفت على «موزهوهين»، الخيّال البائس، الذي شاهدناه أنا و«تامارا»

على الشاشة وأعجبنا به. فوق نطاق المراعي الجبليّة تلك، كان يُعاد تصوير فيلم «الحاج مراد» (الحكاية التي كتبها «تولستوي» عن فارس الجبل المقدام). «أوقف تلك البهيمة [Derzhite proklyatoe zhivotnoe]» قالها كازّاً على أسنانه حين رآني، ولكن بنفس الوقت، ومع صوت الأحجار الهائل التي كانت تُسحق وتتحطّم، وصل تتريّان أصيلان لمساعدته، بينما تابعتُ شقّ طريقي صعوداً نحو أعلى صخور الجبل الحاد، حيث كانت فراشة «Hippolyte Grayling» ذات العرق العائد لمنطقة البحر الأسود، تنتظرني هناك.

خلال صيف ١٩١٨، كواحة بائسة لسراب شبابنا، تردّدنا أنا وأخي على العائلة المحِبة وغريبة الأطوار التي امتلكت «أوليز» العقار الساحلي. سرعان ما تطوّرت علاقة مرحة بيني وبين «ليديا.ت» التي كانت تماثلني في العمر. كنا دائماً محاطين بشبّان، شابات جميلات يضعن الأساور حول معاصمهنّ السمراء، رسّام مشهور يُدعى «سورين»، راقص باليه، ضباط مرحين من الجيش الأبيض قد مات بعضهم في وقت لاحق، وبين حفلات الشاطئ، وحفلات العشاء في الهواء الطلق، بين المواقد المشتعلة، ولألأة القمر فوق سطح البحر، مزوّدين بما يكفي من نبيذ كروم القرم، لم يفتنا الاستمتاع بملذات الحب؛ طوال الوقت، مقابل تلك الخلفيّة التافهة، المبتذلة، وغير الواقعيّة إلى حدّ ما (والتي يسرّني اعتقادي أنها مستحضرة من أجواء زيارة «بوشكين» للمنطقة منذ قرن خلا) اخترعنا أنا و«ليديا» لعبة خياليّة. تقوم الفكرة على تقليد ما يشبه سيرة ذاتية متوقّعة، إن جاز التعبير، في المستقبل، وبالتالي تحويل الحاضر المضلّل إلى ماض مشلول، كما لو كانت أموراً يستذكرها كاتب مذكرات خرف، عبر حجاب كثيف من الضباب، كعلاقته مع كاتب مشهور حين كان كلاهما شاباً. على سبيل المثال، قد يقول أحدنا، «ليديا» أو أنا، حين كنا نخرج إلى الشرفة بعد العشاء: «أحبّ الكاتب أن

يخرج إلى الشرفة بعد العشاء» أو «سأذكر دائماً الملاحظة التي قدّمها «ف.ف» ذات ليلة دافئة، وهي أن تلك الليلة، كما لاحظ، كانت دافئة»؛ أو حتى ما هو أسخف من ذلك «اعتاد أن يشعل سيجارته قبل أن يدخّنها» ـ ألّفنا كلّ ذلك بحماس شديد جداً وقد بدا جزلاً وغير مؤذ لنا في ذلك الوقت؛ ولكن الآن ـ الآن أقبض على نفسي متسائلاً ما إذا كنا قد أزعجنا دون قصد بعض الشياطين المؤذية الشريرة.

خلال كل تلك الأشهر، كان يُتدبر أمر وصول حقيبة البريد من «أوكرانيا» إلى «يالطا»، والتي كانت تحمل بينها رسالة من «خرشوفتي». لا يوجد ما هو أكثر غموضاً من طريقة وصول الرسائل إلينا، التي كانت تتم تحت رعاية مذهلة من قبل ناقليها، رغم الفوضى العارمة للحرب الأهلية؛ ولكن كلّما كان هناك فواصل في مراسلاتنا بسبب تلك الفوضى، فإن «تامارا» كانت تتصرّف كما لو أنّها اعتبرتْ تسليم الرسائل أمراً بديهياً من أعمال الطبيعة، كالمدّ والجزر أو عوامل المناخ، التي لا تتأثر بالشؤون الإنسانيّة، وعليه فإنها اتهمتني بإهمال ردّي على رسائلها، بينما كان جلّ ما أفعله هو الكتابة إليها والتفكير بها، بغضّ النظر عن خيانات عدّة.

٥

سعيد هو الروائيّ الذي يتمكّن من أن يحفظ رسالة حبّ كان قد تلقّاها فعليّاً أثناء شبابه، داخل عمل خياليّ، ورسّخها فيه كطلقة اخترقت لحماً حيّاً واستقرّت هناك، بين حيوات زائفة. أتمنى لو أني احتفظت بكلّ مراسلاتنا بتلك الطريقة. كانت رسائل «تامارا» استثارة دائمة للمناظر الريفيّة التي عرفناها جيداً معاً. وكانت تلك الرسائل، بمعنى ما، ردّاً غنائيّاً بعيداً ولكن شديد الوضوح، على كلّ كلمات الأغاني التي سمعتها

منها يوماً، والتي لم تكن معبّرة بالقدر ذاته. باستخدامها لكلمات دون سابق إعداد، استطاعت فتاة الثانوية أن تنفخ بقوّة من خلال نثرها، على كل ورقة شجر رطبة، كل ساق سرخس قد صدأ لونه خلال خريف الريف في «سانت بطرسبرغ». «لمَ كنا نشعر بكلّ تلك البهجة حينما كانت تمطر؟»، وكأنها تعود إلى مصادر البلاغة الصافية، إن جاز التعبير. «Bozhe moy» («mom dieu» أو بالأحرى «يا إلهي»)، أين ذهب، كل ما هو بعيد، مشرق وجميل (Vsyo eto dalyokoe, svetloe, miloe، تختصر تلك الكلمات الروسية كتابة موضوع، إذ أنها صفات حياديّة تلعب دور أسماء مجرّدة، فوق خشبة عارية، وتحت أضواء خافتة).

«تامارا»، روسيا، الغابات البريّة التي تحوّلت لحدائق قديمة، أشجار البتولا والتنوب الشماليّة خاصّتي، منظر أمي وهي تنزل على كفّيها وركبتيْها لتقبّل أرض القرية كلّما عدنا من المدينة لقضاء الصيف، الجبل والسنديانة الكبيرة ـ كل تلك الأشياء التي انتهى مصيرها ذات يوم، إلى حزمة مقذوفة في البحر، قد فصلت تماماً بيني وبين سنين فتوّتي. ومع ذلك، فإني أتساءل ما إن كان هناك مزيدٌ مما يمكن قوله عن تلك الأقدار التي تصيبنا بالخدر، عن، على سبيل المثال، الديمومة الزمنيّة السلسة، الآمنة والخاصّة بقرية صغيرة، مع غياب بدائي لمشهديتها بنفس الوقت، حين، شخص في الخمسين من عمره لا يزال مقيماً في بيت طفولته، وكلما أراد تنظيف العليّة يجد في طريقه أكوام كتب المدرسة القديمة البنيّة ذاتها، تتراكم فوق أشياء أتت لاحقاً ولم تعد ذات نفع أيضاً، وحيث، تتوقف زوجة عند الطريق الجانبي صباح يوم الأحد الصيفيّ، لتتحمّل الحديث لدقيقة أو دقيقتيْن إلى السيدة «ماك جي» من أخوية الكنيسة، تلك القبيحة الثرثارة ذات الشعر المصبوغ، التي، وبالعودة إلى عام ١٩١٥، كانت هي «ماري آن» الشقيّة والجميلة جداً، ذات الأصابع الرشيقة، التي تزفر أنفاسها برائحة النعنع.

أثناء محاولتي لاستذكار الماضي، صُفعت بهذا الفاصل الذي شرخ قدري وقد منحني رعشة غيبوبة، لم أكن لأتمنى فواتها مقابل أي شيء في هذا العالم. منذ أن بدأت مراسلات «تامارا»، صار حنيني للوطن مسألة استثنائيّة وحسّية. في يومي هذا، فإن الصورة الذهنيّة للعشب المتلبّد في جبال «يايلا»، لوادٍ في «الأورال» أو برك الملح المسطّحة في منطقة «آرال»، تثير حنيني ووطنيتي أقلّ، أو لنقل بنفس قدر، ما قد تفعل الصورة الخاصة بـ «يوتا»؛ ولكن حدّثني عن أي شيء أو أي بقعة أرض في العالم تشبه ريف «سانت بطرسبرغ»، وانظر إلى قلبي كيف سيذوب! كم يصعب عليّ تخيّل ما الذي كنت سأراه مجدّداً من محيطي السابق لو أتيحت لي الفرصة. أوهم نفسي أحياناً أني أعود لزيارته بجواز سفر مزوّر، وتحت اسم مفترض. إنها فكرة قابلة للتنفيذ.

لكني لا أعتقد أني سأقوم بها أبداً. لطالما حلمت بذلك لفترة طويلة وبطريقة خاملة جداً. على نحو مماثل، في النصف الثاني من إقامتي في القرم والتي استمرت ستة عشر شهراً، بقيت أخطّط لفترة طويلة للانضمام إلى جيش «دينيكنز»، ليس بهدف امتطاء جواد حرب مزيّن وسماع قرشة حوافره فوق طرقات ضواحي «سانت بطرسبرغ» المرصوفة بالحجارة (حلم المسكين «يوري»)، بل كي أصل إلى «تامارا» في قريتها الأوكرانيّة التي محاها الجيش عن الخارطة في نفس الوقت الذي كنت أخطط فيه. في مارس ١٩١٩، اقتحم الجيش الأحمر شبه جزيرة القرم من شمالها، وبدأ إجلاء صاخب للجماعات المعادية للبلشفيّة من مختلف الموانئ. فوق مرايا البحر في خليج «سيباستوبول»، وتحت إطلاق الأسلحة الرشّاشة البريّة الواصل من الشاطئ (كانت القوّات البلشفيّة قد استولت لتوّها عَلى الميناء) انطلقنا أنا وعائلتي إلى «القسطنطينيّة» و«بيرايوس» فوق سفينة يونانيّة صغيرة ورديئة لها اسم «ناديزدا» (أمل) وتحمل شحنة من الفاكهة المجفّفة. أتذكر أني وبينما كنا نشق طريقاً متعرجاً للخروج من

الخليج، كنت أحاول التركيز على لعبة شطرنج أمام والدي ـ كان أحد الفرسان قد فقد رأسه، وحلّت رقاقة بوكر مكان حجر ضائع ـ أما إحساسي بمغادرة روسيا قد غيّبته تماماً أفكاري المفجعة، التي كانت تحدّثني أنّ رسائل «تامارا» لن تنقطع، بوجود الحمر أو من دونهم، ستصل بأعجوبة إلى جنوب القرم، وستبحث هناك عن عنوان مندثر، وترفرف بضعف، كما تفعل فراشات محتارة قد أُطلق سراحها في منطقة غريبة عنها، على ارتفاع خاطئ، وبين أزهار غير مألوفة.

الفصل الثالث عشر

١

عام ١٩١٩، عبر طريق شبه جزيرة القرم و«اليونان»، فرّت مجموعة من آل «نابوكوف» - ثلاث عائلات في الواقع - من روسيا إلى «أوروبا» الغربيّة. كان مرتّباً لنا أنا وأخي أن نذهب إلى جامعة «كامبريدج» بفضل منحة قُدّمت بسبب اضطرابات الحرب وليس على أساس الكفاءة الذهنيّة. كان المتوقّع لبقيّة عائلتي أن تمضي بعض الوقت في «لندن». وكان من المفترض أن تدفع نفقات المعيشة حفنة المجوهرات التي كانت «ناتاشا»، خادمة مسنّة وبعيدة النظر، وقبل رحيل والدتي من «سانت بطرسبرغ» عام ١٩١٩، قد أفرغتها من الخزانة ووضعتها في حقيبة قد بقيت لفترة قصيرة مدفونة تحت الأرض، أو ربما تكون، وبطريقة غامضة، قد نبتت من أرض حديقة بيتنا في القرم. كنّا قد تركنا بيتنا في الشمال وفي بالنا أننا سنبتعد لفترة قصيرة، كاستراحة ساكنة وحذرة فوق حافّة روسيا الجنوبيّة. لكنّ غضب النظام الجديد رفض أن يهدأ. في «اليونان»، خلال شهرين من فصل الربيع، وفي مواجهة مستمرّة مع كلاب الصيد الغاضبة وغير المتساهلة، بحثت دون جدوى عن فراشة «Gruner's Orange - tip»، «Heldreich's Sulphur» و«Krueper's White»: كنت في الجهة الخاطئة من القرية. تعلّمت رقصة الـ«فوكستروت» على متن سفينة «Cunard liner

«Pannonia» التي غادرت اليونان متّجهة إلى نيويورك، في ١٨ مايو ١٩١٩ (وكان عمري واحداً وعشرين عاماً آنذاك)، وقد هبطتْ بنا في «مارسيليا». تحطّمت سفينة فرنسا خلال ليلة ظلماء. وكنّا ما نزال نشعر بسفينة «شانيل» تتأرجح داخلنا حين توقّف قطار «دوفر ـ لندن» بهدوء. الصور المتكرّرة لإجاص رماديّ فوق الجدران المسخّمة لمحطة «فيكتوريا» تُعلن عن صابون إنكليزيّ، كانت مربيّتي تستخدمه لحمّامي أثناء طفولتي. بعد أسبوع كنت أرقص فوق حلبة تزلّج، في حفلة خيريّة، خدّاً لخدّ، مع أوّل حبيبة لي إنكليزيّة، شابة رشيقة ومشاكسة، وتزيدني خمس سنوات عمراً.

كان والدي قد زار «لندن» سابقاً ـ آخر زيارة في فبراير ١٩١٦، حين دعته الحكومة البريطانية مع خمسة ممثلين بارزين من الصحافة الروسيّة، لإلقاء نظرة على المجهود الحربيّ في إنكلترا (الذي قيل إن الرأي العام الروسيّ لم يفهِ حقّ قدره). في الطريق إلى هناك، قام كلّ من والدي و«كورني تشيكوفسكي» بتحدّي الروائي والشاعر «آليكسي تولستوي» (لا يمتّ بصلة إلى «ليوف نيكولايفيتش») لينظم شعراً على قافية «أفريكا»، فما كان منه إلاّ أن فعل، رغم إصابته بدوار البحر، وألقى هذين البيتيْن الساحريْن:

«Vizhu pal'mu i Kafrika.

Eto-Afrika».

«أرى نخيلاً وزنجيّاً صغيراً، تلك هي أفريقيا».

في إنكلترا، تمّ عرض الأسطول على الزائرين. ثم تلا ذلك دعوات رفيعَة المستوى لأعشية يعقبها خطابات. استيلاء الجيش الروسي على «أرضروم» الذي تزامن مع قرار التجنيد المعلّق في إنكلترا («Will you march too or wait till March 2؟ هل ستمارس وطنيتك أم ستنتظر مارس»

التلاعب اللفظي المكتوب فوق اللوحات الإعلانيّة) قد وفّر مواضيع سهلة للخطباء. خلال مأدبة رسميّة ترأسها «السير إدوارد غراي»[١]، وبمقابلة مضحكة مع «جورج الخامس» أصرّ «تشيكوفسكي»، الشقيّ الرهيب بين المجموعة الروسيّة، على سؤاله ما إن كان أحبّ أعمال «أوسكار وايلد»، «dze ooarks of OOald». أما الملك، الذي أربكتْه لهجة المحقق، والذي، بكلّ الأحوال، لم يكن قارئاً نهماً، فقد صدّ الهجوم عنه ببراعة مستفسراً عن حال ضيوفُه إن كانوا قد أحبّوا ضبابَ «لندن» (بعد ذلك استشهد «تشيكوفسكي» بهذا الانتصار كمثال على الزيف البريطانيّ ـ فقد منعته أخلاقه ككاتب من تحريف الكلام).

في زيارة قمتُ بها مؤخّراً إلى المكتبة العامّة في نيويورك، تبيّن أنّ والدي لم يُدرج الحادثة أعلاه ضمن كتابه «Iz Voyuyushchey Anglii, Petrograd, 1916» (تقرير عن إنكلترا في زمن الحرب) ـ بالفعل، لم أجد عيّنات من روح الفكاهة المعتاد لديه، باستثناء ما كتبه واصفاً لعبة الريشة الطائرة (أو لعلّها «خماسية الصالات») التي لعبها مع «هـ.ج. ويلز»، وزيارة مسليّة قام بها إلى خطوط الخنادق الأولى في «فلاندرز»، حيث بالغت الضيافة في السماح بتعريض الزائرين إلى انفجار قنبلة يدويّة ألمانيّة على بعد عدّة أمتار. قبل نشره بصيغة كتاب، ظهر هذا التقرير متسلسلاً في إحدى الصحف الروسيّة اليوميّة. وهناك، وببعض سذاجة ذاك العصر، ذكر والدي أنّه قدّم قلم الحبر السائل خاصّته من طراز «سوان Swan»، كهديّة إلى الأدميرال «جليكو» الذي استعاره منه حين كانوا جالسين إلى الطاولة، ليترك توقيعه فوق قائمة الطعام، وقد أثنى على سلاسة ورقّة ريشته. ذاك الكشف المشؤوم عن قصّة القلم، قد تمّ

---

(١) إدوارد غراي: ١٨٦٢ ـ ١٩٣٣. وزير الدولة للشؤون الخارجية وشؤون الكومنولث في المملكة المتحدة.

اقتباسه فوراً ليُنشر في صحف إعلانيّة مثل «مابي»، «تود آند كو»، و«ل.ت.د»، التي نشرت ترجمة المقطع مع صورة لوالدي يناول ذلك المنتج بعلامته التجاريّة الظاهرة، إلى القائد العام للأسطول الكبير، تحت سماء غائمة، حيث تجري معركة حربيّة.

لكن هذه المرّة لم يكن هناك مآدب، ولا خطابات، ولا حتى لعبة الخماسية مع «ويلز» الذي قد تبيّنت استحالة إقناعه أن البلشفيّة ما هي إلا شكل أشدّ وحشيّة وسوءاً من أشكال القمع الهمجي ـ والذي هو بحدّ ذاته قديم قدمَ رمال الصحارى ـ وليست تجربة ثوريّة جديدة وجذّابة كما اعتقد الكثير من المراقبين الأجانب. بعد إقامة شهور عدّة باهظة التكلفة في منزل مستأجر في حدائق «إلم بارك»، رحل والداي مع أخوتي الثلاث الصغار إلى «برلين» (حيث وحتى مقتله في مارس ١٩٢٢، انضمّ والدي إلى «جوزيف هيسين»، زميله في عضويّة حزب الحريّة الشعبيّة، في تحرير مجلة روسيّة للمغتربين) ـ بينما التحقنا أنا وأخي بجامعة «كامبريدج»، هو إلى «كليّة كرايست Christ College»، وأنا إلى «كليّة ترينتي Trinty».

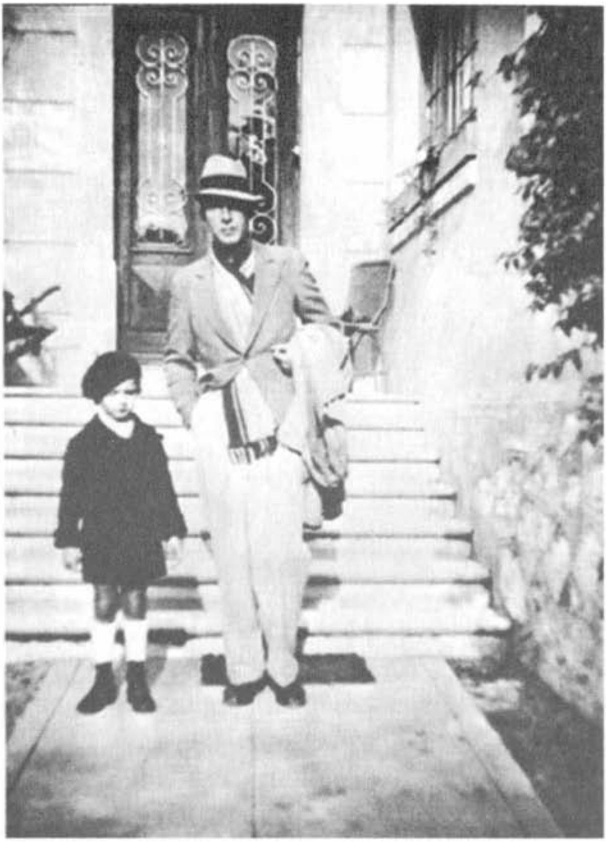
٢

كان لي شقيقان، «سيرجي» و«كيريل». «كيريل» الأخ الأصغر ١٩١١ ـ ١٩٦٤، كان أيضاً ابني بالمعموديّة، كما راجت العادة بين العائلات الروسيّة. في مرحلة معيّنة من احتفالية التعميد، داخل غرفة الرسم في «فيرا»، حملتُه بحذر شديد قبل أن أناوله إلى عرّابته «إيكاتيرينا ديمتريفنا دانزَاس» (نسيبة والدي وحفيدة الكولونيل «ك.ك دانزاس»، مُنازل «بوشكين» في مبارزته المميتة). انتسب «كيريل» خلال طفولته، كما شقيقتاي، إلى حضانات بعيدة جداً ومنفصلة تماماً عن مساكن أخويْهم



دون انتباه مني، ودون أن أتّخذ وضعيّة خاصّة، التقطتْ زوجتي هذه الصورة بينما كنت أكتب رواية داخل غرفتنا في الفندق. كان الفندق عبارة عن منشأة حراريّة في منطقة «الوبولو»، في شرق الـ«برانس». التاريخ (يمكن تمييزه بين قائمة خاصة بالصور الملتقطة) ٢٧ فبراير ١٩٢٩. الرواية بعنوان «دفاع لوزين، Zashchita Luzhina»، وهي تتناول موضوع دفاع اخترعه لاعب شطرنج مجنون. لاحظوا نمط مفرش الطاولة. علبة سجائر «غولواز» نصف مفرغة، موجودة بين قارورة حبر ومنفضة متخمة بالأعقاب. توجد صور العائلة في المجلّدات الأربع لقاموس «دال»[1] الروسيّ. نهاية طرف حاملة الريشة البنّية والمتينة (أداتي التي أحبّها والمصنوعة من خشب سنديان حديث، وقد استعملتها طوال عشرين عاماً من العمل الأدبيّ في أوروبا، .ثم عدت اكتشفت وجودها في أحد الصناديق المخزونة عند صديق لنا، عميد جامعة «إيثاكا، نيويورك») كانت قد بدأت بالاهتراء. يدي التي أكتب بها تخفي جزءاً من المسودّات. يمكن لعثّات الربيع أن تدخل من نافذتي المفتوحة على ظلمة الليل، وتستقر فوق الجدار المضاء إلى يساري. جمعنا بهذه الطريقة عدداً من الحشرات النادرة في حالة ممتازة، وقمنا ببسط أجنحتها وحفظها في الحال (إنها الآن موجودة في متحف أمريكيّ). نادراً ما تقوم لقطة تصوير عفوية باختصار حياة بهذه الدقة. قبل سنوات عديدة في «سانت بطرسبرغ»، أذكر كيف كنت أستمتع بـ«قصائد مختارة» لسائق ترام، وخاصّة بصورته في زيّه الرسميّ، منتعلاً حذاءه، مع فردتيّ جزمة مطّاطيّة بالقرب منه، ومع ميدالية الحرب خاصّة والده فوق «كونسول» المصوّر الذي يقف الكاتب إلى جانبه منتبهاً. سائق حكيم، مصوّر بعيد النظر!

(١) فلاديمير دال: ١٨٠١ ١٨٧١، مؤلف معاجم روسيّ.



التقطت زوجتي هذه الصورة لابني ديمتري البالغ ثلاث سنوات (مولود في ١٠ مايو ١٩٣٤) يقف معي أمام مسكننا في بنسيون «Les Hesperides» في مدينة «مونتون»، في بداية ديسمبر ١٩٣٧. عدنا إلى المكان بعد اثنيْن وعشرين عاماً. لم يتغيّر شيء، باستثناء الإدارة وأثاث الشرفة. هنالك دائماً، بالطبع، التشويق الطبيعيّ للزمن المستعاد؛ إلاّ أنني وبكل الحوال، لا أتأثر عاطفياً أبداً عندما أقوم لمرة ثانية بزيارة مساكن اغترابي القديمة، في البلدان التي أقمت فيها عرَضياً. أذكر كيف كان البعوض الشتويّ فظيعاً. ما إن أطفئ النور في غرفتي حتى يأتي هذا الطنين المزعج الذي يطير متمهّلاً، مثيراً للكآبة، وبإيقاع حذر، مختلفاً وبغرابة عن السرعة المجنونة الفعليّة لدوران الحشرات الشيطانيّة. تنتظر استقرار إحداها فوق جلدك في الظلام، تخرج يدك من تحت غطاء السرير، وتصفع أذنك، ليختلط طنينها مع طنين البعوضة المبتَعدة. ولكن بعد ذلك، عند الصباح، تلتقط بكلّ حماس شبكة الفراشات لتحدد موقع إحدى تلك البعوضات الممتلئة والمزعجة ـ خطوط سوداء صغيرة جاثمة على السقف الأبيض.

الأكبر سنّاً في المدينة أو في العزبة. لم أره إلاّ قليلاً خلال عقديّ الاغتراب الأوروبيّ، ١٩١٩ ـ ١٩٤٠، ولم نلتقِ بعد ذلك إلى أن جاءت زيارتي التالية إلى أوروبا عام ١٩٦٠، حيث ساد اجتماعاتنا القصيرة جوّ من البهجة والودّ.

ذهب «كيريل» إلى مدارس «لندن»، «برلين» و«براغ»، وإلى كلّية في «لوفان». تزوّج من «جيلبرت باربانسون» شابة بلجيكيّة، أدارت (بروح مرح لا تخلو من النجاح) وكالة سفر في «بروكسل»، وماتت بنوبة قلبيّة في «ميونخ».

أحبَ المنتجعات الساحلية والأطعمة المترفة. كره، بقدر ما أفعل أنا، مصارعة الثيران. تكلّم خمس لغات. كان متخصّصاً بإلقاء النكات. أكثر ما كان يعنيه في الحياة هو الأدب، وخاصّة الشعر الروسيّ. تعكس قصائده الذي ألّفها تأثّره بـ «غوميليوف Gumilyov» و«هوداسيفيتش Hodasevich». كان مقلاّ في النشر ومتحفّظاً تجاه ما يكتب، كما كان تجاه عالمه الداخليّ الغامض والساخر.

لأسباب مختلفة، أجد صعوبة كبيرة في التحدّث عن أخي الآخر. السعي المضني لـ«سيبستيان نايت»[1] ونجاحاته الصغيرة، وارتجاله لحركات الشطرنج القاتلة، لم تكن شيئاً مقارنة مع المهمة التي فشلت فيها ضمن النسخة الأولى لتلك مذكرات والتي أنا في صدد مواجهتها الآن. باستثناء مغامرتيْن أو ثلاث ذكرتها في فصول سابقة، فإن طفولته نادراً ما تقاطعت مع خاصّتي. إنّه مجرد ظلّ في خلفية ذكرياتي الأكثر غنىً والأدقّ تفصيلاً. لقد كنتُ الولد المدلّل، أما هو، فالشاهد على ذلك الدلال. جاءت ولادته القيصريّة، بعد عشرة أشهر ونصف من

(١) الحياة الحقيقية لسيباستيان نايت: رواية الكاتب الأولى باللغة الإنكليزيّة، وهي قصة كاتب شهير، سيباستيان نايت، يقصها شقيقه.

ولادتي، في ١٢ مارس ١٩٠٠، نضج ذهنياً قبلي، ولم أكن أبدو أكبر منه إلاّ جسدياً. نادراً ما لعبنا سويّة، ولطالما كان غير مبالٍ بما كنت أنا مولعاً به ـ ألعاب القطارات، ألعاب المسدسات، الهنود الحمر، الفراشات. تطوّر لديه في السابعة أو الثامنة من عمره، إعجابٌ وحبٌّ بشخصيّة «نابليون»، قد تغاضت عنهما الآنسة، وكان يأخذ معه إلى السرير تمثالاً صغيراً برونزيّاً يمثّله. كطفل، كنتُ مشاكساً، مغامراً، ومتنمّراً إلى حدّ ما. أما هو فكان هادئاً وبارداً، وكان يقضي معظم أوقاته مع معلمينا أكثر مما فعلت أنا. عند بلوغه العاشرة، بدأ اهتمامه بالموسيقى، ومنذ ذلك الحين خضع لدروس لا حصر لها، ذهب إلى الحفلات مع والدنا، وقضى ساعات في عزف مقطوعات أوبراليّة، على بيانو موجود في الطابق العلويّ، يصل صوته القويّ إلى مسامع الجميع. كم وددت لو أزحف خلفه، وأغرز أصابعي بين أضلاعه. ذكرى خبيثة.

التحقَ كلّ منا بمدرسة مختلفة؛ هو ذهب إلى جمنازيوم والدي السابق، وارتدى الزيّ الأسود النظاميّ، الذي أضاف إليه لمسة غير قانونيّة عندما أصبح في الخامسة عشرة: طماق كاحل رماديّ. في ذلك الوقت، وجدت صفحة من يوميّاته فوق مكتبه وقرأتها، وتحت تأثير تعجّب غبيّ أطلعتُ عليها معلّمي، الذي بدوره، وعلى وجه السرعة، أطلع والدي عليها، وكان فيها ما يُقدم توضيحاً بأثر رجعيّ، لبعض تصرّفاته الغريبة.

اللعبة الوحيدة التي أحبّها كلانا هي التنس، وكثيراً ما لعبناها سويّة، وخاصّة في إنكلترا، فوق عشب غير منظّم في «كينسنغتون»، وفوق ملعب طينيّ في «كامبريدج». كان أيسر، ويعاني من تأتأة سيئة تعيقه عن مناقَشة الضربات المشكوك في أمرها. برغم إرساله الضعيف وغياب أية ضربة يد حقيقيّة، فإنه هزيمته لم تكن سهلة، فقد كان لاعباً من النوع الذي لا يخطئ الطابة مرتيْن، ويردّ كل الضربات بصلابة جدار لا يُقهر.

في «كامبريدج»، رأينا بعضنا البعض أكثر من أي وقت مضى، كما أصبح بيننا رفاق مشتركون. حصلنا على ذات الديبلوم، وبنفس مرتبة الشرف، ثم انتقل هو إلى باريس حيث، وخلال السنوات اللاحقة، صار يعطي دروساً خصوصيّة في الإنكليزيّة والروسيّة، كما فعلت أنا في «برلين».

التقينا مرّات أخرى في ثلاثينات القرن، وفي «باريس»، كنا على علاقة ودّية ما بين ١٩٣٨ و١٩٤٠. كثيراً ما كان يمرّ بي لمجرد إجراء محادثة، شارع «بوالو» حيث سكنّا أنا وأنتِ في غرفتيْن رثّتين مع طفلنا، ولكنه بابتعاده عنا لفترة، لم يعرف بأمر رحيلنا إلى أمريكا إلا بعد أن غادرنا. ترتبط أكثر ذكرياتي كآبة بباريس، وكان ارتياحي عارماً حين غادرتها، ولكنّي آسف لكونه كان مضطّراً أن يتلعثم بانفعاله أمام بوّاب غير مبالٍ حين أذهله خبرُ رحيلنا. أعرف القليل عن حياته خلال الحرب. عمل فترة كمترجم لصالح مكتب في «برلين». كرجل صريح ولا يهاب أحداً، انتقد النظام أمام زملائه، الذين وشوا به. أُلقي القبض عليه، واتُهم بأنّه جاسوس بريطانيّ، وتمّ إرساله إلى معسكر اعتقال في «هامبورغ» حيث مات جوعاً، في ١٠ يناير ١٩٤٥. إنّها واحدة من تلك الأرواح التي، في وقت متأخر وميؤوس منه، تُطالب بشيء ما - ربما تعاطفاً، تفهّماً، أي شيء - ولكن الاعتراف المتأخر بتلك الرغبة، يجعلها غير قابلة للتحقيق، ولا حتى الاستبدال.

٣

كانت بداية فصلي الأول في «كامبريدج» مشؤومة. في وقت متأخر من بعد ظهر أحد أيام أكتوبر المملّة والرطبة، ومع إحساسي بالحاجة للانغماس في قراءة بعض المسرحيّات الغريبة، لبست ثوب الأكاديميّة الكحليّ الذي اكتسبته مؤخّراً، واعتمرت قبّعة بمربّعات سوداء، من أجل

أوّل زيارة رسمية لأستاذ دراستي في الكلّية، «إي. هاريسون». صعدت الدرجات وطرقت باباً ضخماً، كان مفتوحاً بشكل جزئيّ. «ادخل» قال صوت بعيد ومفاجئ وكأنه قادم من كهف. عبرت ما يشبه غرفة الانتظار ودخلت مكتبة أستاذي. كان الغسق البنيّ قد سبقني إلى هناك. لم يكن ثمّة إضاءة في المكتبة إلاّ توهج الموقد الكبير، الذي تظهر بالقرب منه هيئة غير واضحة لشخص، يجلس فوق أريكة أكثر غموضاً. تقدّمت قائلاً «أنا أُدعى..» ـ دستُ فوق مجموعة شاي موضوعة فوق البساط عند أسفل أريكة السيد «هاريسون» المُجلدة. نخر ثم انحنى جانباً ليصحح استقامة الإبريق، ثم التقط أوراق الشاي السوداء والمبلّلة وأعادها ثانية إلى المكان الذي قذفت منه. وهكذا بدأت فترة دراستي بذكرى حرجة، ذكرى ستبقى تتكرّر وبثبات على مدار سنوات إقامتي الثلاث.

رأى السيّد «هاريسون» أنها ستكون فكرة جيّدة أن يتشارك شابّان «روسيّان أبيضان» المسكن ذاته، وهكذا تقاسمتُ الشقة في شارع «ترينتي لاين» مع شاب من بلدي ولكنّه كان مشوشاً. رحل عن الكلّية بعد أشهر قليلة، وبقيت وحيداً أشغل ذلك المسكن. بدا لا يُطاق أبداً مقارنة مع بيتي البعيد والذي لا أثر له اليوم. أذكر جيّداً قطع الزينة فوق رفّ الموقد (منفضة سجائر زجاجيّة، مع إشارة الثالوث، تركها مقيم سابق؛ صدفة بحر سمعت داخلها الهدير المسجون لأيّامي الصيفيّة التي قضيتها فوق الشواطئ)، وبيانو ميكانيكيّ قديم تملكه صاحبة الشقّة، إنّه أداة غريبة مثيرة للشفقة، لا تصدر عنه إلا أصوات ممزّقة، مسحوقة، ومعقّدة، يكفيك أن تضرب مفاتيحه مرّة واحدة كي لا تعود إلى فعلتك ثانية. كان شارع «ترينتي لاين» الضيّق، رصيناً أو بالأحرى كئيباً إلى حدّ ما، مع شبه انعدام لحركة مرور، ولكنه يحمل معالم صارخة لماضٍ طويل يبدأ من القرن السادس عشر، حين كان اسمه «فايند سيلفر لاين Findsilver Lane»، رغم أنّه قبل ذلك كانت تُطلق عليه تسمية أكثر جلافة، بسبب

وضع مزاريبه البغيض. عانيتُ كثيراً من البرد، ولكن يبقى غير صحيح ما يدّعيه البعض عن درجات الحرارة القطبيّة في غرف نوم «كامبريدج»، على أنها تجمّد الماء في إبريق غسل الأيدي. في حقيقة الأمر، لم يكن هناك أكثر من طبقة جليد رقيقة تتشكل فوق سطح الماء، يستطيع أحدنا كسرها بسهولة بفرشاة الأسنان على سبيل المثال، لتحوّلها إلى أجزاء صغيرة واخزة، مُصدرة ذاك الصوت، الذي حين أتذكّره الآن، يثير البهجة والفتنة في أذني المتأمركة. من ناحية أخرى، لم يكن في الاستيقاظ أيّة متعة. ما زلت حتى اليوم أشعر بالصقيع في عظامي عندما أذكر المشي صباحاً عبر شارع «ترينتي لاين» نحو الحمّامات، جارّاً قدميّ، نافثاً زفيراً ضبابياً، مرتدياً ثوباً رقيقاً جداً فوق بيجامتي، متأبّطاً كيس حمّام ممتلئاً وبارداً. لا شيء في العالم يمكنه إرغامي على وضع ملابس صوفيّة فوق جلدي، كتلك التي يرتديها الإنكليز فتبقيهم دافئين بشكل سريّ. كان يُنظر إلى المعاطف على أنها للمخنّثين. اللباس المعتاد المطلوب من طالب متوسط في جامعة «كامبريدج»، سواء رياضيّ أو شاعر يساريّ، كان مذكوراً في ملاحظة طويلة ومملة: نعل الحذاء مطاطيّ سميك، سراويل الفانيل رماديّة داكنة، قميص الأزرار الذي يُدعى «jumper»، والذي يظهر من تحت سترة «Norfolk»، عليه أن يكون بنّياً معتدلاً. أما الملابس التي أفترض أنها سُمحت لمن يُعتبرون «المجموعة الأنيقة»، فهي عبارة عن مضخّات قديمة، سراويل فانيل رمادية فاتحة جداً، «jumper» أصفر زاهي، وسترة من بدلة جيّدة. في تلك الفترة، كان اهتمامي الشبابيّ بملابسي آخذاً في تراجع، وقد كنت أبدو وكأني نكتة، عند ظهوري بالأزياء الرسميّة الروسيّة، إذ كنت أنتعل خفّاً مع جورب دون رباط، وأرتدي قميصاً ذا ياقة قد خيطت فوقه ـ وكان ذلك يعتبر ابتكاراً جريئاً حينذاك.

حفلة التنكّر البسيطة التي انضممتُ إليها دونما سابق قصد، تركت

في ذهني انطباعاً تافهاً، جعلني أدرك أن مضييّ في هذا الاتجاه سيكون مملاً. قصّة سنين دراستي في إنكلترا، هي حقاً قصة محاولتي لأكون كاتباً روسيّاً. انتابني شعورٌ بأن جامعة «كامبريدج» وكلّ معالمها ـ أشجار الدردار المهيبة، النوافذ المزجّجة، ساعات الأبراج الثرثارة ـ لم تكن ذات شأن بحدّ ذاتها، بل كانت هناك لتؤطّر وتدعم حنيني الغنيّ لوطني. من وجهة نظر عاطفيّة، كان وضعي شبيهاً بذاك الخاص برجل قد فقد أحد أقاربه، ثم أدرك متأخّراً، أنّه بسبب كسل الروح البشريّة وإدمانها على الروتين، فإنه لم يكلّف نفسه عناء معرفة قريبته بالقدر الذي تستحقّه، ولا حتى أظهر لها كامل عاطفته تجاهها، التي لم يكن يعيها آنذاك، ولكنها أصبحت جليّة بعد فوات الأوان. بينما كنت، مع حرقة في عينيّ، أتأملّ نار موقد غرفتي في «كامبريدج»، كانت قوة الجمر التافهة، الوحدة وقرع الأجراس البعيدة، تزعجني وكأنها صور تضغط على أصغر ثنيّات في وجهي، تماماً كما تشوّه الريح وجه طيار يطير بسرعة هائلة. وبتّ أفكّر في كلّ ما فاتني في وطني، وكلّ الأشياء التي لم يمهلني الوقت حتى أن ألاحظها وأثمّنها، إذ لم يخطر ببالي مسبقاً أنّ حياتي ستغيّر مسارها بتلك الطريقة العنيفة.

بالنسبة لبعض الزملاء المهاجرين الذين التقيتهم في جامعة «كامبريدج»، فإن نزعة مشاعري تلك كانت واضحة ومألوفة تقريباً، وكان من غير المجدي ولا حتى اللائق أن أصفها من خلال كلمات. توصّلت مع من هو أكثر بياضاً بين «الروس البيض»، إلى أن مفهوم الوطنية والسياسة يُختصر باستياء حاقد موّجه إلى «كرينسكي» أكثر من «لينين»، وهو ما لم ينتج إلاّ عن الخسائر والاحباطات الماديّة. ثم بعد ذلك، واجهَتُ صعوبات غير متوقّعة مع بعض من معارفي الإنكليز، الذين كنت أعتبرهم مثقفين، حاذقين، وإنسانيين، والذين، رغم كل أخلاقهم العالية وتهذيبهم، فإنهم وبزلّة لسان أثناء مناقشة الشأن الروسي، تسمع منهم ما

لا يتعدى كونه هراء وحماقة. أوّد أن أشير إلى شاب اشتراكيّ عرفته، عملاق هزيل، كان يتمتّع بموهبة تحريك غليونه في فمه، متلاعباً بها بحركات متعدّدة وبطيئة، تتفاقم بشكل مرعب، إذا لم توافق على آرائه، ثم تهدأ بلطف إذا فعلت. نشأ بيننا العديد من المشاحنات السياسيّة، التي لم تكن مرارتها لتزول إلاّ عند تحوّلنا إلى سيرة شعراء، كان كلانا يعتز بهم. اليوم، هو مشهور بين أقرانه، ويسرّني أن أعترف بذلك، ولكن لأعطيه اسماً، عليّ أن أستعين بتسمية لا معنى لها، في محاولة لإخفاء هويته الحقيقيّة؛ اسمحوا لي أن أشير إليه باسم «نيسبيه» وهو لقب أعطيته إيّاه (أو أنني أعترف اليوم أنني أطلقته عليه)، ليس بسبب شبهه المزعوم بصور «مكسيم غوركي» في شبابه، أو بسبب قصة («صديقي المسافر» ـ سمة أخرى مناسبة) التي كتبها «غوركي» ضمن بواكير أعماله ولم تُعتبر ذات أهمية في ذلك العصر، وقد قام بترجمتها «ر. نيسبيه باين»، بل لأن اسم «نيسبيه» لديه الفرصة المبهجة كي يُقرأ بالمقلوب ليصير «ايبسين»[(١)]، الاسم الذي أستحضره حالياً.

وربما كان صحيحاً، كما جادل البعض، أن التعاطف مع مذهب «لينين» من وجهة نظر أمريكيّة وإنكليزيّة ليبراليّة، قد بدأ في عشرينات القرن الماضي لاعتبارات سياسيّة داخليّة. ولكن يعود سبب ذلك أيضاً إلى تضليل بسيط. كان صديقي يعرف القليل عن ماضي روسيا وهذا القليل قد وصل إليه عن طريق قنوات شيوعيّة ذات سمعة سيئة. عندما كنت أتحدّاه ليبرّر الإرهاب الوحشي الذي اعتمده «لينين» ـ بيت التعذيب، الجدار المطليّ بالدم ـ فأن «نيسبيه» كان ينفض رماد غليونه بنقرات خفيفة فوق سياج المدفأة، ويبدّل لفّ ساقيْه فوق بعضهما

---

(١) هنريك إيبسن: ١٨٢٨ ـ ١٩٠٦، كاتب مسرحي نرويجي كبير، كان من أهم العاملين على ظهور الدراما الواقعية المعاصرة. يعرف بـ «أبو المسرح الحديث».

البعض، بحذائه الثقيل والضخم، ثم يتمتم شيئاً عن «حصار الحلفاء». كان يعتبر المهاجرينَ الروس بجميع طبقاتهم كـ«عناصر قيصريّة»، من الفلاح الاشتراكيّ وصولاً لجنرال في الجيش الأبيض ـ تماماً كما يفعل الكتّاب الروس في يومنا هذا حين يستخدمون مصطلح «فاشيّ». لم يدرك أنه هو وغيره من الإيديولوجيين الأجانب، لو كانوا روسيين في روسيا، لكان نظام «لينين» قضى عليهم، وبشكل طبيعيّ، كما يفعل الفلاحون والصيادون مع الأرانب البرّية. تمسّك باعتقاده في أنّ السبب فيما كان يسمّيه «التنوّع الأقل في الآراء» تحت ظلّ البلاشفة أكثر منه في أيام الظلام القيصريّة، هو «الافتقار إلى سنّة حريّة التعبير في روسيا»، وهذا ما قرأه في بيان، على ما أعتقد، من نوع البيانات السخيفة كـ«فجر روسيا»، التي كان يكتبها أتباع «لينين» الفصحاء في تلك الأيام، من الأمريكان والإنكليز. ولكن ربما أكثر ما أغضبني من «نيسبيه» هو موقفه من «لينين» ذاته. كل المثقفين الروس يعرفون حقّ المعرفة أن تذوّق ذاك السياسي الداهية للأمور الجماليّة، لا يتعدّى نظيره عند أي برجوازي روسيّ عاديّ من نوع البقال[1] عند «فلوبير» (النوع الذي يُعجب بـ«بوشكين» من خلال نصوص الأوبرا السيئة التي قدّمها «تشايكوفسكي»، والذي تبكيه الأوبرا الإيطاليّة، وتجذبه أيّة لوحة تخبر قصّة)؛ لكن «نيسبيه» وأصدقاءه رفيعي المستوى قد رأوا فيه راعياً حسّاساً للشعر ومهتماً بالاتجاهات الفنيّة الحديثة، وكانوا يبتسمون ابتسامة عريضة كلّما شرحت لهم أن القاسم المشترك بين السياسة التقدّميّة والفنون التقدّميّة ما هو إلا تقاطع لفظيّ (استغلّته البروباغاندا الروسيّة على نحو ممتاز)، وأنّه كلّما كان الشخص راديكاليّاً في السياسة، كان محافظاً فيما يخصّ الفنون.

حقائق كثيرة من ذلك النوع، كان تحت تصرفي، وكنت أحبّ نشرها

(١) البقّال: شخصية في رواية مدام بوفاري لجوستافو فلوبير.

على الملأ، ولكن «نيسبيه» الذي كان متمسّكاً بجهله، اعتبرها مجرّد أوهام. يمكن لتاريخ روسيا (كنت أوضّح له على سبيل المثال) أن يُقرأ من خلال وجهتيّ نظر (كلتاهما، ولسبب ما، قد أزعجتا «نيسبيه» بالقدر ذاته): أوّلاً نشوء الشرطة (قوّة لا تمثّل هيئة ومنفصلة بشكل غريب، تتحرّك أحياناً بطريقة غير شرعيّة، عاجزة أحياناً، وفي مرّات أخرى تتفوّق على الحكومة بالاضطهاد الوحشيّ)؛ وثانياً تطوّر ثقافة مذهلة. أما حكم القيصر (مواصلاً شرحي) فعلى الرغم من كونه في الأساس قائماً على الاضطهاد وعدم الكفاءة، فإن الروس المحبّين للحرّية، كان لديهم عدد لا يُضاهى من وسائلَ للتعبير عن أنفسهم، معرّضين أنفسهم لأخطار بسيطة لا تقارن بنظيرتها التي أتت لاحقاً، إبّان حكم «لينين». منذ الإصلاحات التي تمت في ستينات القرن الثامن عشر، تبنّت روسيا تشريعات جديدة (وإن لم تلتزم بها دائماً) كان لأيّ بلد غربيّ أن يفخر بها، ورأياً عاماً قويّاً يفضح الاستبداد، ومنشورات لكل الأطياف الليبراليّة والتوجّهات السياسيّة مقروءة على نطاق واسع، أما أكثر الأمور لفتاً للأنظار، فاستقلاليّة وشجاعة القضاء («أوه حسبك....» يقاطعني «نيسبيه»). حين كان يُقبض على الثوّار، يتمّ نفيهم إلى «تومسك» أو «أومسك» (والآن «بومبسك» [أي قتلهم: المترجم]) ما يُعتبر عطلة مريحة مقارنة مع معسكرات الاعتقال التي قدّمها «لينين». هرب المنفيّون السياسيّون بسهولة هزليّة من «سيبيريا» (بشهادة رحلة «تروتسكي» الشهيرة - «سانتا ليو، سانتا كلوز تروتسكي» - راكباً بفرح فوق عربة تزلّج خاصّة بالميلاد، تجرّه غزلان الرنّة: هيّا، يا «صاروخ»، هيّا، يا «غبيّ»، هيّا، يا «جزّار»، هيّا «بليتزن»[1].

(١) بليتزن: اسم لإحدى الرنّات الثمانية التي تجرّ عربة سانتا كلوز.

سرعان ما أدركتُ، فيما يخصّ وجهات نظري، التي تشبه كل وجهات نظر الروس الديمقراطيين الموجودين خارج بلادهم، أنها إن كانت تُستقبل بنوع من المفاجأة المزعج واللطف الساخر من قِبل الديمقراطيين الإنكليز غير الناضجين سياسياً، فإن مجموعة أخرى من المحافظين الإنكليز المتشدّدين، كانوا متحمسّين لها، ولكنّهم فعلوا ذلك بدافع رجعيّ صرف، لدرجة أنهم أحرجوني بدعمهم المهين. أنا حقاً أفخر بنفسي كوني قد تبيّنت بعد ذلك أعراض ما قد أصبح اليوم جليّاً، حين كان هناك ما يشبه دائرة عائلية تتشكّل تدريجيّاً، تربط بين جميع ممثّلي الأمم: بناة امبراطوريات ينسحبون من أدغالهم فرحين، رجال شرطة فرنسيون، منتَج ألماني رديء، مرتكبو مجازر روس أو بولنديون متّجهون إلى الكنائس، منفذ إعدامات أمريكيّ هزيل، رجل بأسنان قذرة يرش ألواناً فوق جدران الخمارات والمراحيض ليرسم قصصاً شوفينيّة، وأيضاً، في نقطة أخرى من تلك الدائرة اللاإنسانيّة، هناك عديمو الرحمة ذوو الوجوه الآليّة، بسراويل «جون هيلد» الفخمة، وسترات بأكتاف عالية، يرتديها عمالقة الجلوس أولئك الذين نراهم حول كل طاولات مؤتمراتنا، وقد بدأت الدولة السوفيتيّة بتصديرهم - (أم عليّ أن أقول تصدير تلك الملابس؟) - حوالي عام ١٩٤٥، بعد أكثر من عقديْن من تطوير صناعة الخياطة على نحو انتقائيّ، المدّة التي كانت خلالها موضة الرجال في الخارج قد استوفتْ ما يلزمها من وقت لتتغيّر، أصبح مجرد ظهور رمز ذاك النسيج المتاح للروسيين، مثارَ سخرية العالم (كما حصل في إنكلترا بعد الحرب، حين قام فريق من أشهر لاعبي كرة القدم السوفييت باستعراض موكبهم بأزياء بلدهم المدنيّة).

٤

سرعان ما تحوّلتُ عن السياسة وركّزت على الأدب. دعوتُ إلى الغرف التي قطنتها في «كامبريدج» كتاب «حملة الأمير إيغور» بغلافه القرمزيّ والأزرق البرّاق (الملحمة الغامضة التي لا تُضاهى، والتي كُتبت أواخر القرن الثاني عشر أو ربما الثامن عشر)، دواوين «بوشكين» و«تيوتشيف»، أعمال «غوغول» و«تولستوي» النثرية، وكذلك الأعمال الرائعة لعلماء الطبيعة الروس العظماء، الذين وصفوا براري «آسيا الوسطى». في كشك لبيع الكتب داخل سوق تجاريّ، وقعتُ بطريق الصدفة على عمل روسيّ، نسخة مستعملة لقاموس «دال» التفسيريّ للغة الروسيّة الحيّة، في أربع مجلّدات. اشتريتها وقرّرت أن أقرأ يوميّاً عشر صفحات على الأقل، مدوّنا فوق الهامش ما يعنيني من بعض الكلمات والعبارات، ولقد نفّذت ذاك لفترة طويلة. الخوف الذي اعتراني من فقدان أو إفساد الشيء الوحيد الذي حملته معي ناجياً من روسيا ـ لغتها ـ بسبب تأثير المحيط الأجنبيّ، قد أصبح خوفاً مرضياً على نحو إيجابيّ، وأكثر إزعاجاً مما خبرته خلال عقديْن لاحقيْن، وهو الخوف من عدم مقدرتي على نظم شعر باللغة الإنكليزيّة يضاهي بمستواه قصائدي بالروسيّة. اعتدتُ على أن أطيل السهر، محاطاً بأكداس خياليّة من المجلّدات ثقيلة العيار، وألّفت قصائد بالروسيّة متقنة ولكن عقيمة، لأنها لم تكن نابعة من الخلايا الحيّة لعاطفة ملحّة، بل من رغبتي باستخدام مصطلحات معيّنة لرسم صورة أو تأليف استعارة بلاغيّة. وكنت في الوقت ذاته مرعوباً مما أراه جليّاً في الوقت الحاضر، وهو تأثر بناء قصائدي بالروسيّة بمختلف الأنماط الإنكليزيّة المعاصرة لحقبة الملك «جورج الخامس»، والتي كانت تجول في غرفتي وتسيطر على شخصيتي كما تُروِّض الفئران. كم أضناني التفكير بالأمر! ثمّ، وخلال الساعات

القليلة لذات صباح في نوفمبر، انتبهت فجأة للصمت والصقيع (كان شتائي الثاني في «كامبريدج» أشد برودة وغزارة بين فصول الشتاء التي قضيتها هناك). المعركة الوهمية التي كنت أتخيّلها عبر ألسنة اللهب الحمراء والزرقاء، كانت تخمد في الوميض الكئيب لمغيب شمس قطبيّ بين أشجار التنوب الشيباء. ومع ذلك لم أكن لأتمكن من إجبار نفسي على النوم، لم أكن أخشى السهاد بقدر ما خشيت صقيع أغطية الفراش الذي يسبب للقلب انقباضاً مزدوجاً لا مفرّ منه، وكذلك عارضاً غريباً جداً يُدعى «القلق الظنبوبيّ»، وهو اضطراب في العضلات يرافقه ألم شديد ومتزايد، يدفع المصاب إلى الاستمرار في تغيير وضعيّة أطرافه. لذا كنت أكوّم المزيد من الفحم وأحيي اللهب فيه من خلال نشر أوراق جريدة «London Times» فوق فوهة المدفأة التي تُطلق الدخان الأسود، حاجباً بتلك الطريقة كوّة النار المفتوحة. يضجّ حسيسٌ وراء الأوراق المشدودة، التي تكتسب نعومة جلد طبل، وجمال برشمان برّاق. ثم توّاً، عندما يتحوّل الحسيس إلى أجيج، تظهر بقعة برتقالية في وسط ورقة، عند مقطع معيّن (على سبيل المثال، «عصبة الأمم لا تطلب مالاً ولا أسلحة» أو «انتقامات نيميسيس[١] من تردّد الحلفاء الذي أدّى إلى تدهور الوضع في أوروبا الشرقيّة والوسطى») فيظهر بوضوح مشؤوم ـ إلى أن تنفجر فجأة البقعة البرتقاليّة. ثم، وبأنين طائر الفينيق، تطير الورقة المشتعلة فوق الموقد لتنضمّ إلى النجوم. كان طائر النار ذاك ليكلّفني غرامة اثني عشر شلناً لو أن أحداً لمحه.

بينما أثنى «نيسبيه» ورفاقه ـ المجموعة الأدبية ـ على جهودي الليليّة، عابوا في الوقت ذاته أموراً أخرى، كاهتمامي بعلم الحشرات، الفتيات، الرياضة، وكذلك إلقائي للنكات. من بين كل الرياضات التي لعبتها،

(١) نيميسيس: إله الانتقام عند الإغريق.

بقيت كرة القدم وحدها كالريح التي تكنس تشويش هاتيك الفترة المضطربة من حياتي. كنت مهووساً بحراسة المرمى. في روسيا والبلدان اللاتينيّة، بقي هذا الفن الفروسيّ محاطاً دائماً بهالة من بريق فريد. حارس المرمى الذي يلعب منعزلاً ووحيداً وضمن وضع حرج، تراه متبوعاً بصبية صغار مفتونين به، حين يمشي في الشوارع. إنّه يُنافس في التشويق الذي يُقدّمه، الـ«ماتادور» أو الطيّار البطل. سترته، قبّعته المدبّبة، مشدّات الحماية حول ركبتيْه، قفّازاته التي يظهر طرفها من الجيب الجانبيّ لسرواله القصير، تجعله مختلفاً عن باقي الفريق. إنّه النسر الوحيد، رجل الغموض، المدافع الأخير. ينثني المصوّرون أمامه بإجلال على ركبة واحدة، ليلتقطوا صورته أثناء قيامه بذلك الغطس المذهل في الفراغ أمام فم المرمى المفتوح، ليحرف برؤوس أصابعه رميةً منخفضة تعبر كالبرق، بينما يهدر الملعب فرحاً، أما هو، فيبقى لدقيقة أو دقيقتيْن متمدّداً بكامل طوله حيث سقط، أمام شبكته التي لم تُمسّ.

ولكن في إنكلترا، إنكلترا التي عرفتها في شبابي على الأقل، فإن الخوف الوطنيّ من التباهي، والمبالغة في تكريس منهجية العمل الجماعي، لم يصبّا في مصلحة تطوير فنّ حراسة المرمى المنفرد. على الأقل، كان هذا تفسيري الذي توصّلت إليه لعدم نجاحي فوق ملاعب «كامبريدج». ولكن بالتأكيد، حصلت على أيام مشرقة ومنعشة - رائحة العشب الطيّبة، لاعب الهجوم الشهير بين طلّاب الجامعة يراوغ بالطابة الجديدة المصفرّة، يقترب مني أكثر وأكثر، يضعها أمام أصابع قدميه، ثم تأتي تلك الركلة اللاذعة، أصدّها بنجاح، ويستمر الوخز في أصابعي لفترة طويلة.... ولكن كان هناك مرات أخرى، أكثر ثباتاً في ذاكرتي، حين جرت مباريات على نطاق ضيّق وتحت سماء كئيبة، وكانت حينها منطقة المرمى عبارة عن كتلة من الطين الأسود، والطابة زلقة كحلوى الخوخ، أما رأسيّ فمصدّع بآلام «النورالجيا»، بعد ليلة دون نوم،

قضيتها في تأليف الشعر. تردّدت في صدّ الكرة، ثم التقطتها من داخل المرمى بعد أن هزّت الشباك. من حسن الحظ الرحيم أن اللعبة انتقلت إلى الجهة المقابلة من الملعب المبلّل. ينزل رذاذ رقيق وضعيف، يتردّد، ثم يتابع ما بدأه. بنعيب مكتوم يحمل عذوبة الهديل، رفرفتْ مجموعة من الغربان الهرمة حول شجرة دردار عارية. تكاثف الضباب. وعندها بدأتْ لعبة ملتبسة ارتفعتْ خلالها الرؤوس لتسديد الأهداف في مرمى ملعب «سان جون»، «كرايست»، أو أي كلّية أخرى كنّا ندير لعبتنا داخلها. الأصوات غير المفهومة التي كانت تصل من بعيد، الصياح، الصفير، هدير الركلات، كل ذلك لم يكن مطلقاً ذا أهميّة بالنسبة لي، بل كان وكأنه منفصل عني تماماً. لم أكن حارساً للمرمى بقدر ما كنت حافظاً لسرّ ما. مع يديّ المكتوفتيْن، اتّكأت بظهري على عضادة المرمى اليسرى، استمتعت بترف إغماض عينيّ، الاستماع لضربات قلبي، والإحساس بالرذاذ العشوائيّ يغسل وجهي، ومن بعيد، وصلتْ صيحات الإحباط، بينما كنت أفكّر بنفسي كغريب خرافيّ متنكر بزي حارس مرمى إنكليزيّ، يؤلّف الشعر بلغة لا يفهمها أحد، عن وطن بعيد لا يعرفه أحد. لا عجب أني لم أحظَ بشعبية بين زملاء فريقي.

لم يحدث لمرّة واحدة خلال سنواتي الثلاث في كامبريدج ـ أكرّر: ولا حتى لمرّة واحدة، أن دخلت مكتبة الجامعة، أو كلّفت نفسي عناء معرفة موقعها (أعرف أنه قد تمّ تجديدها اليوم) أو حتى معرفة ما إن كان هنالك مكتبة للكلّية حيث توجد كتب يمكن استعارتها من أجل بحث ما. تغيّبت عن المحاضرات. تسلّلت إلى «لندن» وأماكن أخرى. خضت العديد من علاقات حب متزامنة. وكان لي مقابلات مروّعة مع السيد «هاريسون». ترجمت إلى الروسيّة مجموعة من قصائد «روبرت بروك»، «آليس في بلاد العجائب»، ورواية «كولاس برغنن» لـ«رومان رولان». على صعيد الدراسة، فإنني أيضاً قد تردّدت إلى معهد M.M في «تيرانا».

بعض الأشياء مثل الـ«مافن» والـ«كريب» التي يأكلها اللاعب بعد المباراة مع كوب من الشاي، أو صوت موزّعي الجرائد حين يصيحون بلهجتهم المحليّة «فلفل، فلفل Piper, piper»، فيختلط بصوت أجراس الدراجات في الشوارع المعتمة، كلها كانت تبدو لي كخصائص تميّز «كامبريدج» آنذاك، أكثر مما تفعل اليوم. بالإضافة إلى العادات الأخّاذة التي قد تكون مؤقتة، وأكثر عمقاً من كونها طقساً أو قاعدة، لا يسعني إلا أن أدرك وجود أمر آخر يخصّ «كامبريدج»، لم يتمكن أكثر الطلاب جدّية من تحديده. أرى تلك الخاصّية الأساسية كما لو كانت وعي أحدنا المستمر لتمدّد الزمن غير المحدود. لا أعرف إن كان هنالك من ذهب إلى «كامبريدج» للبحث عن البصمات التي تركها حذائي ذي المسامير في ملعب كرة القدم الطيني قبل أن أخطئ الهدف، أو لملاحقة ظل قبعتي أثناء عبوري باحة الكلّية، نحو الدرجات التي توصل إلى أستاذي؛ ولكني أعرف أني كنت أفكّر بـ«ميلتون»، «مارفيل» و«مارلو» بحماس أكبر من ذاك الذي يشعر به سائح عند مروره أمام جدران جليلة. لم يكن شيء مما رأيته هناك حبيس الزمن، بل يمرّ خلاله بشكل طبيعي، وبذلك أصبح العقل معتاداً على العمل ضمن بيئة نقيّة وواسعة على نحوٍ استثنائيّ؛ وبما أنه على صعيد آخر يخصّ المساحة، كالممر الضيّق، العشب المحيط بالدير، القناطر المظلمة، كانت تلك الأشياء تُعتبر عراقيل ماديّة، فإن ذاك النسيج الرقيق والشفّاف للزمن، كان، على النقيض، موضع ترحيب من العقل، تماماً كما تفعل مشاهدةُ البحر عبر النافذة حين تبهج أحدنا كثيراً، حتى لو لم يكن مهتماً بالإبحار. لم يعنني أبداً تاريخ المكان، لا بل كنت متأكداً أن «كامبريدج» لم تحرّك مطلقاً في نفسي أيّة عاطفة، رغم أنّها في الواقع لم تؤطّر أفكاري الروسيّة الخاصّة جداً وحسب، بل أيضاً زوّدتها بالألوان والإيقاعات الداخليّة. أعتقد أن البيئة لا يمكنها أن تؤثر على كائن ما، ما لم يكن يحمل في داخله نزعة

للتأثر أو عنصراً مستجيباً (لغتي الإنكليزيّة التي تشرّبتها في طفولتي). وهذا ما اتضّح لي بعد غموض، قبل مغادرتي «كامبريدج»، خلال آخر وأتعس ربيع قضيته هناك، حين اكتشفت فجأة وجود ما يربطني بمحيطي المباشر وبشكل طبيعيّ، كما يربطني بماضي حياتي في روسيا، وانتبهتُ أني توصّلت لتلك الحالة من الانسجام، في اللحظة التي أتممتُ فيها إعادة بناء دقيقة، اصطناعيّة ولكن جميلة، لعالمي الروسيّ بأدقّ تفاصيله. أعتقد أنّ استخدامي لهذا الجوهر الكريستاليّ، هو ما أدين له، من بين كلّ الإجراءات العمليّة الأخرى التي قمت بها، في حصولي على درجة الشرف.

٥

أتذكّر التدفق الحالم لقوارب البنط والكانو فوق نهر «كام»، الأغاني الحزينة بلغة هاوايية تنبثق من فونوغرافات تمرّ ببطء بين أشعة الشمس والظلال، ويد فتاة تدير بلطف ومن جهة إلى أخرى، مقبض مظلّة بألوان الطاووس المشرقة، بينما تضطجع فوق أرائك البنط، الذي كنت أقوده وكأنني في حلم. كانت أشجار الكستناء بأكوازها الوردية تنتشر متشابكة على طول الضفاف، وقد تكاثفت حتى حجبت السماء عن النهر، وكان لنمط ثمرها وأوراقها ذاك الأثر الذي يجعلك لاحقاً، بعد مغادرة المكان، تنتبه للتفاصيل التي علقت في ذهنك، كزوايا البساط الأخضر الرائع المزيّن بورود رماديّة. كان الجوّ دافئاً كما في القرم، مع ذات الرائحة الحلوة والمخمليّة لأجمة مزهرة، لم أتوصّل أبداً لتحديدها (استنشقتها لاحقاً في الولايات الجنوبيّة). اتّحاد أقواس الجسر الإيطاليّ الثلاث فوق مجرى النهر الضيّق، مع انعكاسها المتناظر فوق صفحة الماء الرائقة، أنتج أشكالاً إهليجيّة متقنة. وبدوره، ألقى ماءُ النهر إضاءة

شريطيّة فوق حجارة باطن القناطر التي تمرّ تحتها القوارب منزلقة. وبين الفينة والفينة، كانت شجرةٌ مزهرة تذرف بتلةً تدور وتدور في دوّامة نزولاً نحو الأسفل، وبلمحة لا يحق لعابر أو عابد أن يلقيها، رأيتُ انعكاس البتلة كيف ارتفع بسرعة ـ أسرع من سقوطها ـ لاستقبالها؛ ولجزء من ثانية، يخشى المرء أن تفشل الحيلة، وأن لا يشعل الزيت المقدّس النار، وأن لا يصل الانعكاس في الوقت الصحيح فتطفو البتلة وحيدة، ولكنهما في كلّ مرة كانا يلتقيان بفتنة مذهلة، مع تلك الدقّة السحريّة، التي تجمع عند منتصف الطريق كلمة شاعر ـ أو قارئ ـ مع ذكرياته.

عندما عدت إلى إنكلترا بعد غياب دام حوالي سبعة عشر عاماً، ارتكبتُ خطأً مروّعاً بذهابي لرؤية «كامبريدج» ثانيةً، ليس في فترة الفصح، ولكن في يوم مكفهر من فبراير، الذي لم يثر عندي إلا حنيني القديم المشوّش. كنت أحاول يائساً إيجاد وظيفة أكاديميّة في إنكلترا (السهولة التي حصلت فيها على وظيفة مماثلة في الولايات المتحدة الأمريكيّة هي بالنسبة لي، كلّما فكرت بالأمر، مصدر دائم للتعجّب والامتنان). لم تنجح زيارتي ولا بأيّ شكل. تناولت الغداء مع «نيسبيه» في مكان صغير، كان يُفترض به أن يكون ممتلئاً بالذكريات، ولكنّه لم يكن كذلك، بسبب تغييرات كثيرة. كان قد توقّف عن التدخين. خفّف الزمن من حدّة معالمه فلم يعد شبيهاً بـ«غوركي» أو حتى مترجم «غوركي»، ولكنه أصبح أكثر شبهاً بـ«ايبسن»، ولكن بدون لحيته التي تشبه القرود. قلق عارض (نسيبة أو ربما شقيقة خادمته التي كانت تعتني بمنزله قد تمّ نقلها إلى مشفى «بينيه» أو ما شابه) قد منعه من التركيز في الأمر الشخصي الطارئ الذي أردت أن أحدّثه عنه. حزمٌ عدّة لمجلة «Punch» مكدّسة على شكل دهليز فوق الطاولة، التي كانت سابقاً موضعاً لحوض سمك ـ بدا كل شيء وقد اختلف تماماً. حتى أزياء

خادماته الموحدة والمبهرجة قد تغيّرت، ولم تعد جميلة كتلك المميّزة التي أذكرها بوضوح. مدفوعاً بيأسه، انغمس «ايبسين» في السياسة وكأنه يقاوم السأم. كنت متيقّناً مما توقعت ـ إدانة الستالينيّة. حماس «ايبسن» الإيديولوجيّ في أوائل عشرينات القرن، جعله يخطئ في حكمه على حكم «لينين» المستبد، واجداً فيه بعضاً من الإنسانيّة والرومانسيّة. وفي ذاك الوقت، في أيام «ستالين» التي لا تقل وحشيّة، تضاعفت معلومات «ايبسين» بمقدار كبير، حول التغييرات التي جرت في النظام الروسيّ بمقدار كبير. التطهير العنيف الذي طال «البلاشفة القدامى»، أبطال شبابه، قد أصابه بصدمة مفيدة، الأمر الذي لم تكن صرخات المعذبين في معسكر العمل القسري في «سولوفكي» أو زنزانة «لوبيانكا»، قادرة على فعله. ذكر إسميْ «يجوف»[١] و«ياغودا»[٢] باشمئزاز ـ ناسياً ما قام به أسلافهم، «أوريتسكي»[٣] و«دزيرزينسكي»[٤]. وفي حين أن حكمه على الشؤون السوفيتيّة قد تحسن مع مرور الزمن، لم يكلّف نفسه إعادة النظر في أحكام مفاهيمه المسبقة إبّان شبابه، بل بقي ينظر إلى حكم «لينين» القصير، كفترة نيرونيّة برّاقة، على مدى خمس سنوات.

نظر إلى ساعة يده، ونظرت إلى خاصّتي، ثم افترقنا. تجوّلتُ تحت المطر في كل أنحاء المدينة، ثم ذهبت إلى منطقة الـ«باكس the Backs»، وبقيت هناك لبعض الوقت أحدّق في الغربان العالقة في الشبكة السوداء التي نسجتْها أغصان الدردار العارية، وفي نبات الزعفران فوق العشب

---

(١) نيكولاي يجوف: ١٨٩٥ ـ ١٩٤٠، مسؤول في الشرطة السرية التابعة لستالين.

(٢) غينريخ ياغودا: ١٨٩١ ـ ١٩٣٨، سياسي وثوري روسي شيوعي وأحد المشاركين بثوَرة أكتوبر سنة ١٩١٧.

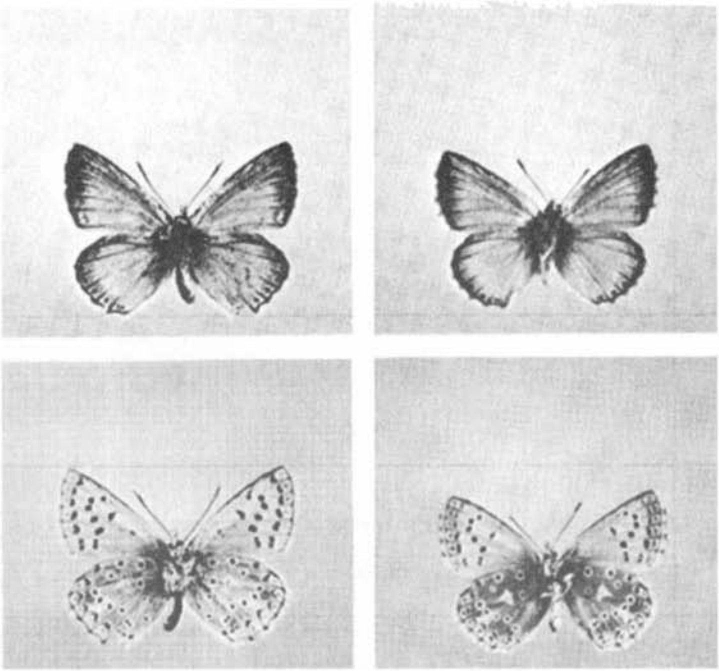
(٣) مويسي أوريتسكي: ١٨٧٣ ـ ١٩١٨ مسؤول بلشفي رفيع.

(٤) فيلكس دزيرجينسكي: ١٨٧٧ ـ ١٩٢٦، ثوري ورجل دولة سوفيتي وعضو بارز في الحركات الثورية الروسية والبولندية.

الغارق في رطوبة الضباب. بينما كنت أتنزّه تحت تلك الأشجار المنشِدة، حاولت أن أضع نفسي في مزاج النشوة الماضية التي خبرتها خلال سنوات دراستي في إنكلترا، ومقارنتها بنظيرتها في روسيا، ولكن كلّ الصور التي استطعت استحضارها كانت مجزّأة: «م.ك»... روسي يعاني من عسر الهضم يشتم عشاءه في قاعة الكلّية الذي سبّب له كل ذاك الألم، وروسيّ آخر، يمرح هناك كطفل. «ب.م» يقتحم غرفتي ليمرّر لي رواية «عوليس» المهرّبة حديثاً من «باريس»؛ «ج.سي» يتسلّل إلى غرفتي ليخبرني أنه، هو أيضاً، قد خسر والده؛ «آر.سي» يقدم لي دعوة مغرية للذهاب في رحلة إلى جبال «الألب» في سويسرا؛ «كريستوفر» الذي لم أعد أذكر كنيته، يتملّص من لعبة تنس مزدوجة بعد أن عرف أن شريكه هندوسيّ؛ «تي». خادم عجوز وضعيف في قاعة الطعام، يندلق الحساء من يده فوق الأستاذ «آ.إي. هوسمان»، الذي ينتفض واقفاً كرجل استفاق لتوّه من تنويم مغناطيسيّ. «س.س» الذي لا علاقة على الإطلاق بكامبريدج، ينام فوق كرسيه في اجتماع أدبيّ (في برلين)، فيلكزه شخص مجاور له بكوعه، فينتفض واقفاً أيضاً ـ في حين يقوم شخص ثالث بقراءة قصّة. «لويس كارول دورموس»، ودون أن يتوقّع منه أحد ذلك، يبدأ بسرد حكاية. «إي. هاريسون» بدوره يهديني، ودون أن أتوّقع أيضاً، ديوان «فتى شروبشاير»، مجلّد صغير يحوي قصائد عن الرجال والموت.

كان شحوب ذلك اليوم الباهت قد تضاءل، متحوّلاً إلى خطّ أصفر في الغرب الرماديّ، عندما، أطعتُ رغبتي وذهبت للقاء أستاذي القديم. كسائرٍ أثناء نومه، صعدتُ الدرجات المألوفة، وطرقت بشكل آليّ فوق الباب نصف المغلق الذي يحمل اسمه. بصوت أقلّ فجاجة من ذي قبل بمقدار ذرّة، وأكثر غوراً، أمرني بالدخول. «أتساءل ما إن كنتَ تتذكّرني...» قلت ذلك بينما كنت أعبر الغرفة خافتة الإضاءة، متّجهاً نحو

المدفأة التي جلس قربها. «دعني أرَ» قالها ببطء أثناء التفاته من جانب أريكته المنخفضة. «لا يبدو لي أني.....» وسُمعتْ فجأة قرقعة مدوّية، وصوت زجاج يُسحق: لقد خطوتُ فوق مجموعة الشاي عند أسفل أريكته المملدة. «أوه، أجل طبعاً» قال «أعرف من تكون».



الفراشة الصغيرة، العلويّة ذات اللون الأزرق الفاتح، والسفلية الرماديّة، وبعيّنتين لصنفين مختلفين (الصورتان من الجهة اليساريّة، عيّنة أصليّة «هولوتايب» لذكر، مع ضرر خفيف ألحق بأحد أجنحته؛ على اليمين، صورتان لصنف ذكر «باراتايب») محفوظيْن في المتحف الأمريكيّ للتاريخ الطبيعيّ، وقد تمّ تصوير هذه الفراشات من قبل المؤسّسة لأوّل مرة، وهي «Plebejus (Lysandra)، cormion, Nabokov». الاسم الأول هو اسم الجنس، الثاني هو الجنيس، الثالث هو الصنف، أما الرابع فهو اسم مؤلف التوصيف الأصلي، والذي قد نشرته في سبتمبر ١٩٤١ (مجلّة جمعيّة علم الحشرات في نيويورك، المجلّد ٤٩. ص. ٢٦٥)، ثم وصفت لاحقاً الأعضاء التناسلية لل«براتايب» (٢٦ أكتوبر ١٩٤٥. في مجلّة «Psyche». ص١).

ربما، وكما أشرت، يعود أصل فراشتي إلى التهجين بين «Plebejus (Lysandra) coridon Poda» (بجنسها واسع الانتشار)، وبين «Plebejus (Meleageria) daphnis Schiffermüller». لا يدرك الفوارق الدقيقة بين أعضاء الجنيسات الحيّة إلاّ خبير تصنيف. أخذت عيّنتيْ الذكور الموصوفة، لكني رأيتُ عيّنتيْن أخريين على الأقل (من غير الإناث)، واحدة «باراتايب» في ٢٠ يوليو، وأخرى «هولوتايب» في ٢٢، من عام ١٩٣٨، وكان ذلك على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم، قرب قرية «مولينيه»، في منطقة «الألب» البحريّة. قد لا يكون تصنيف ذلك التهجين عالياً لدرجة استحقاقه اسماً، ولكنه في كلّ الأحوال ـ صنف جديد صنع نفسه، مدهش الجمال، وقد استحقّ فرصته ـ يبقى من الأصناف النادرة، المذهلة والمبهجة.

الفصل الرابع عشر

١

الدوّامة هي دائرة روحانيّة. تلتفّ الدوائر بشكلها الحلزونيّ، ثم تنحلّ، لتصل نحو نهاية غير مفرغة؛ وهكذا تتحرّر. توصّلتُ إلى هذا المفهوم عندما كنت طالباً في المدرسة، ثم اكتشفتُ أيضاً أنّ سلسلة «هيغل» الثلاثيّة (الشعبيّة جداً في روسيا القديمة) تشرح ببساطة الفكرة الأساسيّة لدوّامة الأشياء بعلاقتها مع الزمن. دائرة تولّد دائرة، وكلّ «توليفة» هي «أطروحة» لسلسلة لاحقة. إن نظرنا إلى أصغر دائرة في الدوامة يُمكننا تمييز ثلاثة مراحل، مطابقة للنظريّة الثلاثيّة: أصغر منحنى أو لنقل أصغر قوس في الدائرة هو ما يمكننا تسميته «الفرضيّة»، وهو النقطة المركزية لبدء عمليّة الالتفاف؛ «النقيضة» وهي القوس الأكبر الذي يقابل الأوّل في عمليّة استمراره؛ «الأطروحة» وهي أوسع الأقواس الذي يكمل الثاني بينما يتبع الأوّل على امتداد الجانب الخارجي للدوّامة، وهكذا دواليك.

دوّامة ملوّنة داخل كرة زجاجيّة صغيرة، هكذا أتصوّر حياتي الخاصّة. أعوامي العشرون التي قضيتها في روسيا بلدي الأمّ (١٨٩٩ ـ ١٩١٩) هي ما يمثل قوس «الفرضيّة». أحد وعشرون عاماً من النفي الطوعي بين إنكلترا، ألمانيا وفرنسا (١٩١٩ ـ ١٩٤٠)، هي ما يغذّي «النقيضة»

الجليّة. أما إقامتي في البلد الذي احتضنني (١٩٤٠ ـ ١٩٦٠)، فتشكّل «التوليفة» ـ و«أطروحة» جديدة. وفي لحظتي هذه يعتريني قلق إزاء مرحلتي «النقيضة»، وعلى وجه الخصوص حياتي في قارّة أوروبا، بعدما تخرجت من جامعة «كامبريدج» عام ١٩٢٢.

كلّما أعدت النظر إلى سنوات عمري في المنفى، أراني، مع آلاف الروسيين الآخرين، وقد أضفنا وجوداً غريباً لم يكن مرغوباً به على الإطلاق، إلى الافتقار الماديّ والفكريّ بين غرباء غير مبالين أبداً، أشباح ألمان وفرنسيين، عاشوا في مدن وهميّة وخادعة، على نقيض المدن التي ترعرعنا فينا، نحن المهاجرون. إن أخذنا هذه الشعوب الأصليّة بعين الاعتبار، فإنهم يبدون أشخاصاً مسطّحين وشفّافين، كأشكال مقتطعة من ورق «سيلوفان»، ورغم أننا قد استخدمنا أدواتهم، صفقنا لمهرّجيهم، وقطفنا ثمر أشجار التفاح والخوخ المزروعة على جوانب طرقاتهم، إلاّ أنّه لم يُخلق بيننا وبينهم، تواصل إنسانيّ حقيقيّ وغنيّ، كذاك الذي ينتشر على نحو واسع، بين أفراد شعبنا. وقد بدا أحياناً أننا قد تجاهلناهم كما يفعل دخيل مغرور أو غبي، حين يتجاهل هيئة لا تحدّدها معالم أو ملامح، لأحد مواطنيه. ولكن ما حصل في بعض الأحيان، لا بل كثير من الأحيان في الواقع، أن كان استعراضنا الرصين لكل جراحنا وفنوننا من خلال ذلك العالم الشبحيّ، مترافقاً مع اضطرابات عنيفة، جعلت كل طرف يدرك من هو الهلاميّ بيننا ومن هو النبيل الحقيقيّ. اعتمادنا الماديّ الكليّ على هذه الأمة أو تلك، التي منتحتنا بكلّ برودة حقّ اللجوء السياسيّ، سبّب لنا أذيّة كبيرة حين توجّب علينا اقتناء أو تمديد «تأشيرة» تافهة، أو ما هو أكثر إذلالاً، «بطاقة هويّة»، فاندلع جحيم التكالب البروليتاريّ لتقديم الالتماسات والعرائض، والتي سيذوي صاحبها قبل أن تأكل الفئران ملفاته المنسيّة في مكاتب الشرطة والقنصليات. «Dokumenti» (الوثيقة)، كما قيل عنها،

هي مشيمة الروسيّ. زوّدت عصبةُ الأمم المهاجرينَ الذين فقدوا أوراقهم الثبوتيّة بما يُدعى جواز «Nansen»، وهي وثيقة رديئة جداً بلون أخضر قاتم. كان يُنظر إلى حاملها بأفضليّة طفيفة على المجرم الحاصل على إفراج مشروط، وكان عليه أن يخوض أبشع المحن، كلّما رغب في السفر من بلد إلى آخر، وكلّما صغر بلد الوجهة، كلّما كبرت الضجة المثارة. أفرزتْ غدد السطات، بطريقة أو بأخرى، مفهوماً مفاده أن الهارب من دولة مهما كان وضعها سيئاً - روسيا السوفيتيّة على سبيل المثال - فإنه مواطن خسيس كونه قد قبِل العيش خارج دائرته الوطنيّة؛ وعليه فإنه يُنظر إليه باستهجان منافٍ للمنطق، كما يَنظر الأشخاص المتديّنون إلى الطفل الذي يولد خارج إطار الزواج. ولكن صدف أن لم نكن جميعاً أولاد زنا وأشباحاً. كم هي جميلة الذكريات التي يحتفظ بها بعض الروسيّون ويثمّنونها، عن إهاناتهم وخداعهم لكبار المسؤولين في مختلف الوزارات، البلديّات، و«Polizeipraesidiums» أقسام الشرطة.

في «برلين» و«باريس»، عاصمتيْ المنفى، شكّل الروس مستعمرات قد اكتظت بهم، مقدّمين مستوى عالياً من الثقافة التي تجاوزت مستوى نظيرتها في المحيط الغريب، حيث وُجدوا. حافظوا على تقاربهم اللصيق فيما بينهم ضمن تلك المستعمرات. أتحدّث بالطبع عن المثقّفين الروس الذين ينتمون بغالبيّتهم إلى الجماعات الديمقراطيّة، وليسوا من النمط المبهرج الذي «يمجّد، كما تعرفون، أيّام القيصر، أو ما شابه»، كالنمط الذي أول ما يتبادر إلى ذهن نساء الملاهي، حين تُذكر أمامها كلمة «الروس البيض». كانت الحياة في تلك المستعمرات كاملة ومكثّفة لدرجة أنّ ذلك الـ«intelligenti» المثقّف الروسي (المصطلح الذي له دلالات اجتماعيّة أكثر منها ذهنيّة من مصطلح «intellectuals» المستخدم في أمريكا) لم يكن يملك الوقت ولا الحجّة للبحث عن علاقات خارج دائرته الخاصّة تلك. اليوم، في العالم الجديد الذي أحبّه، حيث تعلّمت

بسهولة أن أشعر أني في وطني، كالسهولة التي توّقفت فيها عن صدّ المنفتحين والكوزموبوليتانيين، الذين كلّما ذكرت أمامهم لمحة عن ماضي حياتي ظنوّا أني أهرّج، أو بنقيض ذلك، اتّهموني بالخيلاء حين اعترفت أني خلال إقامتي في أوروبا الغربية لما يقارب خمْس القرن، وبين الجماعات الصغيرة من الألمان والفرنسيين الذين عرفتهم (معظمهم صاحبات الشقق التي استأجرتها، أو أشخاص ذوو علاقة بالأدب) لم أحظ بأكثر من صديقيْن حقيقييْن وجيّديْن.

لا أعرف كيف تمّ، خلال سنوات عزلتي في ألمانيا، أني لم ألتق ولا حتى مرّة واحدة بموسيقيي الأيام السالفة اللطيفين، الموجودين في روايات «تورغينيف»، وهم يعزفون قصائدهم الملحميّة في ليالي الصيف؛ أو أولئك الصيّادين العجائز السعداء الذين يعلّقون شبكة الفراشات بقشّ قبّعاتهم، والذين وردوا في رواية «عصر العقل» مدعاة للمرح: النبيل «لابروبير» ذرف دموعاً فوق عثّة «caterpillar» طفيْليّة؛ فلاسفة من مدرسة «جون غاي» خطيرون أكثر منهم حكماء، من نمط «لو سمحت طارد الفراشات لغاية علميّة!»، و«الفضوليون الألمان» التابعون للحبر الأعظم، والذين، بطريقة أقلّ إهانة، «اصطادوا نوعاً نادراً من تلك الحشرات الجميلة»؛ وببساطة هناك الذين يُدعون بالأشخاص الذين يتمتّعون بالصحّة والضيافة الكريمة، الذين، خلال الحرب العالميّة الأولى، قد أحبّهم جنود وسط أوروبا الغربية المثقلين بحنين الوطن، وفضّلوهم عل مزارعي فرنسا البخلاء وعلى نغمات أغنية «لا ماديلون»[(١)] ذات الإيقاع الرشيق. وعلى العكس، عندما أفرز ذاكرتي فإن أكثر ما أراه واضحاً بين أشكال معارفي غير الروسيين وغير اليهود الذين عرفتهم خلال الحربيْن، هو صورة شاب ألماني طالب جامعة، ذي تربية عالية،

---

(١) لا ماديلون: أغنية شعبية فرنسية اشتهرت خلال الحرب العالمية الأولى.

هادئ، يضع نظارات، وقد كانت هوايته تصوير الإعدامات. في لقائنا الثاني، عرض أمامي مجموعة من الصور كانت ضمن سلسلة قد اشتراها («Ein bischen retouchiert تم تصحيحها بعض الشيء»، قالها باشمئزاز مغضّناً أنفه) تصوّر المراحل المتتالية من تنفيذ عقوبة الإعدام في الصين؛ علّق بخبرة كبيرة على روعة السيف القاتل، وعلى روح التعاون العالية بين الجلّاد والضحية، والتي بلغت ذروتها عند انفجار ضباب الدمّ الرماديّ من العنق المصوّر بدقّة عالية، من طرف الجسد المفصول عن رأسه. حاله الميسور قد سمح لجامع الصور ذاك بإمكانية السفر، وقد فعل، ومن بين العلوم الإنسانيّة حصل على دكتوراه في الفلسفة. كان كثير الشكوى من سوء حظّه المستمر، وأضاف أنه إن لم يقع في القريب على أمر جيد بحق، فإنه قد لن يستمرّ في تحمّله لذلك المصير. شهد قليلاً من الإعدامات التي جرت في «البلقان» وكان الإعلان عنها قد سبقها، كما شهد إعدامات مقصلة، آليّة ومغمّة (أحبَ استخدام اللغة العامية الفرنسيّة) في جادة «آراغو» في باريس؛ لكنّه لم يتمكّن من الاقتراب بما يكفي لالتقاط أدقّ التفاصيل، كما أن آلة التصوير عالية الجودة وباهظة الثمن، والتي كانت موجودة في كمّ معطفه، لم تأتِ بالثمر الذي أمل به. رغم نزلة برد قد ألّمت به، سافر إلى «ريغسنبرغ» حيث جرى تنفيذ إعدام عنيف بواسطة فأس؛ توقّع الكثير من رؤية ذلك المشهد ولكن، زيادة في خيبة أمله، كان من الجليّ أنه قد تمّ تخدير الضحيّة، ولم يتفاعل تقريباً مع الحدث، ما عدا بعض التشنجات الضعيفة حين انحنى فوقه كلّ من الجلّاد الملثّم ومساعده الأخرق. أمل «ديتريش» (اسمه الأوّل) بالذهاب يوماً إلى الولايات لمشاهدة بعض الإعدامات الكهربائيّة؛ من تلك الكلمة، استمدّ «ديتريش»، ببراءته المعروفة، كلمة «لطيف Cute» وكان قد تعلّمها من ابن عمّ له في أمريكا، وبقليل من العبوس والقلق، تساءل إن كان حقاً ما يُقال عن

حقيقة ما يجري أثناء ذلك الإعدام من خروج نفثات حسّية من الدخان، من كل فوهات جسد الشخص المعدوم. في لقائنا الثالث والأخير (كنت أريد التزوّد بقليل مما لم أعرفه عنه بعد لاستخدامه في نصّ محتمل) روى لي بأسىً أكثر منه غضباً، أنه قضى ذات مرة ليلة كاملة ينتظر بكلّ صبر، انتحار أحد أصدقائه رمياً بالرصاص وكان قد وافق على طلبه بتصوير الحدث، فوقف أمام فمه المفغور، وجهاً لوجه تحت إضاءة جيّدة، دون أي شعور بالحماس أو الشرف، بل بيأس عارم يطبق على صدره. رغم أني بعد ذلك فقدت أي أثر لـ«ديتريش»، يمكنني أن أتخيّل جيداً نظرة الرضى الهادئة في عينيْه الزرقاويْن الصغيرتيْن، وهو يعرض، في يومنا هذا (وربما أثناء كتابتي لهذا النص) أمام أصدقائه من المحاربين القدماء، الذين يقهقهون عالياً ويصفعون أفخاذهم ضحكاً، وفرة غير متوقّعة من كنوزه التي لا يمكن لأحد خلال حكم «هتلر»، أن يكون قد التقطَ ما هو أروع منها.

٢

لقد تحدّثت بما يكفي عن مجد أيام المنفى كما عن شؤمها في رواياتي الروسيّة، وخاصّة في أفضلها «Dar» (نُشرت مؤخّراً بالإنكليزيّة تحت اسم «الهدية»)؛ ولكن لا بأس من ذكر ملخّص عنها هنا. مع استثناءات قليلة جداً، قامت كل القوى الليبيراليّة الإبداعيّة ـ شعراء، كتّاب، فلاسفة، نقّاد، مؤرّخون، وغيرهم ـ بترك روسيا التابعة لـ«لينين» و«ستالين». أولئك الذين لم يهلكوا هناك ولم يُخضِعوا مواهبهم للامتثال لمطَالب الدولة السياسيّة. ما لم يتمكّن حكم القياصرة أبداً من تحقيقه، أي القمع الكامل للعقول لصالح الحكومة، تمكّن منه البلاشفة بعد وقت قصير من هروب غالبيّة المثقّفين خارج البلاد أو إعدامهم. وأمكن

لأولئك المغتربين المحظوظين عندها متابعة أعمالهم بعد إفلاتهم من العقوبة، لدرجة أنهم شرعوا يسألوا أنفسهم إن كان شعور استمتاعهم بالحرّية الفكرية المطلقة يعود للحظ أم لأعمالهم الحرّة التي يمتهنونها. بالتأكيد كان بين المهاجرين مجموعة كبيرة من القرّاء الجيّدين، ما سوّغ نشر الكتب والمجلات الدوريّة الروسيّة، وعلى نطاق واسع، في «برلين»، «باريس» وغيرها؛ وباعتبار أنّ تلك الكتابات لم تكن لتُتداول في الاتحاد السوفياتيّ، فإنها اكتسبت مظهراً معيّناً من اللاواقعيّة الهشّة. كان عدد العناوين أكثر إثارة للدهشة من عدد النسخ المباعة، وكانت أسماء دور النشر، «Orion, Cosmos, Logo» وغيرها، توحي بذلك الظهور المحموم، غير المستقل وغير الشرعيّ إلى حدّ ما، المرتبط عادة بالدور التي تنشر الكتب الفلكيّة، أو أدب الحقائق الجنسيّة. ومع ذلك، فإنّنا إن أعدنا النظر إلى الماضي بهدوء، وحاكمنا الأمر بمعايير فنيّة وعلميّة فقط، فإن تلك الكتب التي أُنتجت في الخلاء من قِبل الكتّاب الروس المهاجرين تبدو اليوم، وبغضّ النظر عن أخطائهم الفرديّة، أكثر دواماً وأكثر استحقاقاً للاستهلاك البشريّ من الخطابات السياسيّة السلافيّة الفرديّة والتقليديّة التي تزامنت مع أقلام أولئك الكتّاب السوفييت الشباب، الذين زوّدتهم البلدان الراعية بالحبر، الغليون والكنزات الصوفيّة.

رحّب «لوسيف فالديميروفيتش هيسين»، محرر جريدة الـ«Rul» اليومية (وناشر كتبي الأولى) بفكرة ملء العمود الشعري في صحيفته، بقصائدي غير الناضجة. أمسيات «برلين» الزرقاء، شجرة الكستناء المزهرة عند الزاوية، الصداع الخفيف، الفقر، الحب، الإضاءة الأولى التي تنبثق من مصابيح المحلات التجارية بمسحة من اللون البرتقاليّ، وحيوان يؤلمه حنينه لرائحة العفونة في الأرض الروسيّة - كل تلك المواضيع كانت مدرجة في قصائدي، أكتبها بخطّ يدي ثم أحملها إلى

مكتب رئيس التحرير «إي.في» المصاب بـ «قصر النظر»، فيحمل القصيدة، يقرّبها من وجهه، ثم يضعها فوق مكتبه، بعد اطلاع مختصر على محتواها، باللمس أكثر منه بالنظر. مع بداية عام ١٩٢٨، بدأتْ ترجمة رواياتي إلى الألمانية توفّر لي مكاسب ماليّة يسيرة، وفي ربيع عام ١٩٢٩، ذهبنا انا وأنتِ لمطاردة الفراشات في «البرانس». لكنّنا لم نغادر برلين نهائيّاً إلا خلال العقد الرابع من القرن العشرين، رغم أنني قبل ذلك بفترة بعيدة، كنت قد قمت برحلات عدّة إلى باريس لحضور جلسات قراءة لبعض أعمالي.

إحدى السمات المميّزة لحياة المهاجر، والمتماشية مع طباع شخصيّته المحِبة للترحال والدراما، كانت تَردّده غير الطبيعي على حضور جلسات أدبيّة تُقام في المنازل الخاصّة أو القاعات المستأجرة. كعرضٍ للدمى، تبرز في ذاكرتي الآن صور واضحة جداً لشتّى أنواع الفنانين الذين شهدتهم. كان هنالك ممثّلة باهتة، تحمل في عينيْها ما يشبه الأحجار الكريمة، وبعد أن ضغطتْ فمها المحموم للحظة بمنديل تشده بين يديها، شرعت باستحضار أصداء الحنين لفنون المسرح الروسيّ، بقراءة بعض القصائد الشهيرة، متلاعبة بصوتها الرائق والبطيء، ما بين الجدّية والحنان. كان هنالك كاتب من الدرجة الثانية الميؤوس منها، يخوض صوته الضبابي في وحل القراءة النثريّة، بينما يمكن رؤية الارتجاف العصبي لأصابعه البائسة، البليدة ولكن الحذرة، كلّما وضع الصفحة التي انتهى من قراءتها تحت حزمة الصفحات التالية، وقد بقي ممسكاً بها طوال فترة قراءتها، بكل سماكتها المروّعة والمثيرة للشفقة. وهناك الشاعر الذي لم يستطع زملاؤه الحاسدون منع أنفسهم من ملاحظَة عبقريته المثيرة للقلق، والتي قد ضربتهم كما تفعل رائحة الظربان؛ ينتصب فوق الخشبة، شاحباً بعينيْن لامعتيْن، لا شيء بين يديْه يربطه بهذا العالم، يميل برأسه إلى الخلف ثم يبدأ بإنشاد قصيدته بطريقة

متموّجة ومزعجة للغاية، ثم يتوّقف فجأة عند نهايتها، يخبط باب السطر الأخير منتظراً التصفيق ليأتي ويملأ السكون. وكان هناك المعلّم العجوز العزيز، الذي كان يُسقط لؤلؤة وراء لؤلؤة من كنوز حكايته المذهلة التي قرأها لمرات لا حصر لها، بالطريقة ذاتها دائماً، مرتدياً تعابير الاشمئزاز والنفور، الظاهرة في صورة وجهه النبيل المغضّن، فوق غلاف مجموعة أعماله الكاملة.

من السهل ربما على مراقب حيادي أن يسخر من هؤلاء الأشخاص الذين حاولوا في المدن الغريبة التي قطنوها، وعلى نحو ملموس، تزييف حضارة قد ماتت، تزييف سراب بعيد جداً، يكاد يكون أسطورياً أو ربما سومرياً، لـ«سانت بطرسبرغ» و«موسكو» بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٦ (اللتين حتى في عشرينات وثلاثينات القرن كانتا تبدوان وكأنهما لا تزالان بين ١٩٠٠ و١٩١٦ قبل الميلاد). ولكنّهم على الأقل كانوا متمرّدين كما كان أغلب كبار الكتاب الروس منذ أن وُجد الأدب الروسيّ، مخلصين لشروط تمرّدهم، مصرّين على المطالبة بالحرية والعدالة كما فعلوا في ظلّ قمع القياصرة، مما جعل المهاجرين ينظرون إلى كتّاب الاتحاد السوفييتيّ على أنّهم مدلّلين يتصرفون بطريقة غير روسيّة، ودون الإنسانية، ويخضعون بتذلل إلى كل القرارات الحكوميّة الظلاميّة؛ لأن فن السجود كان هو ما يتنامى طرداً مع الفعالية المتزايدة للشرطة السياسيّة في حقبة «لينين»، ثم «ستالين» من بعده، والكاتب السوفيتيّ الناجح هناك، كان من يمتلك أذناً دقيقة تلتقط أدنى همس للاقتراحات الحكومية وتستجيب لها، قبل أن تتحوّل لصوت بوق.

ونظراً إلى محدوديّة تداول أعمالهم في الخارج، فإن الجيل الأكبر سنّاً من الكتاب الروس المهاجرين، الذين سبق أن أسّسوا شهرتهم بقوّة في روسيا ما قبل الثورة، لم يأملوا بكسب عيشهم اعتماداً على عائدات أعمالهم. كتابة عمود أسبوعي في صحيفة خاصّة بالمهجر لم تكن لتعيل

جسداً كي يستمرّ في الكتابة. بين الحين والآخر، كانت الترجمات إلى لغات أخرى توفّر مردوداً غير متوقّع؛ ولكن من ناحية أخرى، كانت المنح المقدّمة من منظمات عدّة تُعنى باللاجئين، إضافة لما تؤمّنه القراءات العموميّة من أرباح والتبرّعات المقدّمة من الجمعيات الخيريّة الخاصة والسخيّة، كانت مسؤولة عن تمكين المؤلّفين كبار السن من الاستمرار في عيش كريم. أما الكتّاب الأصغر سنّاً، الذين ربما يكونون أقلّ خبرة ولكنّهم أكثر قدرة على التكيّف، فقد زادوا من فرص سبل عيشهم من خلال انخراطهم في وظائف مختلفة. أذكر أني علّمت اللغة الإنكليزيّة وكذلك التنس. بطول البال، جعلت رجال الأعمال في «برلين» يتخلّون عن موهبتهم العنيدة في لفظ كلمة «business» (أعمال) بالطريقة التي تبدو فيها مقّفاة مع كلمة «dizziness» (دوخة)؛ وكإنسان آلي ماهر جداً، وتحت غيوم نهار صيفي تتحرك ببطء شديد، علّمت بناتهم ذوات البشرة المحمرّة والشعر القصير، كيفيّة الرد على ضربات الإرسال، التي كنت أوزعها فوق شباك التنس، طابة وراء طابة. حصلت على خمسة دولارات (ما كان يُعتبر مبلغاً جيّداً نظراً للتضخم في ألمانيا) لقاء ترجمتي لـ«آليس في بلاد العجائب». ساعدت في جمع قواعد اللغة الروسيّة في كتاب لصالح الأجانب، وكان التمرين الأول: «Madam, ya doktor, vot banan»، (سيدتي، أنا طبيب، هذه موزة). أفضل من كلّ ما سبق، كنتُ أوّل من ألّف كلمات متقاطعة روسيّة، لتُنشر في صحيفة مهجر برلينيّة يوميّة «Rul»، وقد أسميتها «krestoslovitsï». من الغرابة أن أذكر كل تلك الأمور التي تبدو شاذّة. المختصّون بكتابة تعريفات بالسير الذاتية فوق الأغلفة الأخيرة من الكتب، يفضّلون ذكر قائمة عن المهن العمليّة (الكتابة عن الحياة والقيم ـ هذا بالطبع ما هو أكثر أهميّة من كونه مجرد فن) التي مارسها مؤلّف شاب: بائع صحف، نادل، راهب، مصارع،

مراقب عمّال في مصنع للفولاذ، سائق حافلات، وغيرها. ولكني للأسف، لم أمتهن أيّاً من تلك المهن.

شغفي بالكتابة الجيّدة جعلني على اتصال مع مختلف الكتّاب الروس في الخارج. كنت شاباً في تلك الأيام وقد امتلكتُ من الاهتمام الكبير بالأدب ما لا أملكه اليوم. تدفّقٌ لا ينتهي من الشعر والنثر، كواكب برّاقة ومجرّات باهتة، كل ذلك كان يتسلل عبر إطار نافذة العلّية إلى غرفتي، ليلة بعد ليلة. كان هنالك كتّاب مستقلّون من مختلف الأعمار وشتّى المواهب، كما وُجدت تجمّعات وزُمر، يترأس كلّ منها ناقد فلسفيّ، ويجمع حوله العديد من المؤلّفين الشبّان أو الشابّات، الذين كان بعضهم موهوباً جداً. أهمّ ما ميّز أولئك المعلّمين الروحيين الذين جمعوا بين الموهبة الفكريّة والقيم الأخلاقيّة، هو تذوّقهم الغريب للشعر الروسيّ الحديث، مع إلمام غير واسع بالكلاسيكيّات الروسيّة. كان أحدهم يدفع مريديه للاعتقاد أن بناء فلسفة خاصة بأدب المهجر الروسيّ، لا يمكن أن يقوم اعتماداً على نفي البلاشفة، ولا على الإيديولوجيات الديمقراطيّة الغربية التي كانت سائدة آنذاك. وهكذا أصبحوا متعطّشين لعقيدة كما يتعطّش مدمن مخدّرات مسجون إلى جنّته الأليفة. وزيادة في إثارة الشفقة، صاروا يحسدون المجموعات الباريسيّة الكاثوليكيّة على فلسفتهم المحنّكة التي تفتقر إليها وبوضوح، الصوفيّة الروسيّة. لم تستطع أفكار «دوستويفسكي» منافسة «التوماويّة» الجديدة؛ ولكن ألم يكن هناك طرق أخرى؟ تبيّن أن التطلّع إلى نظام من المعتقدات، هذا التأرجح الدائم على حافة بعض الصياغات الدينيّة المعترف بها، قادر على تزويد ذاته باكتفاء ذاتي خاص. بعد ذلك بوقت طويل، في أربعينيات القرن، تمكّن بعض الكتّاب أخيراً من اكتشاف المنحدر الذي انزلقوا فيه، والذي كان أشبه بالجثو الذليل. لم يكن ذلك المنحدر إلاّ القوميّة المتحمّسة التي تدفع الكاتب لوصف دولة (دولة ستالين في تلك المرحلة) على أنّها

جيّدة ومحبوبة، لمجرد أنّ جيشها قد ربح الحرب. غير أن شفا الكارثة لم يكن واضحاً بما يكفي في بداية الثلاثينات، وعليه فإن أولئك المعلّمين الروحيين استمروا في جني متعتهم من صقل المنزلق نحن تلك الهاوية. كانوا متحفّظين من موقفهم تجاه الأدب بشكل غريب؛ بالنسبة لهم، كان خلاص الروح يأتي بالمرتبة الأولى، تبادل المصالح ثانياً، أما الفن ففي المرتبة الثالثة والأخيرة. إن ألقينا نظرة إلى الماضي يمكن ملاحظة الأثر الصاعق لكتّاب الفن الجميل «belles - lettrists»(١) الأحرار، الذين قلّدوا في الخارج الأفكار المغلولة لبلدهم الأم، حين أقرّوا بأن ممثل مجموعة أو عصر هو أكثر أهميّة من الكاتب نفسه.

في العشرينات والثلاثينات، تذمّر «فلاديسلاف هودازيفيتش»(٢) من شعراء المهجر الشباب الذين استعاروا قالبهم الفنيّ منه، بينما كانوا تابعين للزمر القياديّة، المأخوذة بمواضيع القلق المعاصر التطهير الروحيّ. تطوّر عندي إعجاب كبير لهذا الرجل اللاذع، المجبول من السخرية وعبقرية تكاد تكون معدنيّة، صاحب القصائد المركبّة كالمعجزات، كقصائد «تيوتييف» و«بلوك». كان مظهره الجسديّ يوحي بالمرض، مع أنف متعجرف وحواجب خنفسيّة، وكنت كلّما استحضرت صورته في ذهني، لم يكن لينهض عن كرسيّه الثقيل الذي يجلس فوقه، رافعاً ساقاً فوق أخرى، وبعينيْن يلمع فيهما الغلّ والدهاء، وبأصابعه الطويلة، يخرج من حاملة التبغ نصف سيجارة «Caporal Vert». قليل فقط من الشعر المعاصر يمكن له أن يُقارن بقصائد ديوانه «قيثارة ثقيلة»، ولكن

---

(١) - belles-lettres: مصطلح فرنسي يُطلق على كتّاب الأدب بشتّى أنواعه، الذين يعنون بتنميق وجمالية ما يكتبون أكثر مما يعنيهم عمق المحتوى.

(٢) فلاديسلاف هودازيفيتش: ١٨٨٦ ـ ١٩٣٩ مفكر، ناقد وشاعر روسي، ترأس حلقة أدباء المهجر الروسيّ في برلين.

لسوء حظّه، فإن ما اشتهر به من كونه صريحاً جداً في إبداء نفوره أو عدم إعجابه، قد خلق له بعض الأعداء الرهيبين، بين أقوى الزمر الناقدة. إن الآباء الروحيين الذين أسسوا لثقافات جديدة، لم يكونوا جميعهم «آليوشا»[1] الخاص بـ«دوستوفيسكي»؛ كان هناك أيضاً قلّة من «سمردياكوف»[2] ضمن المجموعة، وقد انتقموا من شعر «هودازيفيتش» من خلال انتقاص قيمته وازدرائه.

ومن الكتّاب الأحرار أيضاً هنالك «إيفان بونين»، الذي لطالما فضّلت قصائده التي لم تكن معروفة جداً على نثره الشهير (ترابط قصيدته مع إطارها، يشبه طريقة «توماس هاردي» في نظم الشعر). حين قابلته آنذاك، كان قلقٌ مهول من التقدّم بالسن يسيطر عليه. وأوّل ما قاله لي أن عليّ أن ألاحظ كيف أن قامته أكثر انتصاباً من قامتي، رغم فارق الأعوام الثلاثين فيما بيننا. كان يحتفي بجائزة نوبل التي كان قد استلمها لتوّه، وقد دعاني إلى مطعم فاخر وعصريّ في باريس، لإجراء حديث «قلب لقلب». كان ولا يزال لديّ، لسوء الحظّ، نفور مرضيّ من المطاعم والمقاهي وخاصة الباريسيّة منها ـ أكره الحشود، النوادل المزعجين، البوهيميين، مشروبات «فيرموث»، القهوة، طبق الزاكوسكي»، المعالم السياحيّة وغيرها. أحب أن آكل وأشرب في الأماكن الساكنة (ويفضل أن أكون فوق أريكة) والهادئة. محادثات «قلب لقلب»، اعترافات على طريقة «دوستويفسكي»، هي أيضاً أمور لا تدخل في برامجي. «بونين»، ذلك العجوز الرشيق، الذي يمتلك معجماً واسعاً من الكلمات الفاسقة، قد استغرب عدم اكتراثي بالدجاج البريّ المحمّر الذي نلت منه ما يكفي أثناء طفولتي، وأغضبه رفضي الخوض في شؤون الآخرة والبعث. عند

(١) آليوشا كارامازوف: شخصية في رواية الأخوة كارامازوف ـ دوستوفسسكي.

(٢) بافل فيودوروفيتش سمردياكوف: شخصية أخرى في رواية الأخوة كارامازوف ـ دوستوفسسكي.

إشراف تناولنا للطعام على نهايته، كان كلّ منا قد ملّ من الآخر. «سوف تموت في ألم شنيع وعزلة كاملة»، قالها لي ونحن في طريقنا إلى غرفة إيداع المعاطف. أخذت فتاة جذابة ذات مظهر جميل إيصال معاطفنا الثقيلة ثم وقعت فوق واجهة الاستقبال المنخفضة، مع المعاطف وقد أصبحتْ في حضنها. أردت مساعدة «بونين» في ارتداء الـ«رغلان» الخاص به لكنّه أوقفني بكفّه المفتوح والمعترض بكلّ إباء. ظلّ يكافح مُظهراً عدم اكتراثه ـ لكنّه هذه المرّة كان يساعدني في ارتداء معطفي ـ ثم خرجنا إلى الصقيع الشاحب ليوم من أيام باريس الشتويّة. كان مرافقي على وشك زرّ ياقته، حين اعترتْ ملامحه الأنيقة نظرةٌ من الضيق والمفاجأة. فتح معطفه بكلّ حذر، وبدأ يشدّ شيئاً ما من تحت إبطه. اقتربت لمساعدته، وتمكنّا سويّة في نهاية الأمر من سحب وشاحي الصوفيّ الطويل، الذي دسّته الفتاة في المعطف غير الصحيح. أخرجناه إنشاً بإنش؛ كان ذلك شبيهاً بفضّ الخِرق عن مومياء، وبقي كلّ منا يدور حول الآخر، مانحيْن بذلك تسلية ماجنة لثلاث عاهرات كنّ واقفات على جانب الطريق. ثمّ، بعد أن انتهت العمليّة، تابعنا سيرنا دون التفوّه بأيّة كلمة، نحو زاوية الشارع حيث تصافحنا وافترقنا. التقينا بعد ذلك في كثير من الأحيان، ولكن كان ذلك دائماً وسط الناس، وغالباً في منزل «إي. إي. فونداминسكي» (روح طاهرة بطوليّة، قدّمت لأدب المهجر الروسيّ أكثر مما قد فعل الذين ماتوا في السجون الألمانيّة). اعتمدت و«بونين»، بطريقة أو بأخرى، أسلوباً كئيباً في أحاديثنا تسوده روح السخرية، ربما يكون أسلوباً بديلاً لما يسمّى بالأمريكيّة «kidding مزاح»، وهذا ما حال دون نشوء أي علاقة طيّبة بيننا.

التقيت العديد من كتاب روس آخرين. لكني لم أقابل «بوبلافسكي» الذيَ مات شاباً، عازف كمان منفرد وبعيد، بين كل القريبين الذين كانوا يعزفون الـ«بلالايكا».

«نامي موريلا! نامي!

لو أنك تعرفين كم هي موحشة حياة النسور!»

لا يمكنني أن أنسى تلك النغمة الكئيبة في قصائده، كما لا يمكنني اليوم أن أغفر لنفسي مهاجمتي له سابقاً وانتقاد بعض الأخطاء التافهة في أوائل قصائده التي لم تكن قد نضجت بعد. التقيتُ «آلدانونف» الحكيم، الأنيق والساحر؛ العجوز العاجز «كوبرين» يجول في الشوارع تحت المطر ممسكاً بزجاجة نبيذ بكلّ حذر؛ «آيهنفالد»، النسخة الروسيّة من «والتر بالت»، قُتل لاحقاً في حادث تصادم مع عربة الكترونية؛ «مارينا تيسفيتيف»، زوجة رجل مزدوج العبقريّة، يعمل كعميل وشاعر في الوقت ذاته، عاد إلى روسيا في أواخر الثلاثينات، حيث هلك هناك. ولكن، بطبيعة الحال، أكثر من أثار اهتمامي من الكتّاب هو «سيرين». كان ينتمي إلى جيلي. كان هو الأكثر عزلة وغطرسة بين المؤلّفين الذين أنتجوا في المنفى. بدءاً من ظهور روايته الأولى عام ١٩٢٥، وعلى امتداد خمسة عشر عاماً لاحقاً، اختفى في نهايتها بغرابة تماماً كما ظهر، استمرّ في إثارة حفيظة النقّاد الذين تناولوا أعماله بشراسة تكاد تكون مرضيّة. وكما أدانت صحافة القرن الثامن عشر الماركسية افتقارَ أعماله للاهتمام بالهيكل الاقتصاديّ للمجتمع، كذلك أدان مؤسسي المدارس الفلسفيّة الجديدة لأدب المهجر، افتقارَها للبصيرة الدينيّة والأفكار الأخلاقيّة. كانت كلّ أعماله تسيئ إلى الأعراف الروسيّة، وإلى الذوق الروسيّ المحتشم بشكل خاص، الذي، على سبيل المثال، لا يتقبّله حتى أمريكيو يومنا هذا، حين يكتب أنّه بحضور عنصر من الجيش الروسيّ رفيع المستوى، يمشي متسكّعاً واضعاً يديه في جيبيّ سرواله. وعلى عكس ذلك، أشاد معجبو «سيرين» جداً بأسلوبه، وربما بالغوا في ذلك، حين وصفوه خارجاً عن المألوف، بارعَ الدقة، غزيرَ الصور الفنيّة، وما إلى ذلك من توصيفات. القرّاء الروسيّون الذين اعتادوا على نهج الواقعيّة الروسيّة الصارم ولطالما أدانوا الفظاظة البذيئة، كانوا

مأخوذين بوجهات نظره التي اعتبروها كمرايا لأفكاره الواضحة ولكن مضللة على نحو غريب، وبحقائق الحياة الواقعيّة التي مثّلتها شخصيات أعماله، التي شبهها أحد النقّاد بـ«النافذة المفتوحة على عالم مجاور... الظلال التي تلاحق قطار الأفكار كلازمة متكرّرة». عبر سماء المنفى القاتمة، مرّ سيرين ـ سأستخدم تشبيهاً متحفظاً ـ كنيزك، ثم اختفى، دون أن يترك وراءه أكثر من مجرّد معنىً غامض ومربك.

٣

خلال أعوامي العشرين التي قضيتها في المنفى، كرّست كثير الوقت لتأليف مسائل في الشطرنج. أرتّب وضعيّة معيّنة للأحجار فوق الرقعة، وعلى الحجر المقابل الأسود أن يحلّ المسألة بحركات لا تتعدى اثنتين أو ثلاث. إنّه فنّ رائع، معقّد، وغير مثمر، يتعلّق بالشكل العاديّ للعبة بقدر ما، لنقل، تُستخدم خصائص طابة التنس بشكليْن مختلفين، مرّة من قبل مرسل متحايل، وأخرى من قبل اللاعب الذي يعرف كيف يردّ تلك الضربة ويربحها. في الحقيقة، كل لاعبي الشطرنج، الهواة والمتمرّسين على حدّ سواء، لا يهتمّون إلاّ قليلاً بالألغاز عالية الاختصاص، الصعبة والخياليّة، وبالرغم من تقديرهم الكبير للمسائل الصعبة، إلاّ أن تأليفها هو أمر يفوق قدراتهم.

الإلهام شبه الموسيقيّ، وشبه الشعريّ، أو لأكون أكثر دقة، الإلهام ذو النمط شعريّ ـ رياضيّ، يخدم مسألة تأليف مسائل شطرنجيّة من ذلك النوع. في أحيان كثيرة، عند منتصف نهار لطيف، على هامش انشغالات تافهة َعدّة، وفي أعقاب استيقاظ خامل من أفكار عابرة، كنتُ أختبرُ، دون سابق إنذار، وخزة متعة ذهنية، حين يبرز في عقلي فجأة برعم مسألة شطرنجيّة، مع وعد بإبقائي ساهراً لليلة كاملة ما بين الجهد

والابتهاج. قد يكون طريقة جديدة للمزج بين حيلة استراتيجيّة فذّة، مع خط دفاع غير فذّ؛ أو ربما لمحة موجزة عن تشكيل فعليّ للقطع سيؤدي في النهاية، بروح الدعابة والطلاوة، إلى مسألة صعبة كنت حتى حينها لم أتوصّل إلى وضع تفاصيلها؛ أو ربما تكون مجرّد لفتة قد شكّلها في أقصى زوايا دماغي المظلمة مختلفُ وحدات القوى الممثّلة بقطع الشطرنج ـ شيء ما يشبه عرضاً إيمائيّاً سريعاً، يقترح تناغمات وصراعات جديدة؛ أياً كان، فإنه كان إحساساً استثنائياً بنشوة عارمة، ولكن اعتراضي الوحيد عليه اليوم، هو أن هوسي بالتلاعب بتلك الأشكال المنحوتة، والتفكير المزدوج بالمسائل، قد اجتاحا من سنيّ عمري الأكثر حماساً وقدرة على غزارة الإنتاج، قدراً كبير من الوقت الذي كان يُمكن له أن يُكرّس لمغامراتي الأدبية.

يضع الخبراء تصنيفات عدّة لمدارس فن تأليف مسائل الشطرنج: المدرسة الأنجلو ـ أمريكيّة التي تجمع بين البناء الدقيق والتصاميم المبهرة، وترفض الالتزام بأيّة قواعد تقليديّة؛ المدرسة التيوتونيّة ذات الأساليب الصارمة؛ المدرسة التشيكيّة التي تنتج نهايات متقنة ولكن خالية من المتعة، مع التزام صارم ببعض الشروط المتكلّفة؛ الدراسات الروسيّة القديمة لخواتيم اللعب، التي تبلغ أعلى القمم الفنيّة المتألّقة، والمسائل السوفيتيّة الميكانيكيّة التي تُدعى بنمط «المَهمّة»، الذي يأتي بديلاً للاستراتيجيّة الفنيّة، معتمداً على الموضوعات الشاقّة بأقصى حدودها. موضوعات الشطرنج، يمكن تفسيرها، على أنها مكائد مسبقة التخطيط، جولات من الكرّ والفرّ وهكذا؛ ولكن لا يمكن لمسألة أن تستوفي كلّ شروطها ما لم تجمع كل ما سبق ذكره. خداع إلى حدّ الشعوذة، وأصالة تميل إلى كونها شاذّة ومتنافرة، تلك هي كانت مفاهيمي الاستراتيجيّة؛ ورغم أني حاولت أن أجعل مسائل البناء، في حال أمكن ذلك، تتوافق مع القواعد الكلاسيكيّة، كشكل من أشكال تدبير حلول قويّة ومتماسكة،

مع الابتعاد عن النهايات المسترخية، إلا أني كنت مستعداً للتضحية الدائمة بنقاء الصيغة مقابل متطلبات روعة المحتوى، مسبباً لها ـ أي للصيغة ـ انتفاخاً يليه انفجار تماماً كحقيبة اسفنجيّة، يغلي داخلها شيطانٌ صغير وغاضب.

تأليف مسائل الشطرنج هو كتخيّل مسار رئيسي لرواية، والتفكير في بنائها في الوقت ذاته. ضغطٌ هائلٌ على الدماغ؛ يفقد عنصر الوقت أهميّته تماماً في وعْي المؤلّف: تُخرج اليد البانية بيدقاً من مربّعه، تحمله في باطنها، في حين يستمرّ العقل في تخمين الحاجة إلى التراجع عن الحركة أو إيجاد حلّ بديل، وعندما تُفتح القبضة، تكون ساعة من الزمن قد مرّت ربما، وتحوّلت إلى رماد في محرقة التفكير الذهني المتّقدة. يرى مؤلف الشطرنج الرقعة على أنها حقل مغناطيسيّ، نظام من الضغوطات والحواجز، قبّة تملأها النجوم. تتحرك الأحصنة فوقها ككشافات ضوئيّة. هذا البيدق أو ذاك هو ذراع يتعدّل موضعها تبعاً للمحاولات، ثم يُعاد تعديلها مجدّداً، إلى أن تصل المسألة إلى المستوى اللازم للجمال والمفاجأة. كم من مرّات عانيت لأحدّ من القوة الرهيبة للوزير الأبيض، ولأتجنّب حلاً مزدوجاً! لا ينبغي للمسائل الشطرنجيّة أن تُفهم على أنّها منافسة بين الأبيض والأسود، بل بين مؤلّفها والحل الافتراضيّ (كما هو الحال في الروايات الخياليّة من الدرجة الأولى، إذ لا يكون الصراع القائم فيها هو ما يدور بين الشخصيّات، بل بين المؤلّف والعالم)، حتى أن جزءاً كبيراً من قيمة المسألة يعود إلى عدد المحاولات ـ حركات افتتاحيّة مضلّلة، تقفّي خاطئ، تكتيكات خادعة تمّ تحضيرها بدهاء وعناية، ليتوه بينها ذاك الذي ظنّ أنّه قادر على حلّها. ولكن مهما تمكنّت من التحدّث عن مشكلة تأليف المسائل، فإني لن أستطيع أن أشرح بما يكفي جوهر النشوة الذهنيّة لتلك العمليّة، ونقاط اتصاله بعمليات عقليّة إبداعيّة أخرى، أكثر خصباً ووضوحاً من عملية رسم خرائط لبحار

خطيرة، أو كتابة رواية لا تُصدق، حيث يضع الكاتب لنفسه، عند وصوله لمرحلة واضحة من الجنون، بعض قواعد ذاتية خاصّة، بعض كوابيس وحواجز يتخطّاها، مع كامل اعتقاده بمقدرته الإلهية على خلق عالم حيّ من عناصر غير احتماليّة ـ صخور، كربون، وخفقان أعمى. في تأليف المسائل، يترافق الحدث مع ارتياح بدنيّ لطيف، خاصّة إن تحرّكت الأحجار كما ينبغي لها أن تفعل في البروفة الأخيرة، متوافقة مع حلم المؤلف. هناك إحساس بالرفاه (يعود إلى طفولته، الخطط التي كان يضعها حين يخلد إلى سريره، مع قطع اللعب التي تملأ الفراغات المناسبة في دماغه؛ بطريقة جميلة ترصد القطع لبعضها البعض كميناً وراء آخر، داخل المربّعات الدافئة، المريحة، والمنبوذة؛ وهناك الحركة السلسة لآلة مصقولة، التي تعمل بحلاوة كلّما تحرّك إصبعان منفرجان ليلتقطا قطعة بكلّ رفق، وبكلّ رفق ينزلانها.

أذكر مسألة معيّنة استغرقني تأليفها أشهراً عدة. ثم جاءت تلك الليلة حين تمكّنت، وأخيراً، من تحديد صيغتها الاستثنائيّة. كان القصد من وراءها إمتاع محترف بحلّ مسائل الشطرنج. يمكن للساذج أن تفوته غاية المسألة برمّتها، ويكتشف الحلّ البسيط الاعتباطي دون أن يمرّ بمتعة العذاب المعدّة للاعب عالي المستوى. أوّل ما سيقوم به هذا الأخير هو الوقوع في فخ تكتيكات اللعب الوهميّة المبنيّة على صيغة هجوميّة حديثة (معرّضاً الملك الأبيض لخطر «كش ملك»)، والتي قد كلّفت المؤلف معاناة كبيرة كي «يزرعها» (بتدبير حركة واحدة فقط غامضة للبيدق يمكنها أن تجنّبه موت الملك). وبعد أن تجاوز جحيم أوّل هجوم «مضاد» سيصل لاعبنا المحترف الخارق لل«حركة المفتاح» البسيطة (الحصان إلى C2) كشخص يطارد إوزّة برّية وقد يذهب وراء غايته من «ألباني» إلى «نيويورك» مروراً بـ«فانكوفر»، «أوراسيا» إلى جزر «الأزور». متعة تجربة الطريق الملتوي (مناظر طبيعيّة غريبة، الصنوج، النمور، الطقوس

الغريبة، وثنائي حديثا الزواج يدوران لثلاث مرّات حول النار المقدّسة المنبثقة من موقد أرضيّ) ستسهب في مكافأته على بؤس الخديعة التي لم تنطلِ عليه، ثم بعد ذلك، فإن وصوله إلى «الحركة المفتاح» البسيطة سيزوّده بتوليفة من المتعة الفنّية اللاذعة.

أتذكّر استيقاظي البطيء من غيبوبة التركيز الشطرنجيّ، وعندها، وفوق الرقعة الإنكليزيّة الجلديّة الرائعة، بلونها القشديّ والمصفرّ، حيث لا شيء يسود سوى التوازن، تسبح الأحجار كلّ منها في مكانه، وكأنّها كوكبة. لقد نجحت المسألة. لقد عاشت. أحجار الشطرنج خاصّتي من «ستونتون» (أهداني إياها قبل عشرين سنة عمّي، شقيق والدي الإنكليزيّ، «قنسطنطين»)، هي قطع ضخمة مدهشة، مصنوعة من الخشب الأسود أو الأسمر المصفرّ، يبلغ طول كلّ منها أربعة إنشات وربع، تنتصب بطريقة استعراضيّة مظهرة ملامحها اللامعة، كما لو كانت واعية للدور الذي لعبته. ولكن للأسف، إن تفحّصها أحد عن قرب سيلاحظ تشققاتها الصغيرة (بعد أن ارتحلت معي داخل صندوقها من مكان إلى آخر، بين المساكن الخمسين أو ربما الستّين التي شغلتها خلال تلك السنوات)؛ قليلٌ من التتويج القرمزيّ لا يزال ظاهراً فوق الجزء العلويّ من القلعة وجبهة الوزير، مذكّراً بعلامة السعادة التي يطبعها الهندوسيّون فوق جبينهم.

في نهر الزمن المتدفّق، مقارنة مع بحيرته المتجمّدة خلال الوقت الذي قضيته في تأليف الشطرنج، كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف. كان ذلك خلال شهر مايو ـ منتصف مايو عام ١٩٤٠. في اليوم السابق، وبعد أشهرٍ من الاستجداء والشقاء، تمّ إعطاء الرشوة المقيتة إلى الخسيس المناسب في المكتب المناسب، للحصول، وأخيراً، على تأشيرة سفر، والتي بدورها أعطت الإذن بعبور الأطلسي. فجأة شعرت بعد إتمام مسألة الشطرنج التي ألّفتها أني قد وصلت إلى إغلاق مرحلة مرضية من حياتي. كلّ

شيء من حولي كان هادئاً؛ عادت غمازتي لتظهر فوق خدّي، إن جاز التعبير، كدليل على ارتياحي. كنتِ نائمة في الغرفة المجاورة مع طفلنا. المصباح فوق طاولتي مغطىً بورق أزرق رقيق (احتياط عسكريّ مسلّي) منتجاً مسحة قمريّة، تضيء لولب دخان التبغ المتكاثف في الهواء. ستائر كتيمة تحجبني عن ظلام باريس في الخارج. يبرز العنوان العريض من صحيفة تتدلّى عن مقعد الأريكة: «هتلر» يضرب «هولندا».

فوق الورقة أمامي كنت قد رسمت، في تلك الليلة في باريس، الرسم البيانيّ لوضعية أحجار المسألة: الملك فوق a7 (ما يعني الصف الأول، الرقعة السابعة)، الوزير فوق b6، القلاع فوق f4 وh5، الأفيال فوق e4 و h8، الأحصنة فوق d8 وe6، أما البيادق فوق b7 وg3؛ الأحجار السوداء: الملك فوق e5، القلعة فوق g7، الفيل فوق h6، الأحصنة فوق e2 وg5، البيادق فوق c3 وc6 وd7. تبدأ الأحجار البيضاء بالتحرك، وبحركتيْن فقط، يمكنها تهديد الملك «كش ملك». الفخ المضلّل، الحيلة التي لا تُقاوم: البيدق إلى b8، واصلاً إلى مستوى الحصان، تاركاً وراءه ثلاث طرق رائعة للرد، تهدّد كل منها الأحجار السوداء، التي بدورها يمكنها أن تدرأ الخطر الذكي المحيق، إن تركت ملاحقة البيدق، واستبدلتها بالتحرّك البطيء فوق مكان آخر من الرقعة. فوق إحدى زوايا الورقة التي رسمت فوقها الرسم البيانيّ، اكتشفت ختماً يزيّن أيضاً أوراق أخرى وكتب كنت قد حملتها معي من فرنسا إلى أمريكا، في مايو ١٩٤٠. إنه بصمة دائريّة بآخر لون من ألوان الطيف ـ البنفسجيّ. يظهر في وسطها حرفان كبيران R.F، بحجم «بيكا» (حرف مطبعيّ)، يعنيان طبعاً: الجمهورية الفرنسيّة. تظهر أحرف أخرى أصغر حجماً، تشكّل الكلمات التالية: «السيطرة على المعلومات». ولكن الآن فقط، بعد مرور كلّ تلك السنوات، وبعد الحصول على موافقة تلك السيطرة، أمكن للمعلومات التي أخفتها رموز الشطرنج خاصتي، بأن تُكشف أسرارها، وأخيراً، وعلى الملأ.



صورة لجواز سفر «Nansen»[1] التُقطت في «باريس»، خلال أبريل ١٩٤٠، لزوجة الكاتب «فيرا» وابنه «ديمتري» في عامه الخامس. بعد أسابيع عدّة، خلال مايو، انتهى الفصل الأخير من مرِحلة عيشنا في «أوروبا»، كما انتهى في هذا الكتاب أيضاً.

(١) نانسين: جواز سفر نانسين هو أول بطاقة هوية معترف بها دوليًا أصدرتها عصبة الأمم للاجئين عديمي الجنسية.

الفصل الخامس عشر

١

«واحسرتاه إنّ السنين تمرّ بنا سراعاً، سراعاً» ـ مقتبساً مرثيّة «هوراس» الحزينة. تمرّ السنين، يا حبيبتي، وعمّا قريب لن يعرف أحد ما نعرفه أنا وأنتِ. طفلنا يكبر؛ تموت ورود البيستوم، البيستوم الضبابيّة؛ الأغبياء المهووسون بالآلات يشوّهون ويتلاعبون بقوى الطبيعة التي، وكما يبدو، سبق أن تنبّأ لها علماء الريّاضيّات بذلك القدَر المفاجئ؛ ربما حان الوقت لنلتفت إلى لقطاتنا القديمة، إلى رسومات الطائرات والقطارات المنحوتة داخل الكهوف، وطبقات الألعاب المكدّسة في خزانة خشبيّة.

لنعد مرة أخرى إلى الماضي! إلى ذات صباح من عام ١٩٣٤، ولنعيّن بدقّة نقطة معيّنة من مخطّط منطقة في «برلين»! كنتُ هناك، عند الخامسة، عائداً إلى المنزل من مشفى الأمومة قرب «ساحة بايرسخر»، حيث اصطحبتك قبل ساعات قليلة. ظهرت صور «هيندنبرغ» و«هيتلر»، مزيّنة بزهور الربيع، في نافذة متجر للإطارات والصور الملوّنة. عصابات يساريّة من عصافير الدوري قد عقدت اجتماعات صباحيّة صاخبة بين أشجار الليلك والليمون. بزغ فجر رائق وبسط نوره فوق جهة واحدة من الشارع الخالي. في الجهة الأخرى، كانت البيوت لا تزال مخدّرة، بينما

بدأت ظلال طويلة بالظهور والتشابك تدريجياً، سامحة لضوء نهار جديد أن يعيد سيطرته على ما استولى عليه الليل، في مدينة منظّمة جداً، ومرويّة جداً، لدرجة أنّ رائحةُ الزفت الحادّة فوق أرصفة شوارعها، كانت تطغى على روائح النسغ السائل من أشجارها الظليلة؛ ولكنّ بالنسبة لي، بدا كل ذلك المشهد البصري جديداً، كمن يبسط مفرش طاولته ولكن بطريقة غير معتادة، إذ لم يسبق لي أن شهدت الفجر في هذا الشارع الاستثنائيّ، رغم أني، وقبل أن أصبح أباً، قد مشيت مراراً هناك خلال الأمسيات المشمسة.

في فراغ ونقاء تلك الساعة التي لم أختبر ما هو أغرب منها، بدتْ الظلال وكأنها تحاصر جهة الشارع الفاسدة، وتنقلب عليها ولكن بطريقة أنيقة، كما هو الحال عندما يكون أحدنا فوق كرسي الحلاقة ويرى فوق المرآة انعكاس النافذة التي يلتفت إليها الحلّاق الكئيب بين الفينة والفينة بينما يشحذ الموس (كما يفعل معظمهم)، الانعكاس الذي يؤطّر امتداد الرصيف حيث تمرّ مواكب من الأشخاص المطمئنّين الذين يمشون في الاتجاه غير الصحيح، نحو عالم تجريديّ، يتوقّف فجأة عن كونه مضحكاً، ليطلق العنان لسيل جارف من الرعب.

من عادتي كلّما فكّرت في حبي لشخص ما، أن أرسم مباشرة أشّعة، تبدأ نقطتها الأولى من قلبي، النواة الحنونة لمشاعري، وتنتهي عند أبعد نقاط وأكثرها نأياً في هذا الكون. هناك ما يدفعني لقياس إدراكي لمشاعر حبي بأشياء لا يمكن تخيّلها أو حتى إحصاؤها، سلوك السديم على سبيل المثال (الذي تبدو مسافة بعده ضرباً من الجنون)، مصائد الأبديّة المرعِبة، المعرفة المحدودة بما هو مجهول، العجز، البرد، التشابك والتداخل ما بين الزمان والمكان. أعرف أنها عادة خبيثة، لكن لا يمكنني فعل شيء حيالها. يمكن تشبيهها بحركة لا يمكن السيطرة عليها، يقوم بها ساهد حين، يحرّك طرف لسانه ليتفحّص شقاً بين أضراسه وينفث

ريقه من خلاله، ويستمر بذلك رغم جرحه للسانه. أعرف أشخاصاً حين يلمسون شيئاً عن طريق الخطأ ـ عضادة باب، جدار ـ فإنّهم يتبعونها بسلسلة من اللمسات السريعة جداً والمنهجيّة لأسطح مختلفة من الغرفة، قبل أن يعودوا إلى وجودهم المتوازن. إنّه مرضٌ لا شفاء منه؛ عليّ أن أعرف أين أقف، وأين تقفين أنتِ مع طفلي. عندما ينفجر داخلي الحب بصمت وبطء، كاشفاً حدوده الرقيقة ليغمرني بمشاعر أوسع، وأقوى وأكثر بقاءً من تراكم المادّة أو الطاقة في نظام كونيّ متخيَل، عندها لا يسع إلاّ أن يقرص نفسه ليتأكد ما إن كان مستيقظاً حقاً أم لا. يتحتّم عليّ إجراء جرد سريع لهذا الكون، كما يفعل رجل أثناء حلمه، حين يتغاضى عن تفاهة وضعه ليؤكّد حتمية كونه يحلم. لا بدّ لكلّ الفضاء وكلّ الزمن أن يكونا مشاركيْن في عاطفتي، في حبّي البشريّ، ليضعفا طبيعته الفانية، ويساعداني في محاربة التدهور المطلق، السخيف والمرعب، للمشاعر والأفكار اللامحدودة التي توسّعت ضمن وجودي المحدود.

وبما أنني، فيما يخصّ شؤوني الميتافيزيقيّة، غير تابع لأي اتّحاد، ولم أقم برحلات منظّمة إلى جنّات مجسّمة، فإنني، وبطريقتي الخاصة التي لا يُستهان بها، أفكر في أفضل الأشياء في هذه الحياة؛ عندما، كما أفعل الآن، أتذكّر قلقي أثناء وضعك لطفلنا، الذي جعلني أشعر وكأني أشاركك الآلام ذاتها. تذكرين الاكتشافات التي قمنا بها (والتي يُفترض أن كل من رُزق مولوداً قد قام بها): الشكل المثاليّ لأظافر يده المصغّرة التي أشرتِ لي بصمت كي أراها، ملقاة داخل راحتك، كأنها نجم بحر صغير قد تقطّعت به السبل؛ ملمس بشرة أطرافه وخدّيه الذي لفتِّ نظري إليها بصوت بعيد وخافت، كما لو أنّ نعومة الملمس لا يمكن أن يُحكى عنها إلى عبر مسافة ناعمة؛ تلك الزرقة القاتمة التي تسبح، تترأرأ، وتغور بعيداً في بؤبؤ عينيه، والتي تحمل أطيافاً قد تشرّبتها من الغابات القديمة والمذهلة، حيث العصافير أكثر من النمور، والفاكهة أكثر من

الأشواك، وحيث، داخل أعماقها المرّقطة، وُلد عقل إنسان؛ وفوق كلّ ذلك، إنها أوّل رحلة لطفل إلى بعده التالي، والاتصال الأول ما بين عيونه والعالم الملموس، الذي يظنّ علماء الإحصاء الحيويّ غير الخبيرين، والعاملون في مخابر فئران التجارب، أنهم يستطيعون تفسيره. تبيّن لي أن أقرب تصوير يمكن الحصول عليه لولادة ذهن، هو ومضة الدهشة التي تخترقنا في لحظة معيّنة، حين، وخلال تحديقنا لتشابك بين الأغصان والأوراق، ندرك فجأة أن ما بدا لنا مكوِّناً طبيعياً لهذا التشابك، لم يكن سوى حشرة أو طائراً مقنّعاً.

وهنالك أيضاً متعة حيويّة (بعد كل شيء، ما الذي يمكن للعلم أن ينتجه؟) في حلّ لغز التفتّح الأوّليّ لعقل الإنسان، من خلال افتراض توقّف حسّي لنموّ باقي الطبيعية، لنقل تكاسل وبطء قد سمح بتشكيل بادئة التأليف الشعريّ، التي لولاها ما كان للإنسان العاقل أن يتطوّر تدريجياً. إنّه حقاً «صراع من أجل الوجود»! لعنة تلك المعركة وذلك الكدّ، يعود بالإنسان إلى مستوى الخنازير، الذين يسعون بهوس جنونيّ وراء لقمة عيشهم. كثيراً ما كنّا أنا وأنتِ نلاحظ وميض الجنون الذي يظهر في العينيْن الماكرتيْن لربّة منزل، عندما تجولان فوق رفوف الأطعمة عند بقّال، أو فوق مشرحة جزّار. يا أيها الكادحون حول العالم، تفرّقوا! الكتب القديمة مخطئة. لقد صُنع هذا العالم في يوم الأحد.

٢

طِوال سنوات طفولة ابننا، التي قضيناها في ألمانيا «هيتلر» أو فرنسا «ماجينو»، كنّا في حالة عوز شبه دائمة، ولكن بعض أصدقائنا الرائعين قد ضمنوا حصوله على أفضل الأشياء المتاحة. ورغم عجزنا، أنا وأنتِ، عن القيام بأي شيء تجاه الأمر، إلاّ أننا اشتركنا بمراقبة طفولته بأعيننا

الغيورة كي لا يوجد بينها وبين ماضي حياتنا المترف أي صدع يمكن لأي اختلاف أن يمرّ من خلاله. وهكذا صنعنا أقدارنا الوديّة، في كل مرّة رتقنا الصدع المهدد بالتشقّق. كما أنّه في تلك الحقبة، كان علم تربية الأطفال قد أحرز التقدّم الهائل والمنظّم ذاته، الذي أحرزته علوم الطيران والحراثة ـ أنا مثلاً، في شهري التاسع من عمري، لم أكن أحصل على رطل من السبانخ المصفاة في زجاجة رضاعتي أو حتى عصير عشرات حبّات البرتقال في يوم واحد؛ كما أن المنتجات الخاصّة بالنظافة التي اعتمدتِها لطفلنا، كانت على مستوى من الفنّ والدقة ما يجعلها غير قابلة للمقارنة مع أي منتج حلمت به مربياتنا عندما كنّا أطفالاً رضّعاً.

أظن أن آباء الأمس البرجوازيين، ذوي الياقات المقلوبة والسراويل المخطّطة، المفعمين بالكرامة، الذين ينجزون كلّ أعمالهم ضمن مكاتبهم، ويختلفون جداً عن الجيل الشاب من «قدامى المحاربين» الأمريكيين، أو عن الروسيّ العاطل عن العمل، السعيد، والمغترب عن بلده ما يزيد عن خمسة عشر عاماً، أظنّهم، أولئك الآباء، لن يفهموا سلوكي مع طفلنا. كلّما كنتِ تحملينه في حضنك، بشكله الصارم صرامة صنم، وقرقرة حلقه وهو يبتلع دفء غذائه، وكلّما انتظرتِ تلك الإشارة اللبنيّة التي تجعل أمّاً تحوّل وضعية رضيعها من رأسيّة إلى أفقيّة، فإني كنت أشارك في كلا الهمّين: انتظارك وتخمته، وربما أكون قد غاليت في قلقي، لدرجة أنني كنت أنزعج من رؤيتك مبتهجة عند تجشؤه السريع الذي ظننته اختناقاً مؤلماً؛ وأخيراً، عندما تنفجر فقاعة متخثّرة داخل فمه الرصين، كنت أختبر معك ذلك الشعور المريح المبهج، حين كنتِ تتمتمين بالتهنئة، بينما تنحين لتضعيه في مهده الأبيض، المحاط بنور الشفق.

أتعلمين! لا يزال معصماي حتى اليوم يتذكّران كيف كانا يجرّان عربته، على سبيل المثال، ذلك الضغط نحو الأسفل لمقابض العربة بعد

إمالتها قليلاً، بغاية رفعها فوق الرصيف. في البداية، كانت له عربة رمادية متقنة، بلجيكيّة الصنع، مع عجلات مرتدّة كتلك الخاصّة بالسيارات، ونوابض فاخرة، وكان حجمها أكبر من أن يسع في مصعدنا الضيّق. دارت عجلاتها فوق الأرصفة بسحر بطيء ومهيب، مع طفل قد وقع في أسرها، مستلقٍ بكسل، ومغطىً على نحو جيّد، بالحرير والفراء؛ لم يكن فيه ما يتحرّك سوى عيناه، وبحذر؛ وأحياناً، وبرقّة مفاجئة لرموشه الرائعة، كان يرفعهما للأعلى، ليتتبع زرقة السماء ورؤوس الأغصان التي تتراجع ليتوالى غيرها، والتي كانت تظهر من الغطاء نصف المفتوح لعربته، ثمّ بعد ذلك، يلتفت إلى وجهي بنظرة يملأها الشك، ليتأكّد، ما إن كانت تلك السماء المزعجة والأغصان، تنتمي لعالم الخشخيْشات ذاته، الذي ملأه والداه بروح الدعابة. ثم جاءت عربة أخرى أخفّ وزناً، وفيها، عندما كنّا نجرّه، كان يحاول النهوض ممسكاً بأحزمتها، متشبّثاً بحوافها؛ ثم ينتصب، بفرح يشبه فرح راكب مترنّح فوق قارب مخصّص لرحلات المتعة والمرح، أكثر مما يشبه بهجة عالِم داخل سفينته الفضائيّة؛ كان يتفحص الخيوط المجدولة لهذا العالم الحَيويّ والدافئ؛ يحدّق باهتمام فلسفيّ في الوسادة التي تمكّن من رميْها عن متن عربته؛ كما تمكّن من رمي نفسه منها ذات مرّة، حين فُتق أحد أحزمتها. ثم لاحقاً ركب فيما يُسمى عربات أطفال صغيرة؛ ومن العربات المرتفعة ذات الأغطية والنوابض الآمنة، تحوّلت مركباته إلى ما هو أخفض فأخفض، حتى جاء ذلك اليوم، وكان له من العمر سنة ونصف، حين تمكّن من لمس الأرض عندما انزلق قليلاً أثناء جلوسه فوق العربة الصغيرة المتحرّكة، ليضرب الرصيف الجانبيّ بكعبيْه الصغيريْن، متوقّعاً أن يتمّ الافراج عنه، ليترجلّ طليقاً ويلعب في الحديقة العامّة. ثم بدأت مرحلة جديدة وتدريجيّة من تطوّر نموّه، وكان عليّ في عيد ميلاده الثاني أن أرفع ثقله ببطء عن الأرض، لأضعه في سيارة سباق

«Mercedes» تلقّاها كهديّة، بطولها البالغ أربعة أقدام، ولونها الفضيّ، والتي تديرها دوّاسات داخليّة، كتلك الخاصّة بأرغن، فبدأ يذرع بها رصيف شارع «كورفورستادمن» جيئة وذهاباً، ضاغطاً فوق بوقها، بينما ينطلق من النوافذ المفتوحة الهدير المزعج لخطاب الديكتاتور، الذي كان لا يزال يضرب على صدره في وادي هولندا، والذي كنا قد تركناه ورحلنا بعيداً جداً.

قد يكون من المجزي دراسة جوانب التطوّر الجينيّ لشغف الأطفال الذكور بكلّ ما له عجلات، وخاصة قطارات السكّة الحديديّة. بطبيعة الحال، نحن نعرف ما هو رأي «دجّال فيينا»[١] بالموضوع. فلندعه وأتباعه يكملون رحلتهم الفاشلة، داخل عربة أفكار من الدرجة الثالثة، عبر الدولة البوليسيّة للأسطورة الجنسيّة (بالمناسبة، من أكبر جرائم الديكتاتوريّين هو إهمالهم للمحلّلين النفسيين، إذ أمكنهم بتلك الطريقة إفساد جيل كامل وبكلّ سهولة). النموّ السريع، القفزات الفكريّة، الدورة الدمويّة المندفعة فيما يشبه قطار الملاهي ـ كلّ أشكال الحيويّة هي أشكال للسرعة، ولا عجب إن رأينا طفلاً أثناء نموّه، يرغب في الخروج عن طبيعة الطبيعة، بملء الحدّ الأدنى من الزمن، بالكمّ الأقصى من الاستمتاع المكانيّ. أكثر ما يُسعد الإنسان هو تلك المتعة الروحيّة التي يستمدّها من إمكانيات مقاومته للجاذبيّة والتحكّم بها، أي سحب القوّة من الأرض وإعادة إنتاجها. وبالنظر إلى تلك الظاهرة المتناقضة الخارقة للأجسام المستديرة والملساء التي تغزو الفضاء من خلال اندفاع بسيط مرّة تلو المرّة، بدلاً من رفع أطرافها الثقيلة بشقّ الأنفس من أجل إحراز تقدّم، فلا بدّ لها من أن تقدّم للأجيال البشريّة الشابة، صدمة نافعة. الطريقة التي حدّق بها الإنسان البدائي في شعلة النار بينما كان مقرفصاً

(١) دجال فيينا: يقصد به سيغموند فرويد.

بفخذيْه العاريَيْن، أو في النيران التي كانت تتوغل في الغابات بحزم، قد أثّرتْ، دون علم «لامارك»[1] على ما أعتقد، في اثنيْن أو ثلاث من الكروموزومات التي ورثها علماء الوراثة الغربيون، والتي جعلتهم، وبنفس الطريقة، يميلون إلى التحديق في مسألة أكثر من التفكير في تفسير أبعادها، كما يفسرها علماء الفيزياء المحترفون؛ لأنّ كلّ بعد يفترض مسبقاً وجود بيئة يمكنه التحرّك من خلالها، وإن حدث، ضمن الدوامة التي تدور داخلها الأشياء، أن التفّت دائرة المساحة فوق دائرة الزمن، التي بدورها تلتفّ فوق دائرة الأفكار، فعندها بالطبع سيتولّد بعدٌ آخر ـ ربما فضاء استثنائيّ، ليس كالقديم الذي نعرفه، ما لم تتحوّل الدوامات مرة أخرى إلى حلقات مفرغة.

ولكن مهما كانت الحقيقة، فإننا أنا وأنت لن ننسى، وسنبقى ندافع للأبد، فوق أي ساحة معركة كانت، عن الجسور التي بقينا عندها مع ابننا لساعات طويلة (بأعماره المتلاحقة بين سنتيْن وست سنوات) منتظرين أن يمرّ القطار تحتها. كنت قد رأيت أطفالاً أكبر سناً وأقلّ سعادة، ينحنيان فوق الجسر عند مرور القطار ليبصقا فوق كومة الدخان المتكاثفة، ولكن علينا أن نعترف أنا وأنتِ، أن الطفل الطبيعي بينهم هو من توصّل لمفهوم البراغماتيّة، ولم يدع هذا التمحيص ليذهب سدى دون أن يعطيه نشوة غامضة. حتى أثناء العواصف، لم تلجأي لأية حجّة لاختصار ساعات الانتظار الطويلة تلك فوق الجسور أو التملّص منها، حيث كان ابننا ينتظر بكل تفاؤل وصبر لا يعرف حدوداً، سماع صافرة، وتزايد حجم قاطرة واصلة من مسافة بعيدة، إلى أن تصل نقطتها حيث تلتقيِ كل السكك الحديديّة، بين خلفيّات البيوت التي لا نوافذ لها.

(١) جان باتيست لامارك: ١٧٤٤ ـ ١٨٢٩ عالم هو عالم فرنسي متخصص في علم الأحياء والنبات، أصبح من الأوائل الذين اقترحوا نظرية تطور علم الأحياء.

ارتدى في الأيام الباردة معطفاً من جلد الخراف، وقبّعة مماثلة، وكان كلاهما بنّي اللون مرقّشاً بالرماديّ الخفيف، تلك الملابس، مع القفازات، وإضافة إلى حماسة إيمانه، هي ما أبقته متوهّجاً، وأبقتكِ أنت أيضاً دافئة، إذ كان كلّ ما عليك فعله لتمنعي أصابعك الرقيقة من التجمّد، هو أن تحملي إحدى يديْه وتنقلينها من يمناكِ إلى يسراك، كلّ دقيقة أو أكثر، متعجّبة من إمكانية جسد طفل كبير، على توليد هذا الكمّ الذي لا يُصدّق من الحرارة.

٣

إضافة إلى أحلام السرعة، أو ما يرتبط بها، فإن في كلّ طفل رغبة إنسانيّة أساسيّة بإعادة تشكيل الكوْن، أو التأثير بمحيطه الهش (مالم يكن ماركسيّ المولد، أو جثة، وينتظر بوقاحة أن يتحرّك المحيط لأجله). هذا ما يفسر سرور طفل عند الحفر، أو إنشاء الطرق والأنفاق للعبه المفضّلة. كان لدى ابننا نموذج مصغّر للدراجة النارية «بلوبيرد» الخاصّة بـ«مالكوم كامبيل»[١]، بإطارات منفصلة من الفولاذ المطليّ، وكان دون تعب أو توقف، يلعب بها فوق الأرض، وكانت الشمس تحيط شعره الأشقر الجميل والطويل بهالة نورانيّة، وتصبغ بلون الكاراميل جلده ظهره العاري، الذي تتقاطع فوقه حمّالات سرواله القصير الأزرق الداكن (والتي حين نزعناها عنه، بدت العلامات البيضاء تحتها، وكأنها تربطه برسن). خلال حياتي كلّها، لم أجلس فوق العديد من كراسي ومقاعد الحدائق، الألواح والدرجات الحجريّة، حواجز الشرفات وحواف أحواض النوافير، كما فعلت هاتيك الأيام. أحراش الصنوبر المكتظة

(١) مالكوم كامبيل: ١٨٨٥ ـ ١٩٤٨، بطل سباقات ركوب دراجات إنكليزي.

بالزائرين، والمحيطة ببحيرة في غابة «غرنيفالد» في «برلين»، لم نزرها إلا قليلاً. وكنتِ تتساءلين كيف يُمكن لمكان أن يُطلق عليه اسم غابة في حين تملأه النفايات، وتنتشر فيه حاويات القمامة أكثر مما تفعل في الشوارع اللامعة، الفخمة، الخاصّة بالمدينة المجاورة. أمور غريبة ومثيرة للفضول كانت تظهر في «غرينفالد» تلك. منظر لسرير حديديّ يعرض تشريحاً لرفّاساته في منتصف فرجة في الغابة، حيث يستلقي تمثال أسود لعرض الملابس (منكين) تحت شجيرة زعرور برّي مزهرة، يدفع أحدنا للتساؤل عمّن تكبّد عناء حمل تلك الأشياء وغيرها من الأغراض المتبعثرة هنا وهناك، إلى هذه النقطة من الغابة غير المطروقة. مررت مرّة أمام مرآة ذات واجهة مشوّهة ولكن يقظة لكلّ ما يمرّ أمامها، تملؤها انعكاسات الغابة الثملة، وكأنها خليط، إن جاز التعبير، بين الجعة ومشروب الـ«شارتروز»، تتكئ، بجزالة سرياليّة، على جذع شجرة. ربما كان اقتحام أماكن الترفيه الخاصّة بعامّة الشعب، رؤيةً مجزّأة لفوضى قادمة، كابوساً يتنبأ بانفجارات مدمّرة، شيئاً ككومة الرؤوس المقطوعة، التي تنبّأ بها «كاغليوسترو»(١)، متراكمة في خندق محفور أمام بوابة حديقة ملكيّة. وكلّما اقتربنا من البحيرة، وخاصة في أيام الآحاد، يكون المكان متخماً بأجساد عارية على مستويات مختلفة، تنعم بحمّام شمس. وحدها السناجب وبعض اليرقات قد بقيت مرتدية معاطفها. جلست ربات المنازل بسراويلهنّ الداخلية فوق الرمل الرماديّ الأملس الذي غمرن به أقدامهن العارية؛ رجال مقرفون بأصواتهم الشبيهة بصوت الفقمات، وسراويل سباحة يكسوها الطين، يقفزون حولهّن فرحين؛ فتيات بجمال ملحوظ ولكن غير معتنىً به البتّة، قد ولدْن بعد سنوات قليلة ـ في بداية عام ١٩٤٦ على وجه الدقّة ـ قطيعاً غير مرغوب به من الأطفال الذين

---

(١) آليساندرو كاغليوسترو: ١٧٤٣ ـ ١٧٩٥. ساحر، مشعوذ ومتنبئ إيطالي.

يحملون في عروقهم البريئة الدم التركيّ والمانغوليّ، كنّ هناك يركضن، وتتم ملاحقتهن، ليُضربن في نهاية المطاف فوق مؤخراتهن (وعندها يبدأن بالصراخ: «أوه، واو!»)؛ اللهاث الصادر من تلك اللعوبات تعيسات الحظّ، ورائحة ثيابهنّ الملقاة أرضاً (مبعثرة هنا وهناك) اختلطت مع نتانة المياه الآسنة هناك، لتشكّل جحيماً من الروائح لم يحدث لي، بطريقة أو بأخرى، أن شممت ما هو شبيهاً لها في مكان آخر. لم يكن مسموحاً للناس داخل الحدائق العامة في «برلين»، أو في متنزهات المدن، بخلع ملابسهم؛ ولكن كانت تمكن رؤية شبان من الواضح أنهم شماليون، قد حلّوا أزرار قمصانهم، وجلسوا فوق المقاعد مغمضين الأعين، معرّضين نمش صدورهم وجبهاتهم، للعمل الوطني والمصادق عليه، الذي تقوم به الشمس. يمكننا أن نعزو رعب الاشمئزاز، وربما المبالغ فيه، من كلّ تلك المشاهد، إلى خوفنا المستمر من أن ينشأ طفلنا في عالم ملوّث كهذا. لطالما كرهتِ الفكرة المبتذلة التي لا تخلو من الجهل، والتي تقول أن على الصبية الصغار كي يكونوا مبهجين ومحبوبين، أن يحملوا في ميولهم كرهاً لغسل الأيدي وحباً للقتل.

أودّ أن أتذكّر كل الحدائق الصغيرة التي زرناها؛ أودّ أن أمتلك قدرة البروفيسور «جاك» من مشتل «أرنولد أربوريتوم» في جامعة «هارفارد»، التي أخبر تلاميذه عنها، والتي تمكّنه من تحديد نوع الأغصان، مغمض العينيْن، من خلال صوت حفيف أوراقها حين يضربها الهواء («شجيرات الشرد، صريمة الجدي، الحور الأسود. أوه ـ مخطوطة عفا عليها الزمن). يمكنني بالتأكيد، في كثير من الأحيان، تحديد الموقع الجغرافي لحديقة أو لأخرى من خلال سمة معيّنة أو مجموعة من السمات: نبات «الشمشير» الذي يحدّ ممرات الحصى الضيّقة، مشكّلاً صفوفاً تقابل بعضها بعضاً وكأنها شخصيات مسرحيّة؛ مقعد أزرق وطيء مواجه سياج من «الطقسوس»، منمّق على شكل مكعّب؛ مسكبة مربعة تحوي وروداً،

مؤطّرة بسياج «رقيب الشمس» ـ كل تلك الميزات ترتبط، بطريقة غير قابلة للجدل، بالساحات الصغيرة عند مفترقات الطرق، في ضواحي «برلين». أما وجود مقعد معدني رقيق مع ظل عنكبوتيّ يمتد قليلاً تحت إحدى جهاته انطلاقاً من المركز، أو وجود مرشّة ماء دوّارة، متباهية على نحو دمث رغم أعراضها السيكوباتيّة، مع قوس قزح خاص يتدلى من رذاذها المتساقط فوق العشب اللامع، فإن ذلك لا بدّ إحدى خصائص المتنزهات الباريسيّة؛ ولكن، كما ستفهمين جيّداً، كانت عين ذاكرتي مركّزة بقوّة على جسد طفل صغير يجلس القرفصاء (يحمّل شاحنته اللعبة بالحصب، أو يتأمّل مليّاً خرطوم البستانيّ المطاطيّ، الرطب واللامع، الذي يزحف نحو الحصى الصغيرة فتلتصق فيه) في حدائق مختلف الأمكنة ـ «برلين»، «براغ»، «فرانزنسباد»، «باريس»، «الريفييرا»، «باريس» مجدّداً، «كاب دانتيب»، وغيرها، التي تجتمع فيها كل الأوراق الميتة، وتماثيل كل الجنرالات الذين فقدوا سلطتهم، حيث تشتبك كل المسارات، لتتضافر في اتحاد الظلال والضياء، سامحة لأطفال رشيقين عراة الركب، بالتزحلق فوق مزاليج ذات عجلات تصدر صريراً.

بين الحين والآخر، يساعد جزء صغير من خلفيّة تاريخيّة معروفة في تحديد مكان ما، ويساعد في استبدال الخصائص المرتبطة به، باقتراحات الرؤية الشخصيّة. كان طفلنا على وشك بلوغه عامه الثالث، خلال ذلك اليوم العابق بالنسيم في «برلين» (حيث لا يمكن للمرء أن يتجنّب اعتياده على رؤية صور الـ«فوهرر» في كل مكان) حين وقفنا، أنا وهو، أمام مسكبة من أزهار الـ«بانسي» الباهتة، التي تظهر فوق بتلاتها المقلوبة، لطخة قاتمة تشبه الشنب، ولكم ضحكنا من دعابتي السخيفة، حين شبّهتها بحشد لعدةّ عيّنات صغيرة من «هتلر» حين يخطب منفعلاً. وكذلك يمكنني تسمية حديقة مزهرة في «باريس»، باعتبارها كانت المكان الذي لاحظت فيه، ربما عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩، فتاة هادئة بعمر

العاشرة تقريباً، مع وجه خالٍ من التعبير، وكانت تبدو بملابسها الرثّة، الكالحة، والتي لا تناسب الفصل ذاته، وكأنها قد هربت من دار أيتام (بشكلها ذاته، لمحتها لاحقاً مرّة أخرى، تمشي مدفوعة براهبتيْن تجريان وراءها)، وكانت قد ربطت ببراعة فراشة حيّة إلى خيط مغزول، بدا وكأنه مقود خاص بالجنّيات، يطوف بتلك الحشرة الجميلة، ضعيفة الرفرفة، مشلولة الحركة إلى حدّ ما، ويأخذها في نزهة (هذا المقود، كمنتج ثانويّ، قد يكون قد استهلك منها الكثير من التطريز بالإبرة أثناء مكوثها في دار الأيتام). كثيراً ما قمتِ باتهامي بإظهار قسوة لا داعٍ لها حين أواجه أمراً يخصّ استقصاءاتي الحشريّة أثناء رحلاتنا إلى «البرانس» او «الألب»؛ ولكن في حقيقة الأمر، حين حاولت صرف نظر ابننا عن تلك المدعوة «تاتيانا»، إن افترضنا أن اسمها هو كذلك، فإن ذلك لم يكن بسبب شفقتي على فراشة «Red Admirable» (وتلفظ «Admiral» باللهجة العامة) بل لأن تسليتها الشريرة تلك، كانت ترمز إلى مفهوم بغيض ومثير للاشمئزاز. في الواقع، ربما تكون قد ذكّرتني بالخدعة البسيطة وقديمة الطراز، التي اعتمدها رجال الشرطة الفرنسيّون آنذاك ـ ولا يزالون، دون أدنى شك ـ حين كانوا يقتادون إلى المخفر في زحام أيام الآحاد، أحد العمال ذوي الأنوف الحمراء، بعد أن يغرزوا صنارة صيد في لحمه العاري، الحساس، وسريع الاستجابة، ليحوّلونه إلى عبد منصاع ووحيد، ينفّذ أوامرهم دون اعتراض. لقد بذلنا قصارى جهدنا، أنا وأنتِ، لنحيط حنان طفلنا الواثق بحناننا اليقظ، ولكن كان لا بد من مواجهة حقيقة أمر، ألا وهو أن القذارة التي خلّفها البذيؤون فوق رمال الحدائق والمتنزهات، كانت أقل خطورة من الجرائم المحتملة، وأن الفظائع التي نبذتها ذهنياً الأجيال السابقة، والتي كانت تجري في بلدان نائية يحكمها «خان» أو «ماندراين»، ما هي إلا أمور قد أصبحت محيطة بنا.

مع مرور الوقت، واستمرار التاريخ الذي صنعه الحمقى بإفساد حتى

دقة المزولة، ازداد تنقلنا بلا هوادة بين الدول الأوروبيّة، بدا أننا لم نكن نحن من يسافر، بل تلك الحدائق والساحات هي من فعلتْ. كلّ الجادات المشعّة الخاصة بنا، والرياض المتشابكة، قد تركناها وراءنا كالمقطورات التي انحرفت عن مسارها. في «براغ»، التي سافرنا إليها لنأخذ طفلنا إلى والدتي كي تراه، عام ١٩٣٧، كان هنالك حديقة «ستروموفكا»، حيث يشعر المرء بما هو أكثر من مجرّد تعريشات مصنوعة بيد الإنسان، إنه جو من الحريّة يسود مساحاتها الخضراء المتموّجة والنائية. ستذكرين أيضاً تلك الحدائق الصخريّة التي تحوي نباتات «الألب» ـ «سدم» و«كاسر الحجر» ـ والتي رافقتنا، إن جاز التعبير، إلى «سافويا الألب»، وانضمّت إلينا في عطلة (دُفعت كلفتها من بعض كتبي التي تمت ترجمتها) ثم تبعتنا مرة أخرى نحو مدن السهول. أيدِ خشبية مغلولة إلى جذوع الأشجار في الحدائق القديمة الخاصة بالمراكز العلاجية، كانت تشير إلى الاتجاه الذي يصدر منه ضجيجاً خافتاً لفرقة موسيقيّة. يمتدّ ممشى مميّز على طول ممر العربات الرئيسيّ؛ رغم أنه لم يكن موازٍ لكلّ جهاته، ولكن دلّ عليه بكل طواعية، وعندما وصل إلى بركة البطّ أو نافورة الزنابق، اجتازهما ليعود للانضمام إلى موكب الأشجار هنا أو هناك، حيث كانت المدينة قد تبنّت أباً روحياً لها وكرّست تبجيله من خلال نصب تذكاريّ. الجذور، جذور الخضرة التي أتذكرها، جذور الذاكرة والنباتات المرّة، الجذور، بكلمة واحدة، لا تستطيع التغلب على بعض العواقب كي تمتدّ حتى مسافات بعيدة، غير قادرة على اختراق جذور أخرى وحشر نفسها في شقوق ضيّقة. لذا كان على تلك الحدائق ـ حدائق ذاكرتنا ـ والمتنزهات أن تسافر معنا أينما حللنا في أوروبا الوسطى. التقت مسارات الحصى وتوقفت عند دوّار، لتشاهدَنا، أنا أو أنتِ، ننحني ثم نقف، لنبحث عن طابة تحت تحويطة شجيرات، حيث لم نجد فوق التربة الرطبة والقاتمة، سوى تذكرة ترام بنفسجيّة اللون، مثقوبة، وقطعة صغيرة من شاش ملوّث وقطن مانع

للتسرب. التفّ مقعد دائريّ حول جذع سنديانة سميك ليرى من الذي يجلس في الجهة المقابلة، فوجد رجلاً عجوزاً كئيباً يقرأ صحيفة بلغة أجنبيّة، وينكت أنفه. أوراق لامعة لأشجار دائمة الخضرة تحيط بالمرج الذي اكتشف ابننا فوقه، ولأوّل مرّة، ضفدعاً حيّاً، يقتحم مساحة «توبياريّة»(١) مشذّبة بإتقان بارع، وقد قلتِ حينها إنك تعتقدينها ستمطر. في مراحل أبعد، وتحت سماوات أقلّ تجهّماً، كان يسري عرض فاتن للورود وقد تفتّحتْ في الوديان، وشجيرات الممرات وقد تشابكت، أما التعريشات فقد زحفت متماوجة، وأصبحت جاهزة للتحوّل إلى كروم ترتفع فوق ظلائل عامودية إن أعطيتْ فرصتها، وإن لا، فإنها ستكشف عن أغرب مراحيض عموميّة، سقيفة رثّة تشبه الكوخ، ذات نظافة مشكوك بأمرها، تعتني بها امرأة بملابس سوداء، تجلس فوق الشرفة وتحيك ثياب سوداء.

أسفل المنحدر، كان ممرّ مرصوف يمشي بحذر، متقدّماً بالقدم ذاتها في كلّ مرّة، عبر حديقة يملأها زهر السوسن تحت شجر الزان؛ ثم تحوّل إلى مسار ترابيّ سريع، طُبعت فوقه آثار حوافر حصان. يبدو أن الحدائق والمتنزهات قد تحركت بسرعة أكبر من تلك التي تطلبتها سيقان ابننا لتصير أطول، وعندما قارب الرابعة من عمره، حوّلت الأشجار والأجمات المزهرة اتجاهها صوب البحر. وكما يقف ناظر محطة وحيداً ضجراً فوق رصيف محطة صغيرة تنطلق قطاراتها مسرعة ولا تتوقف أبداً، فإن حارس المتنزه الأشيب هذا أو ذاك، قد ابتعد مع ابتعاد المتنزه نحو الجنوب، الذي حملنا نحو أشجار البرتقال والقطلب، وبراعم الميموزا المخمليّة، وطبقة سماء كعجينة طرية، لا تشوبها شائبة.

حدائق متدرّجة فوق التلال، تعاقبٌ من المصطبات التي تقذف عند كل درجة حجرية جندباً سعيداً، يتدحرج من حافة إلى حافة وصولاً إلى البحر، عابراً أشجار الزيتون والدفلى، التي بدت متهاوية بسرعة فوق

---

(١) فن توبياريّ: أحد فنون البستنة.

بعضها البعض، وكأنها في سباق لرؤية الشاطئ. هناك ركع طفلنا وبقي بلا حراك لتلتقط له صورة في ضباب الشمس المرتعش أمام تلألؤ البحر، وقد ظهر كغشاوة حليبيّة في لقطات الصور الذي حفظناها، ولكن في الحقيقة، كان أزرق فضّياً، مع بقع بعيدة من الأزرق الأرجوانيّ، سببتها تيارات دافئة (أتسمعين صوت الحصى تلفظها الأمواج فوق الشاطئ؟) تدعمها وتؤيدها بلاغة الشعراء القدماء، واستعاراتهم الباسمة. وبين قطع الزجاج الملوّنة التي قذفها البحر، والتي تشبه قطع الحلوى الصغيرة ـ ليمون، فراولة، نعناع ـ والحصى المخطّطة، والأصداف المخدّدة من خارجها والمصقولة من داخلها، تظهر أحيانا كسراً صغيرة من الفخار التي لا زالت مطليّة، ملساء وجميلة. كانت تُجلب إلينا، أنا وأنتِ، كي نتفحّصها؛ فإن كانت مزخرفة بأوراق الشجر، أو تحمل رسوماً ذات خطوط نيليّة، أو أي شكل من أشكال الرموز المرحة، وُحكم عليها بأنها قيّمة، فإنها بنقرة رفش تخل إلى دلو اللعب، وإن لا، فإن صوت غطسها في الماء، هو وحده ما يدل على إعادتها إلى البحر. من دون أدنى شك، كان يوجد بين تلك الرقائق الخزفيّة المحدّبة التي وجدها ابننا، ما كانت حوافه تحمل زخرفة ملولبة، تتطابق مع نمط زخرفة القطعة التي وجدتها عام ١٩٠٣ فوق الشاطئ ذاته، وقطع ثلاث أخرى تتطابق مع ما عثرت عليه والدتي عام ١٨٨٢ فوق شاطئ «مونتون»، وأخرى رابعة من كسر الفخار وجدتها والدتها قبل مائة عام ـ وهكذا، وكأن تلك المجموعة التي حفظها البحر، قد وُضعت جميعها الآن، لتقدم الشكل الكامل، شديد الكمال، لجرّة قد كسرها طفل إيطاليّ، وحده الله يعرف أين ومتى، وها هي الآن مرقّعة بدُسر برونزيّة.

عدِنا إلى «باريس» في منتصف عام ١٩٣٩، وحوالي ٢٠ مايو من العام اللاحق، عدنا قريباً من الشاطئ، ولكن هذه المرة إلى الساحل الغربيّ من فرنسا، إلى «سانت نازير». وهناك، أنا وأنتِ، مع ابننا بيننا وكان قد بلغ السادسة، مشينا عبر حديقة صغيرة في طريقنا نحو أحواض

السفن، حيث انتظرتنا سفينة «شامبلين»، وراء المباني التي كانت تواجهنا، لتقلّنا إلى «نيويورك». كانت تلك الحديقة تُدعى، باللفظ الفرنسيّ الصوتيّ «سكوار skwarr»، أما بالروسيّ فهي «سكيير skver»، ربما لأنها من النوع الذي يتواجد عادة بالقرب من الساحات العامّة في إنكلترا. ممتدّة فوق حدود الماضي الأخيرة ومشرفةً على أفق الحاضر، تبقى تلك الحديقة في ذاكرتي مجرّد تصميم هندسيّ، كنت لأتمكّن من ملئه، من دون شك، بألوان أزهار معقولة، لو أني منذ البداية كسرت صمت ذاكرتي النقية دون أن أبالي بإزعاجها، وأصغيت لها جيّداً (باستثناء بعض الطنين العرضي في أذنيّ، بسبب ضغط دمي المتعب). ما أذكره عن التصميم المحايد لتلك الحديقة المزهرة، هو توافقه البارع والموضوعي مع الحدائق المتنزهات عبر البلدان الأطلسيّة؛ حين وصلنا فجأة إلى نهاية مسارها، رأينا أنا وأنتِ شيئاً لم نلفت انتباه طفلنا إليه مباشرة، كي نحصد متعة كبيرة بصدمته السعيدة، المرحة والساحرة، التي سيختبرها عند اكتشافه النموذج العملاق الحقيقيّ، البعيد عن واقعه، لمختلف السفن التي كان يلعب بها أثناء استحمامه. هناك، أمامنا، حيث يمتد صفٌ من البيوت المتداعية بيننا وبين الميناء، وحيث كانت العين محاصرة بكلّ أشكال التمويه، كسروال داخلي بلونه الأزرق الشاحب والوردي يرقص «cakewalk» فوق حبل الغسيل، أو قطة مخطّطة تجاور بغرابة دراجة سيدة فوق شرفة بدائية حديديّة، كان الأمر أكثر من ممتع، حين لاحظنا بين تلك الزوايا العشوائيّة للجدران والأسطح، مدخنة سفينة باهرة، تبيّن لنا من وراء حبل الغسيل كما لو كانت في صورة لغز ـ «البحث عن خبايا البحار» ـ أننا لن نستطيع أبداً تجاهل ما قد رأينا، بعد أن رأيناه.

النهاية

الفهرس

هذا الكتاب

«... هناك ليال يحدث لك فيها أنك ما إن تنام، حتى يطيرُ بك السرير نحو روسيا» هذه العبارة هي سطر من قصيدة كتبها فلاديمير نابوكوف الذي عُرف دائماً بأنه أكثر الكتّاب الأجانب أميركيّة، إلى درجة اعتقد معها الملايين من قراء رواياته أنه نسي روسيا تماماً... لكن من قرأ واحداً من أجمل كتب نابوكوف، وهو سيرته الذاتية التي وضع صيغتها للمرة الأولى عام ١٩٤٧ ثم عاد وطبعها وعدلها، مضيفاً إليها بعد ذلك، سيكتشف بكل يسر وهدوء أن نابوكوف لم يهجر روسيا أبداً... بل حملها معه حيثما حل وارتحل.

إبراهيم العريس

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922901381

9 789922 901381